أبنـاء النـور عبـر العصـور

إعداد

قسم البحوث الروحية في الضحى

جاء النور إلى العالم

فأحب الناس الظلمة أكثر من محبتهم للنور

(إنجيل يوحنا)

"... ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور" (النور 40)

أبناء النور عبر العصور

إعداد قسم البحوث الروحية في الضحى

الإخراج الفني وتصميم الغلاف: شركة لوغوس ميديا L'ogos Media. Tel.: 05/801756(7)

الضحى على الإنترنت: http://www.druzenet.org/

إهـداء

إلى كل الباحثين عن الحقيقة بسراج العقل بين صفحات كتاب الكون وما بين الكاف والنون

إلى كل المؤمنين الناهلين من ينابع العلوم السبحانية النازلة من فيوضات المعارف الإلهية وا لصحف، الروحانية والرسالات السماوية وقناديل النور المضاءة بزيت تلك الشجرة اللاشرقية واللاغربية

إلى أخوة الإيمان وأمة الأخوان، أمة الأمم وشعب الشعوب المنبثق من كل الطوائف والمذاهب والأديان، ذوي الألباب الحاضرة والوجوه الناضرة والأبعاد الصحيحة والعقول الرجيحة،

إلى الناظرين بعين العقل إلى حقيقة نعمة الأديان التوحيدية الواحدة في مظاهرها المتعددة،

إلى أهل الذوق، النخبة المتحررة من التعصب والإنغلاق والتقوقع داخل أقفاصل المذاهب والطوائف والأديان، نسور التحليق في سماوات السمو، ونجوم البريق المضيء في ظلمات حضارة الملوثات المادية الخاوية من القيم والمثل الروحية.

إلى هؤلاء الأحباء نقدم ثمرة ما تجمع من مقالات وبحوث فكرية وفلسفية منذ أوائل التسعينات حيث انطلق قطار ضحى المعرفة، وأخذت تزداد حاوياته كل شهر بخزانة جديدة من نفائس الفكر والفلسفة حتى بلغ محطة التاسعة والتسعين بمنظومة مترابطة من حلقات هذه السلسلة وحبات متلألئة من العقد المنتظم

إلى هؤلاء الأحباء نقدم هذه الباقات من الأزاهير الضحوية التي قطفناها من حديقة مجلة الفكر التوحيدي، فشكلت مزهرية تنعش النفس وتفرح القلب وتحمل العقل في رحلة رياضية لا بد وأن يجني من رياحين ها وأزهارها وثمارها مواسم وغلال الفهم العميق للحقيقة والمعارف الدقيقة التي تبدد الأوهام وتميط اللثام وتدخل القارئ المتبصر الواعي المدقق المحقق إلى حديقة الإيقان في مدينة كنوز نعمة الأديان المضاءة بأنوار شمس الأحدية في شعاب الدهور والأزمنة ومراحل التربية الدينية لشعاع النور كي يبقى متصلاً عبر الأجيال ومضيئاً لعتمة هذا الزمن صنيعة الإنسان الذي حمل الأمانة وكان ظلوماً جهولاً.

قسم البحوث الروحية في لضحى

فهرس

مبادئ التوحيد

قدم الكون:

البداية

مشاهد بعين ملاك:

تلة الصعود

جبل المحن

سر الوعي

على الأرض

ما قبل التاريخ

مشاهد من ذاكرة التوحيد (أتلانتيس):

أتلانتيس (سبيل العلم إلى ما فقد)

تجربة أتلانتيس

صراع الخير والشر وجدلية النور والظلمة

سوء استخدام الطاقة والتنافس الجدلي

موقع أتلانتيس

بداية التاريخ

دور آدم:

الرحلة الآدمية

الفئة الأولى

الفئة الثانية

الفئة الثالثة

مصر القديمة

مشاهد من ذاكرة التوحيد (مدارس الحكمة القديمة):

العهد القديم

مشاهد من ذاكرة التوحيد (عصر اليهودية):

عصر السيد المسيح

مشاهد من ذاكرة التوحيد في المسيحية

السابقون والعرفانيون والمتصوفون

مشاهد من ذاكرة التوحيد (عصر الإسلام):

الموحدون

التوحيد:

كلمة إفتتاحية

من مبادئ التوحيد

إلى توحيد المبادئ

ها نحن على مائدة الضحى التوحيدية نستلهم مسارها الفكري، وقد رعاها بمبادئ العقلانية التوحيدية، سماحة الشيخ بهجت غيث، وأخوانه الغواصون في لجج المعرفة وآفاق أعماقها، الموصلة إلى سدرة المنتهى وجنة المأوى. ولا بد للغوص الفارد من خلع قميص الأمس، كلما انتقل إلى وجه الغد، وجه الرحمن / وجه الإنسان.

في هذا العقد الأخير من الألف الثاني، تفردت مجلة الضحى – خارج سرب المجلات والجرائد اليومية – بطرق ما لم يطرق بعد، في عالم المعرفة الرفيعة ، فانتظمت في أعدادها منذ أوائل التسعينات بتقديم مقالات فكرية وفلسفية متتالية كحبات العقد التي جمعها سلك الوعي العقلاني التاريخي لتسلسل مراحل فهم دروس التوحيد الأزلية منذ فجر وجود البشرية (مشاهد تأخذنا من أتلانتس ذاكرة التوحيد النسية إلى مصر الحكمة الهرمسية عبر مدارس اليونان التوحيدية إنتهاءاً إلى رحلة الأديان السماوية) ودون سابق قصد وتصميم لتأليف كتاب تآلفت مقالات الأبحاث الروحية والتحقيقات الفلسفية والفكرية وحكت قصة رحلة شعاع النور عبر ظلمات العصور وتوحدت في هذا الكتاب الموحد لحقائق الأديان المتعددة كاشفاً الأقنعة عن حقيقتها الواحدة

إنها رحلة توحيدية، بل مسافرة عقلية، تقرع أبواب القرن المقبل من الألفية الثالثة : رحلة التقمص، ولا يغتسل أحد في نهر جوهره إلا كقطرة وبلمح البصر

يطمح واضعو هذا الكتاب الروحاني، إلى تقديم مختصر رشيد، لعشر سنوات من الجهد والكدح على ط ريق التفاكر والتذاكر المترفع، يوماً يوماً، لعل أخوان الحق والوفاء يعاودون الهجرة الكبرى من ذات الهجود إلى ذات الوجود.

إنه شاهد المعاني الوثقى، ينطوي على كلمات لم تعد مألوفة في المنعجر السياسي أو الثقافي لجماعات بشرية تآكلها ما كان بالأمس قوتها وموتها ! وها هي مبادئ التوحيد رحلة معرفية، بل عرفانية، من نون الغنوص، ومن يونان ذي النون إلى حميم الحلاج... إلى كل موحد مستوحد في آخر هذا العصر، في بحثه عن درة في لؤلؤ ذاته –بعد طرح صدفه على شاطئ التحولات.

بقلم الدكتور خليل أحمد خليل

مبادئ التوحيد

التقمص

التقمص، العودة للتجسد، الولادة ثانية، تعدد حيوات العقل، بقاء النفس، خلود الروح، العلاقة بين العقل والروح، والروح والعقل، الجسد وتجاذبه بين النفس والروح والعقل، الجوهر، الشخصية، الذات الجسد وتجاذبه بين النفس والروح والعقل، الجوهر، الشخصية، الذات الجسد المتعدد الخواص والأغراض، بحسب صفاء النفس التي تسكنه، والروح التي تحركه، الأثير، عالم العقل، عالم النفس، عالم الكل في الكل، الجزء في الجزء، والكل في الجزء، مغناطيسية الكليات على الجزئيات، ومحاور الحركة بالعقل المحرك، لأنه الألطف ومركز النظام الإلهي في الكون، والموجودات، والكائنات، الأنا الفردية، الأنا الجمعية، الأنا الكلية، الأنا الأدنى وغريزة الموت في الأنا الأعلى، الصيرورة، والسيرورة الوجود كخلق، والوجود كتحد للعدم، السر، السريرة، الإسراء في جاذبية الوجودية نحو الأنا في ال هو وتحقق التجلي عبر معراج القداسة في السلوك السامي نحو الأسمى وسماء الكل الذي هو قدر الكل معلم الكل بالعلم اللدني، المعية الكلية، الدائمة الفيض بغير واسطة ولا انقطاع، على الوعي المحض، العقل السفلي، والنور الأزلي، منار السالكين، وصراط العارفين، عشاق الأزل الذي مخروا بحر الأمل بسفن العمل، معراجهم في جوهرهم وجوهرهم حب الهجرة من العالم المقصر في شوقهم للملأ الأعلى، إلى عالم الحق والحقيقة، حيث الخير، وأهل الخير، الموحدون في محراب التحلي بالعقل الساطع، والإيمان القاطع، في النفس الجوهرية، المتعلقة بعلتها ومعلها الله الحاكم فيها وبها وعليها بحكمته، أحكم في كل موجود علته فكان الأصل في أصله والجوهر في شاكلته وشكله. فالله منه نقطة القلم ومداد الكل في الكل على الكل حيث يحرك الكل بحكمته لتحقيق حقيقتهم بنعمة الحكمة العقلانية من باسمك اللهم سبحانك لك الحمد وليوليك نبراس سراج ذاتك جل ذكرك الشكر.

عصر إحقاق الحق:

فعلى مداد هذه الرحى الروحية، ذات الدورات الكونية، سنسرع إذا شاء من له المشيئة فيا في كينونتنا، وآيلتنا في تشريح، وتفسير، وتحقيق، وتعليق ما يتناول هذه الموضوعات، وما يتصل بها ويتعلق بمادتها، تاريخيا، دينيا، علمياً، اسطوريا، فروحيا وبتطور مفاهيمها عبر المؤمنين بها والمحايدين فالناقدين حتى نعطي الدارس موضوعا موضوعيا عن كل منها فلا تبقى الحقائق حبيسة العقول المغلقة، فمن حق الحق أن يحق، وإلا صار وهما. ومن واجب الحقيقة أن تجب وتصبح واجبة الإيجاب . وإلا صارت ضلالا، كذلك يجب أن تخضع كل معرفة لمحكمة العقل، لتدافع دائما عن أزلية حقيقتها. لتكون بحق معرفة أزلية خالدة. فلا تخرقها سهام الناقدين ولا تمزقها اعتراضات المعارضين فمن حق الإنسان في هذا العصر، أن يتصل بالمعرفة بشكل مستقيم ويتناول العلم خالصا نقيا مباشرا، كالجوهر الخالص الذي لا يمازجه العرض والماس الذي لا يخالطه التراب. لأن حياة الفرد قصيرة وموجاته كثيرة وواجباته من كل صوب تدعوه إلى السرعة والدقة والحكمة والإحكام في كل ما يأتيه من قول وعمل، لأنه أصبح في مواجهة عالم الحق وعالم الصدق، بعد أن أنهكته الدهور، بعلوم يختلط الكثير من ظلها بالقليل من نور أصلها فضاع الكثير من عمر البشرية سدى وضلالا.

مفرق خطير:

ونحن الآن على مفرق خطير، لا بد لنا من التقرير على صيرورة المصير فلا تجرفنا الآمال الفارغة ولا تخيفنا المصاعب العارضة عن السلوك الأقوم في صدق العزم والعزيمة . لنصل الماضي لمنير، بالمستقبل المشرق. فندفع ضريبة الوجود التصاعدي بالتضحية بكل ما هو أدنى في سبيل ما هو أسمى حتى نحقق الإنسان في ذاتنا ونستشعر إنسانيتنا في كل مدركاتنا لكي نستمر في السمو والصعود إلى العالم الأعلى الذي نحن أهل له بما فطر فينا سبحانه من مناقب عالية وسجايا دقيقة هي من قدس أقداس الذات في مثالات الكمالات. فللإنسان العاقل محكوم بالتسامي والمعراج الدائم عبر محاسبة النفس، وتعقيل العقل، وتقليب القلب، وتجسيد الجسد فيما يرضي الأنا الأعلى في ذاته الذي هو مستودع كل الفضائل وكنز كل المناقب في كل خلجة من روحه، ونضبة من قلبه، ورعشة من جسده، صوت الأعلى في الأدنى وحكم الأ سمى بالأسفل صوت الله الخفي في لطيفنا. والميزان الذي يذكرنا دائما بنقصنا. كلما غلب علينا الجهل أو فرطنا في واجبنا

نحو مؤصلنا في الأصل وجابلنا بجوهر العقل . ضمير الكون وضميرنا الشخصي الذي هو جذوة منه وسنا من برقه.

التقمص نعمة المؤمن :

الإنسان المؤمن، يتقمص، يجدد، يتعالى فيكون يومه خيرا من أمسه وغده خيرا من يومه لأنه يعيش المعراج السماوي، والصيرورة الدنيوية، والسيرورة نحو أهل الحق الذين يتوق لرفقتهم ومعيتهم فهو في جهاد متواصل، وجد دائم في مجمع حيواته ليكون سابقا لا مسبوقا وأولا لا آخراً، يحاسب نفسه على التقصير . ويصير ويصابر على كل جلل وعسير. حتى ينال أعلى المنازل ويثاب أفضل الثواب ويصير إلى أحسن مصير. في حياته كون مجتهدا فلا يضيع عمره سدى بل يطلب كل كمال ويتكامل بالكمال الاكمل في كل حق وخير وفضل وفضيلة وفي مماته وبعد وفاته ينال المنزلة الأسمى والدرجة الأعلى فيكون دائماً متدرجا في الحقيقة، دارجا في الحق لأن صراطه الصدق مع خالقه وأهله واخوانه، لا تلهيه السفاسف، ولا تخيفه الرواجف.

أما الجاحد المعاند المكابر الكافر فقد اسبتدل الأنا بالأنانية . والغيرة بالغيرية. فهو حسود لدود يحب نفسه، يبغض غيره، يمنع خيره عن نفسه فكيف عن سواه . يتعالى على الناس. يرذل عقله ويدنس حواسه. الذكاء عنده مصلحة والدين في عرفه مصيدة. لا يضمر الخير لخلافه. ولا يبطن النصح لإخوانه، ولكن يتلاشى في ذات نفسه، وفي ذات جنسه. كالثمرة العفنة، التي تسقط من أمها الشجرة. فهي تزداد فسادا على فساد . وعفنا على عفن. حتى تعود إلى ترابها.

فالجاحد المعاند وإن كان بعد موته، يرتدي جسداً جديداً لكنه جسد يغلب عرضه جوهر النفس، فينحدر بصاحبه من التعاسة، إلى التعس، ومن السقوط إلى الوكس، لأنه خرج عن مداد أصله، وجعل هواه وحواسه دليله، بغير هدى عقله، فباع دينه بدنياه فكان وجوده سدى وبصره عمى.

التقمص الكوني (الرحلة بين المبدأ والمعاد) راجع الضحى العدد الرابع والستون –حزيران 1997.

لماذا التقمص؟

تتفق معظم الديانات على أبدية الروح. البعض يقول أن الروح تنتقل بعد الموت إلى السماء. والبعض الآخر يعتقد أنها تحوم حول عرش الله في السموات أو تسكن في أعماق الأرض . وهناك أيضاً من يعتقد أنها لا تغادر الجسد قط بل تبقى فيه إما في حالة من العذاب والألم وإما في حا لة من العذاب والألم وإما في حالة من الراحة والنعيم.

قد يبدو الأمر زائداً في الطموح من قبلنا إذا قدمنا عقيدة التوحيد في ما يختص بالروح على طريقة تقديم نظرية علمية، لأن ذلك يحتاج إلى تقديم أدلة حسية ملموسة عما هو روحي أو أثيري. ولكن من الطبيعي أن يتعامل الموحدون مع واقع التقمص كواقع علمي مؤكد، يرتقي إلى قمة المنطق الإنساني، الذي يعزو إليه العلماء أي تقدم علمي.

لسوء الحظ، ما زالت التكنولوجيا الحديثة عاجزة (لحد الآن) عن رصد مسيرة الروح بعد الموت . ولا زالت عاجزة أيضاً عن إحياء الجسد بعد الموت وبعد مغادرة الروح له. وغني عن القول أن الأثير، حتى بالنسبة إلى أتباع النظرية القائلة بالذرة، ما زال مادة مجهولة التكوين فما قولك بمادة الروح.

باختصار:

إن في الحياة والموت لحقيقة قاطعة، ولكن لا يمكن فهم كنهها إلا برجوع كل إلى منطقه.

إن من آمن بوجود نظام وقانون لهذا الكون، وأقر بوجود العدل الإلهي، فلا بد له أن يتأمل في منطق التقمص أو يعيره اهتمامه على الأقل.

إن جميع الأديان تؤمن بالعدل الإلهي المطلق . حتى العلماء يقرون بوجود نوع من العدالة في القوانين الفيزيائية الصرفة. هذا العدل، إذا نظر إليه من المنظار البشري، يوحي بأن الله ، أو مكون هذا الكون، قد وهب الإنسان المساواة في الفرص والحرية في التصرف للوصول إلى الهدف الذي قد يختار.

في منطق العقل، الفرص والأهداف التي نتكلم عنها لا تكون إلا بالمعرفة، والمعرفة في المعنى التوحيدي لا تعني المعرفة التي نجنيها من التعلم والخبرة في الأمو ر الحياتية، بل هي نوع من الوعي الروحي لماهية الله

والتي لا تتحقق إلا عبر الإيمان بالأبدية. والأبدية في فلسفة التوحيد تجسد طبيعة الـ لوغوس أي العقل الكلي (العقل الأرفع) الذي يبقى مع الوحدانية ولا يتغير مع تغيرات المادة والفكر . ولذلك قيل المعرفة من ذاتك لذاتك لا سماع ولا حفظ.

ومع ذلك، وحتى بالنسبة للذين يعتقدون أن المعرفة هي مجرد اكتساب علمي وخبراتي ويعتبرون أن الفرص تتمحور حول الثروة المادية والصحة والوظيفة والسلطة والشهرة وباقي المكتسبات الدنيوية، فإن حقيقة التقمص ما زالت الدليل الأكثر عقلانية للعدالة الإلهية.

هذه الحقيقة التوحيدية مبنية على أسس بديهة لا تقبل الجدل:

1- تلك التي يشار إليها فلسفياً بالـ النفس الإنسانية العاقلة لا تستطيع التعبير عن وجودها من دون آلتها، الجسد. من دون الجسد تفقد نفس الإنسان هويتها . فلا يمكن أن يتصور العقل هوية شيء لا يمتلك صورة تعبر عن وجوده، فحتى الأثير له صورة تميزه من الأشياء الأخرى . فإذا قلنا إن النفس تلبس جسداً أثيريا عند الموت، فما يميز إذا النفس عن الأثير؟ ببساطة، إن النفس لم توجد لتتلاشى كهواء لطيف. فمقتضى وجودها في الجسد أصلاً لا يمكن أن يكون شيئاً عابراً، بل قانوناً إ لهياً وجد ليبقى. فمن غير المنطقي تجاهل هذا القانون في مفاهيمنا للحياة ومراحل تجددها بعد الموت وقوانين الثواب والعقاب والجنة والنار والعدل الإلهي...

2- من البديهي أن النفوس تختلف عن بعضها في طبائعها كما يختلف الأشخاص في مظاهرهم، وهذا الاستنتاج هو أبسط ما يمكن استخلاصه عبر تجربتنا الحسية، فلا يكاد يلتقي اثنان على شيء حتى يختلفا على شيء آخر . لتحقيق الهوية الفردية، ينبغي على كل نفس أن تمتلك شكلاً مادياً أو بتعبير آخر، ينبغي أن تملأ فراغاً ما في الزمان والمكان . من دون وجود كهذا تخسر النفس كينونتها وبالتالي فردانيتها ودورها في الزمان والمكان.

3- إن المعرفة من أي نوع كانت لا تتم أو تحصل من دون جود في العالم المادي . المعرفة لا يمكن أن تكون حول لا شيء. حتى الأثير (وهو أقرب ما يمكن تصوره إذا أردنا تصور الـ لا شيء) يبقى شيئا

يمكن تمييزه من باقي الأشياء. إذا فالـ "معرفة" تستوجب وجود "عارف" و "معروف". فبدون وجود الروح في آلة تسمح لها أن تختبر هاتي الحالتين (أي أن تكون لنفسها في موقف العارف ولغيرها في موقف المعروف)، تصبح الروح غير معنية بشيء اسمه معرفة.

قد تختبر الروح "المعرفة" في حالة وعي مختلفة عن اليقظة، وبتعبير آخر ، باستطاعة المرء تذكر طفولته عبر حلم أو محاولة معرفة مستقبلية عبر رؤية، ولكن معرفة كهذه لا يمكن أن تفهم إذ لم ترتبط بنفس الحالم كـ "إنسان" أو كـ "فرد" موجود في الزمان والمكان 0 في عالم يؤمن له استمرارية ما تسمح لهذا الحلم أو الرؤية بأن يكون جزءاً منه ومن حياته.

4- من دون وجودها في قالب مادي، لا يمكن للنفس أن تختبر أي معرفة للخير أو الشر . فأي معرفة للخير أو الشر . فأي معرفة كهذه تتطلب استمرارية في العالم المادي تؤمن للعقل فرصة التمييز والمقارنة بين الأشياء والتجارب الحسية لاستخلاص مفهوم معقد كمفهوم الخير أو الشر. فلا يتصور العقل شراً مستقلاً عن تصوراته لوجوده الجسدي في الزمان والمكان أو لأحداث مرتبطة بهذا الوجود.

5- النفس إذا ما انعدم وجودها في عالم يؤمن لها استمرارية لا يمكن الحكم عليها، وبعبارة أخرى، لا يمكن الحكم على أحد اعتماداً على نتف عشوائية من المعرفة اختبرها في عوالم أثيرية. فأي نوع من الحكم لا يكون ملائماً إلا في عالم حيث ثمة قصة في حالة تطور. وأكثر من ذلك، لا يعني ذاك الحكم شيئاً لأي فرد ولا يحقق له شيئاً إلا إذا جاء نتيجة قصة يعرفها ويشارك في صنعها.

وبالتالي فإن الهوية الروحية، والتعبير والحكم من أي نوع يعتمد على حضور النفس في عالم الاستمرارية. فقد عبر عالم كهذا تستطيع النفس اختبار فردانيتها، وتحصل المعرفة ويحكم على أعمالها

في بعض الحالات تتحقق امكانية ترقي النفس إلى معارج من الوعي بحيث تخلع عنها أثواب الجهل وتتخلص من كثافة الأفكار والأحاسيس المظلمة، وقد تختبر النفس لحظات من النقاء حيث تفقد إدراكها للحضور الزمكاني وتسبح في عالم الأحدية المطلق، عالمها الأصلي (أي عالم الخلود)، ومع ذلك، ليس ثمة مفر من وعيها لثنائية الطبيعة البشرية، وهو الوعي الذي يميز بين البشر والإله (أي بين القديم والحديث وبين

الصانع والصنعة). ومهما توصلت النفس في قربها لتحقيق الوحدة مع الذات، فإنها تظل تحافظ على كينونتها ودورها في الزمان والمكان كي تظل أبداً واعية لذاتها، وإلا لم تعد نفساً، وهذا أبسط حق يمنحه الله للإنسان وهو الحق بالوجود والاستمرارية.

لذا فإن حقيقة التقمص مبنية على واقع ارتباط اللطيف بالكثيف (وكل منا يملك الأدلة على صحته) وهو أن الروح والجسد لا غنى لأحدهما عن الآخر . فجسد بلا روح جسد ميت وروح بلا جسد هي لا شيء . فبما أن وجود النفس أزلي وبما أن هذه الأزلية لا تتحقق وتكون جزءاً من المعرفة إلا من خلال آلة التعبير ع ن الوجود (الجسد)، فلا بد من أن تتقمص الروح جسداً جديداً عند الموت وتتخذ آلة جديدة بعد تعذر الاستمرار في الآلة القديمة لسبب أو لآخر.

فلسفة التوحيد هي كالنور، بسيطة ولكن غالبة. لو شاء الله تعالى، لخلق الإنسان روحا مجردة، خالدة تعيش في عالم خيالي خال من الماد ة والأبعاد أو خلقه جثة تعمل ميكانيكياً غريزياً بفراغ روحي . لكنه خلقه روحاً في جسد، وأراده أن يعيش في مثل عالمنا ويكتسب العلم والمعرفة من خلاله فلا بد من وجود حكمة ما وراء مشيئته، ولا بد أن ثنائية الإنسان (أي كونه مادة وروحاً في آن معاً) تخدم الهدف الإلهي ا لأسمى من هذا الخلق وهو المعرفة. وبذلك نطق الكتاب وما خلقنا الجن والإنس إلا ليعبدون (أي ليعرفون)

ولكن، إذا كانت هذه الثنائية تخدم الهدف الأسمى ألا وهو معرفة الله من خلال معرفة النفس، بل والحساب على أساس هذه المعرفة، كما هو الحال في معظم الديانات السماوية، فلا بد من التساؤل:

هل أن خبرة حياة واحدة كالتي نحياها كافية لمثل هذه المعرفة؟

قد لا يكفينا مجلد إذا أردنا تعداد الاختلاف في الفرص الممنوحة للعالم على اختلاف وتنوع حالاتهم مجموعات وأفراداً. فهناك من يولد فاحش الثراء وآخر فقيراً معدماً. وهناك م يمضي حياته في هدوء وطمأنينة في أحد معابد الهند وغيره يعيش حياة عشوائية فوضوية في نيويورك مثلا . وغيرهما من يفتح عينيه على الشهرة والنجومية وآخرون على الذل والعبودية . وهناك من يفتح عينيه فلا يرى قط لأنه ولد أعمى وغيره

يولدون أصحاء. وهناك من يموت قبل ولادته وهناك من يعمر ليرى أحفاده يكبرون . وهناك من يموت ميتة طبيعية وغيره يموت بفاجعة وغير ذلك من تعدد مظاهر الاختلاف والتنوع في الجماعات والأفراد.

لو أن الإنسان يستطيع أن يزعم أنه راض عما قدمته له الحياة من فرص أو تقدمه، لما كنا بحاجة إلى الفلسفة والدين وبالأخص إلى عقيدة تثير الجدل كعقيدة التقمص . وحتى ولو وجد دين أو فلسفة، لما نظر إليها الإنسان بأكثر من نظرته إلى القصص والروايات التي تغص بها المكتبات ولكان المعلمون الروحيون والحكماء والفقهاء والأنبياء والأئمة مجرد شخصيات روائية.

هل أن كل فرد راض تماماً عن الفرص التي تقدمها الحياة له؟

لا أحد يستطيع أن يزعم أنه لم يتساءل يوماً عن صحة العدل الإلهي وأنه لم يطلب يوماً سبباً لما يراه إجحافاً بحقه في هذه الحياة، مرة واحدة في حياته على الأقل . ويأتي فوق كل ذلك، الإحساس بالذنب والخوف الذي تعاني منه بسيكولوجية الفرد فيما يتعلق بالجنة والنار واللعنة الأبدية وما شابه مما يطرح سلسلة من التساؤلات التي لا يمكن الإجابة عنها بغير ثبات واقع التقمص. تبعاً لأي مقياس تحاكم روح طفل رضيع بعد موته؟ هل كانت له أي فرصة في الحياة على الإطلاق؟ هل قام بأي عمل صالحاً كان أم طالحاً كي تحاكم روحه على أساسه؟

إن عقل الإنسان هو أهم ميزاته، كما أنه (أي العقل) غاني دون أي شك، أي أن جميع عملياته وحركته موجهة نحو غاية ما . فهو في كثير من الأحيان يطرح أسئلة تبدو الإجابة عنها فوق طاقته . فأرسطوطاليس (وهو واضع أسس المنطق) يعترف بهذه الميزة ويعزوها إلى شغف الإنسان بالمعرفة . هذا الشغف المتمثل بطبيعة الفكر لا يمكن إلغاؤه . وكذلك لا يمكن الإجابة فوراً عن سؤال مثل : "لماذا ولدت أعمى؟" أو "ما هو السبب الأسمى للوجود البشري؟" على الإنسان أن يمر بعدة اختبارات في الحياة قبل أن يخلص إلى نتيجة مقبولة للإجابة عن هذه الأسئلة. وقليلون جداً أولئك الذين تصادفهم تجارب تقلب حياتهم رأساً على عقب فتأتي إليهم بالمعرفة المفاجئة التي يسميها أرسطو "الإشراق الفكري". حتى الكبار في السن

الذين يعتبرون أنفسهم ممن اكتسبوا من خبرة الحياة زبدتها، نادراً ما يجدون جواباً لتلك الأسئلة التي حملوها معهم منذ صباهم، لكنهم مع ذلك، وحتى النفس الأخير، يظلون يأملون أنهم قد يحصلون على جواب قبل موتهم.

لو نظرنا إلى الحياة البشرية من منظار مادي صرف للخصناها بكون الإنسان يولد، يحيا، يموت، أما لو نظرنا من المنظار النفسي (العقلي) لوجدنا دائماً أن هنالك حلقة مفقودة. فالرواية العقلية التي تلون بصبغتها تجارب الإنسان الحياتية والذاكرة التي تبقى عند انتهاء الحياة تبدو وكأنها قطعت فجأة قبل الوصول إلى نهايتها. فتجد كهلاً على حافة الموت يتساءل : "ما معنى هذه الحياة التي وعدتنا يوماً بجواب؟ ما هو مصير ذلك الصوت الذي كان يوحي دائماً بكل تلك الأسئلة؟ " تخيل انقطاع التيار الكهربائي في صالة السينما والفيلم ما زال في نصفه ثم تخيل عقلا توقف عن العمل أي لم يعد له وجود قبل أن يصل إلى إجابة عن أكثر الأسئلة إلحاحاً والأمنيات وحياً. إذا كان باستطاعة مخرجي هوليوود ومنتجيها أن يأتوا بفيلم لمدة ساعتين يجيب عن كافة الأسئلة التي تدور في ذهن المشاهد يدعك تخرج من صالة السينما وأنت راض تماماً لا يجول في ذهنك أي تساؤل أو معارضة لمنطق أحداث الفيلم أفلا يستطيع الله أن يأتي بمثل هذه التجربة؟ هل يستطيع أحد أن يخرجك من الصالة قبل انتهاء العرض؟ أيكون ذلك عدلاً لو فعل؟ هل من العدل أن يأخذ الله روحا إلى المحاكمة الأبدية قبل أن يتيح لها إتمام تجاربها ومعرفة كل الإجابات؟ أيج وز أن نتهم الله باللا عدل لأنه منحنا حرية اختيار ما نؤمن به؟

من السهل جداً أن نلوم الله لأنه خلق الإنسان وبه تلك النزعة نحو المعرفة . ومن السهل أن نلومه لأنه جعل للإنسان عقلا لا يكف عن طرح الأسئلة . بعض الناس يلومون الله لأنه لم يمنحهم حرية كافية تجعلهم يثقون بمنطقهم الخاص في الحياة ولوضعهم تحت وطأة مفاهيم وتقاليد وعادات وممارسات لا يمكن تجاوزها. وحين تطرح لهم أجوبة تحتاج إلى قليل من التأمل وحرية الفكر من قبلهم يرفضونها رفضاً قاطعاً بحجة أنها بعيدة عن المألوف ومثيرة للجدل فلا يمكن أن تكون صحيحة، علماً بأن من دون مثل هذا الجدل الذي يرتفع فوق العصبية العقائدية لا دور للعقل على الإطلاق.

إذا كان الله سرمدياً، وهو سبب أسباب كل الأسئلة والأجوبة التي تراود العقل فلماذا يكون هناك حدود للمعرفة العقلانية؟

إن المعرفة، أكانت رؤية صوفية، أو تجربة حسية، أم ذكرى لتجربة قديمة بالمعنى الأفلاطوني تعتمد على وجود الروح في عالم يمنحها صورة مادية محددة تستطيع من خلالها أن تعبر عن وجودها وعن جوهرها وتشارك في هذا التعبير أرواحاً أخرى مماثلة لكي تختبر وتختبر . فالروح تحاسب نظراً لانخراطها في هذه التجارب المشتركة – فكيف للروح أن تقوم بأعمال جيدة أو سيئة فتحاسب عليها إذا ما كانت وحيدة في عالم الاختبار والتجربة؟

حتى الآن، ما من عالم ثبت وجوده يؤمن للروح ما تقدم خلا عالمنا هذا.

استطاع الإنسان أن يعبر الغيوم إلى السماء في الصواريخ والمركبات الفضائية ولكنه لم يعثر على الجنة. كما أن العلماء يؤ كدون أن الإنسان، من دون آلة الحواس، أي الجسد، هو طبقاً لأبسط القوانين الفيزيائية، غير موجود. فإذا كانت الروح خالدة، وإذا كانت غير قادرة على التعبير عن وجودها وحتى خلودها من غير جسد، لماذا إذا يعمد الإنسان إلى تخيل الروح هائمة في سماء غير منظورة كالجنة (بالمفهوم التقليدي) أو تائهة في جهنم ما تحت الأرض رافضاً رفضاً قاطعاً إمكانية تقمص الروح في جسد آخر لإغناء خبرتها، والتي هي إمكانية غاية في المنطق لا تحاكي العواطف الدينية وليست بعقيدة بالمفهوم التقليدي بل ركيزة منطقية؟ أليست الرؤية التي تجسدها فكرة التقمص عن مصير الروح بعد الموت مطابقة لتلك التي تملك البشرية الأدلة القاطعة لها؟ أوليس من المنطقي أن نتصور الروح على الأرض في جسد عوضاً عن تصورها وهما تهيم بواسطة جسد أثيري لا يوجد أدلة ما على إمكانية وجوده؟

(التقمص ويوم الحساب) أين العدل الإلهي؟

تؤمن معظم الأديان بيوم القيامة أو ساعة الحساب ولكن:

ما مدى مصداقية هذا الحساب في حياة تبدو فيها الفرص المتفاوتة غير المتكافئة أبعد ما يكون عن العدل حتى أن أي عابر سبيل أمي أصبحت له فلسفته الخاصة عن الموضوع؟

لماذا ينتظر الله من خادمة وضيعة أن تكون فاضلة شريفة ومحبة تماما كسيدها ومخدومها؟

كيف يمكن أن تكون هناك كل هذه الفروقات بين البشر على الأرض، ويكون العقاب أو الثواب هو نفسه للجميع؟

ثم كيف يكافأ أو يعاقب من مات منذ آلاف السنين كما يكافأ أو يعاقب من هو حي ولم يستكمل أعماله بعد ويعتبر الحكم عادلاً؟

بالإضافة إلى ذلك:

هل معاقبة من قتل الرسل والأنبياء في عهود خلت هي نفسها كمعاقبة من قد يرتكب جريمة قتل اليوم؟ فإن كان الله، في ميزان حسابه، يأخذ بكل تلك الاعتبارات، كيف يمكن للروح التي لم تعش حيوات كافية لتختبر كل هذه الاعتبارات أن تعي كنه هذا الحساب؟ ثم أين العدل في محاسبة من لا يعي ماهية ما يحاسب عليه؟

إن كل الديانات السماوية، بل والمذاهب أيضاً، تعتبر نفسها الوحيدة الناجية، فما يكون إذا مصير الشعوب التي لم تصلها تعاليم تلك الديانات أو المذاهب؟ هل أنهم كانوا مخطئين لأنهم عاشوا في أماكن مجهولة أو في أوقات سبقت مجيء الرسل؟

وما هو مصير من سوف يولد بعد ساعة الحساب؟ هل هناك حساب مهيأ خصيصا له؟ هل هناك أيام قيامة عوضاً عن يوم واحد؟ أم أن العالم سوف ينتهي فور أن ينفخ في البوق؟

وأخيراً، يبقى السؤال الذي لا بد أن يطرح:

هل يمكن أن تحاسب الروح من غير جسد؟

هل يمكن لأحد أن يتخيل الثواب أو العقاب من دون اللجوء إلى ما يتصوره من تجارب وأعمال خيرة أم شريرة اكتسبها عبر الحواس الجسمية؟

إن تصورنا للعقاب أو الثواب ناتج عن خبراتنا الجسدية في الألم واللذة. فكيف يمكن أن نخاف من نار جهنم أو نحلم بثمار الجنة لو لم يكن لنا علم بالألم الذي تسببه النار أو اللذة في طعم الثمر؟

وكيف كان لنا أن نعلم بذلك دون حواسنا؟

كيف يمكن للروح في جسد أثيري أن تختبر ألم النار؟ هل أن النار تؤثر في الأثير أو في كائن أكثر لطافة كالجسد الأثيري أو الروح؟

فلماذا إذا نفضل العبور إلى ما وراء العقل والمنطق لإثبات ما قد يزيد من حيرتنا في الحياة ونرفض منطق التقمص الذي يرتكز على إثباتات ملموسة؟ هل أن الأنبياء والرسل أرادوا إبعاد الإنسان عن المنطق أم أن أناساً كالفريسيين والصدوقيين وغيرهم من أصحاب الأهواء حذفوا من الكتب المقدسة أهم عقائدها لئلا يجد القطيع الضال طريقه إلى الله؟

التقمص في التوراة:

لقد ورد في التوراة العديد من الآيات التي تثبت حقيقة التقمص تلميحا، نذكر منها ما قاله النبي سليمان الحكيم في سفر الجامعة بالنص:

"دور يمضي ودور يجيء والأرض قائمة إلى الأبد . والشمس تشرق والشمس تغرب وتسرع إلى موضعها حيث تشرق. الريح تذهب إلى الجنوب وتدور إلى الشمال تذهب دائرة دورانا وإلى مداراتها ترجع الريح. كل الأنهار تجري إلى البحر والبحر ليس بملآن. إلى المكان الذي جرت منه الأنهار إلى هناك تذهب راجعة.

... لا أحد يستطيع أن يقول إن العين لم تر كفايتها، أو أن الأذن لم تسمع كفايتها . ما كان فهو يكون والذي صنع فهو الذي يصنع فليس تحت الشمس جديد إن وجد شيء يقال عنه انظر. هذا جديد. فهو من زمان كان في الدهور التي كانت قبلنا".

وهذا القول هو تأكيد واضح على أن كل شيء يتبع نظام الدائرة، والحياة والموت غير مستثنيين

و "الأشياء" التي عنتها التوراة هنا، ليست فقط الأشياء المادية والأعراض التي تفنى وتزول وتتزايد وتتناقص إنما عنت الجواهر الازلية الخالدة ومنها النفوس التي تتقمص الأجسام، لا يزاد عليها ولا ينقص منها فجوهر التقمص إذا منصوص عليه في التوراة

التقمص في الإنجيل :

جاء الإنجيل المقدس ليتكلم عن التقمص بمحكم الأمثال:

قال القديس متى في الإصحاح الثاني والعشرين (الآية 31 – 36):

"وأما من جهة قيام الأموات أفما قرأتم ما قيل لكم من قبل الله القائل،

أنا اله إبراهيم واله اسحق واله يعقوب، ليس الله اله أموات بل اله أحياء فلما سمع الجموع بهتوا من تعليمه (أي تعليم السيد المسيح)".

"الحق أقول لكم أنه لم يقم في مواليد النساء أعظم من يوحنا المعمدان... وإذا أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا المزمع أن يأتي. من له أذنان للسمع فليسمع". (متى 11).

"وسأله التلاميذ قائلين: "لماذا تقول الكتبة إن إيليا ينبغي أن يأتي أولا ". وأقول لكم أن إيليا قد جاء ولكنهم لم يعرفوه بل صنعوا به كل ما أرادوا. هكذا ابن البشر أيضاً مزمع أن يتألم منهم . حينئذ فهم التلاميذ أنه قال لهم عن يوحنا المعمدان". (متى 17).

يفهم من ذلك بوضوح أن الظهور النبوي بقميص إيليا كان قبل ظهوره بقميص يوحنا بنحو 800 سنة.

قال يسوع لنيقوديموس:

"الحق أقول لكم إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات".

"كيف يمكن الإنسان أن يولد وهو شيخ؟ ألعله يقدر أن يدخل بطن أمه ثانية ويولد؟ أجاب يسوع وقال:"

الحق أقول لك إننا نتكلم بما نعلم ونشهد بما رأينا. ولستم تقبلون شهادتنا". (يوحنا 3).

أقول لكم يا أحبائي، لا تخافوا الذين يقتلون الجسد ثم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً بعد ذلك . ولكنني سأبين لكم من تخافون . خافوا من له قدرة بعد القتل على أن يلقي في جهنم . أقول لكم: نعم، هذا خافوه. أما يباع خمسة عصافير بفلسين، فما منها واحد ينساه الله . بل شعر رؤوسهم نفسه معدود . لا تخافوا، إنكم أثمن من العصافير جميعاً". (لوقا 12).

إذا كان الله يحاسب الروح تبعاً لما فعلته خلال حياة واحدة في جسد واحد دون أن تتقمص بأجساد أخرى، فكيف يمكن للبعض أن يحصل على القوة للتصرف في الروح وإلقائها في الجحيم بعد الموت؟

يستخلص الكاتب الألماني الشهير "جون فان هلسنغ" في كتاب حديث له، أن السبب وراء افتقاد الإنجيل اليوم لنصوص واضحة تؤكد نظرية التقمص، أو الحياة ما بعد الموت، يعود إلى قرار المجمع الديني الثاني في القسطنطينية عام 553 وفي أيام الإمبراطور الروماني جوستنيانس الأول بحذف صفحات عديدة من الإنجيل تتضمن أقوال للسيد المسيح يؤكد فيها حقيقة التقمص واختفت مذاك تلك الصفحات المهمة من الإنجيل ورغم ذلك بقيت معظم الإشارات والرموز والتنويهات التي تشير بوضوح للتقمص مضمنة في معظم الآيات والإصحاحات في الكتاب المقدس بعهديه القديم والحديث.

التقمص في القرآن:

"كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم. ثم يميتكم. ثم يحييكم. ثم إليه ترجعون". (البقرة 28).

"يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً بعد خلق". (الزمر 6).

"ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا لسحر مبين". (هود 7).

والمعروف أن السحر هو ما اتهم به المؤمنون والأنبياء وغيرهم كالأسينيين والمسيحيين الغنوصيين وبعض الصوفيين كالحلاج وغيره. ولم يتهم أحد ممن يؤمن بأن الروح تصعد إلى السماء بعد الموت بالسحر والشعوذة.

"ثم بعثناكم بعد موتكم لعلكم تشكرون". (البقرة 56).

"يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحين ويحي الأرض بعد موتها، وكذلك تخرجون". (الروم 19).

التقمص في الحكمة القديمة :

توضح الحكمة القديمة "إن الموت الطبيعي ليس هو شيئاً غير غيبة النفس عن الجسد لتعود في شكل آخر. وأن الإنسان الحكيم العالم هو حكيم عالم عند حضوره وهو حكيم عالم عند مغيبه لن ينتقل عن حكمته وعلمه أينما توجه وأينما سلك فكل طبع ينجذب إلى طبعه بالإبداع والتماثل، كما أن الشيء لا يلد ويثمر إلا نوعه وشكله".

تؤكد الحكمة القديمة ارتباط الفكر بالمادة، فالقانون الذي يحكم الكون والبيئة والمجتمع هو نفسه الذي يحكم الخافية (اللاشعور) لدى الفرد. وإذا كانت واعيتنا (الشعور) تخضع لضوابط الزمان والمكان المحدودين فإن خافيتنا تخضع لقانون الحياة اللامتناهي.

النفس الإنسانية متكاملة في جوهرها – هي اللحمة التي تجمع خيوط نسيج حياكة الجسد. هي القوة الموحدة للأعضاء الجسدية والوظائف الشعورية والمعنوية . إنها وحدة إنسانية تتدرج ضمن نطاقات ثلاثة متصلة غير منفصلة، هي "الأنا والذات والكيان" وتنضوي هذه النطاقات الثلاثة تحت كلمة "الاسمية" وذلك لأن الكيان هو الحقيقة الموحد ة لوظائف النفس وأن سوء الفهم هو الذي يشتت انتباهنا إلى وجود نطاقات ثلاثة منفصلة، يعني تجزئة الإنسان إلى أقسام متعارضة ومتناقضة يستحيل التوفيق أو التأليف والتوحيد بينها. والحقيقة هي أن هذه النطاقات ليست أقساما بل دوائر ووظائف تتكامل انطلاقا من الأنا، إلى ال ذات

إلى الكيان. والحق يقال أن الإنسان وجود متكامل يتفاعل على صعيد الأنا والذات، ويتوحد على صعيد الكيان.

تؤكد الحكمة القديمة على تكامل النفس الإنسانية فتشير إلى أن هذه النفس، إذا انتهت في بلوغها، ذلك الحد تجمعت منتثراتها، واتحدت متفرقاتها وتآلفت قواها، وعزم إدراكها.

الأنا، في صميمها، وجود قلق منفعل، يحمل في ثناياه العقل، والنفس، والشعور، والخافية، والوعي واللاوعي. هو وجود لا يدرك ذاته بذاته. وعلى الرغم من أن الأنا لا تعي ذاتها، إنما هي مهيأة ومزودة بطاقة الفهم والإدراك وهذا يعني أنها تشتمل على النفس والعقل، لذا تسعى الأنا إلى فهم ذاتها.

الذات هي الأنا وقد بدأت تفهم ذاتها بفعل الوعي الكامن فيها، والمدعو خطأ باللاوعي. وفي بدء فهم الأنا لذاتها، تنقسم إلى قسمين : الشعور واللاشعور (الخافية) وفي هذا السياق، يشير اللاشعور إلى ماضي الحياة المدونة في ذات الإنسان. ففي اللاشعور (الخافية)، يكمن تاريخ حيوات الفرد السابقة، وما يحمله من ذاكرات وذكريات تلك الحيوات والمعلومات المنطبعة في عمقه اللاشعوري . بالإضافة إلى ما يحمله من اللاشعور الذي يتمثل في ذكريات طفولته، ونوع التربية التي نشأ عليها، والمبادئ التي تلقاها والمفاهيم والقيم الإيجابية والسلبية التي غرست في داخله..

والشعور هو حاضر الفرد، لما هو عليه الآن، هو حصيلة الماضي والحاضر . فالحاضر جزئيات زمنية تنزلق نحو الماضي مليارات المرات في الثانية، في الوقت الذي تنحصر فيه الذاكرة، هو تقدمي إلى المستقبل، وهو ما أزرعه في حديقة حياتي المقبلة. ينشأ في الذات صراع أو تعارض بين الشعور واللاشعور. وعلى الرغم من هذا النزاع المحتمل بينهما، نجد الإنسان مهيأ ومزوداً بطاقة الوعي.

ينتهي هذا النزاع إلى كيان في اللحظة التي يكون الوعي قادراً على إقامة التوا زن بين الشعور واللاشعور في تحقيق الكيان وفي تجاوز الأنا . هكذا يتدرج الوعي الإنساني في مراحل الأنا التي تعمل على فهم ذاتها وتجاوز ذاتها بفعل طاقة داخلية واعية تبلغ مستوى التوازن في الذات بين الشعور واللاشعور لتتوطد في كيان راسخ، متكامل تتحد فيه وظائف النفس كلها.

التكامل في الشخصية الإنسانية يرد إلى وعي الأنا، وإذا ما تعمقنا في تساؤلنا في سبيل إدراك وتبصر أعمق لحقيقة وعي الأنا، علينا معرفة مسار التطور الذي يساعدنا على تطوير الأنا والانعتاق من قيودها. فالأنا هي التطور المتراكم عبر آلاف آلاف السنين، بل ملايين السنين والمركز في كينونة الكائن الإنساني. الأنا هي التركيز المتنامي للحياة عبر العصور المديدة المقاسة بتراكم الزمن عبر العصور والدهور. وفي هذه الأنا يتركز تاريخ الوجود على مستوى كوكب الأرض ولا يذهلنا ما يخبرنا به علماء البيولوجيا بأن الخلية تحمل، فيقسم من أقسامها، ذاكرة بيولوجية دون فيها سجل تاريخ الحياة على الأرض، فالأنا تتذكر، على نحو لا شعوري، الماضي الحياتي كله، الأمر الذي يجعلها مشروطة، أي محددة ومعنية بهذا الماضي.

إن التطور يمتنع بغير استبطان فالتطور هو تفتح وظهور لشيء سابق الوجود، إذ من أين يتم تطور الذي لم يكن موجودا في الأصل وكيف يوجد فيما بعد . وكل إنسان يدرك الأشياء حسب منظاره وبمقتضى انفتاح حقل رؤيته وجلاء بصيرته

وعندما تعمل الأنا على فهم ذاتها، تبدأ في إحساس بالشعور أو الوعي وعندئذ تتميز الأنا باللاشعور وهي تتذكر ماضي الحياة البعيد، وتتميز بالشعور وهي تعالج الحاضر.

ترشدنا الحكمة القديمة إلى اكتشاف طبيعة الأنا المنغلقة "الخافية" بالعقل المميز الذي إذا أراد إدراك شيء ما أفرده مما سواه، وانتزعه مما قارنه، ثم أدركه إدراكا فاردا بذاته الفاردة القادرة، لأنه كما أن الحس لا يدرك شيئا فاردا، فكذلك العقل لا يدرك شيئا مركبا كثيفا، ولا يعلمه علما يقينا عقليا دون أن يفرد معانيه ويميزها وينتزع كل جنس منها فيجعله فاردا بذاته ليدرك معانيه كلها لدى الانفراد بحقيقتها . فإذا كانت الأنا متحققة من ماهية لطافتها عبر حيواتها السابقة، دونما تدركه بالحواس الخمس، فقد توجهت إلى طريق النجاة، وإن كانت لم تحقق شيئا من الأشياء إلا ما تشاهده ببصر الجسد وسمعه وذوقه وشمه ولمسه، فهي موقوفة على طريق العطب ومقاساة العذاب بالغرق في كثائف المركبات.

عندما نشاهد هذه اللوحة الإنسانية الممتدة من الأنا المغلقة على ذاتها إلى الكيان المتوازن المنفتح، نلمح الاشراطات الكثيرة التي تقيد الإنسان . ونستنتج أن الإنسان يعاني من قلق داخلي مرده إلى عدم فهم

حقيقته، وذلك نتاج عوائق شخصية – فردية داخلية بقدر ما هي نتاج عوائق اجتماعية خارجية منحرفة الانعكاس، من غطاء كثيف للظروف المادية وغياب للمعرفة الحقيقية، وتحجر لأوهام الفكر التي أضحت أصناما من حجارة. وتعد هذه المعاناة قلقا داخليا ملازما لطبيعة الصراع الناشئ في الأنا، لرغبتها في التحرر من الإسقاطات الفكرية.

في هذه الحالة تكون الأنا منفعلة، وبالتالي قلقة.

ولقد عبر بعض الحكماء عن هذا الإحساس بالاحباط أو بالاغتراب أو الاستلاب . فالإنسان مغترب عن نفسه منفعل في واقعه ازاء الوجود وإزاء ذاته . فهو يعتقد بأنه "أنا منقذفة" في العالم، غريبة عن الحقيقة، لا يدري كنهها أو جوهرها . وهو يبحث عنها في اشراطاته، فلا يجدها وذ لك لأنه متمرد، منفعل ورافض ولا يتم الولوج إلى محراب الحقيقة إلا بالوعي الذي يميز عمق الأنا لينقذها ويحررها من ظلمة اشراطاتها، وظروفها وإحباطاتها وقيودها.

إذن، فالإنسان يبحث عن حقيقته، فيعجز عن إيجاد هذه الحقيقة في الأنا . وما الموقف الذي يتخذه الإنسان إزاء هذا العجز إلا موقف يشير إلى ضياع الكيان الإنساني في متاهات الأنا، فهو بقدر ما يرفض أناه يضيع في أناه، ويصبح عرضة لقلق أو توتر داخلي يقضي بدوره على تماسك كيانه ووحدة جوهره. ولا غرو، أن تحقيق الكيان الإنساني يتطلب جهدا للوعي يتدرج من إدراك الاشتراطات، والانتقال عروجا إلى الذات التي تنقسم إلى شعور ولا شعور، وإلى النفس التي تشير إلى توازن الشعور واللاشعور، وإلى الكيان لذي يشتمل على وحدة الوجود الإنساني هكذا نستنتج أن القلق نتاج انقسام الإنسان على ذاته ضمن عملية جهل، ومتى أدرك الإنسان حقيقة وحدته، توقف انقسامه، وهدأ معه قلقه.

كيف يسمو الإنسان بالأنا، مصدر القلق والشقاء إلى الكيان، مصدر الغبطة والسعادة؟

لا يستطيع الإنسان الإفلات من إشراطات الأنا إلا بطريقتين:

أولاً: لا يكمل الإنسان حقيقة وجوده الأرضي إلا بعلمه وإدراكه بأن تحقيق الوجود يتم من خلال ما هو عليه.

ثانياً: لا يسمو الإنسان في سلم حقيقته إلا بتعديل دائم للأنا. ففي هذا التعديل يصعد درجات كماله، فينتقل من الأنا إلى الذات إلى النفس، إلى الكيان، إلى الروح. ولا يتم هذا الانتقال أو التحول بالتغيير الذي يتخيله، وذلك لأن المرء لا يغير نفسه، بل يعدلها . وأن مثل هذا التعديل بدوره لا يتحقق إلا بتوفر الحقائق التي تساعد الإنسان على فهم قوانين الحياة، فمن لا يؤمن بخلود الروح مثلاً تلقائياً لا يمكن أن يؤمن بأهمية ما يصدر عن عالم الروح أصلاً. فبنور قوانين الحياة ينير الإنسان سبيله وهو يجتاز جسر حياته المرتبط في نهاية بلا نهايتين: لا نهاية قدم منها وأقبل عن طريقها إلى الوجود الأرضي، ولا نهاية يرنو إليها وهو يتجه إليها وفق حكمة الوجود وجدير به، وهو يجتاز جسر وجوده، أن يعلم بأنه لا نهائي حتى في منزله لزومه النهاية.

التقمص في الفلسفة اليونانية :

من أهم قوانين الحياة التي عالجتها الفلسفة هي مسألة خلود النفس ومصيرها بعد فناء الجسد وتحلله. الفلسفة اليونانية تناولت موضوع النفس الإنسانية، ودرستها بطريقة مفصلة وواضحة وعرفتها بتعريفات عدة . ففيثاغوراس مثلا، ذلك الفيلسوف الرياضي لم يحصر اهتمامه وعبقريته بعلم الأرقام والأعداد بل اهتم بدراسة النفس. فالفيثاغورية تؤمن بخلود النفس وتواتر الأرواح إذ تقول إن الإنسان عندما يموت تنتقل روحه إلى جسم آخر؛ إذ الروح أو النفس خالدة لا تفني بفناء الجسد حيث يروى إن فيثاغوراس كان متجسداً للمرة الخامسة (في الدور الآدم ي) وأنه يذكر حيواته السابقة . وفي هذا الموضوع نجد أن أفلاطون في محاوراته يركز على التقمص كقانون، فكما تتبع اللذة الألم واليقظة النوم وكذلك الحياة يتبعها الموت أو الميلاد الذي هو العودة الجديدة لدور الحياة المتجددة.

فإن التأرجح المتناغم للروح ما بين الموت والحياة هو النغمة الكونية منذ البدء . وهذا ما علمه أفلاطون عندما قال في مثاليته الروحية بأن التقمص ليس مسألة اختيار في الاعتقاد وليس عرضة للسفسطة والجدل إنما هو حقيقة الحقائق، وما على المرء إلا أن يدرك هذه الضرورة الوجودية وينسجم مع تناغمها الكوني أو له الحرية في رفضها والبحث في غياهب التساؤلات والأوهام

التقمص في فلسفات الشرق الأقصى:

كذلك نجد في الفلسفات الصينية والهندية من ينادي بخلود النفس بعد فناء الجسد وبعثها من جديد في حياة أخرى وجسد آخر.

يقول بوذا بخلود النفس وبعقيدة التناسخ أو ا لعودة للحياة انطلاقا من إيمانه بالسببية أو عقيدة "الكارما" التي تؤكد أن لكل شيء علة ولكل علة نتيجة فهي تتعدى الخبير والعدالة أنها تجعل الفرد وحده متحملاً نتيجة عمله، فالمرء إذا مقيد في سلسلة حلقات من التوالد التكرر، يولد هنا وبعد أن يموت يولد هناك. كالثمرة التي تؤكل وتزرع بذرتها لتثمر من جديد . قال "سامسار" (أو التقمص) هو عملية سير أبدي لدولاب الوجودات للشخص الواحد ولما كان عمر الإنسان قصيراً كان لا بد أن تنتقل النفس من بدن إلى آخر وفي كل بدن تكتسب معلومات جديدة.

مقتبسات من خلود النفس وحقيقة التقمص –راجع الضحى العدد 81 –تشرين ثاني 1998.

قانون الكارما:

ترتبط الظروف و "البيئة" الحياتية التي يمر بها الإنسان في تجسده الحالي بوشائج لا تنفصم عراها بنتائج أعماله في الحياة السابقة Karma ، فالميول والنوازع والأعمال التي يتبناها في تجسده السابق ترسم تفاصيل الحياة والبيئة التي سيولد مجدداً فيها، وحتى أنها تحدد الميول الفطرية للجسد الجديد وقدراته وإمكانياته والمحيط الذي يسهل، أو يعرقل، حصوله على المعرفة والقدرة على تحقيق الذات واستكمال ما عجز عن إتمامه في قميصه السابق، فالجسد هو بيئة الروح والنفس، كما ال عائلة والمنزل هما بيئة الجسد، وحصيلة الأعمال والميول هي التي تحدد البيئة الجديدة لتقمص الروح وذلك لحكمة إلهية في استخلاص العبر والاتعاظ، وإصلاح مسار الروح والتكفير عن سوء أعمالها وتصرفها وللتعويض عن تقصيرها في إدراك المعارف الإلهية والتوجه الصادق نحو الخالق بنقاء النفس وصفاء السريرة. إن المميزات الرئيسية لشخصيتنا في كل تقمص تتبدل وتتغير وفقاً لتغير البيئة والظرف، والطبع والميل، لكن الجوهر الداخلي للذات العليا في النفس أو الروح البشرية يبقى ثابتاً لا يتغير ويتغذى بكل التجارب والاختبارات الروحية والجسدية عبر تعاقب الحيوات وتبدلها. إن الذات العليا هي شرارة إلهية ونواة روحية لكل تجسد إنساني، في حين تعتبر الذات الدنيا بمثابة ظهورات متعاقبة متغيرة للذات العليا في وعاء المادة حيث تكسبها الغنى الروحي والتطور والتناغم عبر

إدراكها لحكمة التجارب والمحن. هذا هو أحد المبادئ الروحية الرئيسية للتقمص، إن جوهر التجربة ومغازيها والأهداف السامية التي تكمن وراءها تترسخ في الذات العليا في سياق تطورها ورقيها في معارج السمو، لذا إن ما يدوم وينتقل عبر كل التقمصات هو خلاصة القيم والمبادئ الروحية والجوهر الأخلاقي الذي هو غذاء الروح عبر كل الأجيال، في مسيرتها من حياة إلى أخرى لتسمو في مدارج التسامي وديمومة الاختيار وسيرورة الترقي لاستكمال سعادتها الأزلية الخالدة عبر رحلتها اللامتناهية في تبدلات ثوبها التجسدي، وذلك بتسديد ديون الكارما والغفران والتطهر بالمعاناة والآلام والمكابدة ودفع ثمن نتائج الأعمال المعجلة، عبر الحياة الواحدة، والمؤجلة عبر تعاقب الحيوات. وكلما عرف الإنسان ذنوبه ونتائج أعماله، وتقبل عقابه بصبر ورضى وتعقل، سدد دينه وتخلص من أثامه بسرعة دون اعتراض وبمنتهى الرضى والتسليم لأن ذلك مقتضى العدل الإلهي.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه:

هل يستطيع الإنسان أن يعرف ما اقترفت يداه وما اجترح من أعمال سيئة أو خيرة في حياته السابقة؟

لا يستطيع الإنسان تذكر حياته السابقة إلا في بعض حالات النطق التي يتذكر فيها الطفل بعض الذكريات البارزة من تجسده السابق، والنسيان هو نعمة إلهية للنفس كي لا تنفطر من وطأة الآلام والمعاناة التي اختبرتها في الحياة السابقة، لكن بعض التأمليين الذين سبروا أغوار ذواتهم لاستخراج دررها المكنونة استطاعوا أن يتعرفوا على بعض اختبارات تجسدهم السابق.

حين يريد التلميذ استظهار قصيدة من غياهب ذاكرته، ما على الأستاذ سوى أن يذكره بالكلمة أو الجملة الأولى، وبقية القصيدة تتدفق تلقائياً من ذاكرة حافظته، وكذلك الأمر إذا استطاع المتأمل التقاط لمحات من حياته السابقة في تأمله العميق في ذاته العليا، فإنها قد تفتح له صفحات من التجارب والاختبارات يستخلص منها العبر وتجلو له أسباب معاناة حياته الحالية . والتقنية هذه تبدأ بالتركيز على مشكلة نعتقد أنها وليدة أعمال سابقة وجذورها ضاربة في تفاصيل التجسد السابق، وتلك المشكلة تكون بمثابة خيط دليل يشدنا عبر أنفاق الوعي المتعاقب نحو مخزون اللاوعي الروحي

إن صفاء الروح ا لمتأملة يتخطى أبواب الحواس الخمس ليسمو لما وراء حجبها المسدولة لتركيز الأنوار وتسليطها على مرآة الذات والنظر بعين العقل، في استغراق تأملي بجوهر المشكلة التي ينبئنا حدسنا بأنها نتيجة تجارب سابقة دون الوقوف على تفاصيلها أو الحكم عليها، نكون قد اتخذنا مفاهيم الكارما غذاء للروح وعظة للنفس ودرساً لحياتنا الحاضرة لجعلنا أكثر رضى وتقبلاً للواقع الذي نصنعه ونلوم الآخرين غالباً.

إذا استمر التأمل على هذا المنوال ما بين اليقظة والنوم، تلك الفترة التي يعتبرها البعض مصدراً للإلهام والعبقرية، دون أن نبذل أي جهد ظهر لمحات أو ومضات من الصور على شاشة الوعي، وهنا يجب عدم التوقف عند هذه الصور أو إجهاد أنفسنا في استنباط معانيها وذلك لنجعلها تبرز بعفوية. إن المهارة في تطبيق هذا المنحى التأملي تقع في استنباط معانيها وذلك لنجعلها تبرز بعفوية . إن المهارة في تطبيق هذا المنحى التأملي تقع في التقاط الانطباعات واللوحات البصرية التي تتوفر لنا حين يعبر العقل من حالة وعي إلى أخرى، وحين يتمازج مستويان من الوعي نكون قد وصلنا إلى نقطة التقاء ما بين الوعي الموضعيCconsciousness وما دون الوعي subconsciousness، إن الانطباعات العفوية هي ا لأكثر قيمة لأنها تنبع من اللاوعي unconsciousness وتطفو على سطح "ما دون الوعي "، في حين أن الانطباعات التي توجه وتخضع للإرادة تنبع من الوعي الموضعيconsciousness.

بصبر ومتابعة يكتسب المتأمل مهارة في استخلاص تلك الانطباعات حين تفتح أبواب الوعي وتهب نسمات صورية وشعورية من باب إلى آخر لتحمل معها "أجواء" من المشاعر وخلاصة التجارب السابقة، تتحقق البراعة في الانزلاق بسهولة وسلاسة، بعين البصيرة، من حالة وعي إلى أخرى . إنها محاولة تأرجح توازني بين جناحي الوعي، للدخول في مخزون اللاوعي، وكلما كانت الذكريات قريب ة من السطح كان ظهورها أسرع وأوضح . إن تكرار العملية هذه يظهر لمحات صورية قد نستطيع تركيب لوحة تذكرية منها . وهنا حين تظهر ذكرى تقمصية سابقة فإنها تعرف من العاطفة التي تصحبها . إذا ما بين اليقظة والنوم، نستطيع مشاهدة انطباعات بصرية متتالية على شاشة الوعي تسبح أحيانا أمام أعيننا المغمضة مشحونة بأحاسيس وعواطف الحياة السابقة !! وكلما كانت الصور أكثر دراماتيكية وتأثيراً في تلك الحياة صحبتها مشاعر جياشة و "أجواء" عاطفية، وقد لا تتعدى كونها لمحة عابرة أو ومضة بصرية خاطفة لغرفة أو قرية

عشنا فيها يوماً أو مدرسة جلسنا عل ى مقاعدها في "جيلنا" الماضي، وتثبت تلك العاطفة الجياشة حقيقة التجربة، وعلينا في تلك اللحظة أن نركز على هذه المقتطفات البصرية حتى لا تذوي في طيات اللاوعي ونفقدها مجدداً. قد تكون هذه العواطف سارة لكنها قد تكون مؤلمة أو حزينة أيضاً، لذلك يقتضي الحذر حين تنفتح مغالق ما دون الوعي ومنافذ العقل الباطن (اللاوعي) ليتدفق نزر يسير من المخزون الروحي الذي غالباً ما يكون كافياً لإحداث يقظة مشاعر وتفكير وندم في ما اقترفت النفس عبر تجسداتها، وفي دين "الكرما" الذي يتوجب على الإنسان أن يسدده ليتحقق القانون الإلهي العادل، فإن صعوبة زماننا هي نتيجة لسوء أفعالنا فلا بد من تحمل تبعات الأعمال، ولا بد في المقابل من أن تسنح الفرص للتكفير عنها في حياتنا الحاضرة ولا بد من الاستفادة وأخذ العبرة وتلافي الأخطاء وبالتالي عدم الوقوع تحت أعباء ديون جديدة.

إن هذه المقتطفات تكون بمثابة روابط مغنطيسية تجذبنا إلى اختبارات حياتنا السابقة، وإذا زود الوعي بالملامح الصورية الكافية باستخدامه تلك اللمحات والومضات الآنفة الذكر لإظهار حقيقة تلك الانطباعات والتأثيرات العاطفية، فمن المحتمل مع دراستنا البيئة والمحيط اللذين ترسمهما لنا تلك اللمحات أ ن نتعرف على مكان وزمان تجسدنا السابق في تأملنا لمجموعة الذكريات والعواطف المصاحبة، لعلنا ندرك سبب تقصيرنا وسوء أعمالنا التي انعكست نتائجها علينا عذاباً أو شقاء أو معاناة وحرمانا، فتلك الأعمال كما ذكرنا هي التي ترسم لنا مكان ولادتنا الجديدة والبيئة والجسد و العائلة والوضع الاجتماعي وحتى الظروف التي تسهل أو تعرقل معرفتنا لحقيقة الوجود وإدراك جوهر الذات والحكمة الإلهية . فأعمالنا السابقة تحدد توجهاتنا ومشاعرنا وأحاسيسنا في كل لحظة نعيشها في الحاضر ومن لطف الله بنا أننا لا نتذكر بالتفصيل أسباب هذه المشاعر والأحاسيس فقط نعي بعض الشيء من المنطق الذي يحركها . قلة قليلة كالأنبياء والرسل المقربين لديهم القدرة على تحمل هول الذاكرة الكونية.

لقد عرف بوذا مثلا عدة أدوار سابقة له وتذكر كيف ترقى عبرها في معراج المعرفة حتى وصل إلى مرحلة البوديستاف، والفيلسوف الإغريقي فيثاغوراس تذكر أكثر من خمس حيوات سابقة، كان في إحداها بطلاً شارك في حرب طروادة. إنها تجربة لا تقدر بثمن حين نتذكر الأعمال التي اقترفناها سابقاً وندفع ثمنها الآن ليتم العدل الإلهي، إن إدراكنا لمسببات الكارما هو امتداد لآفاق بصيرتنا ووعينا وتطورنا الروحي

ومعارفنا الدينية وخير دليل يساهم في صناعة قدرنا المستقبلي . "فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره". إن حصاد نتائج الأعمال ومنتهى الحكمة والعدل يتجلى معاني الرحمة الإلهية.

قانون الكارما والعدل الإلهي (رحلة عبر أنفاق الوعي) – راجع الضحى العدد 73 – آذار 1998.

لقد أذهل غايس النائم غايس الصاحي، كما أسلفنا، عندما بدأ ينطق بأمور فلسفية وماورائية مثل التقمص وسوى ذلك، وهي أمور أبعد عن ثقافة غايس (الصاحي) العلمية، فضلاً عن أنها تتعارض مع إيمانه الديني الذي ترعرع عليه، وقد أخذت منه هذه ا لمفارقة بعض الوقت حتى سلم بها وأذعن لها . وهو يقول، أو بالأحرى تقول القراءات، إن النفس الإنسانية موجودة بحد ذاتها وفيما يتعدى الجسد الذي تسكنه بإرادتها وهي بذلك تختار جسدها، ووالديها، وعقباتها وامتحانات حياتها التي ستبتلي بها، والبعثة التي قدمت من أجلها. ولذلك قد يكون امتحان الغنى أشق على بعض الأنفس من امتحان الفقر، وقد تستكمل النفس ترقيها ومعرفتها عبر سلسلة من التقمصات، ويكون دورها في كل جيل تكملة لما توقفت عنده في جيلها السابق... وهكذا يكون مبدأ "الكارما" تأثيراً للحيوات الماضية، وهو عادة في طي النسيان، في الحيوات اللاحقة... وقانون الكارما هذا يختلف عن قانون (السبب والنتيجة) Cause and Effect في شيئين إثنين:

الشي الأول: إن الكارما تشتمل في نطاقها على مجموعة من الحيوات، بينما قانون السبب والنتيجة يتحقق في نطاق الحياة الواحدة.

أما **الشيء الثاني:** فهو أن قانون الكارما ليس حتمياً كقانون (السبب والنتيجة)، ويمكن للنفس الراقية محو ديون الكارما عن طريق المحبة وعدم معاندة الخالق والترقي في المعرفة والانخراط في واجب الخدمة وهذا ما يفسح المجال لتطبيق قانون آخر هو قانون (الفضيلة) Law of Grace وإلا فإن قانون الكارما يطبق بشكل لا مناص منه وجزاء بجزاء، أو لربما يتعاظم حجم الكارما بالنسبة للنفس الجاهلة العاصية، فتتراكم عليها ديون جديدة. ولا يمكن بأي حال لأي نفس أن تورط نفسا أخرى في (كارما) إذ لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت.

مقتبسات من مجموعة الضحى لادغا غايس.

التقمص في علم النفس:

يعتبر علماء النفس أن انفعالات الحالم والصور الذهنية التي يشاهدها أثناء نومه ما هي إلا وليدة ذكرياته وتجاربه اليومية وأحاسيسه المتراكمة التي تتركب منها الأحلام بإبداع سوريالي لكن هل تساءلنا يوما ماذا يحلم الطفل الوليد لتظهر كل تلك الانطباعات على وجهه منذ أيامه الأولى، من خوف ودهشة، وغضب وحزن، وفرح وبشاشة فضلاً عن انفعالات أخرى؟.

هل رأيت مولوداً نائماً وهو يضحك ثم يحزن ثم يغضب، ثم يمتلئ وجهه فرحاً وبشاشة، وعيناه تتقلبان تحت جفنيه ذات اليمين وذات الشمال وعيناه تتقلبان تحت جفنيه ذات اليمين وذات الشمال وكأنه يخاطب أحداً؟ وإذا سلمنا جدلاً أن بعض التنبيهات الحسية كالجوع أو الألم والبرد تجعل الوليد يبدي انزعاجاً أو بكاء، ماذا عن الانطباعات العاطفية الأخرى، وما هو مصدرها، وهل تلعب الفطرة الغريزية أو العوامل الوراثية والهرمونات الأمومية دوراً في تحريكها وإظهارها كما يدعي البعض؟

إنها شطحات علمية غير مقنعة، لأن التنبيهات الحسية لا تتوالى بهذه السرعة والمزاجية لكي تتعاقب تلك الانفعالات على وجه الطفل . إن المواليد الجدد يظهرون أثناء "النوم المضطرب" انفعالات أساسية لا تتكون مسبباتها عند الطفل في يقظته قبل مرور أسابيع عدة يكون قد تعرف بعدها على محيطه وبيئته وبعض التجارب الأولية، في حين أن الانطباعات التي تظهر لدى الطفل في حالة الحلم هي بعيدة عن متناول ذاكرته وإدراكه الحديث، حيث يمضي الطفل معظم يومه نائماً وحالماً!

مراحل النوم:

ولنلق الضوء على آلية النوم وحدوث الحلم كما أظهرت الأبحاث السيكولوجية الحديثة التي تمت بفضل جهاز تخطيط الدماغ E.E.G كي نتعرف على فترة النوم المضطرب الذي يحدث فيه الحلم بعد أربع مراحل متعاقبة من النوم البطيء وهي:

المرحلة الأولى: مرحلة النعاس وبدء النوم حيث تبدأ موجات ألفا الدماغية بالتلاشي

المرحلة الثانية: تلي المرحلة الأولى بدقائق قليلة، حيث تستقر الموجات البطيئة على عمقها، وتظهر أثناءها ظاهرة علمية تسمى "معزل النوم" Spindle تسببها موجات "بيتا" Beta.

المرحلة الثالثة: وهي مرحلة الانتقال نحو النوم العميق، وتظهر أثناءها موجات "دلتا" Delta.

المرحلة الرابعة: يسود النوم العميق مع موجات دلتا أكثر بطئاً. ويطلق على هذه المراحل الأربع اسم النوم البطيء S.O.L.

أما **المرحلة الخامسة:** وهي مرحلة النوم المضطرب أو النوم المفارق كما أطلق عليها العالم الفرنسي "جوفه" Jouvet، فهي المرحلة التي تظهر فيها الأحلام حيث يصعب إيقاظ النائم، وتعرف أيضاً باسم "فترة النوم ذي الموجات السريعة " S.O.R التي تظهر أبانها "حركة العين السريعة " R.E.M (Rapid Eye Movement). وهذه المستويات الخمسة تحدث بشكل متعاقب عدة مرات خلال النوم ويتعاقب ظهور الأحلام في آخر كل دورة.

إن فترة النوم المفارق تستغرق أكثر من ربع مرحلة النوم عند البالغين في حين أنها تستغرق أكثر من 60% من مدة نوم الطفل في اشهره الأولى و 30% في سنته الثانية وتتناقص هذه الفترة حتى سن السابعة أو الثامنة حيث تطغى مراحل النوم البطيء . والطفل، كما هو معروف سيكولوجيا ، ينام في أشهره الأولى أكثر من 16 ساعة يومياً وتحتل فترة النوم المضطرب أكثر من 60% منها كما ذكرنا، أي وبلغة أخرى أن المولود الجديد يحلم فترة كبيرة من يومه وهو لم يختبر بعد العالم المحيط به في اليقظة ولم يدرك عناصر كافية ليتم تركيبها في الحلم . إذا ماذا يحلم المولود، وما هي الصور والخبرات التي تتركب منها أحلامه؟ ولماذا نسمعه أحياناً يبكي وهو يحلم وعلامات الحزن بادية على وجهه؟ ليست التنبيهات الحسية وراء هذا بالتأكيد!!!

عناصر الحلم الطفولي:

إن الحلم الطفولي يستمد عناصره من ذكريات الحياة السابقة حين يستح ضر صوراً ومشاعر من التجسد السابق يصعب إيجاد رابط لها في الحياة الحاضرة، فللأحلام سلطان على ذكريات الحالم لا تنال في

حياة اليقظة فقط بل غالباً ما تكون بمثابة خيط دقيق يصل الحالم بحياته الغابرة، ويربط واقعة الحالي بالهدف النهائي السامي لتعاقب تجسداته، فالحلم ينطوي على معان تفوق دلالاتها المعاني الذهنية، فهو يرتب وينظم الصور والذكريات والمشاعر وفق منطقه الخاص الذي يخالف منطق اليقظة، لذلك يتسلل الحلم إلى الذاكرة أثناء النوم ويستخرج الذكريات والمشاعر من أعماق اللاوعي ويستخدم صوراً بصرية انفعالية مستخلصاً تجارب معاشة في حيوات سابقة، فهو يمهد الطريق إلى أعمال النفس ويفتح نافذة مشرعة نحو آفاق متباعدة من الخبرات والمعاناة السابقة بلغة رمزية تحتاج دلالاتها وإشاراتها ومعانيها المرمزة إلى تأويل لفهم مغزى رسالتها التي غالباً ما تكون توجيهية أو تحذيرية. إن معرفة الأحلام وتحليلها هما أشد عمقاً من تحليل سلوكنا اليقظ، وما عجزنا عن فهم ما تنطوي عليه بعض الأحلام إلا نتيجة تقصيرنا عن معرفتنا لأنفسنا في حالة اليقظة ولعدم إدراكنا لأسباب وجودنا.. من أين وإلى أين...؟

رسائل الذات:

تجد النفس حكمة في تقليب صفحات الحيوات السابقة وإعادة تجسيد بعض التجارب في صور ذهنية حلمية لكشف بعض الجوانب المظلمة ولاستخلاص العبر كي تدرك مسارها الروحي وتطوره ولتجد قسطاً من الطمأنينة في التجسد الحاضر بتذكر بعض تفاصيل "الجيل" الماضي لفهم الحاضر وتقبله . ولهذا السبب اعتقد بعض الشعوب القديمة أن روحا حارسة تخاطب الأرواح من خلال الحلم برسائل إيحائية مبطنة تساعد الإنسان على فهم شخصيته، فإن لغة الأحلام هي بمثابة رسائل غير كلامية، والفهم الحقيقي لرسالة الحلم ومغزاه يجعلنا نفهم وجودنا الحالي أكثر عمقاً ووضوحاً، ويساعد في حل المشاكل التي تواجهنا، فاللاوعي أو العقل الباطني unconsciousness ليس سلة مهملات يرمي فيها الوعي كل الممنوعات الأخلاقية والمكبوتات النفسية. كما أن الأحلام ليست لغة رمزية سرية تعبر عن اندفاعات الرغبات كما يدعي "سيغموند فرويد"، بل هي تجارب نفسية تدفع الإنسان نحو الفضيلة وانتهاج الأعمال الصالحة فتغني تجارب حياته وتضيء بعضاً من جوانب وعيه.

إن الأحلام المتكررة منذ الطفولة، التي تعاود الظهور وبنفس المضمون الذي لا يمت بصلة إلى أي من ذكرياتنا أو خبراتنا أثناء اليقظة، هي نتيجة للروابط الاستدعائية لمغزى روحي . ومن هذا المنطلق اعتبر

العالم النفساني "بورداخ" أن الأحلام هي إحدى المكرمات الخفية في طبيعة الروح المنطوية على دوائها، فيما رأى العالم البريطاني "هادفليز" Hadfiels أن للأحلام وظيفة أساسية هي حل مشاكل النفس، فالحرمان من الحلم يؤدي إلى حالات جنون وهستيريا، وولوج أبواب الحلم العاجية يغمر النفس أ حياناً بهالة من الرهبة والقداسة لتحلق في جو أثيري وأطياف تذكرية هيروغليفية، حيث تصدح لغة العقل الباطن بمخزونه وتوجهاته الروحية، وحيث تمرح خبرات منسية في أعماق الذات لتلعب على مسرح الحلم فصولاً نورانية ذات رسالة هادفة، ولذلك أعتقد الشاعر النفسي "جيرار دي نرفال" أن الإنسان يعيش حياة ثانية في الحلم في خط متواز مع حياته الواقعية، في حين أقر عالم النفس الشهير "كارل يونغ "، مؤسس علم نفس الأعماق Transpersonal، بوجود أصل دائم وراء شخصيتنا المتبدلة، هي الذات العليا التي ترتدي ثوباً جسدياً أي الشخصية الخارجية لتكتسب تجارب غنية، ويعتقد أن الذات الدائمة تلك تعيش مجدداً في شبه حلم، كل تجاربها السابقة لحكمة بالغة.

حين نعبر من عالم الواقع المادي إلى عالم الأحلام الروحاني، تبدأ الذات باستعراض صور تكبها في لوحات سوريالية وتسترد ذكريات غابرة وعواطف دفينة منذ أجيال لتدلج رسالة روحانية...

لنقرأ هذه الرسالة بعمق، ولنصغ إلى نداء الحلم علنا نفقه المغزى الروحي .. "لا توقظوا النيام وهم يحلمون..!!

لغة الحلم وذكريات الحياة السابقة (الأحلام.. رسائل روحانية على مرآة الوعي) – راجع الضحى العدد 71– نيسان 1998.

يقول البروفسور الأخصائي "د. أيان ستفنسن"، منذ حوالي أربعة عقود في أبحاث التقمص وما يتعلق به. أنه يضع ست ملاحظات على افتراضات مؤسس علم النفس الجنسي، سيغموند فرويد حول موضوع التقمص:

أولاً: أنه اعتبارا لأقول ومشاهدات العديد من الشهود لحالات عديدة من شواهد التقمص، أن تفسير فرويد للموضوع بأنه من عمل المصادفات أو فعل الذاكرة الجمعية في الذاكرة الفردية لشخص ما هي افتراضات لا تصح أبداً في تفسير أكثر حالات التقمص التي درستها

ثانياً: كذلك تفسرها بالتشكيل الذهني والتي تفسر بالمراجع الحديثة بالذكرى الخفية – قد تكون مقبولة نوعا ما في بعض الحالات القليلة الضعيفة التأثير . أثر تعارف أسرتين تذكر أحداها، إسم أحد أفرادها المتوفين، مع نبذة عن ميوله وأعماله وآثاره وأقواله . لكنها بالفعل تنتقص كلية في الحا لات الغنية بالتفاصيل حيث يحتفظ الطفل بطبيعة شخصيته السابقة في جيله الماضي، لأكثر من سبع سنوات أحيانا دون أي تغيير جوهري في وعيه وشخصيته طيلة هذه المدة . كذلك لا تستطيع افتراضات فرويد أن تفسر لنا، معنى المعلومات الشخصية الحميمة والخاصة التي يحملها الطفل من ج يله الأسبق وشخصيته الماضية دون الافتراض أن علاقات واسعة ودقيقة، قد قامت بين الأسرتين، هذه العلاقات العامة التي لم يتم حصولها في أكثر الحالات . بل كثيراً، ما كانت تحصل عرضا أو صدفة.

ثالثاً: الحواس الخارقة وإدراك ما فوق الحواس بحسب التفسير الحديث للمادة . مع القدرة المتفوقة على التمثيل أو التشخيص هذا الافتراض يجب أن يبتسر كثيراً حتى يمكننا من تفسير بعض الحالات النادرة الغنية بالظروف والوقائع.

إذ كيف يمكن لهذا الافتراض أن يفسر لنا، التنظيم الدقيق والصحيح للمعلومات في ذاكرة الطفل، عن طبيعة حياته السابقة وطبعه وانطباعاته وميوله في الشخصية الأولى المتوفاة وليس لهذا الافتراض أن يجيب أبدا عن سر المهارات والمهن التي يتقنها الطفل، والتي لم يكن ابدا قد عرفها أو تعلمها في حياته الجديدة.

كذلك يعجز هذا الافتراض، أن يبين لنا، لماذا تحافظ شخصية الطفل لسنوات عديدة، وبطبيعة وطيدة، قريبة بل مشابهة تماما، في أكثر الأحيان لماهية الشخصية السابقة. دون أن يكون للطفل أي دوافع أو حوافز تدفعه أو تحفزه لذلك.

كذلك يستغرب، أن يكون للتأثير الأسري، أو العائلي، القدرة على جعل الطفل يستمر في شيء . الأمر الذي لم يلاحظ علماء النفس، ولا الأطباء النفسيون، وجوده حتى لدى الأطفال المضطربين نفسياً، وغير الأسوياء على أي صعيد كان.

رابعاً: المهارات التي يحسنها الطفل ولم يكن قد عرفها أو تعلمها أو حتى ورثها من أبويه . هنا لا بد أن نضع احتمالين: الاستحواذ أو التقمص؟ ولكننا لا نستطيع أن نقطع بأحد هذين الاحتمالين من مجرد درس المهارات الجديدة فقط.

خامساً: لأن أكثر ملامح وظواهر هذه الحالات لا تسمح لنا بالافتراض الجازم لأحد هذين الاحتمالين، الاستحواذ أو التقمص.

لأن مطابقة الكثير م هذه الحالات في تذكرها للجيلين بدقة وصدق يجعل الموضوع في غاية الدهشة لأن من المعروف، أن في علم النفس قانوناً يقول (التعرف يزيد التذكر)، واعتبارا لأصول هذا القانون الأكيد، لا بد من تفسير هذه الظواهر جميعها بحسب نظرية التقمص التي تهيمن هنا على كامل الموضوع وتصبح أكثر معقولية بكثير من نظرية الهيمنة أو الاستحواذ

سادساً: أما الحالات التي تظهر فيها عند الولادة أنواع من المعاملات أو أحيانا تشوهات خلقية ما . فهذه العلامات الأكيدة الموثوقة تقطع بصحة تفسير التقمص للموضوع دون أدنى لبس أو شك. وحيث أن هذه الحالات لا يمكن تشويهها أو تفسيرها بحسب أية أفكار نظرية، أو نظرات فلسفية أو نفسية، لأنها وقائع محصنة لا تقبل غير التفسير العلمي.

فهي لذلك، وعلى كل حال . تتضمن الحالات الواضحة الصحيحة وهي تعطينا بصورة قاطعة مميزة، الدليل على صحة تفسيرها بالتقمص وتستبعد أي تفسير آخر يمثل امتلاك الحواس الخارقة للذاكرة الخفية أو الاستحواذ.

وقد كنت في دراساتي وأبحاثي السابقة، محايداً تماماً، بين كل التفسيرات والنظريات في عالم النفس بالنسبة للقطع برأي نهائي في هذا الموضوع

وقد حافظت على هذا الموقف، وقد كنت أظن أن في ذلك موضوعاً، من تشكيل الذاكرة بالإضافة غلى بعض التخاطر العلمي الماضوي . ولكنني وجدت نفسي أخيراً، آخذا برأي التفسير الخلودي والاقتناع بالتقمص، كتفسير وحيد لجميع هذه الظاهرات والظواهر التي حيرت العلماء لأجيال وأجيال . وحيث كنت أشغل نفسي دائما في التفتيش على الأدلة المصدقة للتقمص وجدت أن كل هذه الوقائع لا بد أن تجد تفسيرها الصحيح في موضوع التقمص الذي يعطيها حقيقتها ويستجيب لكل القضايا والتساؤلات التي تطرحها . لذلك أرجو أن يقتنع تلاميذي وقرائي أنني قد توصلت إلى ذلك الاستنتاج بطريقة علمية . وأنا أقول ذلك لهم بكل صدق ويقين بعد أن عرضت واستحضرت ما لا يحصى من الشواهد والأدلة . وكانت قناعاتي هذه تزداد اطرادا كما تقدمت في أبحاثي وتعمقت في تحليل الوقائع التي حصلت عليها بعد طول العناء

وهذه القناعات قد زادت كثيراً وأصبحت أغنى خاصة بعد مشاهدة الكثير من الحالات المخ تلفة والمتنوعة من ذكريات الأطفال العديدين الذين تأكدت بكل الوسائل الممكنة أنهم كانوا يحملون فيها معلومات مهمة، دقيقة التمثيل والتشخيص، لشخصية خاصة، حميمة، وصادقة عن أجيالهم السابقة وشخصياتهم الماضية ومن أهمها ممارسة مهارات ومهن لم يتعلموها في جيلهم الحالي، بكفاءة ممتازة أو معقولة . وكذلك من العاملات التي رافقتهم منذ ولادتهم والتي كانت تميزهم في حيواتهم السابقة أو التي احتفظوا بها على أثر موت مفجع من ندب على أثر عملية ذبح في جيل سابق، أو أثر رصاصة أصيب بها أحدهم في حياته الماضية فانتقلت صورتها في الطفل الوليد منذ الولادة. كذلك منها بعض التشوهات الخلقية التي رافقت الوليد الجديد.

كل هذه الدلائل، جعلتني أرى في افتراضات فرويد أفكارا سلفية سبقها الزمن فتجاوزها ورفضها . العلم لا يقف ولا ينتظر . بل هو دائماً يفتش عن حلة جديدة وحقيقة ذات برهان يقف عليها ويقوى به لأن العلم هو الحياة والحياة التي ترتكز على العلم تستمر وتبقى وتخلد بينما تسقط الأوهام وتضيع في متاهات الغمام

التقمص حقيقة علمية عالمية (للأخصائي الدكتور أيان ستيفنسون) – راجع الضحى العدد 79 – أيلول 1998.

كيف تؤثر الأجيال السابقة في الجيل الحاضر؟

قال الأخصائي النفسي "جيردهام" إن مهمتنا التالية في طريق نمونا وتطورنا هي مهمة معرفة وتمييز مدى تأثير الفكر المتغلغل في المادة، ولقد بين في كتابه We Are One Another أن سبب اهتمامه بتجارب الأجيال الماضية هي لجهة تأثيراتها المرضية في الجيل الحاضر، كما تصادف في أثناء العمل على تحليل أسباب عدم استجابة تلك الأمراض للوسائل الطبية الحديثة، أن مردها هو تلك الكوامن الدفينة الضاغطة من حياة سابقة على حياتنا الحاضرة، هذه الاكتشاف ات تم التوصل إليها في الولايات المتحدة الأمريكية حديثاً وبدأت في الانتشار عبر المحيط. طريقة تأثيرها وعملها وصفها الأخصائي النفسي "موريس نذرتون" من "لوس أنجيلوس" بالتعاون مع زميلته "تانسي شيفرين"، وهو مؤسس معهد الوعي بالحيوات الماضية في كتابها وعنوانه "المعالجة بالأجيال الماضية".

يكتب "تذرتون" أنه يؤمن إيماناً قوياً مطلقاً في طاقة وقوة العقل الباطني، ليس فقط على التقاط أحداث من الأجيال الماضية فحسب، بل على مدى إمكانية تأثره بما يلتقطه من عوارض مرضية حادة، وهي التي تترك الناس في حال من الذهول والشك وا لريبة. كتب "تذرتون" أن مرضى عديدين يشككون بحقيقة التقمص لأنه لم يجر حتى الآن التأكد منها وإقرارها كحقيقة ثانية، وهو لا يجادل في ذلك ويقول : "إنه يشك فيها، لكن طالما أن هناك إمكانية لإجراء تجارب من أجل إثباتها وتأكيدها، يجب أن نأخذها بتجرد كفرضية ملائمة مريحة تترجم ترجمة منطقية، كيف أن أفراداً وهم في شبه غيبوبة يصبحون أشخاصاً آخرين يتكلمون وكأنهم يعيشون في قرن زماني آخر، أو حقبة زمانية أخرى ويأتون بإثباتات ودلائل، أو يتكلمون لغة غريبة ثم يقول: "ليس هدفنا إثبات حقيقة التقمص أو حقيقة تجارب التقمصات السابقة، هدفنا الحقيقي والمهم هو إثبات فعاليته أثناء استعماله كأداة في شفاء المريض من اضطرابات سلوكية نفسية اجتماعية.

أشرطة تسجيل بلوكسهام :

ربما تكون الأشرطة حالة معروفة عن تجارب جيل ماض، جرى استرجاعها تحت تأثير التنويم المغناطيسي، أجراها "أرنولد بلوكسهام" وهو معالج في التنويم المغناطيسي تلقى دراساته في كاترديف في مقاطعة ويلز، تحت التنويم صارت "جانز إيفانز" امرأة أخرى تدعى "ريبيكا" عاشت في "يورك" في القرن

الثاني عشر وكانت إحدى ضحايا "البوجروم" في سنة 1189، فقد عاشت في سرداب مظلم تحت كاثيدرائية، ووجود مثل هذا السرداب كان مجهولاً لغاية قيام التليفزيون بتصوير برنامج تلفزيوني بريطاني وليس من الممكن أن تكون قد عرفته في هذا الجيل، وكان هذا أساساً لكتاب لـ "جيفري ايفرسون" المعنون بـ "أكثر من حياة واحدة".

More Lives Than One ومن وجهة نظرهم الخاصة ليس المهم أن كانت استعادة "جانز ايفانز" تجربتها المرعبة في أثناء التنويم المغناطيسي، هي نتيجة استعادة تجربة في أحد الأجيال الماضية فربما تكون لما يظن البعض انبثقت عن تخيلات ذاتية صادرة عن كوابيس حلمت بها والتصقت وتكثفت في عقلها الباطني، فهم يناقشون أن مشاعر مكبوتة أيا كان مصدرها، إن لم تستخرج من العقل الباطن قد تصبح سبباً مدمراً لحياتنا ويبين "موريس نذرتون"، كيف تظهر آثار العجلات أو آثار الحروق ع لى جسد المريض أثناء استعادته صدمات قديمة من أجيال ماضية خلال التنويم المغناطيسي كما حدث لهؤلاء البريطانيين، الذين تبين أنهم "كاثاريون"، في حيواتهم السابقة، لاقوا حتفهم تحت التعذيب في المعتقلات بسبب انتمائهم لإحدى الجماعات الدينية المتصوفة الزاهدة . وفي أحيان كثيرة تظهر آثار الأجيال السابقة بشكل كوابيس مخيفة تتراقص على بحر الوعي، لكن تأثيرها السيء يزول فيما بعد كما يحصل في الكوابيس الليلية التي تزول آثارها في حالة الاستيقاظ. من هنا نرى مصدر كل ما هو مستعاد باطنياً أثناء العلاج بالتنويم المغنطيسي، غير مهم على الإطلاق سواء أكان مصدرها في حيوات ماضية أم خيالي بسبب كوابيس لا أساس لها من الصحة.

ليس المهم إثبات حدوث هذه التجارب المؤلمة أم لا، بل المهم فعلاً أن هناك أحداثاً موجودة في عقل المريض تظهر وتؤثر عليه في يقظته وفي أحلامه، وهدف هذه المعالجة إبرازها للوعي ليتم إدراكها، ثم إزالتها وإزاحتها.

يقول الكاتب "فيور" في مقدمة كتابه You Have Been Here Before (أنت أنوجدت هنا من قبل) إن "هدف هذا الكتاب هو تقديم نظرية التقمص والكارما للقارئ لكي يحاول أن يفهم لماذا نحن هنا وكيف نستطيع الارتقاء بأنفسنا. ليست مهمتي إقناع أي فرد بتغيير معتقداته في الماورائيات أو الأثير بأي

طريقة على المعتقدات الدينية أو الروحية، ومن لديه تساؤلات عن هذا الموضوع فهذا الكتاب يفيدهم كثيراً أما التساؤلات من نوع : هل هناك تقمص وما هي خياراتنا إذا كانت لدينا خيارات؟ فهذا الكتاب يجيب عن تساؤلاتهم. الأحداث التي أرويها في هذا الكتاب ضرورية لفهم الكارما في مضمار السببية cause & effect كل امريء لديه كارما وهي حلقة متصلة وفهمنا واستيعابنا لهذه الكارما يجعل حياتنا أسهل، وهدفي من الكتاب مساعدة الإنسان على تفهم ما يفعله وبذلك يتجنب تكرار الأخطاء ف ي الحاضر والمستقبل أي جيلاً بعد جيل. عندما أقوم بتنويم مغنطيسي لمريض أتوصل إلى فهم عميق لتصرفات الناس وأخلاقياتهم أكثر مما أحصل عليه من أي مصدر آخر. من حق القارئ أن يقبل أو أن يرفض هذه النظرية أي (التقمص والكارما) ومن حقي تنوير الناس بتأثيرات ما يقومون به طالما "إن أعمالكم ترد إليكم" أو "من يعمل مقدار ذرة خيراً يره، ومن يعمل مقدار ذرة شراً يره" بعد تصويب الرابطة الطبية الأميريكية السابقة للتنويم المغنطيسي في العام 1958 لتلك المعلومات الخاطئة عنه، كان لا بد من تغيير في المجال والاستفادة من هذا المجال العلاجي الرائع لفهم الحياة بشكل أفضل، كأن نأخذ أشياء ونعطي بدلاً عنها أشياء أخرى، المرء له ما له وعليه ما عليه. تجارب العديد في التنويم المغناطيسي قادتني إلى الإيمان المطلق بحقيقة التقمص والكارما ولم يكن لدي سابقاً أي إلمام بالمعتقدات الدينية الشرقية وتعاليم المع ملين الكبار في الشرق أو في الماورائيات. ما توصلت إليه في هذا المضمار جاء من مساعدتي الدائمة للعديد من المرضى من أجل معرفة وفهم مصدر مخاوفهم وسلوكياتهم لكي يتم التخلص منها. لقد أعطتني التجارب ثقة بهذه الوسيلة العلاجية أي المعالجة بالأجيال الماضية Past Life Therapy. فإذا كان مصدر الخوف مثلاً من المرتفعات عند الإنسان سببه السقوط من مكان مرتفع في جيل مضى، فإن معيشته لهذه الصدمة مجدداً تحت التنويم المغناطيسي قد تخلصه من عقدة الخوف من المرتفعات، فهذا جيد لأن ما يهم هو مساعدة المريض . ما اعتدنا على تسميته بـ "الحظ" أو "القدر" في مفهومنا الغربي كلها مصطلحات غير دقيقة . إن حاضرنا هو نتيجة ماضينا والقدر هو ما أرسينا قواعده في أجيالنا الماضية. العدالة السماوية مطلقة، المعطيات والمواهب هي ما قد اكتسبناه وما نستحقه والتجارب المرة التي نعيشها هي دروس نتجاوز بها أخطاءنا السا بقة للالتقاء بعد ذلك. إنه قانون الفعل وردة الفعل، إنه يعادل في المفهوم الإنجيلي القاعدة فكل تصرف يتضمن ضرراً أو إساءة للآخرين سوف نعاقب عليه عاجلاً أم آجلاً وبمقدار حجم الإساءة التي نعاقب عليه عاجلاً أم آجلاً وبمقدار حجم الإساءة التي تسببنا بها والمقصود من ذلك أن المرء قد منح حق الاختيار فنحن مخيرون .

هناك دائماً حق الاختيار، إن الروح تنجذب للوالدين اللذين يمتلكان الجينات الوراثية والوضع الاجتماعي الذي يساعد النفس لتهيئة الأسس لتحقيق دروس الكارما والجينات العقلية أهم من الجينات البيولوجية في تصميم هيكلية ومقومات حياتنا. إضافة أن كل الدروس والأفعال الإنسانية مدونة في الذاكرة الكونية Acashic Records، هذه التسجيلات الكونية هي خلاصة ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا وهي مختزنة في عقلنا الباطني. قانون الثواب والعقاب يشمل دورة الكارما كلها وبذلك تحصل على سعادة ومعطيات وقدرات نسحبها من رصيدنا المصرفي في (الذاكرة الكونية). ملاحظة: لا توجد صدقة، بل عملية فعل ورد فعل، عملية ثواب وعقاب، أواصر المحبة لا تنفصم عراها وتتجاذب أرواح المحبين مع بعضها البعض وما يفسر أحيانا الحب من النظرة الأولى هو أنهم قد ارتبطوا معا في جيل أو أجيال سابقة.

يتابع الدكتور فيور Fiore: في غالبية الحالات التي تعاملت معها وجدت أن الحادث المسبب للموت مسؤول إلى حد ما عما يعانيه المريض من اضطرابات، مثلا السقوط من مكان مرتفع يسبب خوفاً من المرتفعات... الخ. عندما أعيد المريض إلى أجيال سابقة لكي يعايش صدمته العنيفة، يستنبط سبب مخاوفه وأعراضه (النفسية / الجسدية) psychosomatic وكذلك بعض الـ Obsession أو وساوس وأفكار متسلطة. مثلاً، سيدة لا تجرأ على ترك أولادها في البيت بمفردهم حتى بعد سن الرشد وسبب ذلك أنه في أحد الأجيال عادت إلى البيت لتجد أولادها مقتولين فسيطرت عليها عقدة الذنب جيلاً بعد جيل كما إن الشراهة والنهم المؤدي إلى السمنة الزائدة وجدته عند سيدتين وعند رجلين ماتوا في جيلين في مجاعات الحمية في هذا الجيل، ولكن تعاودهم الرغبة الشديدة في التهام كل ما يجدونه حتى ولو لم يستسيغوه وبمجرد أن يعيدوا معايشة المرحلة الصعبة تعود الأمور إلى طبيعتها وشهيتهم الزائدة تتلاشى بل كما وصفت إحدى السيدات إنها أصبحت تستطيع أن تختار ما تريد أن تأكله وتتناول ما تستسيغه فقط وتشعر بلذة الطعام ومن ثم أصبح وزنها طبيعياً. المريض يصاب بنوبة من البكاء والتشنج أثناء معايشة الصدمة، أو حتى بعد أن يستفيق من التنويم فهو يحتاج إلى التهدئة، لكن بعد أن يهدأ روعه بفضل التعليمات اللازمة من طبيبه يصبح على بينة من الأسباب الدفينة الغارقة (في البعد الزمني) فيعيها ويتجاوزها. الشيء الجميل في إعادة معايشة هذه الصدمات أن الألم الكبير لا يستمر إلا للحظات وفي بعض الحالات يتعرض المريض إلى نوع من الصدمة تفقده الإحساس بالإلم، لكن المريض، هنا، لا يصف الألم. بل يصف (جسده) الطيفي الذي يشعره بالإرتياح.

وأجمل ما في هذه الجلسات أن المرضى يجدون أن مهاراتهم وهواياتهم وفنونهم تعود إلى أجيال سابقة . لمن الجميل أيضاً أن ج ميع المرضى من دون استثناء يتخلصون من شعورهم السلبي (العنصري)، عندما يكتشفون أنهم عاشوا أجيالاً في شتى القارات وفي ألوان مختلفة. الذات الإنسانية ليس لها جنسية أو لون إنها تولد في مكان يمكنها أن تتعلم داخله الدروس اللازمة لترتقي وتسمو، ومن الجدير بالذكر أيضاً أن المرء لا يعود يشعر بالخوف من الموت ويدرك أنه ليس هناك فناء، ويقول Fiore "إحدى مريضاتي أخبرتني أنها أثناء ولادة إبنها سمعت صوتاً يناجيها، يشرح لها لماذا نحن هنا؟ وما هو سبب وجودنا؟

الحقيقة أننا نعبر ممراً للعودة إلى الله وما دمنا نعيش في مضمار السببية "الكارما"، فنحن نتعرض لما يشبه الثواب والعقاب. حال موتنا أو مغادرتنا الجسد الترابي نراجع حياتنا أو جيلنا الذي يمر سريعاً كشريط مسجل ثم نعي ما هي الحسنات والسيئات في أفكارنا، أفعالنا، نوايانا، ميولنا، ندرك التقصيرات وكل أذية تسببنا بها للآخرين والتي يتقرر على ضوئها مصير تقلباتنا.

كما قال "إدغار غايس" (النبي النائم) "المهم هو ما نفعله في جيلنا الحاضر : "ما هي نسبة المحبة والمغفرة والوعي التي نصل إليها "، وقال أيضاً "إن المعايير الذي نقاس به بعد مغادرة الجسد هو مستوى ذبذباتنا التي ترتفع بشكل تصاعدي مع كل عمل خير ومحبة ومغفرة بينما معايير الجسد الترابي للأسف هي في نسبة الثراء، المركز، الوسامة، الجمال، الخ ... أما في العوالم الأخرى فإن المعادلة هي في الحب / التسامح / الإستنارة... هذا ما يهم فقط.

التقمص والإضطرابات النفسية (معالجة رواسب العقل ا لباطني) – راجع الضحى العدد الواحد والسبعون (كانون الثاني 1998).

التقمص وتجارب عتبة الموت :

شكل الموت الهاجس الأكبر للبشرية منذ أن وجد الإنسان على سطح المعمورة وهو مصدر الخوف الأعظم والرعب الجاثم دوماً فوق قلوب الأحياء، الذين يعتبرونه زوالاً وفناء وإنتهاء للحياة. وللاعتقاد بالتقمص

دور مهم في تبديد هذه المخاوف والهواجس التي تمتلكها وتؤرقنا. فقد ساهم هذا الاعتقاد في اختراق أبعاد أخرى لذواتنا ما وراء العالم المحسوس، سعياً وراء حقائق أسمى ومدارك أوسع تجلي غوامض القدر ومجريات الزمان

وتعتبر ظاهرة "تجارب عتبة الموت " Near Death experience وما تتضمنه من مشاهدات مذهلة أكبر دليل علمي على مصداقية التقمص، فتلك التجارب تثبت أن الموت ما هو إلا ممر ونفق عبور من حياة إلى حياة، فالموت هو الوجه الآخر لعملة الحياة، وليس انتهاء بقدر ما هو بدا ية لحياة تالية. فما هي إذن تجارب عتبة الموت NDE وما هي الوقائع المذهلة التي سجلت أثناءها؟ لقد بدأ العلم منذ السبعينات يأخذ خبرات عتبة الموت هذه NDE على محمل الجد بعدما سجلت حالات "عودة" لأموات فارقت أرواحهم أجسادهم ثم ما لبثت أن عادت إليها بعد فترة من الوقت، وتشترك معظم الحالات بتفاصيل متشابهة كالدخول في نفق مظلم، وسماع أصوات سماوية واللقاء في آخر النفق بنور متألق أو كائن نوراني، فيما يشاهد بعض "المفارقين" أنفسهم يسبحون في هالة من النور المشبعة بالأنوار والألوان، وتعرف البعض على ذكريات حياته الماضية والسابقة في لآلئ صورية أو كرات متتالية تصور كل منها ذكرى أليمة أو مفرحة وبعضها يصور ذكريات تعود إلى عدة أجيال سابقة، ما يذكر بخيط الوعي الذي يعبر سلسلة الحيوات في الفكر الهندوسي المسمى "سوتراتما". وتصور تلك المشاهدات جلالة ذلك الكائن النوراني وبهائه وحنوه وعطفه ع لى الروح المفارقة للجسد، وكيف يبين لها عدالة الله وسبب وقوع الأحداث والمعاناة، فتفهم تتابع الحيوات وعلاقاتها وروابطها مع بعضها البعض قبل أن تتقمص من جديد في جسد تستحقه، وبيئة تستحقها وتلائمها. ولقد درس علماء غربيون كبار مئات الحالات المشابهة وذكروا تفاصيلها وأبعادها الروحية أمثال الدكتور "ريموند موري" الشهير، و "اليزابيت كوبلر روس"، ودكتور "رنغ"، والعالمين الأميركيين "كارلي أوزيس" و "همار الدسون"، وأكدوا الحياة بعد الموت فيما تشبه العالمة الفرنسية "ماري لويز فان فرانز" رحلة الموت بانتقال شرارة النار من شمعة إلى شمعة، فجوهر الكائن يبقى ويتغير المظهر، وهذا الرأي يشاركها به أتباع عالم النفس الشهير "كارل يونغ" الذين يعتبرون أن الإنسان يواجه في اللحظات الأخيرة من حياته ذاته العليا ووعيه الأصيل، فينتقل من حالة وعي عادي مادي إلى وعي أرقى وأسمى، وهذا ما يذكر بقول الإمام علي "الناس نيام فإذا ما ماتوا استفاقوا".

وكان فيثاغوراس الفيلسوف الكبير يعلم تلامذته أن الأنفس تحاسب وتحاكم بعد مماتها وقبيل تقمصها على أعمالها المقترفة، ومن ثم ترسل إلى أجساد أخرى من جديد (ما يشابه القيامة الصغرى)، فيما أعطى أفلاطون دلائل مفصلة وإثباتات حول عقيدة التقمص عند الإغريق فأورد قصصاً عن تجارب عتبة الموت لدعم فكرته، منها قصة الإغريقي الذي قتل في معركة وبعد فترة من الزمن عادت روحه إلى جسده المسجى فأخبر صاحبه عما حدث له أثناءها فذكر أنه حضر أمام مجموعة من القضاة الذين أشاروا إليه بأن ي خبر الناس بكل ما شاهد، مؤكدين له أن الأرواح تشقى أو تسعد على قدر ما اقترفت في حيواتها الماضية ثم ترسل مجدداً إلى أجساد جديدة . حتى أن الشاعر الروماني "فرجيل" اعتقد بالتقمص في القرن الأول قبل الميلاد ونسج رائعته "الإنيادة" على منوال هذا المعتقد، واصفاً كيف تصفى النفوس من خطاياها بعد الموت ثم ترسل إلى حقل "الإيلوسيوم" ومن ثم إلى نهر Lethe حيث تمحى تلك الذكريات ليسنح لها الدخول مجدداً في أجساد فانية.

إنه العلم اليوم ذاك الذي يبحث عن حقائق ما بعد الموت وخلود الروح وتقمصها بعد أن تجاهلتها الفلسفة لقرون عدة وحذفت من الكتب السماوية واتهم بالهرطقة كل من اعتقد بها . إنه العلم لا الفلسفات والأساطير، ويثبتها بالبحث والتجربة والبرهان . وكم من عالم في الغرب أيقظته تلك التجارب من سباته المادي ليرنو إلى عالم الروح مستقصياً متشوقاً لمعرفة المزيد عن حقائق الروح ورحلتها من سواحل الأزلية إلى شواطئ الأبدية عبر الأقمصة التي لا تحصى، ولاستشراف الحكمة الإلهية عبر تلك الشرارة المقدسة الكامنة في أعماق ذواتنا التي تغلفها الحجب الشحمية وتعوقها عن قبس أنوار الذات القدسية، ولصقل الصدأ المادي عن مرايا الروح الصقيلات ... في الغرب تستقظ العقول من غفلة المادة ... فإلى متى سنبقى في سراديبها نائمين؟!!

الكائن النوراني ويقظة الأرواح –راجع الضحى العدد 75 – أيار 1998.

التقمص اليوم:

وفقاً لتقديرات متحفظة، يؤمن أكثر من خمس الأميركيين البالغين بالتقمص، وبالتحديد خمس المسيحيين منهم. والأرقام تتقارب مع مثيلاتها في كل من كندا وأوروبا. وصرح إثنان وعشرون بالمئة من الأميركيين بأنهم منفتحون على هذا المعتقد رغم عدم تأكدهم من صحته بعد.

إن النسبة المئوية للمسيحيين في أميركا الذين يعتقدون بالتقمص تتساوى تقريباً مع نسبة المؤمنين من مجمل عدد السكان في استطلاع للرأي أجري عام 1990. وقد أعطى استطلاع آخر تحديداً بالأسماء . لقد تبين أن 21 بالمئة من البروتستانت (وبينهم الميثوديون، المعماديون، واللوثريون) و 25 في المئة من الكاثوليك يؤمنون بعقيدة التقمص . ولرجال الأكليريوس الذين قاموا بحساباتهم كان ت النتيجة : 28 مليون مسيحى أميركي يعتقدون بالتقمص.

لقد شرع الإيمان في التقمص في منافسة معتقدات رئيسية في المسيحية . في الدنمارك كشف تقرير عام 1992 أن 14 بالمئة من اللوثريين في البلاد يؤمنون بالتقمص في حين يؤمن 20 بالمئة فقط بالمعتقد المسيحي في البعث والنشور.

وهذه التحولات في المعتقدات المسيحية تشير إلى نزعة يطلق عليها بعض الباحثين ديانة الغرب ما بعد المسيحية. إنها ابتعاد عن سلطة الكنيسة ورجوع إلى ماض غنوصي نحو إيمان أكثر إنسانية يرتكز على الاتصال بالله في داخلنا، إيمان يشدد على ذلك الاتصال فوق عضوية الكنيسة، ويرفض بعض المبادئ التي أصبحت من خصائص المسيحية منذ القرن الرابع الميلادي: كالجحيم، والبعث الجسدي والفكرة التي تقول بأن لدينا حياة واحدة على الأرض . بعض الملل المسيحية تحاول أن تجد مكاناً للتقمص داخل المسيحية والمعتقدات المتصلة به فيما تعارض مذاهب أخرى هذه الفكرة.

مقتبسات من فكرة التقمص تجتاح الملايين –راجع الضحى العدد 81 – تشرين الثاني 1998.

خلاصة القول:

إن مفهوم خلود الروح وتقمصها ليس حكرا على الموحدين في الشرق الأوسط فقط ولا بدعة حديثة الظهور بل عقيدة لها جذور عميقة في ذاكرة كل فرد منا كما تشهد بصحتها الفلسفة اليونانية والحكمة القديمة والفلسفات الشرقية بالإضافة إلى آيات عدة في التوراة والقرآن الكريم والإنجيل المقدس.

كل البشر يتقمصون. ولا تستطيع الروح أن تعبر عن نفسها إلا من خلال حلولها بالجسد، الذي هو مطية الروح. ولا يمكن أن تختفي الروح في طبقات الأثير وتفقد كيانها، إن عليها أن تحتفظ دائماً بكيانها الخاص المميز الذي حباها الله به، والذي على أساسه سيخضعها الله للحساب وبشكل مستقل عن باقي الأرواح. فبالنسبة للموحدين، إن عقيدة التقمص ضرورة منطقية للاستمرار والتحصيل المعرفي بالأصل. والموحدون لا يشعرون بالعجب ولا بالغرور عندما يتذكرون حيواتهم السابقة، ولم يفرضوا معتقدهم يوماً على أحد على الرغم من أنهم يعلمون التقمص منذ ما لا يقل عن الألف سنة وكموحدين آمنوا بالتقمص في كل عصر وزمن. ولم يلتمسوا يوماً أو يحاولوا أن يستميلوا الغير إلى تبني معتقدهم لأن التقمص بالنسبة لهم هو أكثر من معتقد، هو القانون الذي بدونه يفقد الإنسان قدرته على معرفة أبعاد العدالة الإلهية ومعالجة مجريات حياته اليومية. إنما وقوعات النطق (أي تذكر الحيوات السابقة) تحصل عند المعتقدي بها أكثر من غيرهم لأنهم بإيمانهم بحقيقة التقمص يولون اهتماماً للصور والأحداث التي تمر على شاشة ذاكراتهم (إن عبر الحلم أو الغيبوبة الروحية أو الرؤية). فقابلية تذكر الحيوات السابقة ليست حكراً على الهندوسيين أو البوذيين مثلاً، فهي قابلية موجودة وهاجعة في كل نفس تظهر من القوة إلى الفعل حسب ظروف الزمان والمكان والبيئة التي ينشأ فيها الإنسان. وهي تكون على أشدها بين السنة الرابعة والسادسة من العمر. ولذلك فإن الولد الذي يبدأ بتذكر شذرات من حياته السابقة إنما تمر مروياته دون انتباه إذا كان مولوداً في بيئة لا تؤمن بالتقمص. فكثيراً ما يرد الأهل في هذه الحالة كلام الطفل إلى خيال الأطفال المفرط وكأن عقل الإنسان يعمل كمولد للصور متجاهلين أن ليس في عالم العقل خرافات إنما هو عالم الأفكار المستقاة من الصور التي لا تفنى و"سبيل الفكر إلى ما فقد وليس إلى ما جهل". وهكذا لا تلقى هذه القابلية تشجيعاً فلا تلبث أن تخبو وتزول.

قسم التوثيق في جلة الضحى

مبادئ التوحيد

قدم الكون

قصة الخلق كما في سفر التكوين :

اليوم الأول: كانت بداية العالم المياه البدئية، أو مياه الغمر : "وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الله ترفرف على وجه المياه"، فخلق الله النور و "قال الله: ليكن نور، فكان النور".

اليوم الثاني: تم فيه خلق السماء : "وقال الله: ليكن جلد في وسط المياه... وفصل بين المياه التي تحت الجلد، والمياه التي فوق الجلد... ودعا الله الجلد سماء".

اليوم الثالث: تم فيه خلق الأرض والبحار والنبات: "وقال الله: لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد، ولتظهر اليابسة... ودعا الله اليابسة أرضاً، ومجتمع المياه دعاه بحاراً وقال الله : لتنبت الأرض عشباً".

اليوم الرابع : وفيه تم خلق النجوم والزمان والشمس والقمر والليل والنهار : "وقال الله: لتكن أنوار في السماء، لتفصل بين النهار والليل، وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين"، ثم "عمل الله النورين العظيمين".

اليوم الخامس: وخلق الزحافات والطيور بأنواعها : "وقال الله: لتفض المياه زحافات ذات نفس حية، وليطر طير فوق الأرض".

اليوم السادس: تم فيه خلق الحيوان والإنسان : "وقال الله: لتخرج الأرض ذوات أنفس حية كجنسها بهائم ودبابات ووحوش"، "وقال الله: نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا... فخلق الله الإنسان على صورته"، وجبل الرب آدم تراباً من الأرض، ونفخ في أنفه نسمة حيوية، فصار آدم نفساً حية".

اليوم السابع: هو يوم الراحة: "وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع".

"وغرس الرب الإله جنة" في عدن شرقاً وجعل هناك الإنسان الذي جبله. وأنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة حسنة المنظر وطيبة المأكل وشجرة الحياة في وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر".

"وأخذ الرب الإله الإنسان وجعله في جنة عدن ليفلحها ويحرسها، وأمر الرب الإله الإنسان قائلاً: من جميع أشجار الجنة تأكل، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأك ل منها، فإنك يوم تأكل منها تموت موتاً " "وقال الرب الإله : لا يحسن أن يكون الإنسان وحده، فلأصنعن له عوناً يناسبه ... فأوقع الرب الإله سباتاً عميقاً على الإنسان فنام . فأخذ أحد أضلاعه وسد مكانها بلحم . وبنى الرب الإله الضلع الذي أخذه من الإنسان امرأة، فأتى بها الإنسان".

"وكانت الحية أحيل جميع حيوانات الحقول التي صنعها الرب الإله . فقالت المرأة: أيقنا قال الله: لا تأكلا من جميع أشجار الجنة؟ فقال المرأة للحية : "من ثمار أشجار الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة، فقال الله: لا تأكلا منه ولا تمساه كيلا تموتا. فقالت الحية للمرأة: موتاً لا تموتان، فالله عالم أنكما يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتصيران كآلهة تعرفان الخير والشر . ورأت المرأة أن الشجرة طيبة للأكل ومتعة للعيون وأن الشجرة منية للتعقل . فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت أيضاً زوجها الذي معها فأكل . فانفتحت أعينهما وعرفا أنهما عريانان ". "فقال الرب الإله للمرأة : ماذا فعلت؟ فقالت المرأة : الحية أغوتني فأكلت... وقال للمرأة: لأكثرون مشقات حملك تكثيراً ... فملعونة الأرض بسببك.." فأخرج الرب آدم من جنة الأبدية.

كما في الآيات القرآنية:

"وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجتك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين. فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه. وقلنا اهبطوا بعضضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتع إلى حين.." (البقرة 36 – 35).

إن سفر التكوين والقرآن ليسا أول الكتب لتي تكلمت عن قصة الخلق. إن بعض الشعوب الغابرة في القدم كان لها قصتها عن الخلق أيضاً. فالقصة السومرية ترجع إلى4000 سنة ق.م.، كما أن معظم الروايات حول الخلق بقي أثرها في الروايات البابلية هذا بالإضافة إلى المخطوطات والكتابات التي وجدت في مصر القديمة ولدى حضارات الشرق الأقصى.

المنظار التوحيدي:

في معظم هذه الروايات نجد أن قصة الخلق تتشابه. على سبيل المثال، إن المياه كانت الأساس في بدء الخليقة. فالسومريون كانوا أول من آمن بهذا الاعتقاد، ثم تبعهم فيه البابليون والسوريون الذين سموا إله المياه "يم"، وهو ما يعني في اللغة العربية "بحر". حتى الإغريق لم يبتعدوا عن هذا المعتقد، فالإله أوقيانوس، وهو أصل الخلق عند الإغريق، يعني أيضاً المياه أو المحيط. ثم أتت التوراة ومن بعدها الإنجيل والقرآن ليؤكدا ما تقدم. ومع ذلك فإن إجماع المتدينين التقليديين من كافة الأديان على أن المياه هي العنصر الأساسي في عملق الخلق لم يكن كافياً لإقناع الروحيين القدماء أكثر مما كانت نظرية طاليس المالطي (640 – 546ق.م.) أن المياه هي العنصر الأساسي للتكوين بالنسبة للفلاسفة الذين سبقوا سقراط لا شك أن هذه القصص كانت موجهة إلى عقول العامة وليس القصد من هذا القول أن الحكماء كذبوا هه الروايات، بل أنهم عرفوا كونها قدمت في الكتب السماوية بهذا الأسلوب لكي يفهمها العامة

فمن الواضح جداً أن الرواية التكوينية للخلق في أسفار العهد القديم والجدي وفي القرآن الكريم يجب أن تؤخذ بدلالاتها العميقة لا السطحية، ولا حاجة للفرد منا أن يتمتع بروحانيةأو تفكير "إيزوتيري" لكي يخلص إلى هذه النتيجة. فتفسير رواية آدم وحواء حرفياً من قبل العديد من الكتابيين المتطرفين شكل الكثير من الجدل اللامتناهي عبر العصور، على سبيل المثال:

1- الزعم بأن حوالي الستة مليارات بشري الذين يسكنون الأرض اليوم، والذين يحملون كلهذه الاختلافات الجسدية والحضارية، والفوارق التكوينية في صورهم وهياكلهم تحدروا جميعهم من الثنائي الآدمي، يبدو بعيداً عن المعقول لدرجة أن الإنسان قد يقبل أي بديل عن قصة الخلق، حتى ولو كان هذا البديل هو نظرية داروين في التطور الجيني.

2- إن مبدأ تكون حواء من ضلع آدم (ذا أخذ بحرفيته) يبدو غير طبيعي إطلاقاً. بالإضافة إلى أن جعل الجنس الأنثوي هو المسؤول عن هبوط آدم من الجنة، وبالنتيجة مسؤولاً عن كل الآثام في العالم، أثر سلباً

في قبول قصة آدم وحواء كما أنه شوه مفهوم العدل الإلهي لدى الإنسان. هذا التشويه في مفهوم العدل الإلهي أوحى بأن الخالق، على أحسن تقدير، فشل (وحاشا أن يفشل) في تقديم حقيقة الجوهر الإلهي بصورة تتجاوز صورة الأبوة والسلطة التي يتخذها الإنسان عن الله.

3- إن الاعتقاد بأن الوجود البشري يعود في القدم إلى آدم وحواء (اي حوالي ما قبل 7000 عام) هو اعتقاد أكد العلم خطأه، فإن العلماء قد عثروا على العديد من البقايا البشرية المتحجرة التي يعود تاريخها إلى ملايين السنين. بالإضافة إلى ذلك، فإن وجود صروح أثرية عجيبة مثل الأهرامات في مصر والمكسيك هو برهان كاف لرفض كلتي الفكرتين، الرواية التقليدية والنظرية الداروينية. فالحضارة الإنسانية كانت موجودة، على الأقل، خلال فترة بناء هذه الصروح والتي يعود تاريخ بعضها إلى ما قبل الحقبة الآدمية. ولا شك أن المعرفة التي استخدمت في بناء هذه الصروح والتكنولوجيا المستخدمة لذلك الغرض كانت متقدمة جداً إلى درجة تفوق التكنولوجيا المعروفة حديثاً. وهذا ما يتعارض مع النظرية الداروينية في التطور التي، تبعا لما تقول، فإن التكنولوجيا التي استخدمت في بناء الأهرامات، لا بد أن تكن قد تطورت عكسياً منذ ذلك الوقت.

المقصود في مفهوم الأسفار التوحيدية لقصة آدم وحواء هو الخلق الروحي وليس الجسدي كما يعتقد الكثيرون. إن القصة هي قصة ولادة الروح، فولادة المادة هي تعبير لا إرادي للولادة الروحية من أقوال الإمام السادس جعفر الصادق: "المؤمن أخو المؤمن من أمه وأبيه. أبوهما النور وأمهما الرحمة". النور في المفهوم التوحيدي يرمز إلى "العقل الكلي" والرحمة ترمز إلى "النفس الكلية".

من الواضح أن الصادق ربط جوهر الأخوة والأبوة بالإيمان. فوحده الإيمان، وليس الدين (بالمفهوم البشري السائد) أو العرق أو الدم، هو ما يحدد الأخوة الحقة، وهو أخوة الروح. هذا المبدأ يلقي بعض الضوء على طبيعة الأبوة الروحية التي منها ولدت الأرواح.

"ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون". (الواقعة: 62) "وإن عليه النشأة الأخرى" (النجم: 47).

إن هذه الآيات من القرآن الكريم تؤكد أن النشأة أو الخلق يتعلق بنوع من الولادة السابقة التي يذكرهم بها. ففي الآية الأولى، يتذكر البشر الخالق من خلال الولادة الأولى. وهذه الفكرة تؤكدها عقيدة التوحيد، فالله في الحديث القدسي كان كنزاً مخفياً، أراد أن يعرف فخلق الخلق وحقق إرادته بالمعرفة من خلال خلقه. قد يكون هذا معنى الخلق المادي. ولكن تبعاً لعقيدة التوحيد التي تكمن أهميتها إنها تتفق مع المنطق العقلاني

الصافي، فإن الخلق هو خلق العقل الكلي الذي يعرفه اليونان بإسم الـ"لوغوس" فكون الله أقرب في جوهره إلى الوعي من المادة، فهو لا يعرف إلا عبر ما هو مشابه له في الجوهر (أي العقل البشري المنبثق كشعاع الشمس من العقل الكلي). وهذا يشير إلى أن أهمية الخلق لا تكمن في خلق الجسد الآدمي على قدر ما تكمن في خلق الوعي أو العقل المبدع قبل الزمان والمكان والمادة.

معظم الأديان والاعتقادات، بشكل أو بآخر، وعلى الرغم من اختلافاتها تعترف بأن الخالق خلق في البدء كائناً هو صورة صافية من الله. كما تؤكد أن الخالق أعان هذا المخلوق بالنور والقوة وجعله سبب الخلق المادي والروحي على السواء. وهذا الكائن يسمى في مختلف الديانات السماوية آدم. وجميعها تتفق على أن آدم جبل من تراب على صورة الله. العهد القديم يؤكد أن آدم جعل على صورة إله بني إسرائيل كذلك تخلص سائر الأديان السماوية إلى أن آدم ولد من دون أبوين.

فكيف إذا يمكن لكائن بشري أن يولد من غير ولادة جسدية؟

إذا تأملنا في صحة قصة الخلق لوجدنا أنها لا يمكن أن تكون موضوع خلق مادي

فلماذا إذا اختير التراب ليكون مادة لخلق آدم؟

إذا كان اختيار الله قد وقع على التراب لتفاوته، أفلا يكون الصخر أو الماء اختياراً أفضل؟ فالصخر مثلاً أكثر نقاء وأقل تلوثا من التراب.

يعتبر البعض أن آدم يمتاز بكونه مصنوعاً من التراب. ولكن إذا كان آدم أفضل مخلوقات الله، أفلم يكن من الأفضل لو اختار الله أحد المعادن الثمينة أو الأحجار الكريمة كالذهب أو الماس لصنعه؟

أما بالنسبة لمن يقول: "ادم مكرم لأنه لم يتلوث بدم امرأة". فلماذا لم يكرم الله سائر الأنبياء بنفس الطريقة؟

حتى في القراءة الحرفية لقصة آدم وحواء، نجد أن التفسير لم يكن صحيحاً، فالمعتقد السائد أنه حين خلق آدم، لم يكن هناك أي كائن بشري آخر. لكن أي قراءة للنص ولو كانت سطحية تفضي إلى أن حياة البشرية كانت موجودة على الأرض قبل ذلك. الدليل الأول موجود في التوراة ف قصة قابيل وهابيل.

فالقصة تقول إن الله خلق حواء من ضلع آدم وهي حبلت منه بقابيل وهابيل. ثم أن حسد قابيل وكرهه لأخيه جعلاه يقتل أخاه. ثم، كما ورد في النص، قال قابيل لله الذي عاقبه:

"ذنبي أكبر من أن يغفر. إنك قد طردتني اليوم عن وجه الأرض ومن وجهك أستتر وأكون تائهاً شارداً عن الأرض فيكون أن كل من وجدني يقتلني. فقال له الرب، لذلك قل من قتل قابيل فسبعة أضعاف يقاد به. وجعل الرب لقابيل علامة لئلا يقتله كل من وجده".

إذا كان آدم وقابيل هما البشريان الوحيدان بعد مقتل هابيل، فلماذا يضع الله علامة لقابيل لكي لا يقتله من يراه؟

رؤية الملائكة:

ويأتي الدليل الثاني من القرآن وإن يكن أقل وضوحا من الأول إنما يسهل فهمه حتى على من يلتزم بالقراءة الحرفية للآية:

"وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون". (البقرة: 30).

إن رد الملائكة على إعلان الله فيه ما يوحي بتجربة بشرية سابقة لآدم انتهت بكارثة ما. فالملائكة بدو وكأنهم مترددون حول مشيئة الله بإخضاع الأرض لمثل هذه التجربة وكأنهم قد سبق وتعرضوا لمثلها. يقول البعض إن للملائكة رؤيا للمستقبل وأن ردهم كان من باب الخوف من أن الشر سوف يسود في الأرض. ولكن في جميع الحالات، أكان قول الملائكة رواية لأحداث حصلت أم تنبؤا لما سوف يحصل، فإن الشر المتمثل بوصف الملائكة، شر مادي دنيوي يوحي بحرب أو مذبحة مما يؤكد على الأقل وجود خلفية أرضية لاحتجاج الملائكة.

"وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبؤوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم..." (البقرة 33 – 31).

لماذا آدم، ذاك المخلوق الأرضي، له علم بما لا تعلمه المخلوقات السماوية؟

فإذا كانت الملائكة تجهل طبيعة آدم، فكيف تستطيع أن تتنبأ بمستقبل يتعلق بالرحلة الآدمية على الأرض إن لم تكن قد شاهدت رحلة مشابهة لها؟

ثم لماذا تتنبأ الملائكة بالمستقبل لله، خالق الزمان والمكان، عالم كل شيء، أليس من الخطأ أن نستخلص من نص كتابي أن يكون المخلوق في موضع إعلام الخالق عن أمر ما؟

في جميع الأحوال، يبدو أن الملائكة الذين يتحدث الله إليهم عن آدم ليسوا ملائكة بالمعنى الذي يصوره العامة عن الملائكة ككائنات طائرة تحلق في السموات، وهذا مما يؤكده المعتقد التوحيدي. إن قراءة النص قراءة أعمق تقضي إلى أن إبليس والملائكة هم جميعاً بشر. فلو كانوا أرواحاً مجردة لكان من الضروري أن يكونوا أعلى مرتبة من آدم، الذي هو أفضل مخلوقات الله.

قد يزعم البعض أن طبيعة آدم البشرية قد تكون الأكمل وليس بالضرورة أكثر قدسية. أي أن علو شأن آدم مرتبط بترابيته وهذا مما يجعل منه مخلوقاً كاملاً في عين الله. ولكن حتى إذا كانت القدسية جوهراً منفصلاً عن الكمال، أفليست القدسية سبباً للمعرفة التامة؟ فمن الواضح أن الملائكة أمروا بالركوع أمام آدم لأنهم كانوا أقل معرفة" منه فكيف يكونون إذا أكثر قدسية؟

بالإضافة إلى ذلك:

كيف يخلق الله إبليس من طبيعة أكثر قدسية من طبيعة آدم؟

كيف يمكن أن يكون الشر أكثر روحية وتجرداً من الخير؟

هذه الفكرة ليست فقط غير مطابقة للنص بل وخطرة، إذ أنها تقضي إلى القول بأن الشر أقوى من الخير، وهو ما يعاني منه عالمنا هذه الأيام.

كذلك، فإن جملة "إلا إبليس أبي واستكبر وكان من الكافرين" تؤكد أن إبليس لم يكن وحيداً بين الذين كفروا. وهذا يتعارض مع الفكرة القائلة بأنه لم يكن ثمة خلق قبل آدم وحواء وأن حواء هي أول من تعرض له الشيطان. كما أنه يتعارض مع الفكرة القائلة بأن الشيطان هو المسؤول الوحيد عن كل الشرور التي يراها الإنسان على الأرض. إن فكرة كون إبليس بشريا يضلل بشراً آخرين عن طريق الحيلة والخداع وتلبيس الباطل بالحق عوضاً عن كونه روحاً تحل بهم وتضع مسؤولية أكبر على البشر لكي يتحكموا بقدرهم ويميزوا بين الخير والشر والنور والظلمة وغير ذلك من الازدواجات والتناقضات. كما أنها تجعل عالم الشر عالما يمكن فهمه والتهرب منه من خلال الإرادة الذاتية واعتماد الفكر والعمل الصحيحين (وفقاً لمقاييس تفوق التقاليد والقوانين والأخلاقيات عمقاً) وليس بالشرط من خلال الاعتماد على الكهنة والرهبان والأئمة والشيوخ دون تمييز وروية.

أخيراً، وإذا كان آدم يحمل في طبيعته بذور الألوهية، أفليس من المنطق أن تكون هذه الألوهية هي في الإرادة الحرة والخيار الحر الممنوح للبشر عوضا عن المادة العضوية الدنيوية؟ أوليس القول أن صورة الألوهة في آدم هي ذلك المجبول من الطين الذي يقف عاجزاً أمام رياح قوى الشر تقليلاً من شأن صورة الله؟

توحيد ما قبل آدم:

وفقاً لعقيدة التوحيد إن الرحلة الآدمية التي ابتدأت منذ حوالي الـ7000 عام لم تكن بداية الخليقة بل كانت دوراً من الأدوار العديدة السابقة التي منحت فيها البشرية فرصة التعرف على الخالق والتي انتهت بكوارث عظيمة محيت آثارها من التاريخ. ويتحقق الموحدون بمحاورات أفلاطون من ثبات هذه العقيدة (أي قدم الكون):

لقد حصل، وسوف يحصل، تدمير للبشرية لعدة أسباب، أعظمها ما يأتي من النار والماء، وغيرها أقل عظمة لأسباب أخرى لا تحصى. (تيماوس).

إن هذه التغييرات أو الكوارث (وفقاً لمحاورات أفلاطون) كانت نتيجة الحروب الدائمة بين قوى الخير والشر والتي غالباً ما أدت إلى الاستعمال الخاطئ للقوى الروحية والمادية يمكن مقارنتها بخطر الاستعمال النووي الذي يهدد العالم اليوم.

الألفية السابعة... وبزوغ فجر العصر الذهبي

"سبعة"، عدد يلقي في النفس جلال القداسة وبهاء الكمال،"سبعة" نغمة سحرية تصدح أصداؤها في رحاب سماوات الذات نشيداً يمجد ارتقاء الروح في معارج الجمال،"سبعة" طلسم خفي يرصد مفاتيح مغاليق المعرفة ومن عرف فكاكه تفتحت له نوافذ العرفان، وانسلت لأجله عرى قطبيات الحجب الخافيات، ليتناغم مع إيقاعات سباعية متناظرة الأبعاد، كأبعاد كواكب المنظومة الشمسية والسدم والمجرات، وجزيئيات العالم الأصغر وعوالم الجزيئيات، وليدرك حكمة بنت على أعمدتها السبعة هياكل الانتهاء والتغير والتجدد والكمال. ما السر وراء هذا العدد الذي اعتبرته الفلسفة الفيثاغورية العدد الأقدس ورمز الكمال؟ وما هي حقيقة السماوات السبع الطباق والأرضين السبع؟ وما علاقة أفلاك الذرة السبعة بأفلاك الكواكب السبعة التي أطلقت أسماؤها قديماً على أيام الأسبوع السبعة؟ وما الرابط ما بين تجدد خلايا الجسم البشري بأكمله كل سبع سنوات والسلم الموسيقي المسبع الدرجات حيث يتجدد مع انتهاء النغمة السابعة بنغمة قيثارية أرقى؟ إنها الحكمة الإلهية حيث "كل ما بلغ سبعة

انتهى وجب تغييره وحدوث غيره" في نظام محكم يخضع له العالمان الأكبر والأصغر ومسار الزمان وكينونة المكان وما ورائهما. لقد عرف العدد سبعة (7) مكانة مقدسة لدى حضارات الشعوب القديمة، كالبابلية والفينيقية والأشورية والفرعونية وعند الفرس والإغريق، واكتسب الكثير من الدلالات والرموز في الأديان والرسالات، والجذر اللغوي للكلمة يعني الكفاية والتمام أي الكمال، وفي القرآن الكريم "لقد أتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم" (اللحجر 86). والمثاني السبع حسب التفسيرات هي آيات سورة الفاتحة، وقال النبي العربي الكرمي"لاعب ولدك سبعا"، وأدبه سبعاً وراقبه سبعاً. ثم اجعل جعله حيله على غاربه" دون أن ننسى السنابل السبع "في كل سنبلة مائة حبة"، ونجد عند اليهود "السبت" وهو اليوم السابع، ويحتفل اليهود في عيد المظال سبعة أيام وفي المسيحية، تقرأ في سفر الرؤيا ليوحنا أن حمل الله يجلس وسط سبع منائر وفي يده اليمنى سبعة كواكب، ونقرأ عن الأختام السبعة والملائكة السبعة الذين يحملون الجامات السبعة المملوءة من الضربات السبع الأخيرة، وفي سفر دانيال نقرأ كلاماً حول الأزمنة السبعة، وغيرها الكثير. وفي البوذية انتقل "سيداهارتا غوتاما" من رتبة اليوذيستاف إلى رتبة بوذا خلال سبعة أسابيع، ولا تغفل الهندوسية عن قدسية هذا العدد أيضاً والشواهد كثيرة كما ويفتخر الإغريق بحكمائهم السبعة، ويعتبر الحرف اللاتيني السابع G رمزاً للحكمة والعرفان... God - Gnosis ومن منا لم يسمع بعجائب الدنيا السبع، كالأهرامات ومنارة الإسكندرية وحدائق بابل وتمثال جبار رودس وتمثال جوبيتر الأولمبي ومعبد هالكرناس وهيكل ديانا في أفسس. ونجد في الطبيعة أن ثقوب وجه الإنسان سبعة، وطوله سبعة أشبار بيده، والشهر القمري $28 = 4 \times 7$، وألوان الطيف أو قوس القزح سبعة، وهذا كله غيض من فيض، رموز ودلالات العدد وقدسيته في الأديان والحضارات والفلسفات فضلاً عن الأساطير. وفي النهاية، نستخلص الحكمة ونتساءل والعالم على وشك الدخول في الألفية السابعة، أي من الناحية الفلكية "برج الدلو"، مع نهاية هذا القرن، هل تبدل الأرض أرضاً ثانية" ويعم الكون العصر الروحاني الذهبي؟ الجواب عند من يفقه أسرار الأدوار السبعة!

في التوحيد تعتبر الرحلة الآدمية كفرصة أخيرى للشرية لمعرفة الحقيقة التي قدمت لها في أدوار سابقة قبل آدم بأدوار عديدة.

إنك في الواقع لا تتذكر سوى طوفان واحد، ولكنه كان هناك العديد كما أنك لا تعرف أنه في هذه الأرض عاش سابقاً أفضل وأنبل عرق بشري وإنك وكل مدينتك تحدرتم من بقية من نجا. (تيماوس).

من هم الملائة؟

إن الملائكة في قصة آدم (من المنظار التوحيدي) هم من يشير إليهم القرآن "بالسابقون". فالسابقون (بالمفهوم التوحيدي) هم الموحدون الأوائل الذين خضعوا للتجربة في الأدوار السابقة ثم أتوا في هذا الدور على صورة أنبياء أو حكماء مثل "أيوب" (الذي ضربت في قوة صبره الأمثال). هؤلاء استطاعوا فهم الرسائل النيرة التي أرسلت إليهم في أدوارهم السابقة، كما فهم الموحدون الحقيقة المتواصلة التي أتت في هذا الدور على شكل فلسفات وأديان من بينها الديانات السماوية الرئيسية الثلاث.

أما الجن فهم (بالمفهوم التوحيدي) قوى الشر الذين فشلوا في تجارب الأدوار السابقة وأتوا بالبشرية إلى الهلاك ليمنحوا فرصة أخيرة في هذا الدور تحقيقاً لما وعد به الشيطان بمنحه كل الوقت الذي يريد إنجازاً للوعد وإتماماً لنظرته التي سيلقى بعدها العذاب الأبدي مع كل الذين أضلهم. وقد ذكر هذا بتفصيل واف في القرآن الكريم.

الجن (بالمفهوم السائد) اسم يعطى عادة لأرواح شبهية للأشباح، تتمتع بقوى شريرة كبيرة، ولكن في الواقع التوحيدي (وكما يؤكد القرآن الكريم من خلال وصف الملائكة للتجربة الدموية التي مرت بها الأرض والتي جعلت الملائكة يتساءلون عن مغزى إخضاع الأرض لمثل هذه التجربة مرة ثانية). الجن هو اسم شعب سابق لعصر آدم فشل في استعمال قوى الإرادة الحرة التي منحت للبشر منذ بدء الخليقة(أي ملايين السنين) وهبط إلى عوالم أدنى وعياً فانحصر دوره في عصر آدم على التأثير السلبي الباطني كتحوير تاريخ ورسائل الأنبياء والرسل وتضليل الخلق وإبعادهم عن الحق والحقيقة وجعلهم يتصرفون بغرائزهم بعيداً عن نور العقل فقوم الجن هم من ذكرهم العهد الجديد باسم "الدليل الأعمى" أو الفريسيين والصدوقيين الذين "يمتلكون مفاتيح العلوم ويجهلون استعمالها فيقفلون باب ملكوت السموات في وجه الخلق فلا هميدخلون ولا يتركون غيرهم يدخل...".

كل الشعب التي سكنت الأرض عرفت في دور آدم وفقاً لتبعيتها الدينية، العرقية، الجغرافية، أو الفلسفية مثل الكنعانيين، اليونانيين، العدنانيين . مما يعرف أن في الأدوار التي خلت كانت الشعوب تعرف وتعرب وفقاً لطبيعتها الروحية وكان يطلق عليها أسماء كـ "أبناء النور" و "أبناء الظلمة أبناء الواحد" كما تؤكد بعض المخطوطات الغنوصية القديمة. وقوم الجن (خلافاً لبعض المفاهيم الشائعة) ليسوا قوماً من الأشباح أو الأروح المجردة. هم (بالواقع التوحيدي) بشر عاشوا في زمن "البار". ودعوة البار هي دعوة توحيدية تضمنت دور آدم. الجن هم شعب رفض قبول دعوة البار. والجن لفظ مشتق من الجنون فسموا بالجن لأنهم خرجوا تماماً عن طبيعة وتعليم العقل الكلي (وهو نور الوعي الذي كان مفترضاً أن ينير طريقهم) خروجاً عبر عنه إبليس برفضه للسجود لآدم (أي العقل الكلي) بقوله "خلقتني من نار وخلقته من طين فلماذا أسجد له؟".

استعمل الجن ما يسمى اليوم بـ "السحر الأسود" لتدمير بعضهم البعض. ومع قدوم دور آدم (الذي هو أكثر الأدوار مادية) لم يعد للقوى الروحية دور في مثل هذه الحروب واستبدلت بالأسلحة التي يشهدها العالم اليوم، والتي وإن اختلفت في الطبيعة تبقى هي هي تعبيراً عن روحانية مضادة للخير دامت للملايين السنين. (فليبق في ذهن القارئ أنه وفقاً لعقيدة التقمص إن الأرواح تلك هي هي الآن في أقمصة مختلفة تمارس ما عرفته من خير وشر منذ بدء التكوين وإن اختلفت الأساليب والطرق فهي دائماً تظهر ما تضمر في كل أقمصتها وتقلباتها "ومن ثمارهم تعرفونهم"). لو أن قصة آدم التي جاءت في سفر التكوين كانت بالتفصيل والإفصاح اللذين نقدمها بهما الآن، لما كانت فرصة جديدة للبشرية. فإن الأرواح المنتقلة من حياة إلى أخرى قد لا تتحمل أن تتذكر حياتها السابقة، فإنه من الصعب جداً أن تستمر في حياة جديدة وهي مثقلة بذكريات أليمة لأحداث عاشتها في الحياة السابقة. كذلك فإن أرواح البشرية جمعاء تنسى كل أحداث الدور السابق بانتقالها إلى دور جديد فإن ذكريات الحروب والكوارث التي لا تعد إذا ما بقيت في وعي الذاكرة تمنع الأرواح الضعيفة من التمتع بالمهلة الجديدة وإظهار ما تخبئ من خير وشر.

في محاولة لفهم هذه الفكرة، خذ مثلاً كيف أن الإجهاد الذي يصيب الذاكرة القصيرة الأمد لدى الإنسان يتركه مشلول التفكير عاجزاً عن العمل ومصابا بالاكتئاب.

لهذا السبب فإن مجيء العقل الكلي (وهو شروق الذاكرة الكونية) يشكل مبدأ الجنة والنار (بالمفهوم التوحيدي).

إنكم وغيركم من الأمم، حين يبدأ تزويدكم برسائل وضروريات الحياة المتقدمة، بعد مرور وقت معين، سوف يأتيكم من السماء سيل من الطاعون فتبدأون من جديد كالأطفال، غير عارفين ما حصل في الأزمنة الغابرة بكم أو بغيركم. (تيماوس).

إن رفض إبليس الركوع لآدم في هذا الدور السباعي الأخير يمثل عينة من النكران الذي أدى إلى سقوط البشر في الأدوار السابقة واللعنة الأبدية التي حلت على إبليس تترجم بوضوح في جهل وفقدان البشر لذاكرتهم التي رافقتهم في شتى الأزمنة والعصور وعبر ملايين التقمصات.

إن العالم الروحي يسبق العالم المادي في طبيعته والمادة ليست سوى أداة التعبير عن الروح طالما يصاب أحد بمرض عقلي، فإن مرضاً عضوياً أو جسدياً يبدأ بتمثيل الخلل الأصلي (وهو خلل روحي يؤدي في غالب الأحيان إلى فقدان الذاكرة وبالتالي الوعي). أما حالة الألم التي تصيب الروح الكونية أو روح البشرية مجتمعة، فإنها تتمثل على الأرض على شكل حروب أو كوارث طبيعية عهدتها البشرية من قبل، "فسبيل العلم إلى ما فقد وليس إلى ما جهل" و "ليس من جديد تحت الشمس".

إن فهم الأمور التي تتعلق بالألم على مثل هذه المستويات بالمقارنة مع الألم على مستوى الفرد المحدود بالـ "أنا" الأنانية يتطلب استنارة ذاتية كبيرة جداً ترتفع فوق المقاييس والمعايير الدنيوية والدينية. فلهذا السبب، وعلى مر الأدوار، لا نجد سوى قلة قليلة ممن التزم بمثل هذا الطريق وفيما نملك من التاريخ ما يكفي لتحديد هويتنا الحضارية والعرقية والدينية وغيرها من الهويات التي نتباهى بها ونتعصب لها ننسى أن هويتنا الآدمية الحقيقة يعود قدمها إلى أدوار وعصور إذا ما مرت أمام أعين ذاكرتنا تكون أقرب إلى الخيال العلمي منها إلى الواقع.

آتي كاللص...": فشروق الذاكرة الكونية لا يعرف زماناً ولا مكاناً. وبينما ينحصر خوف وقلق البشرية في هذا الزمن على ما سيحدث في العالم الخارجي قليل هم من يعون أهمية ما يطرأ في عالم الروح

قدم الكون – راجع الضحى العدد الثالث والثمانون (عدد خاص) – كانون الثاني 1999.

البداية

مشاهد بعين ملاك

عزيزي القارئ، أنت بصدد القيام برحلة تختلف عن سائر الرحلات التي قمت بها، هي رواية عن الحياة على الأرض كما تراها عين ملاك: مشاهد ومقتطفات من التاريخ بعضها قديم غاب في ثنايا النسيان، وبعضها الآخر حديث العهد. وسرعان ما تجد نفسك عالقاً في صفحات قصة عظيمة، لا بل حرب مشتعلة بين الخير والشر، حرب ضروس نشبت منذ زمن بعيد بعيد.

أنت بصدد معرفة المعنى وراء مجابهات يوحنا المعمداني مع الفريسيين والصدوقيين الذين عبر التاريخ وتقلبات الأجيال والعصور لعبوا دورين، في ظاهر الأمر متناقضين "تناقض السياسة مع الدين"، وفي باطن الأمر متحدين في رحلة العدم. أنت بصدد التحقق من أن طريق الخلاص وعر وعورة أشواك التناقضات بين الخير والشر التي زرعها الفريسيون والصدوقيون في سائر العصور وتقلبات الأقمصة، لربما تكتشف استراتيجية الملائكة في التعامل مع مآسي هذا العصر.

سيحملك الملاك وسط جميع منعطفات العصور لتشهد من بعيد ومن مكان آمن عمل الممثلين على مسرح الأرض وعندما ترفع الستارة عن المشهد الأخير، قد تبدو بعض الشخصيات غريبة، فقط وجه واحد مألوف... وجهك أنت.

ليس هذا من نسج الخيال، إنه كاشف الحقائق، مهمة يستوجب القيام بها:

أحييكم يا أبناء النور الأعظم باسم "الطفل العقل" الذي ما فتئ حتى الساعة المتأخرة هذه يطرق الباب قلوبكم. هلا هيأتم له المكان؟ هلا استقبلتم الطفل الضعيف لجسد إنما الممتلئ أملاً بخلاص العامل، طفلاً يتنشق أولى أنفاسه من الروح. هو بالفعل نار مقدسة، بل هبة من السماء يهتدي بنور ظهوره أولئك الذين ساروا في الظلام. فلنذهب معاً لنرى مكان ولادته، ولنمجد كلمة الرب المتجسدة في نور العقل أفق الفجر ليقع بثبات ويستقر في قلب المؤمن المرفوع في قلوب أبناء الرب الذين اعترفوا بربوبيته.

تلة الصعود:

أين هي تلة الصعود؟ إنها مكان النور في قلوبكم مهد ولادتكم الأولى حيث نشأتم على سبيل العقل وفقاً لتعاليم أبيكم وأمكم: من المحبة وبالمحبة وللمحبة. إلى أن يصبح المولود، روحاً مولودة من جديد، مولودة للحياة

الأبدية فتبارك بذلك أولئك الذين نزلوا إلى هضاب المادة، أرواحاً غفلت عن واقع الحياة الأبدية لتحقق الحكمة الإلهية من الخلق.

فندعوكم في ليلة الصبحة "الألفية" هذه لنحتفل ببلوغ "الطفل" وبمجيء كلمة الرب الأزلية المتجسدة فيكم إن بلوغ "طفلكم" يضاعف نور الشمس ويزيدها تألقاً في هذا العالم الغارق في عتمة الديجور.

فمضاعفة النور أمر ملح أيها الأحباء لمواجهة تحديات ظلام ما قبل طلوع الفجر عندما يقف "الملائكة السبعة" "والمئة والأربعة والأربعون ألفاً" مع "الحمل" على رأس ذلك الجبل.

في عيشة عيد ميلاد "الطفل"، ولدت روح في داخلكم لتعيش وترى النور في صورة ذلك"الطفل" – ولدت لتعيش وتؤدي أعمال الله فيكم في كل يوم من أيام حياتكم. فالله بكم سيظهر نفسه على الأرض كما في السماء عبر تكريس القلوب الرقيقة، القلوب العارفة بأمور الوجود

جبل الصحن:

فتسلقوا جبل الشدائد والمحن التي بذرتموها وحصدتموها ودعوا شعلة الحياة،"صولجان ألفا وأوميغا" الصاعد، تتفجر لتتلف وتستنفد جبل المحن "الكارمية"، وفي مكانه شيدوا جبل الطوبى والبركة مع ملائكة النور وروح نور القيامة. فالشعاع البراق العظيم سيعيد لكم كيانكم إلى أن تروا جبل المحن وقد تحول إلى هرم الحياة العظيم، وهرم الحياة هذا يا أحبائي هو تلة الصعود خاصتكم، المكان الذي هيأتموه لتتجسد فيه الكلمة مادة وروحا.

فعلى تلة الصعود تلك بالذات. نقف في ليلة "الصبحة الألفية" ننتظر بفارغ الصبر هضبة من أثير لتظهر بأعمال المؤمنين، تلة أطلق عليها المؤمنون أسم "تلة الصعود"، المكان الذي يتأملون فيه وصيته: "أذهب" لأهيء لكم المكان... فحيث أتواجد تتواجدون أنتم أيضاً".

سر الوعي:

أيها الأبناء السائرون على درب النور، قبل أن تشرعوا في تأمل سر تجسد كلمة الله فيك؛ عليكم أن تعرفوا كيف أمن الله (جل وعلا) هبوط النور التدريجي على وعي أبنائه.

من نقطة جسم الذاكرة الكونية، تلك القوة التي يتمتع بها العقل الكلي ندعوكم لتوحيد الوعي باللاوعي، فمن قلب نقطة التوحيد هذه تتمسك الروح بالخيط الرفيع الذي يربطها بالحياة الأبدية. أيامكم على الأرض اليوم ليست هي بحياة. بل هي مقتطفات وبقايا تجربة قديمة لكم تمسكتم بها كما يتمسك الجائع بالزاد. آه لو تتذكرون كم اغتبطم في عوالم غارقة بالكمال إلى جانب أخوة لكم في الدلال، عوالم لم يبق منها سوى ذكريات عن حياة "عدنية" وقصص وأساطير.

وهكذا، فإن تجسد الكلمة يبدأ باتصال الروح بالذاكرة الكونية ففي وعي العقل توجد حلقات شمسية وصور وآيات مصورة على خريطة ذاتكم الإلهية. وفيما تتأملون أقواس النور السباعية، تفكروا بعمق دهور تجربتكم الذاتية في رحم النور قبل عصور تجسدكم على الأرض، تجربة سبقت تحديات الزمان والمكان وكثافة كريات السماء. كانت هي الأساس والنبض الخافق في الكريات المركزية التي تحرك كل خلية حية في نغم تيار الحياة وفي تكسر موجات النور التي تتفاعل مع الصخور، صخور المادة الأزلية

آه يا أحبائي لو تتذكرون الشمس والنجوم والأعشاب المتوهجة والحقول الفردوسية والأشجار المثمرة وهواء الروح القدسية، وما كانت هذه إلا ستارة خلفية لاستيعاب أرواحكم الزكية

أما اللقاء مع الله (جل جلاله) بعد تطور الروح عبر الرحلة الآدمية فقد كان تجربة طبيعية لأولئك الذين نموا الكلمة المتجسدة روحاً ومادة في الجسم العظيم وكرياته الضوئية على هضاب الأرض البدنية هم واضعو القوانين وحارسو السكون العظيم ومعلمو العالم وأسياده والملائكة المقربون

ففي دائرة الأحدية الواسعة التي خلقها الله لتدبير خلقه، ما كان هناك أي وجود لشر يقاوم الكلمة المتجسدة ولا عدو للعقل، لذا بدأ الإلحاح على الخلق لتتفاعل ألفا وأوميغا ضمن تناقض السحب والدفع، كان الدافع منطلقيا للحياة وللوجود ولإشعال النار الأبدية، زيادة إدراك ووعي منا للألوهية وكما تعلمون يا أحبائي، لقد زرع الله في أبنائه الرغبة ليكونوا أكثر فأكثر على صورته، فأضحت المحبة والمحبة وحدها، لا الحرب والمقاومة بين الظلام والنور هي السبيل الوحيد للوصول.

ليس الخلق هذا سوى اعتراف بقدر أبناء الله كشركاء في الخلق مع (العقل والنفس). ومشاركة الله في الخلق تعني القدرة على التمييز بين الوجود والعدم والقدرة على استقراء الخير المحض وتصور السعادة الآتية. فلا تنالون ما لا تشتهون.

يا أيتها النار اللامتناهية، أنا ذات تقف في حضرة الله داخل الغرفة السرية الكامنة في قلوب أبنائه، ذات في طيات اللاوعي وسبيل للحرية، حرية التواجد في الله والشوق لهذه الحرية التي تهددها ذاكرة التجربة الفضوية، وضغوط الزمان والمكان. حرية لا تتجاذبها قوى وهمية: تحديات وأحقاد وكبرياء وسوء فهم مكدس فوق سوء فهم وثقافة تتحدى التعاليم الإلهية وجمود كبرياء يستفز الملائكة ويفوق "الهيرودية" العصرية. وقلق أرواح تواقة إلى سنين أخرى في نار العبودية الدورية.

على الأرض:

هنا على الأرض يجب أن يتحول الحب إلى سيف في وجه الظلم لأن أبناء الله قد تنازلوا عن جنات الألوهية ليصبحوا حاملي إرادة بشرية. والمتطفلين على مقاعد الحكم انتزعوا منهم الحرية بأثمان رخيصة مادية.

إن الدفاع عن الكلمة المتجسدة فيكم يا أحبائي هو التحدي الكبير في مرحلة الانتقال من عصر الظلام إلى عصر النور الآتي.

فدعوا عناصر الحقد تذوب في منبع النور داخل قلوبكم لتحولوها إلى دوائر بنفسجية تحيط بروحكم يا أيها المؤمنون بالحرية.

ولا تتأثروا يا أحبائي برؤية الحقيقة الداخلية، ولا تدينوا "الطفل" في داخلكم، ولا تأخذكم زوبعة المحبة الإلهية (الصوفية) بعيداً عن شواطئ الأهداف السماوية، أهداف العقل والنفس أبويكم

أسرار الكأس المقدس –راجع الضحى العدد السابع والستون –أيلول 1997.

ما قبل التاريخ

مشاهدة من ذاكرة التوحيد

أتلانتيس

منذ ملايين السنين المتعاقبة في ظلام حقبة ما قبل التاريخ كانت البشرية لا تزال برعما، وليدة الطبيعة، راقدة، حالمة، متدثرة، بوشاح السبات العقلي، فهمدت معرفة الذات فيما نشط الوعي الفطري . وعلى

غرار شعاع نور في أفق الزمان، هبط النور الإلهي – نور الوعي المتجلي في طبيعة "أبناء النور" بين البشر النيام كهبوط الروح في جسد المولود، فأضاءت بشعلة النار الفكرية فتيل العقل الكامن، فتحرض المفكر.

وإذا بمعرفة الذات تنتفض ليتحول الإنسان إلى مولد للقوة الفكرة والعاطفية، يتمتع بالقدرة على الحب والكراهية والعظمة و الهزيمة. وبامتلاكه المعرفة اكتسب الإنسان القوة، وباكتسابه القوة أصبح باستطاعته أن يختار، وباختياره صاغ نسيج مستقبله، وجرى إدراك ذلك كالدم في عروقه . وبرزت المعرفة والمزيد من المعرفة كضرورة لنضوج البشرية التي باتت تنظر بعرفان إلى أبناء العقل الذين انتشروا ان تشار الوعي في المادة مانحين الحياة للمولود. فسار البشر وراءهم ولحقوا بإرشاداتهم طوال قرون عديدة وتأثروا بهم كما يلحق الطفل خطوات أمه.

وعلى مدى دوران الأجيال، قامت مجموعة من المعلمين الإلهيين، الذين تفتحت فيهم زهرة الوعي وتفهموا أعماق الغرض الإلهي من الخلق أولئك "السابقون السابقون" فأشرفوا بأنفسهم على تقدم البشرية وواكبوا أطوارها الأولى . فلقنوا الناس الفنون والعلوم وزراعة الحقول ذ رة وقمحا، وأرشدوهم إلى سبل العيش الأخلاقي النظيف، أي باختصار، أسسوا مدارس بدائية للتدريب والتعليم، مباحة للجميع ليتعلموا أصول المادة والفكر والروح. ولم تكن المدارس السرية قد نشأت بعد في تلك المرحلة . وكما يؤتمن الطفل على الأسرار لبراءته فقد كانت الحكمة المقدسة متاع كل إنسان في تلك الطفولة من عمر البشرية. فلم تكن مساوئ المعرفة قد ظهرت وبعد، ولم تبرز الحاجة إلى قوام مقدس مخفي عن العالم . كانت الحقيقة تمنح بحرية للجميع وتستقبل بحرية في العهد الذهبي ذاك. كان ابن آدم لا يزال فتيا فتمكن البعض من التعلم بسرعة وبسهول ة مستفيدين من ذكريات تجربتهم في العالم الأقدم (في رحم النور قبل تفتح وعي البشرية لمطامع الزمان والمكان)، فاختاروا بديهيا سبيل الفكر الروحي. أما البعض الآخر وهو أقل وعيا فقد كان جيداً على الرغم من عصيانه على التقدم، في حين قبعت فئة ثالثة مخدرة تحت تأثير الج مود، ووجدت التعلم والطموح عبئا ثقيلاً فتقاعست عن التطور وفضلت قتل الروح على إجهادها، وشهدت الإنسانية بمجملها تقدما سريعا في اكتسابها المعرفة وإجادة استخدامها لها "فالعلم في الصغر كالنقش على الحجر "، وبدأ البعض الآخر بالقيام بأعمال الشر لأن ما كان كامنا في ا لروح (من خير وشر) تحول شيئاً فشيئاً إلى فعل. وباتت المعاناة والألم أرحم وسائل الطبيعة لاعادة الفؤاد إلى فطرته البدائية، وفيما راح العقل ينمي إمكانات أشد، وفيما أخذ الصراع في

سبيل سيادة العقل يتغلب على الروحانيات، تحولت هبة الفكر إلى سيف ذي حدين : فكانت من جهة أداة الوعي الروحي والنشوة الفكرية، ومن جهة أخرى سلاحا مدمرا مرعبا يصل إلى درجة الشيطانية.

تحولت أسرار الجنة والأرض التي كشف نقابها المعلمون السماويون للبشرية أيام طهرها إلى بؤرة نور تضعف أشعته عندما تنبثق على غير تجانس بسبب تلوثه المادي من ثم ان حل النور مع الجماعات ليتخذ أشكال السحر، تبلور لاحقاً ليصير ديانات خارجية وعبادة للخرافات.

إن الطبيعة (بمعزل عن عنصر العقل) دورية: خصبة بالروحانيات تارة وعقيمة تارة أخرى.

وخلال تجربة البشرية أثناء فترة المراهقة من عمرها في الحقبة القديمة تلك في قارة "الاموريا" (أي عمورة) التي غاصت بالمياه كانت الدورة ضد التقدم الروحي، فقد برزت موجة انحدار قوية في حين تم تسريع عملية توسع الطاقات الجسدية والمادية تلاها تأخير القوة الروحية ومن ثم تقلصها . وشكلت البشرية في تلك الحقبة جزءاً من تيار التطور الشامل وتجاوب الأفراد مع الجو القاسي بحسب طبيعتهم، فقاوم البعض تأثير الروح الانحداري متسلحين بروحانيتهم المستيقظة فيما تأرجح البعض الآخر وهو أقل فهما بين الروحانية والموت. بين الخير والشر، فأصغى تارة إلى همس حدسه، وتغلبت عليه أمواج التيار الانحداري تارة أخرى.

أما غيرهم ممن أضرمت فيهم شعلة الروعة الفكرية، فقد غاصوا داخل الشعاع غير آبهين بالمياه الآسنة والعكرة.

ومع استمرارية الدورة الانحدارية خاب بريق معرفة الحقائق الروحانية والعيش بالتوافق معها، وتحولت الحكمة المقدسة إلى أداة لا نفع لها في قلب الإنسان وعقله. تلك هي ما يسمى بالعصور الحجرية (والتي في معناها الحقيقي ترمز إلى تحجر القلوب عن استقبال الحقائق). وكانت تلك الحماقة محتمة في مجرى الأحداث الكونية وكل الأشياء مهيأة . فكما تتعدد أنواع الناس بين روحاني ومادي وبالغ الذكاء وبطيء التفكير، تتعدد درجات الكائنات في الكون وتطغى طبيعة هذه الكائنات على جوهر النفس الإنسانية، بدءا بمملكة المعادن مرورا بمملكة النباتات فالوحوش وصولا إلى مملكة البشر، ومن ثم تتخطاها لتبلغ درجة رئيس

الأرض وكاهنها الأكبر "العقل الكلي". على مر آلاف الأعوام الأولى تلك، وعى رئيس الأرض الر وحاني وحارسها نيران الروحية الفردية الناشطة فأرشدها وأذكاها حيثما اسطاع.

تدريجياً فيما تعاقبت آلاف السنوات أخذ أقوياء الغريزة والضعفاء النفوس يسيئون استخدام معرفتهم للأمور الإلهية مما ساهم في حجب الحقيقة، وشعر عندئذ حارس الكوكب بالحاجة إلى انتقاء م جموعة من المساعدين لتأدية دور حراس الحكمة القديمة وحماتها. حفنة من الكائنات البشرية ممن أضرمت فيها الحماسة الإلهية وأشرقت وحدها استجابت طوعا إلى معلمها الكوني كاهن البشرية الروحي الأكبر . وعلى مر الأجيال خضع أفراد أقوياء القلوب إلى المراقبة والإرشاد والتقوي ة بالاختبار بشتى الطرق، ليتم استجماعهم فيما بعد ليكونوا حجة الله على خلقه، حجة الذات اللطيفة الطائعة على النفس المتمردة في نفس كل ذات (حيث ينطوي الصراع الحقيقي). الذين نجحوا من بينهم في اختيار معرفة الذات واختيار التضحية بالذات ألفوا أول جمعية أو مدرسة للبـشر الروحانيين الأخوية العظمى التي ظهرت معالمها في الرحلة الآدمية الأخيرة في مدارس هرمس وفيثاغوراس (عليهما السلام).

وتمكن حارس الكون بفضل ظاهرة تجاذب المتشابهين المغناطيسي الروحاني (ظاهرة تجمع الموحدين) من جذب بعض البشر غير العاديين، انتقاهم من أولى بدايات الزمن ليؤلف معهم بؤرة ضوء روحاني وفكري على الأرض.

ويرمز هذا الواقع إلى وحدانية التألق البشري الروحي والفكري أكثر منه إلى جمعية أو شركة أو أخوية، وتمثل الوحدانية هذه على الأرض نواة ملائكة الرحمة

وبؤرة اللهب الحي الأصيلة لم تتعرض يوما إلى الانحلال ولم تفقد مكانتها السامية كمركز للنور على الأرض.

وفي قمم الشرق الأقصى (حيث لم تطأ رجل أرضي بعد)، يمكث أخوة النور الأوصياء المؤتمنون على الأسرار التي كشف عنها المعلمون الإلهيون إلى الجنس البشري، وشكل هؤلاء المختارون نواة هرمية لم تفن منذ ذلك الوقت منذ تأسيس الأخوية العظمى قبل اثني عشر مليون سنة . فمن هذا المركز طيلة ملايين

السنوات تنبثق أشعة القوة الروحية وتشع على العالم بأسره، وبالأخص على قلوب من كرسوا حياتهم لخدمة الحقيقة. من ذلك الملجأ السري انطلق رسل أسياد الحكمة، ليؤسسوا ديانات المضي العظيمة.

تاريخ البشرية منذ عهود الظلام إلى عهد النور (من المجموعة بلافيتسكي الثيوصوفية) – راجع الضحى العدد الثالث والستون –أيار 1997.

الكل منا سمع بين الحين والآخر الاسم "أتلانتيس" صدفة تتداوله الألسن ولا يخلو من تعريفه قاموس عصري وغالبا ما يكون التعريف كالآتي : "أتلانتيس" – بناء على أسطورة يونانية عرف عنها الفيلسوف أفلاطون، قيل أنه كان هناك قارة في المحيط الأطلسي في غرب جبل طارق ذات أرض خصبة وكثافة سكانية تعرضت لسلسلة من الهزات الأرضية آخرها أدى إلى غرق القارة بأكملها. وما يثير الجدل بين العلماء اليوم التساؤلات عن مدى حقيقة هذه الأسطورة.

ذكرت "اتلانتيس" في اثنتين من محاورات أفلاطون : "طيماوسط و "كريتياس". أدب الحوار كان مشهوراً في أيام اليونان ولم يكن غرضه يقتصر على مجرد نقل وجهات نظر متفرقة بل اعتمد على قضية أساسية يتمحور حولها الحوار ويتجه نحو معالجتها وإبرازها . ونناقش محاورة طيماوس موضوع أتلانتيس ضمن مواضيع عدة بينما تركز محاورة كريتياس كليا على أتلانتيس، حيث يؤكد "كريتياس" أن قصة هذه القارة هي قصة حقيقية ورثها أبا عن جد مصدرها الأصلي كاهن مصري توارثها هو الآخر عن أجداده الذين عايشوا الانقلابات الكونية التي أدت إلى دمار أتلانتيس وغرقها. يتابع كريتياس رواية الكاهن ويقول أنه كانت توجد جزيرة عند أعمدة هرقل، مساحتها أكبر من مساحة ليبيا وآسيا معا، نشأت فيها دولة عظيمة بسطت سيادتها على "الجزيرة كلها وعلى الجزر القريبة منها . ثم تعاظمت قوتها فاجتاحت البلاد المجاورة كافة حتى وصلت إلى حدود مصر واليونان. ومؤسس هذه الدولة كان يدعى الإله "بوسيدون". قسم بوسيدون الجزيرة إلى عشر ممالك ونصب أولاده العشرة ملوكا عليها على ان يكون الإبن الأكبر واسمه أطلاس ملك الجزيرة كلها . ولم يكتف بوسيدون بذلك، فنظم الجزيرة وأقام الشريعة والفرائض التي نقشت على نصب نحاسي . وأهم ما تضمنته تلك الشريعة بالإضافة إلى طقوس العبادة، هو أن يظلوا متحدين لا يشهر أحد منهم السلاح على الآخر مهما كانت الأسباب وإذا حدث اعتداء فعليهم أن يجتمعوا فوراً للبحث فيه وتطويقه . وإذا ما حدث

اعتداء خارجي على أحد منهم فعليهم أن يهبوا جميعاً هبة واحدة لنجدته . بلغت دولة الاتلانتيس في عهد أولئك الملوك شأوا من القوة والغنى لم تصل إليه أية أمة أخرى . وسبب قوتها يعود إلى نظامها الاجتماعي الحربي، أي عكس أثينا ذات النظام الديمقراطي. لقد قسمت الجزيرة إلى عشر ممالك. وقسمت كل مملكة إلى ستة آلاف ولاية مساحة كل ولاية ثلاثة كيلومترات مربعة . وكل ولاية هي مفرزة أو سرية عسكرية، عليها مع بقية الولايات أن تقدم إلى الدولة عشرة آلاف مركبة حربية، ومئتين وأربعين ألف حصان، ومليونا ومئتي ألف محارب ومئتي وأربعين ألف نوتي مع م ئتي بحار ومئتين سفينة . أما سبب غناها فيعود إلى خيرات تلك الجزيرة وإلى الموارد التي كانت تأتيها من البلاد الرازحة تحت سيطرتها . لقد كانت الجزيرة غنية بالمعادن الأصلية وغيرها من الأحجار والأخشاب والمراعي الخصبة والماشية وتعج بالثمار والحبوب من كل صنف ونوع إلى جانب أنواع الأطياب والعطور . وشيد الأهالي الهياكل والأبنية الملكية والموانئ والمرافئ لتخزين السفن وإصلاحها . وعمروا الأرجاء فأقاموا الملاعب الرياضية وميادين تدريب الخيل والجسور، وحفروا الخنادق والترع وشقوا قناة تصل البحر بالجزيرة لإبحار السفن، وبنوا أبراجا وأبوابا على الجسور . وفي وسط الجزيرة بنوا هيكلا مقدسا أحاطوه بسياج من الذهب ولبسوه من الخارج بالفضة أما داخل الهيكل فقد غطوا جدرانه بالنحاس والعاج والذهب. هذه الخيرات والاستغلال الماهر لها مع التقيد بالقانون؛ كلها أدت إلى ازدياد قوة دولة الاتلانتيس وإلى ازد ياد أطماع ملوكها . فحاولوا في حشد عسكري كبير اجتياح كل من مصر واليونان معا . عندئذ اتحدت بلاد اليونان بزعامة أثينا التي هزمت بنظامها وبراعتها الحربية دولة أتلانتيس وحررت كل البلدان الأخرى من نير عبوديتها، فحين نزح العقل والحلم من رؤوس ملوكها، وجرفتهم الأهواء والملذات، ولم يعد باستطاعتهم المحافظة على تلك النعم، غضبت الآلهة عليهم، فحدثت هزات أرضية وفيضانات أغرقت الجزيرة مع قسم من بلاد اليونان في قاع البحر.

ولعل من أبرز النقاط التي تجعل من رواية أتلانتيس الذي نقلها أفلاطون إلى مخيلتنا ذات أهمية هي أنها قلبت الموازين التاريخية التي نعرفها من خلال الكتب ذات الصبغة الداروينية وتحدث المفهوم الطاغي عن تاريخ الإنسانية وقدمها. فزمن وجود أتلانتيس، تلك الحضارة المتقدمة، كما ذكره أفلاطون، يعود إلى تاريخ أقدم بكثير ويؤكد وجود حضارة وتكنولوجيا متقدمة في تلك الأزمنة،وبذلك فإذا نظرنا إلى محاورة أفلاطون عن أتلانتيس بعين الثقة وبعقل منفتح لأدركنا أهمية النظر إلى تاريخ البشرية بشمولية أكثر.

لكن هناك من يعتقد أن أتلانتيس ما هي إلا رواية من صنع مخيلة أفلاطون تبناها لكي يتوسع في نظريته حول الجمهورية الفاضلة، وهناك من يزعم أن القارة التي سماها أفلاطون أتلانتيس ما هي في الحقيقة إلا جزيرة كريت.

ويبقى هناك الكثير ممن يؤمن بصدق المعلومات التي أدلى بها أفلاطون عن أتلانتيس باحثين عن أثارها في المحيط الأطلسي، والكثير منهم قد أعلنوا أن جزر الكناري والباهاماس ما هي إلا بقايا هذه القارة، وللأسف أن معظم المتحمسين لهذه الفكرة لا يجيدون الدفاع عنها بجدية وموضوعية بل غالبا ما تجرهم العواطف إلى ا ستنتاجات تكون موضع سخرية من التحقيق نود أن ننظر إلى هذه القضية بموضوعية ونعالجها من الشقين المنطقي والعاطفي:

أولاً: من المستبعد أن يكون أفلاطون قد اخترع قصة أتلانتيس لكي يتوسع بنظريته عن الجمهورية الفاضلة فهو قد توسع بوصفها "الجمهورية" أكثر من مرة في محا وراته الأخرى من دون الاستعانة بخدعة جغرافية. وإذا أراد فعل ذلك حقا كان أسهل عليه أن يستعين بأثينا القديمة عوضا عن ابتداع قصة عن قارة مجهولة.

ثانياً: التفسيرات التي وردت في المحاورتين عن المصادر التي علم أفلاطون بواسطتها عن أتلانتيس منطقية جدا تخلو من ثغ رات أو تناقضات، فمن المعقول جداً أن معلومات عن أحداث تختص بماض سحيق كزمن أتلانتيس قد نقلت إلى "صولون" عن طريق كاهن مصري وخصوصا بما يعرف عن عراقة الحضارة المصرية وقدمها الذي يتجلى بعمر معجزة الأهرامات وتقدمها على الحضارة اليونانية في ذلك الوقت.

وبالتأكيد إن المعلومات التي بنيت على أساسها النظرة الداروينية المعاصرة لتاريخ البشرية تعتمد على براهين مادية تم التوصل إليها عبر دراسات الآثار . ولكن يجدر بنا أن نأخذ بعين الاعتبار العديد من الكوارث الطبيعية والتغيرات العنيفة التي تعرضت لها الأرض والتي يقر بحقي قتها الجيولوجيون، ولذا من الصعب نبذ احتمال أن أزمانا وعصوراً طويلة من تاريخ البشرية بمجملها قد بترت من سجلات الذاكرة التاريخية أثر كوارث كونية لم يسبق أن شهدناها في حقبتنا التاريخية المدونة

ولعل أكثر من يدعون للعجب هم البعض الذين يعتقدون أن أفلاطو ن لم يكن لديه مفهوم جلى عن الزمن وتسلسله بل كانت لديه فقط أفكار مبهمة، وفي الواقع يصعب على أي إنسان تصديق مثل هذا القول عن عملاق الفلاسفة، الذي حيرت فلسفته الخالدة عقول كبار الفلاسفة والمفكرين حتى أن وصف البعض منهم تاريخ الفلسفة بأكملها بأنه "ليس إلا ردة فعل وتحدياً لفلسفة أفلاطون".

من جهة أخرى إذا نظرنا بعين الثقة إلى رواية أفلاطون عن أتلانيس وآمنا بصحتها يبقى أن نتساءل عن موقع هذه القارة في المحيط الأطلسي وعما إذا كان هناك أي أثر لها . والجدير بالذكر أن زمن اختفاء أتلانتيس (أي في حدود 10000 سنة قبل المسيح) كما أشار أفلاطون يتطابق مع زمن انتهاء ما يسميه العلماء بـ "العصر الجليدي" وقد تم التحقق علميا أن في العصر الجليدي كانت درجة ارتفاع مياه المحيطات أقل بكثير من زمننا الحاضر، فحسب المعلومات التي أكدها بعض الجيولوجيين قد ارتفع سطح المياه منذ ذلك الحين بما لا يقل عن مئة وثلاثين متراً عن الشواطئ.

الكثير من العلماء اليوم يرفضون ربط فكرة اختفاء أتلانتيس بارتفاع سطح المياه لأسباب أهمها يتعلق بالتلازم الطبيعي بين ارتفاع معدل لحررة وارتفاع سطح المحيطات، ولكنهم حتى الآن يجهلون الأسباب التي أدت إلى بداية ونهاية العصر الجليدي . كل ما يعرفونه هو أن كمية هائلة من الطاقة ضرورية لرفع معدل الحرارة على الأرض إلى درجة تؤدي إلى انتهاء عصر كالعصر الجليدي، ولا يستبعدون أن تكون أسبابها عوامل بركانية مقترنة بارتجاجات أرضية.

أما فكرة اختفاء القسم الأكبر من القا رة في زمن لا يتعدى الـ 24 ساعة فتوحي أكثر من مجرد احتمال وجود عوامل طبيعية مسببة لمثل هذا التغير المفاجئ ولذلك يبقى تلاعب أيد إنسانية في الطاقة احتمالاً مقنعاً لاختفاء القارة . ومثل هذا الاحتمال يهدد العلماء الذين طالما يستمدون طاقتهم في الحياة من جنون عظمة ما توصلوا إليه من تكنولوجيا فقط ليكتشفوا ضعفهم أمام بعض المظاهر الغامضة لحضارات أرقى كالصحون الطائرة.

وفي ظل التعتيم الذي تلقاه مثل هذه الأمور كان لا بد من الخروج عن المنطق والموضوعية التي تفرضها هالة العلم والتكنولوجيا العصرية والنظر إلى أتلانتيس بعين أكثر عاطفة وتوقا لاكتشاف أسرار ذلك

العالم المفقود، ففي محاورة مع "إدغار غايس" الملقب بالنبي النائم والذي عبر الـ "ترانس" (الغيبوبة الروحية) استطاع الرجوع إلى الماضي مقلباً صفحات الذاكرة الكونية أو ما يسمى بالـ "السجلات الأكاشية" ليتذكر ما لا يقل عن 35 جيلاً له من ضمنها جيل يقول أنه كان فيه من سكان أتلانتيس ففي مقابلة أجرت معه أفصح غايس عن معلومات واصفاً غايس عن معلومات واصفا خلالها أتلانتيس وصفا يكاد يلامس جذور المنطق وتكاد أن تغمره تلافيف ذاكرتنا لولا أن العلم والتكنولوجيا المعاصرة تتنكر له وتستهزئ بمصدره (أي عالم الروح) معتبرة أن كل ما يصدر عن مصدر كهذا هو خيال أو خرافة.

بينما كنت أقرأ ما جاء في مجلة الضحى وصلت إلى ص 98 بعنوان "قدم الكون" تأكيداً لكلام صاحب المقال، من الواضح جداً أن الرؤية التكوينية للخلق في أسفار العهد القديم والجديد وفي القرآن (أي بما يتعلق بقصة آدم وحواء) يجب ألا تؤخذ حرفياً. هذا المقال ذكرني ما قرأته في كتاب "قصة إيدغار غايس" (هناك نهر) There is a River وبالتحديد ما جاء في الصفحة 312 من هذا الكتاب "أن جميع الأرواح خلقت دفعة واحدة ولم يخلق الله أرواحاً بعدها (أي ما يفسر كلمة كن فكان في التوحيد" واللطيف (الروح) كما في الحلم ولكن بكامل وعيها . من هذه الأرواح هرمس ذو الثلاث شعب . Hermes Trismegistrosوكلمة هرمس تعني "السر" واسمه الحقيقي هو إدريس وسمي Trismegistros لأنه كان امتلك سر الأبعاد الثلاثة وكان ينتقل بين الزمان والمكان.

خلق الإنسان بوعي إلهي وجسم حيواني . وجد الإنسان منذ البدء في خمسة أماكن جغرافية مختلفة في الوقت نفسه وفي خمسة فصائل أو أعراق : الأبيض ظهر في القوقاز "وكارياثيان" وايران. الأصفر ظهر في ما يسمى اليوم بصحراء غوبي. اللون الأسود ظهر في السودان وشمال غرب أفريقيا. اللون الأحمر ظهر في قارة أتلانتيس . اللون الأسمرظهر في "الأنديز" والساحل "الباسيفيكي" لأميريكا الجنوبية. وكان في ذلك الزمن البعيد الساحل الغربي لقارة "لاموريا" المذكورة في الكتاب المقدس باسم Gemorah وفي القرآن كـ "عمورة". كانت تؤلف أعماق المحيط الأطلسي في الولايات المتحدة منخفضات قارة أتلانتيس الغارقة اليوم . كانت إيران والقوقاز أراض غنية (جنة عدن) وكان قطبي الأرض مناطق استوائية وشبه استوائية معتدلة حيث كان نهر النيل يصب في المحيط الأتلنتي . كانت الـ "صحارى" Sahara خصبة جداً ومأهولة وكان حوض الميسيسيبي جزءاً من المحيط. كان في الناس من ذكور وإناث وكانت هذه المخلوقات نقية ذات أرواح كاملة

متكاملة. فحواء مثلث الشريك الطائع والمحب لآدم في داخل كل فرد (أي في آفاق المرء الثلاثية) العقل والجسد والروح. في حواء تمثلت الطاقة الإيجابية وفي آدم تمثلت الطاقة السلبية . ولكن طغى في آدم (أي الجزء السالب في الإنسان) الجزء الموجب وانكمشت هذه الطاقة في حواء . كما طغت على حواء الطاقة السالبة وانكمشت هذه الطاقة في آدم.

ولخلق المساواة، كان لا بد من تعادل طاقات السالب والموجب في داخل كل امرء. لأن المساواة هي في الأرواح وطاقات الأرواح هي آلة الخالق لاستمرارية الكون واستمرارية الحياة على الأرض ونيلنا الخبرات المطلوبة لأجل الارتقاء الروحي. لم تكن يوماً حواء المسؤولة عن الخطيئة، لأن حواء تمثل جزءاً أو طاقة في كل إنسان ذكراً كان أم أنثى. فأكل التفاحة المرموز إليها في الكتب السماوية هي إرادة الله لتحقيق الحكمة من خلقه. وتبادل الطاقات في كل إنسان والقدرة على التعديل بينها هو اختبار إلهي لم يهبط الإنسان من السماء بخطيئة التفاحة والأفعى، وما أنزل في الأديان هو نوع من التشبيه، فالقوة السماوية لا تميز بين الأرواح ذكراً كانت أم أنثى فقد مرت عصور طغت فيها طاقة حواء على طاقة آدم وحكمت فيها الأنثى ونجد آثار هذا المنطق في الهند بحيث ينظر إلى الله ك "الأم الحنون" ويناجي بكلمة Oum (أم) وليس بالشرط كأب "باترياركي". الله أراد أن يخلق شبيهاً له على الأرض ونفخ في طبيعة الإنسان روحه وهذه الطبيعة في أعماقها متعالية عن الجنس البشري والغريزة الحيوانية. الكون انبثق من الموسيقى والهندسة والحساب والجبر في انسجام كيان وتناسق وتناغم (عناصر البناء).

فهذا الانسجام هو ما نسميه بـ "إرادة الله" فإرادته محكمة ومنطقية وليس رعوية.

تتطابق قراءات إدغار غايس مع ما جاء في التوحيد. استعمل إيدغار التعابير التالية المشتركة:

قانون الكارما وهو ما نسميه بـ "مضمار السببية".

قانون التقمص المعروف.

قانون قدم الكون.

قانون الـ "Avatar" وهو ما نسميه بالتجلي.

فضلاً عن ذلك تؤكد قراءات غايس وحدة الأديان كما جاء في إحداها ما يلي:

"سوف يأتي يوم يعي الإنسان فيه حقيقة مؤكدة وهي أن جميع الأديان مصدرها واحد ومرجعها واحد وهو Religion of the Oneness "دين التوحيد". والأديان "وجدت للمحبة ولتعريف الإنسان بأصله السماوي الإلهي وضرورة ترقيه وعودته إلى ربه . والحروب العديدة التي تدور رحاها اليوم في حوالي 40 منطقةمن العالم غالبيتها تحت ستار الدين أو بدوافع دينية مختلفة لا تجسد إرادة الخالق. الدين محبة، مغفرة، عطاء ومعرفة النور الإلهي في أعماقنا.

الدكتورة سامية عزام

إدغار غايس أو "النبي النائم" من أغرب الشخصيات التي عرفها التاريخ المعاصر، لقد أذهل هذا الشخص الروحاني أميركا في العقود الأولى من هذا القانون بمشاهداته وقراءاته الروحانية حينما كان يغرق في غيبوبة يتصل خلالها بالسجل الأكاشي ليقرأ ويشاهد مخزنن كل نفس فيه وليدهش العالم باكتشافه الغيبوبية تلك الفكر البشير بمعلومات قل نظيرها منذ أفلاطون حول القارة المفقودة أتلانتيس وحول سكانها، وصراع الخير والشر بينهم الذي أدى إلى دمارها وغرقها بما فيها من حضارات وشعوب، لقد تذكر ذاك الأميركي الغامض أكثر من ثلاثين من حيواته السابقة وحدد لكل شخص قرأ له سجله عدة شخصيات سابقة تقمص بها، منها ما يرجع إلى عصور سحيقة، ولقد أكد من خلال مشاهداته الروحانية قدم العالم وتقمص النفوس وجدلية صراع الأضداد وتعاقب هيمنة الخير والشر، ففي تلك العصور الموغلة في القدم أيضاً استشرف غايس بشفافية قواه النفسية المذهلة حقائق وتفاصيل..

نعم... لقد كان هناك أبناء الظلمة وأبناء النور، فأبناء الظلمة، أو كما يسميهم أبناء "بليل" Belail، هم أهل الشر الذين يسعون إلى الضلالة والدمار واستغلال قوى المادة والطبيعة وتسخيرها لمطامعم الشريرة،

أما أبناء النور، ويسميهم أبناء الواحد، فهم أهل الخير الذين يسعون إلى هداية الشعوب للحكمة والفطنة والمعرفة الحقيقية واستخدام قوى العلم والتطور لخير البشرية جمعاء.

ولقد كان لغايسي بعض القراءات لأشخاص كانوا في تقمصاتهم السابقة من سكان أتلانتيس، وقد أشار فيها إلى بعض الحقائق الغريبة حول بدايات الوجود البشري كوجود روحاني تلعب فيه المادة دور التمظهر لا أكثر ولا أقل. فالبشر كما وصفهم غايس في أزمان الطفولة من عمر الوجود البشري تلك هم "أفكار متجسدة" تتخذ أشكالها الكثيفة وتتفاعل مع بعضها البعض وفقاً لطبيعة تفاعل الأفكار الخلاقة وتلعب أدوارها في الزمان والمكان من خلال فهمها للوجود ورغبتها فيه، وقد أطلق على كل نفس قرأ لها تعريف "كينونة".

ولنلق الضوء على بعض تلك القراءات:

في حدود 9800 سنة قبل ظهور راما، أحد تجليات كرشنا في الهند، عاش في أرض الأتلانتس كينونة اسمها "إميليوس" وهو أول من لاحظ الفرق ما بين البشر إناثا وذكورا وميز بينهم من خلال الشكل الفيزيائي حين لم يكن بالإمكان أن يتدنس الوعي قبل ذلك ويتعرف على الأشخاص إلا بهوياتها الميتافيزيقية أي كأفكار متجسدة، وكانت الأحداث ترتبط في تطورها بناء على تناسق تلك الأفكار المتجسدة وفقا لطبيعة الفكر التي (كما تؤكد قراءات غايس لاحقا) بمفهومنا الحالي هي إما شريرة أو خيرة. وكانت تلك الأفكار تتوالد تلقائيا من ذواتها وتقولب أشكالها الخارجية ومن ثم الوجود الخارجي ككل تعبيرا عن الارتباط الموحد ما بين الفكر والمادة (مسرح تمظهر الأفكار وتشكلها) ارتباطا كان يمكن إثباته والتحقق منه آنيا في عمر البراءة تلك كما يتحقق الأطفال من وجود الملائكة. وفي انسياقهم وراء تلك الرغبات التي أحدثتها يقظتهم لفيزيائية التمظهر المادي، وهذا ما ولد نزوة التحكم بالمادة وهي نزوة الشر بمفهومنا العصري، تكثفت عملية التمظهر الفكري بالمادة مؤدية إلى الالتباس الحالي بالفصل ما بين المادي والفكري وجعلهما عالمين منفصلين.

صراع الخير والشر وجدلية النور والظلمة :

هناك قسمان من البشر: أبناء النور وأبناء الظلمة "بليل" Belail ويطلق على أبناء النور تسمية أبناء الواحد أو أبناء "القوة الخلاقة"، وقد حدث نوع من التمازج بفعل تأثير قوي من قبل "أبناء بليل" على أبناء النور مولدا ما نعرفه اليوم بنسبية الخير والشر بعد أن كان المسرح المادي يؤكد للعين الشحمانية مطلقية هذين الضدين. ولقد تطور هذا التمازج على مر السنين إلى حروب مدمرة على الأرض. وكانت ثورة البركان التي أدت إلى دمار جزء من أتلانتيس نتيجة لسوء استعمال المادة خلافاً لإرادة أبناء النور، وبدأت حينها تدخلات من العقل الكلي لإظهار حقيقة تأثيرات أفكار أهل النور البناءة وتأثيرات أفكار أهل الظلمة "بليل" المدمرة، وأدت محاربة أهل الظلمة لأهل النور إلى الحد من الرقي اللامتناهي الذي كانوا يتوقون إليه ويتصورونه لمستقبل الحياة البشرية على الأرض وجعل نشاطهم ينحصر في الدفاع عما تبقى من الخير المتمظهر، وقد تطور هذا النمط من الجمود إلى (الانفصام الكامل بين فهم الخير والعمل به) الانفصام الذي نعهد العالم عليه اليوم.

ولإشباع رغباتهم ومن دون الأخذ بعين الاعتبار الصعوبات التي بدأت البشرية تعاني منها بعد هذا السقوط، لم يكن لأبناء الظلمة أية معايير سوى تبجيل الأنا بشكل بدائي وبوهيمي وهو الأقرب إلى ما نسميه اليوم الخلل الأخلاقي.

إن هذه التناقضات بدأت تخلق تساؤلات عديدة حول "أبناء الواحد" المهتمين بجدية بمصير الكون تتزامن مع وعي متزايد حول العلاقة ما بين الوعي الفردي والوعي الكلي الذي أرادوا الحصول عليه . فشرعوا بتحضير النفوس إلى رحلة التعرف على الخالق، تلك الرحلة التي نرى آثارها اليوم في الأديان الحالية

سوء استخدام الطاقة والتنافس الجدلي :

وفي تلك الفترة شهدت القارة استعمالا للمادة مختلفا تماما عن الاستعمال الحالي لها بحيث كانت المادة وسيلة مباشرة للتعبير عن أفكار أبناء الظلمة وأبناء النو ر، لقد استغلت المادة لغايات روحية، خيرة وشريرة، كما يستغل الأطفال الألعاب لشن حروب أحداثها لا تزال تؤثر حتى اليوم على مخيلة منتجي السينما في أميركا (والتي هي بمثابة تقمص لقارة أتلانتيس). إن التطورات المادية التي نراها اليوم على أنها تقدم وتحضر كاستصلاح الأراضي واكتشاف الذرة، كانت حينذاك تلقائية وسريعة كنتيجة غير مقصودة للتنافس

الروحي ما بين الجماعتين . وعندما بلغ الاستغلال المادي ذروته كاستخدام الطاقة الشمسية بشكل مغلوط مرت حقبة من الوقت أصبح من الضروري أن يعم الوعي كل الجماعات خاصة العلماء لمعرفة كيفية إنقا ذ الأرض.

موقع أتلانتس :

إن الموقع الذي احتلته قارة أتلانتس هو ما بين خليج المكسيك والبحر الأبيض المتوسط إن الإثباتات على وجود تلك الحضارة نجدها في جبال "البرينيه" والمغرب والـ "هندوراس" البريطانية و "يوكاتان" في المكسيك وأميركا.

لقد أظهرت مجمل قراءات إدغار غايس، نبي أميركا النائم، وجودا بشريا موغلا في القدم وحضارات متقدمة جداً ما قبل التاريخ التوراتي المعروف، وكشفت جذورا لصراع الخير والشرن والإيمان والكفر ما بين جماعتين متنافستين تعود إلى ملايين السنين، وأكدت حقيقة تقمص "الكينونات" الإنسانية أي النفوس، تكرارا ومرارا منذ فجر تلك العصور وحتى اليوم الأول في رحلة المعرفة والتحقق.

هذه بعض المقاطع من مقابلة أجريت مع غايس:

– صف لنا بعض القوى العقلية التي توصل إليها الأتلنتيون في أوج تطورهم الروحي؟

من المستحيل أن أصف لك ماديا إنجازاتهم وتطوراتهم الروحية، إن تداخل الشروط المادية والأوجه الروحية يؤدي إلى اجتراح المعجزات كالتي تألق بها السيد المسيح. حتى في أسفاره في الجليل ومصر والهند وفرنسا وانكلترا وأميركا وفي تلك الحقب الزمنية كان الأشخاص في هيئة أفكار أكثر منهم أفرادا مستقلين وشخصيات كما هي اليوم. وتصوراتهم في عالم الأفكار تنتمي إلى عالم المادة الهيولانية تتجلى بالظهور لذلك ما يسمى اليوم علوما غيبية أو سحرا كانت الحالة الطبيعية لدى الإنسان في تلك الحقبة، تماما كما نتساءل بما يحلم الطفل بعد ولادته وهو نائم، ما هي تلك الأفكار التي يحلم بها : ما كان أو ما هو كائن أو ما سيكون؟ من أين أتى هذا الطفل بالتجارب التي تبرر تعابيره وتصرفاته؟!!

وبداية العلم الغيبي كانت التعبير الطبيعي للكيان، كلما ازداد الرابط بين الكيان والشروط المادية اختفت هذه القوى الغيبية وكان اختفاؤها تدريجيا بدءا بغيبوبة مادية (وهي عينة مما نسميه اليوم بالواقع) وأصبحت هذه القوى محصورة بما نسميه اليم بـ "الرؤية" أو "الحلم" ولكن حافظت بعض الكيانات على جوهرها وانبعثت في عدة أماكن من الكرة الأرضية لأهداف دقيقة، وكما نعلم أن الوقت يقترب لتكتشف هذه الكيانات في عدة مناطق، كما رأيتموه ذاهباً (أي المسيح) سترونه عائدا.

وهذا ما تعنيه القوى الغيبية اليوم وما عنته وما ستعنيه غدا.

في حالة الغيبوبة الروحية شاهد غايس مرات عدة هذا العالم المفقود بدءا من سنة 1932، وبالرغم من أنه لم يقرأ محاورات أفلاطون قط فإن وصفه لأتلانتيس جاء مطـ ابقا لوصف أفلاطون وفي رؤى غايس كان شعب القارة المفقودة ذا مهارة عالية حيث طور غواصات ومركبات طائرة وعرف الانشطار النووي، ويعتقد غايس أن سوء استعمال هذه الطاقة الهائلة تسبب بدمار قارة الاتلانتيس.

وتوقع "النبي النائم" أن تظهر القارة إلى الوجود ثانية، وبدأ هذا التوقع يبدو كحقيقة حين اكتشف العلماء ما اعتبر طريقا مرصوفا من الحجارة تحت شاطئ باميني في المحيط الاطلسي.

ووصفت الكاتبة الروحية الشهيرة "جير الدين كمنز " صاحبة التآليف الرائعة التي تنمقها عن طريق "الكتابة التلقائية" عملية استخدمها سكان أتلانتيس (القارة المفقودة) لتسخير ما يصح أن نسميه طاقة ذرية، وقد سمى محدثها من عالم الروح في سنة 1935 هذه بالـ "قوة الكهربائية المتفجرة".

وتقول مسز كمنز: "الظاهر أن هذه الطاقة الكهربائية المتفجرة هي التي سببت طوفانا أدى إلى غرق قارة أتلانتيس في جوف المحيط".

ويقول محدثها الروحي:

"أؤكد لكم أن أناس ما قبل التاريخ عرفوا عن المادة والضوء والأثير وخواصه أكثر مما يعرفه علماء القرن العشرين أو يتصورونه، تصوروا خزانات واسعة للهواء المتكهرب المضغوط المضاد للجاذبية المادية .

وقد استرجعت وخزنت في جيوب ضخمة تحت سطح الأرض. وقد وضعت بطاريات التخزين تحت التربة وقام على حراستها جيش من اتلانتيس، إنكم لن تجدوا آثاراً لهذه الخزانات ولا تلك المخازن الكبيرة التي اختزنوا فيها القوة تحت أرض أواسط أميركا الجنوبية. ذلك لأن كل شيء، الأرض وما خبئ فيها، قد تغير وضعه خلال ذلك الطوفان. وهذا هو السبب في أن الخرائب الحالية ليست إلا جزءا صغيرا مما كان موجودا في تلك الأيام الخالية".

أضاف: "لقد كان الإنسان، لا قوى الطبيعة، هو الذي أباد قارة اتلانتيس. لقد وجد قوم تقدموا إلى درجة خطيرة في إنشاء مخازن الهواء المتكهرب هذه تحت الثرى. ولكن هذه القوة الهائلة قد ثارت أخيرا ضد هؤلاء الناس وأطاحت بالإنسان والأرض الجامدة ارتفاعا نحو الأعلى وكان السقوط بعد ذلك فظيعا هائلا . طغت البحار على الأرض المتشققة الغارقة، وهلك الملايين من الناس في لحظة من الزمن واختفت ألوف الأميال المربعة من البلاد برمتها تحت الأرض، وقذفت إلى أعلى قطعا من الأرض مكونة بلادا جديدة".

"إنني إنما اصف هذا بشكل فج ولكني أظنكم توافقونني على أن القوة التي تستطيع أن تحرك الصخر اللازم لبناء أهرام مصر ليست من رتبة أقل فإذا ما زادت هذه القوة بتوالي الكشوف واحدا بعد واحد حتى تضاعف قدرها فبلغ مليون، ضعف، فإننا نكون قد وصلنا إلى نقطة الخطر".

أتلانتيس (الحضارة التي دمرت ذاتها) سبيل العلم إلى ما فقد – راجع (الضحى) العدد السابع والستون – أيلول 1997.

في قارة أتلانتس اشتعلت اشد حروب العالم القديم ضراوة : الحرب بين أسياد النور والحقيقة وأسياد الظلام والجهل.

ولم يقو الفكر المستيقظ على التحكم بالغريزة الفطرية. كما عجزت عن ذلك القدرة النفسية والجسدية. ففي أوج تطوره، أسس الشعب الأتلنتسي حضارة قوية الفكر تحثها قوة نفسية بدنية، غير أن الحضارة هذه خلت من الإرادة الأخلاقية الضرورية لكبح جماح الشعب، الإرادة التي حمت أبناء النور من الأنغماس في الظلمة عبر تقلبات الأزمان والشرائع. وأما السحر فكان موهبة طبيعية تمتع بها الأتلنتيون، فقد تحول بين

أيدي هؤلاء العمالقة إلى سحر مادي وجسدي فانغمسوا في الشعوذة التي ما زلنا نخ تبر مفاعيلها حتى يومنا هذا وسط دوامة الكره والجنون.

ولكن تلك القوة النفسية البدنية لم تهيمن على أهالي لأتلانتس كافة. فقد انصرف قسم كبير منهم إلى الشعوذة وفني في مسالكها. أما القسم الآخر، ممن تراءى فيهم نور الروحانية، فقد وقع ضحية أمواج القوانين الأخلاقية الصارمة التي نزلت بنظام أتلنتس القاري، وضل في متاهة الارتباك، وهام هنا وهناك يتبع الآلهة المزيفين والإرشاد الخاطئ، في حين عدد قليل – بضع ملايين من البشر لا يقاسون بعدد سكان القارات الاتلنتسية الهائل – حافظ على قوته وصفاته ونور عقله بفضل اتصاله المستمر بالروح، وهذه الأقلية هي التي شكلت في ما بعد أتباع الأخوية المختارين الذي رسخوا أسس الفضيلة على الأرض في العصر الآدمي الأخير.

خلال آلاف السنوات الأولى، لم تكن فكرة الأسرار قد نشأت بعد إذ كانت الحقيقة ملكية عامة بتصرف البشر. ولكن، مع نمو معرفة الذ ات، نشأ عن الرغبات شغف وأنانية أوجبتا استتار الحقيقة . فقد أسيء استعمال المعرفة والقوة، فبات من الضروري تفريق العقال عن الجهال فبدأت أول مظاهر التعليم

وكان لا بد من اتخاذ إجراءات للحرص على سلامة الأقلية العالمية، وقد آلت الحضارة إلى نقطة أضحت عندها الضمانة الوحيدة هي تأسيس مدارس متشابهة لما عرفته اليونان لاحقا بمدرسة فيثاغوراس السرية ومن بعدها بأكاديمية أفلاطون يعمد فيه إلى تهذيب الأفراد وتعليمهم حتى إذا ما اثبتوا جدارتهم ائتمنوا على الحقيقة مستقاة من مصدرها الأول، عن طريق المعرفة العليا.

لذلك، بعدما كانت الأخوية قد أسست أول أعمدة التعليم، حتى في أواخر الحقبة اللمورية، ليتمكن أهل الإحساس والجدارة من التدريب والتطهر والتقوي استعدادا لتلقي الحقيقة، قامت بإطلاق حملة نظامية شاملة، فبعثت الأتباع والرسل لافتتاح المدارس السرية والجامعات الروحية ومراكز التدريب الخاصة، بهدف تجميع أكثر الرجال والنساء جدارة بتلقي التدريب والتعليم في أسرار الطبيعة

وهكذا منذ حوالي أربعة أو خمسة ملايين سنة، ما كادت قارة أتلانتس تهدد بتدمير ذاتها بسبب الجور الروحاني الذي كان يهيمن عليها، حتى تم إنشاء المدا رس الأولى فتشعبت منها مدارس أخرى في أرجاء العالم الأتلنتسي. وبينما بلغ الأتلنتيون ذروة عظمتهم المادية، كانت تلك المدارس تبذل قصارى جهدها للحؤول دون تطور موجة الشعوذة. كثيرون، أو بالأحرى ملايين، أنقذهم إنشاء المدارس واستمسكت فيها نخبة الشعب الخير. أما الأعداد البشرية الهائلة التي لم تتمكن من المشاركة في درس العلوم المقدسة بسبب عدم اكتمال تطورها الداخلي فقد تلقت مساعدة شعاع القوة الروحانية المنبثق عن أبناء النور بشكل غير مباشر فشهدت عصوراً وأزماناً عم فيها الحب والسلام.

ولكن كان هناك دوما من راقهم مذاق الشر فقادتهم قلوبهم المتحجرة إلى زج أنفسهم بين صفوف أهل الخير وتلقي التعليم لتنفيذ رغباتهم المفطورة على كره الخير، فأسسوا المحافل السرية لمواجهة مدارس النور والحقيقة الروحانية. وتحول أنصار مدارس الشر تلك في وقت لاحق إلى خبراء أيسريين الأتلنتيين وخطيئتهم المتزايدة.

ولم تحجب الحكمة عن غير أهلها ومستحقيها إلا بعدما أخذ الأتلنتيون بالانغماس أكثر فأكثر في الخطيئة بحيث أصبح خطيرا ائتمانهم إلى أسرار الطبيعة وخفاياها. وعندئذ حلت اللحظة الأكثر احتداما في تاريخ تلك الحقبة لحظة دامت ملايين السنوات: نقطة تحول الدورة من المادة إلى الروح.

ففي تلك الحقبة المصيرية من عمر البشرية، حين أصبح الطفل شابا مخيرا رأى الأتلنتيون الروح والمادة متوازنتين: ففي أي اتجاه تتأرجح كفة الميزان؟ باتجاه الروح وخلاص البشرية أم باتجاه الظلام والمادة وعبودية الإنسانية؟ ونتجت عن ذلك بلبلة قوية هزت الأرض: هل تتوصل الروحانية الفطرية إلى إثبات تفوقها على ثقل المادة المكتسبة؟ وهل تتمكن البشرية من ارتقاء سلم التطور لتبلغ النور، أم تهوي طائشة في سراديب الظلم والحماقة لتغيب في غياهب المادة المبهمة؟ ومن بين مليارات البشر الذين زينت قلوبهم بميزان الروحانية، كان على كل بشري أن يخضع بمفرده إلى الاختبار المحتم، فكان مصيره إما الفشل والسقوط وإما النجاح والارتقاء في تيار التقدم العام وصولا إلى التوحد في الألوهية.

جاء الطوفان ليجرف معه أتلانتس إلى الهلاك، مغمورا بمياه الأرض والسماء التي ف اضت على اليابسة وفقا لقانون الكارما. ورافق غرق أتلانتس التي ترامت على مدى ملايين السنوات، بروز أرض جديدة في أنحاء أخرى من العالم، أهلت مع مرور الزمن ببعض الأتلنتيين الذي هاجروا في موجتين هائلتين أو ثلاث.

وهكذا ولدت البشرية من جديد لتترعرع في صحراء "شامو" أو "غوبي" والأنجاد المحيطة بها. أرض لا يشير قفرها الرملى الحاضر إلى تلك البقاع التي انبسطت في القديم يانعة الخضرة والتي شهدت غاباتها وبحيراتها توالي اعظم الحضارات التي برزت في عالمنا هذا . وهناك طيلة ملايين الأعوام، فيما كانت أتلانتس تتخبط في صراعها مع الموت، كانت بذور الجنين الجديد تزرع في الرحم الطاهر.

إن الطبيعة لمحسنة في أعمالها . فهي تترك أولادها يواجهون وحدهم عواقب أفعالهم الوخيمة من خلال عمل الكارما ودورة التقمص، فيما تبذر بذور كل دور ج ديد في أراض طاهرة وعفيفة ليبرعم الطفل في أجواء الطهر وينشأ في الروحانية، وتحول العرق الجديد إلى بؤرة نور روحاني لم يطلها خبو الجور الأتلنتي، يساعده بشر اجتازوا مرحلة الاختبارات في الحياة الأتلنتية أصفياء أشداء.

إن أسمى الأرواح الكونية تلك المعصومة عن الخطأ، لا تظهر على أرض إلا عند بزوغ فجر كل دور بشري جديد، عند نقطة التقاء طرفي الدورة الكبرى وبالقرب منها، فتلازم الإنسان طيلة المدة التي تتطلبها الحقائق الأزلية التي تبشر بها لتنطبع وترسخ في أذهان الأعراق الجديدة الطيعة . لكأنها تضمن بذلك عدم ضياعها أو انطوائها في غياهب النسيان مع الأجيال المقبلة في العصور التالية . تكمن مهلة الروح الكونية في إعلان خطبة الحقيقة ليس إلا.

ومع انقضاء القرون وتوالي الحضارات عاد حب الحقيقة ليخبو في قلوب البشر فأهملت المبادئ والوصايا القديمة. وزاد انطواء هذه الحقائق في العصر الآدمي الأخير حتى تحولت اليوم إلى بعض الشعائر والطقوس والعصبيات الدينية.

تاريخ البشرية منذ عهود الظلام إلى عهد النور 2 – راجع الضحى العدد الثالث والستون – أيار 1997.

السجل الأكاشي

هناك في الفضاء ... حفظت صور الفانيات... هناك، ما اندثر كيانه على الأرض تتراءى ظلاله وأخيلته على مرايا هيولى الفضاء . لا مناص ولا مفر، ولا حول حتى للأفكار من أن تنفذ من شباك ذاك الفضاء اللامتناهي ولا للأصداء أن تتلاشى مهما عدت السنين والدهور، من أصداء الفكرة إلى الحس والكلمة والشعور، وكذلك النيات والنخيلات والرغبات لا تفنى ولا تضمحل بل تحفظ ذلك السجل العجيب حيث تنطبع كل خلجة ونبضة وخفقه على ذلك النسيج الهيولاني التناظري، وكل معلومات تحتفظ بكينونتها محفوظة عند "كرام كاتبين".

لا شيء يتلاشى في الفضاء... حيث تترابط سجلات كل الكائنات بمخاوفها وسعاداتها، في هولجسها وأحلامها وأمنياتها في نظام عجيب ومتقن غاية في الترتيب والتدبير.

هناك في الفضاء ... لكل نفس حيز في سجله الفريد، ذلك الغلاف الهيولاني الأثيري، ولكل نفس شيفرة، رمز خاص، قطبة في نسيج هالة الوعي الصغري المحيطة بالأرض، والكبرى ما وراء كل السدم والمجرات. ولكل نفس مكان في تلك المكتبة الكونية، "وموقع" على هذه الشبكة الأثيرية، وصفحة في "الكتاب المرقوم" حيث كل ما كان ويكون وسيكون في حفظ مصون، ما وراء عالم الحس والظنون، وفي كل مرة تجول في الخاطر فكرة وينطق اللسان ببنت شفة.. فإننا نضيف قسطاً إلى رصيدنا في تلك السجل إلى اليوم المعلوم حين:

... "يتذكر الإنسان ما سعى وكل نفس بما كسبت رهينة".

ويطلق الثيوصوفيون على هذا السجل الفضائي تسمية"السجل الأكاشي" AKASHIC RECORD.

والأكاشا في الفلسفة الهندية جوهر أثيري هيولاني ومادة أولية لطيفة تعتبر المبدأ الرئيسي للطبيعة، حيث تعمل الطاقة الكونية البرانا PURANA في الأكاشا لتشكل العناصر المادية.

ويعتبر البعض "السجل" الأكاشي نظاما كونيا يسجل كل فكرة وكلمة وحدث، ويخضع لناموس الوعي الكوني الأرقى الـ "لوغوس". وهو هالة الأرض EARTH'S AURA – أو الطاقة الاثيرية – يهتز بترداد عال "ليمتص" كل انطباعات الحياة واختلاجات الزمان والمكان في ذاك البعد الفضائي.

إن السجل الاكاشي مكتبة كونية وهالة وعي جمعي يحيط بالأرض، إنه خزان كل المعارف، وذاكرة كبرى ليس للأحداث وحسب بل للآداب والفلسفات والعلوم الماورائية وكل ما جاء به فكر وحس وخاطر، ويحتوي بين تلافيف حافظته وثناياها على مجمل الدراما الكونية في كل أبعادها الزمنية

هذا المحيط الأحيائي والغلاف الماورائي الأثيري سجل كل ما حدث في الأمس، ويسجل كل ما يحدث اليوم، ويحتفظ بغيب كل ما هو آت، أنه يختزن الماضي والحاضر والمستقبل في تكور شعاع النور داخل انطواء الكون اللامتناهي في الكبر... واللامتناهي في الصغر! وفيه تجد جواب كل سؤال!!!

ويعتقد بعض الحكماء أن المعلومات "المطبوعة" على الأكاشا يمكن قراءتها في حالات متقدمة من الوعي، ويمكن الوصول إلى الوعي المتطور هذا عبر التأمل وأحيانا عبر الرؤى والغيبوبة أو الطرح الروحي، ويقول بعض اليوغاويين أنه في حالات تأملية وسيطية باستطاعة "الرائي" النظر عبر طبقات المدونات الأكاشية ليختار أي حقبة من عمر الأرض ويقرأ سجل الاحداث في زمان ومكان محددين.

وقد سجل التاريخ حالات نادرة لبعض "الغائبين" أو الوسطاء والقراء الروحانيين الذين ادعوا قراءة السجل الأكاشي واعتبروه بحرا من الوعي المحيط يذوب فيه كل وعي فردي.

بداية التاريخ

دور آدم

الرحلة الأحمية:

بدأت رحلة كشف الحقيقة منذ ملايين السنين، وكان آخرها في دور آدم الصفا ومنتهاها يوم الدينونة وقيام الساعة. لقد مرت البشرية خلال ملايين من السنوات في اختبارات للوعي، في دورات امتدت لأكثر من سبعين دوراً. وكان كل دور ينتهي بكارثة عالمية، يتسبب بها الجهل وسوء استخدام الطاقة والمعرفة من جهة وإخفاق البشرية في إدراك الحقيقة من جهة أخرى.

أما الحلقة الأخيرة فابتدأت مع دور آدم الصفا، الذي بدأت معه الحقيقة العرفانية تتشكل على شكل نطفة في رحم الزمان . وعلى مدار السبعة آلاف سنة التي يتكون منها هذا الدور الأخير تدرجت البشرية في معرفتها في عدة مراحل وفي كل مرحلة كانت حقيقة التوحيد يجري تقر يبها لأفهام البشرية من خلال صفيه العقل الكلي. ونشأ جنين التوحيد مع كل رسالة سماوية. لقد كان جوهر الدعوة هو هو منذ القدم وكان الرسل والأنبياء هم هم منذ القدم يأتو ويذهبون بأسماء وأقمصة متبدلة.

وقد جاء في الإنجيل إشارات إلى ذلك:

"الحق أقول لكم لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان ولكن الأصغر في ملكوت السموات أعظم منه" (متى 11/11).

"وسأله تلاميذه قائلين فلماذا يقول الكتبة أن إيليا ينبغي أن يأتي أولاً. فأجاب يسوع وقال لهم إن إيليا قد جاء ولم يعرفوه بل عملوا به كل ما أراد وا. كذلك ابن الإنسان أيضاً سوف يتألم منهم . حينئذ فهم التلاميذ إنه يتكلم عن يوحنا المعمدان". (متى 17 – 13/10).

الجواب واضح: يوحنا الذي صعد إلى السماء (تقمص من جديد) وعاد إلى الأرض في جسد يوحنا المعمدان.

وقد انقسم البشر في كل مرحلة من مراحل تطور الجرين إلى ثلاث فئات:

الفئة الأولى: الذين أقروا عن إرادة ووعي بحقيقة رسالة التوحيد.

الفئة الثانية: الذين رفضوا عن إرادة ووعي حقيقة رسالة التوحيد.

الفئة الثالثة: جماهير الناس التي انقادت بجهلها مع الفئة التي أنكرت الحقيقة

والمعيار الذي يميز بين أفراد هذه الفئات الثلاث هو معيار روحاني في جوهره. وقد توزع جميع أفراد هذه الفئات على جميع الأسباط والأديان والأعراق والأمم بحيث لا تستطيع واحدة منها الإدعاء باحتكار أي فئة من الفئات المذكورة. وبكلام آخر، إن الرابطة التي تجمع بين أفراد الفئة الثانية والثالثة ليست رابطة دم، ولا جنس ولا عرق ولا لغة ولا دين ... إنها رابطة إضمار الكره للحقيقة ورغبة إلحاق الأذى بها – وهي رغبة دفينة في الأنفس، أنفس أهل الظلام منذ البدء. ومع هذا فهناك مميزات تختص بها كل فئة من هذه الفئات الثلاث.

الفئة الأولى:

خصائص الفئة الأولى: كانت علامة الإيمان والتسامح والتواضع، أن يقبل المؤمن على أي رسالة سماوية تدعو إلى الحقيقة، ولهذا دخل الموحدون من الفئة الأولى في الدين اليهودي على أيام شعيب عليه السلام، كما أقبلوا على الإسلام على أيام محمد (ص). والإقبال على هذه الأديان لم يكن من قبيل الإكراه أو الدفع أو المصلحة الدنيوية، بل هو إقبال وطاعة لما كان يبشر به الرسل والأنبياء ولما يؤمرون به من المولى عز وجل ليبلغوا حد الكمال في معرفة الحق سبحانه. إن الموحد الحقيقي، هو من لا يخشى من قول الحق والعمل به. ومن أجل هذا ضحى الموحدون في أجيالهم العديدة بمركباتهم المؤقتة (الأجساد) في سبيل كياناتهم الخالدة (الأرواح) وقد خاطب يسوع في إنجيل يوحنا هذه الفئة من الموحدين قائلاً:

إن كان العالم يبغضكم فاعلموا أنه قد أبغضني قبلكم. ولو كنتم من العالم لكان العالم يحب خاصته. ولكن لأنكم لستم من العالم بل أنا إخترتكم من العالم لذلك يبغضكم العالم".

من هو هذا الذي قصده يسوع بأنه لا ينتمي إلى العالم؟ إنه الموحد الحقيقي المتمسك بأهداب الحقيقة، إنه الموحد الحقيقي الذي يعرف لذة المشاهدة بالاتحاد مع أنوار العقل الكلي، ويختار بمحض إرادته وعن قناعة تامة طريق الفضيلة والحق . حتى ولو كانت ضد شهواته ورغب اته ومصالحه المادية الآنية المباشرة... إنه يسبح على الدوام ضد التيار في وجه هذا العالم الذي يقدس الشر ويعتبر الفضيلة ضعفا. إن المؤمن الموحد هو وحده من لا يعبد الله طمعا في جنة مليئة بالطيبات، ولا خوفاً من نار تستعر بالجمر واللهب، بل محبة بالله لذاته . إنه من الواضح جداً أن يسوع لم يكن يخاطب في الكلام الوارد أعلاه عامة الناس.

ونستنير ببعض الآيات المشابهة لهذا المعنى من القرآن الكريم:

"زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب" (البقرة 212).

"يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم". (المائدة 54).

من هو الذي لا يخاف في الحق لومة لائم؟ من هو الذي يعاني بسبب تمسكه بالحقيقة؟

من هي الفئة التي كانت تضحي على امتداد التاريخ، لتلقى فقط اللوم واصابع الاتهام؟

فهل هذه الآيات المباركة تتوجه وتعني الشخص العادي أم الشخص المؤمن المتميز؟ إنه ا بالطبع تتوجه إلى الأقلية المؤمنة الموحدة الصابرة، التي تجاهد للوصول إلى الحقيقة مهما كلفها الأمر من غالي التضحيات.

ومن الواضح أيضاً أن هذه الآيات لا تتوجه إلى أمة واحدة أو دين واحد، بل إلى جميع أهل الله في أي ملة كانوا بل لكل ذي أذن تسمع. إنها موجهة إلى كل مؤمن يريد أن يناضل في سبيل الحقيقة ويكافح من أجلها...

والجهاد الحقيقي هو مجاهدة النفس بالتغلب على الحقد والتحيز والتعصب . إن الله هو الحقيقة التي يجب أن يستسيغها العقل ليكون هناك مذاق ولذة للمعرفة، إن أكبر وهم عرفته الدنيا هو الاعتقاد أن الدرب إلى الله جل وعلا، وإلى الخلاص، يتطلب منا قفزة إيمانية باتجاه المجهول الذي نطلبه خارج ذواتنا . هنا في الداخل هو المعترك، وهنا فقط ساحة النزال، هنا يطلب الله، وهنا يطاع ويعصى . إن صدق الإيمان مع النفس هو بذاته الصدق مع الله

الفئة الثانية:

خصائص الفئة الثانية : هؤلاء هم فئة الطغاة، الذين يخدعون البشرية، وهم مبثوثون في كل أمة وعرق ودين... وخلال رحلة الحقيقة، كان هناك دائما من يناصبها العداء، إنه ليوجد دائما أناس تؤذيهم الحقيقة ويجدون فيها خطرا على أنانيتهم، إنهم لا يتحملون ولا يطيقون نور الشمس، ويفضلون وبإصرار شديد المكوث في الظلام، والتغذية من دماء الأبرياء . ولأن نزعاتهم الشريرة تسيطر عليهم بهذا الشكل فقد وجدوا واقتنعوا بأن طريق الخير هو طريق الضعفاء والأغبياء . لقد مارس هذا الفريق على مر التاريخ سلطته الدنيوية من خلال "قتل العقول". وفي كل لحظة توجهه م نوازعهم الشريرة. وغرائزهم المتحفزة بعكس اتجاه بوصلة الخير، ويندفعون مهما كلفهم الأمر باتجاه إشباع ميولهم العدوانية . وهم يعطلون إرادة الناس بقتل الإيمان في قلوبهم، إنهم يستطيعون ارتكاب الإثم والشر في كل لحظة بتلقائية مدهشة، ودون أن يرف لهم جفن أو يساورهم الندم. إنهم يستقون لذاتهم من كسب الجماهير المغفلة، والإمساك بقيادها، ولعب دور إله الشر إزاءها، والتلذذ بامتحان قدرة أعدائهم من محبي الحقيقة على مقاومة الرضوخ لهم، والوقوع في شباكهم، واعتناق الشر مثلهم . وقد وصف الإنجيل هذه الفئة في العهد الجديد بقوله : "القادة العميان " Blind Guildes والمنافقين الذين "يقفلون أبواب مملكة السماء في وجوه الناس، فلا يدخلونها ولا يسمحون لأحد سواهم بدخولها". مثل هؤلاء الناس لا يغمض لهم جفن دون أن يقنعوا أنفسهم أن الحقيقة والله وهم وخرافة

الفئة الثالثة:

خصائص الفئة الثالثة: هؤلاء هم الأكثرية في جميع الأديان والأمم والأعراق . الأكثرية التي اختارت السير وراء القادة العميان، وما زالت هذه الأكثرية إلى اليوم تتابع السير وراءهم . هؤلاء هم الناس الذين يطلبون للحياة معنى ولكن في غير الموقع الصحيح . لأنهم يطلبون هذا المعنى خارج ذواتهم، و في أغراض هذه الدنيا الخادعة والمضللة التي يوهمهم بها الفريق الثاني . هذه الأكثرية باعت عقولها وأرواحها وإرادتها بأبخس الأثمان. ومع أن قلوبهم تدمى من الداخل لخيانتهم الحقيقة، إلا أنهم يقفون عاجزين أمام رغباتهم وشهواتهم ومطامعهم، ثم يختارون المضي في طريق الجه الة. لقد اعتادوا على هذا الألم حتى ألفوهن وصار جزءاً من نسيج حياتهم يستمتعون بطعمه، ويفاخرون بوضعهم التعيس، إنهم عادة الجنود والأدوات التي يجيشها ويستعملها الفريق الثاني في مواجهة الفريق الاول. لقد غسلت عقولهم إلى درجة أنهم يعتقدون أن الله يريد العالم على هذه الصورة التي يسودها الجهل والأنانية.

وبعد أن قطعت مراحل عديدة لتطورها، خضعت البشرية أخيراً لامتحان المعرفة . لقد نضج الجنين وحان موعد ولادته، وصارت روح التوحيد جاهزة لتنزل وتسكن في الجسد الوليد . وهكذا فليس كلمة التوحيد دعوة إلى دين جديد... وبعكس ذلك فهي اختبار لكل ما تمخضت عنه هذه الأديان.

ومن هم الذين تمكنوا من اجتياز هذا الامتحان؟

إنهم المسيحيون الصادقون، والمسلمون الصادقون، والتوراتيون الصادقون، والبوذيون الصادقون، والهندوسيون الصادقون، إنهم باختصار أحباب الله الحقيقيون، إنهم الموحدون الذين حملوا شعلة الحقيقة في أنفسهم، وفي صدورهم، وحافظوا عليها وراعوها في أفكارهم وكلامهم وأفعالهم.

إن الأحداث الجارية حالياً، والتي ستجري في عالم اليوم، لهي امتحان للناس ومناسبة لكي يظهر كل منهم بجوهر عمله فيما آمن به واعتقده . وعندما تشرق أنوار العقل ينكشف الخباء، ويصبح اللاوعي والوعي واحدا وكل نفس تكشف نفسها أمام مرآة ذاتها. بعض الأنفس سوف تستفيق على السعادة الأبدية باتحادها مع الـ "لوغوس" (العقل الكلي)، حيث ينكشف لها الجمال المطلق لله عز وجل وهو يتجلى على شاكلتها . بينما

الأنفس الشقية فسوف تكوه هذه الصورة التي ستبدو لها أيضاً على شاكلة حقيقتها المظلمة المخدوعة، وسيرقد هؤلاء الجهلة في أغلال غيهم وبلاهتهم وعماهتهم إلى أبد الآبدين ... "من يظلم فليظلم بعد، ومن هو نجس فليتنجس بعد. ومن هو بار فليتبرر بعد. ومن هو مقدس فليتقدس بعد" "... آت كاللص.." "أنا الألف والياء، البداية والنهاية، الأول والآخر...".

صراع الخير والشر في الرحلة الآدمية الأخيرة... قسم الفلسفة في مجلى الضحى.

الحكمة القديمة

مشاهد من ذاكرة التوحيد

مدارس الحكمة القديمة

في الدورة الآدمية الأخيرة، ظهرت أوائل مظاهر التوحيد في مصر القديمة مستعينة بما قد تبقى من آثار للحضارات المفقودة وبالمعلومات والقصص والأساطير والإلياذات التي تناقلها بعض الذين نجحوا (من أبناء النور وأبناء الظلمة) في الهروب من أتلانتيس قبل دمارها . فظهرت كوامن نفوس أبناء الظلمة في الفرعنة وعبادة الأوثان على أيام مصر القديمة ومن ثم السفسطة لاحقاً في العصر اليوناني فيما ظهرت كوامن نفوس أبناء النور في الحكمة القديمة كحكمة إخناتون وهرمس الهرامسة ومن ثم الفلسفة اليونانية. فمن جديد بدأت البشرية رحلتها المعرفية بطرق ووسائل جديدة وبصيغة جديدة تربط بين الكائنات البشرية والوجود (بين الروح والمادة). فقد تكثفت أداة الفكر (أي الصور الفكرية) لتصبح مادة جامدة في العصر الآدمي الأخير بشكل جعل من وعي العقل الإنسان لثنائية الوجود (المادة والفكر) المبدأ الذي منه ستنطلق الحكمة القديمة ومن بعدها الفلسفة اليونانية في رحلة يظهر فيها التوحيد كشيء مجهول تتوق إلى معرفته النفس الإنسانية بينما كان في أيام أتلانتيس ممارسة فطرية تعبر عنها المادة آنيا وتلقائيا . وكل ذلك بهدف حكمة إلهية أوجبت أن يتعرف الإنسان على خالقه من خلال معرفته لذاته. فلم يكن بالإمكان أن تتحقق هكذا معرفة من دون الحوار الذاتي الذي بدأ مع وعي الإنسان لثنائية الوجود (أي مادة وروح) وإلا اتحدت الماهيات مع

المحسوسات وانفقد عنصر الفكر (الذي من خلاله المعرفة تتم) وذابت هويات كل الكائنات في هوية واحدة ووعي واحد – الوعي المطلق. فالمعرفة بطبيعتها أوجبت وجود العارف والمعروف (الروح والمادة) وفي خافية ذاكرة البشرية بقيت صور وأحداث من الطفولة التي عاشتها في الحضارات المفقودة، فيقال أن الطفولة هي المرحلة الأكثر تاثيراً على حياة الإنسان. فما كان قد مورس فطريا في قارتي أتلانتيس وعمورة من خير وشر أصبح كامنا في النفوس في ظل جمود مادي ليظهر نفسه بطرق جديدة في العصر الآدمي الأخير، طرق يشهد العالم آثارها اليوم في الحروب المدمرة ومظاهر الشرور المتعددة.

عالم الروح سبق عالم المادة:

الحكمة القديمة وعي مباشر، بحدس مباشر، لوحدة الكيان الإ نساني ووحدة الوجود الكوني، هي معرفة الكائن البشري لأتصاليته مع كل شيء، وفي رأي حكماء هذا العصر أن الحكمة القديمة اشتملت على المعرفة الإنسانية بكاملها، وفسرت الكون والأكوان والإنسان تفسيرا شموليا، وقد تجاوزت التفكير العقلي إلى وضوح الرؤية. فهي لا تحتاج إلى تلسكوب أو ميكروسكوب لأنها ترى كل الحقائق التي ينطوي عليها الوجود في جوهرها وفي ظاهراتها . إذن فعملها هو معرفتها بحقيقتها وحقيقة الوجود . والعلم، في جوهره، بعد تلمس الطريق، والغوص إلى أعماق المادة، يعلم أنه حكمة مطروحة على مستوى الاختبار والتجربة ووعي ومعرفة بهذه الحقيقة على الرغم أن في ظاهره اليوم يبدو وكأنه نقيض لهذه الحكمة.

وبعد أن يسر هذا العالم من خلال التجربة، لفترة زمنية طويلة، يدرك أنه الحكمة ذاتها، المحققة في التاريخ على نحو عقل.

البعض يتصور العالم موضع تجربة واختبار، ويرى أن هذا العالم متصل مع العوالم الأخرى وممتد إلى اللانهاية في سلسلة وجودية غير منفصلة. وأن اتصالهم بالعوالم الأخرى يتم عبر الأرض ويتحقق بمقدار ما يطبقون من مبادئ كونية في عالم التجربة والاختبار، في عالمهم ا لأرضي. ولا شك أن كثافة هذا العالم الأرضي لا تحول دون اتصالهم بلطافة العوالم الأخرى، فهو الفيض الأخير أو الانبثاق النهائي في سلسلة الصدورات. وقد اتصف هذا الفيض الأخير بالكثافة التي ندعوها المادة مقابل الروح، والظلمة مقابل النور . والحق يقال إن عالمنا، كما أشارت البحوث الأخيرة في فيزياء الصغائر، شعاع ونور، وطاقة كثيفة، هي روح

ظليلة ويعد هذا العالم الموضع الذي يحقق فيه لمن يريد رؤية الحقيقة، اختبار النور في الظلام، والروح في المادة، والوحدة في الكثرة، والاتصالية في الانفصالية، والخبر في انعدامه أو سلبه، والحقيق ة السامية في انعدامها.

نعترف بهذا العالم لأنا نحبه، ونتفاعل معه لنسمو به، ولأن كياننا وكيانه واحد وبقدر ما نحن ونتوق إلى الأبدية والحقيقة السامية نتوق إلى هذا العالم . وفي وحدة الكيان هذه تنعكس الثنائية في بهاء التكامل وتتألق التعددية في ضياء الوحدة.

الوعي الكوني من منظور الحكمة القديمة :

تشير الحكمة القديمة إلى أن المادة "وجدت نتيجة تطور هابط من الأعلى إلى الأدنى : تطور يشير إلى كثافة الطاقة الكونية لتصير مادة. ويمكننا أن نقول أيضاً أن المادة ستعتمد بفعل طاقة واعية، العودة إلى ما كانت عليه سابقاً قبل تطورها الهابط إلى انغلاق، عن طريق تطور صاعد، يبلغ وسطه في الإنسان (عبر الفكر الذي هو ألطف تكثف للطاقة)، ويبلغ أقصاه في "روحنة" المادة (أي في عودتها إلى ما كانت عليه قبل تطورها الهابط). فالتطور الهابط والتطور الصاعد يؤكدان اتصالية الكون وينفيان الان فصالية. والحق أن اتصالية الكون والأكوان والإنسان تعني أن ما يهبط سوف يصعد، وما يصبح كثيفا سيعود إلى لطافته . وإذا كان التطور الهابط يعني اللطافة المتحولة إلى كثافة، فإن الإتصالية قائمة بينهما . وإذا كانت اللطافة أصلا والكثافة ظهوراً، أو تجليا أو كشفا، أدركنا أن الكثافة ستعود إلى لطافتها. ولا شك أن الخطيئة الكبرى المقترفة تكمن في الاعتقاد بانفصال كوننا أو حياتنا عن الكون والأكوان كلها.

ولا يستقيم وجودنا، ولا يتميز هذا الوجود بالمعنى ما لم ندرك أننا أحرار، ولن يعمل الإنسان على تحسين وتطور وضعه الحياتي والمعيشي، بالعلم أولا ما لم يشاهد هذه الحرية تفعل في الكون كله، وما لم يتخل عن مفهوم الحتمية التي تجعل حياته جحيما لا يطاق واستسلاما وخضوعا لا يليق . ثمة إشراطات طبيعية وراثية يسببها الإنسان لنفسه في حياته السابقة، وإشراطات حالية أضيفت إلى الإنسان في ولادته وألحقت به في التربية تدعى حتمية، يتوجب عليه الانعتاق منها ليحيا في الوعي الكوني

أن هذا العالم المادي هو انعكاس للعالم الأسمى. ليس العالم المادي سوى ظل للحقيقة، وفي الظل لا توجد واقعية وجوهر. إنما نفهم من خلال الظل بوجود جوهر أو واقعية. لا يوجد في الصحراء ماء ولا سعادة. لكن السراب يوحي بوجود شيء كالماء.

هكذا لا يوجد في العالم المادي ماء، ولا سعادة، لأن السعادة الفعلية موجودة في العالم الأسمى .

أخناتون ووحدانية الإله آتون :

أخناتون: هو فرعون مصر "أمحوتب" أو "أمنوفيس الرابع" الذي دعا إلى ديانة التوحيد بعبادة الإله الواحد "أتون" الذي لا إله إلا هو، وقد رمز إليه بقرص الشمس التي تمتد أشعتها كأيد إلى كل المخلوقات لتمنحها الحياة والوجود، ممهداً بعقيدته التوحيدية لظهور الأديان السماوية الثلاث.

وقد تصور أخناتون أن قرص الشمس هو مظهر من مظ اهر هذا الإله، إذ الإثنان من وجهة نظره يشعان على العالم أجمع (الإله الذي لا إله إلا هو والشمس) وقد بلغ حماسه لدينه الجديد ما جعله يناوئ جميع الآلهة ويحاول القضاء على مبادئها وحمل الناس على اتباع الإله الواحد الاحد الذي سماه "أتون"، وقد صب غضبه بالدرجة الأولى على الإله "أمين – أمون" إله "طيبة"، ولكرهه لهذا الإله الذي كان أسمه يدخل في تركيب إسمه أمين – هوتب" فقد عمد إلى تغيير اسمه من "أمنحوتب" أو "أمنوفيس" إلى أخناتون، وهجر العاصمة المقدسة "طيبة" وابتنى له عاصمة جديدة في موضع يسمى "العمارنة" وسماه "أخت – أتون" ونقل إليها مقر العاصمة وأعمال الحكومة، وقد وجدت في هذه العاصمة السجلات الملكية الشهيرة التي من بينها الرسائل المرسلة إليه ولأبيه من قبله من ملوك الشرق الأدنى وحكام الإمبراطورية في بلاد الشام . ويدعى البعض أن دعوة أخناتون فرعون مصر لعبادة الإله الواحد هي ا لدعوى الأولى من نوعها في تاريخ البشرية، وقد فات هؤلاء أن أخناتون عاش بين سنة 1375 وسنة 1358 قبل الميلاد، أي بعد إبراهيم الخيلي بحوالي ستمائة عام، لذلك لا يمكن أن تكون دعوته هذه للوحدانية هي الأولى في تاريخ البشر، ولا مجال للشك في كون عقيدة التوحيد عقيدة أزلية القدم، فمن غير المستبعد أن تكون عقيدة الوحدانية التي تبناها أخناتون قد جاءت إلى مصر عن طريق قبائل "الهيكسوس" العموريين العربية التي حكمت مصر زهاء قرنين قبل عهد أخناتون مباشرة، و "الهيكسوس" كما هو معلوم كانوا على اتصال بالـ "مديانيين" الذين قيل عنهم أنهم كانوا

يدينون بالإله الواحد المدعو "يهوه" ومساكنهم في شبه جزيرة سيناء المجاورة إلى مصر ولم يعبدوا الآلهة المصرية بل عبدوا الإله "سوتح"، وقد تواتر أن الملك "أبو فيس" لم يسمح بعبادة أي إله آخر في البلاد كافة. وذهب البعض إلى أن أتباع موسى كانوا يدينون بدين أخناتون وأن موسى نفسه هو مصري ومن أتباع هذه الديانة الجديدة، ويؤكد العالم النفساني "فرويد" بالأدلة التاريخية والاستنتاج الخاص به بأن موسى قائد مصري من أتباع أخناتون اعتنق دين التوحيد وبشر به بعد موت هذا الفرعون. ومما يذكر في هذا الصدد أن هناك بعض التشابه بين بعض قصائد أخناتون في تسبيحه الإله الأوحد وبين المزمور الرابع بعد المائة من التوراة، كما يلاحظ أن المعاني التي ذكرها أخناتون في قصيدته عن إله الشمس تكررت كذلك في أسفار العهد القديم.

ولم تكن ديانة أخناتون التي لعبت دوراً في تاريخ مصر السياسي والاجتماعي وليدة زمنها، فقد سبقتها تطورات عقائدية دينية عبر زمن طويل حتى تبلورت واختمرت عقيدة الإله الأوحد خالق كل شيء، وأول ما استرعى نظر المصريين الأوائل هو أن الشمس وظهورها على شكل ذلك القرص الأحمر المتوهج وشروقها وغروبها بانتظام دقيق تمثل عظمة الإله "خالق كل شيء" الذي عرف بأسماء عديدة منها الاله "رع" الذي يمثل شمس الظهر، فعبده أهل مصر في الشمال والجنوب على السواء وقد صوروا هذا الإله الخالق على أشكال مختلفة على هيئة الصقر أو هيئة إنسان برأس الصقر . إن عقيدة التوحيد نبتت جذورها في القرن العشرين قبل الميلاد بظهور عبادة إله "أمون رع" ثم بعد طرد "الهيكسوس" العرب من مصر وتأسيس الامبراطورية المصرية حتى لقب بملك الآلهة وأصبح أعظم الالهة للمصريين . وفي عصر أمنحوتب الثالث بدأت تختمر في عقلية الشعب المصري مفاهيم دينية جديدة تمخضت عنها الثورة الكبرى التي اندلعت في عهد خلفه أمنحوتب الرابع 1379 – 1362 ق.م. بإعلان عقيدة التوحيد تحت علم (أتون – الشمس)، ولا شك أن هذه الحركة الجديدة كانت عامة إذا كان الناس يؤدون عبادة وحب الإله الذي يرونه ويحسون بأفضاله (أي شمس). إن هذا الجيل يسير إذن نحو الحقيقة . ولم يعد إله الشمس كسابق العهد على هيئة إنسان ذي رأس صقر، بل على صورة قرص يمثل كوكب الشمس ومنه تخرج أشعة تنتهي بأيد، وهذه الأيدي معناها أن الشمس تعطي الإنسان الحياة وكل ما هو طيب، وقد وصلت إلينا محتويات هذه العقيدة الجديدة الحقيقية عن طريق تسبيحات وأدعية مختلفة تصور إله الشمس على صورة الخالق المحبب عند كل الأحياء ويقول الأستاذ "إرمان" في كتابه ديانة مصر القديمة صفحة 140 – 141: "إننا إذا حاولنا فهم هذا المذهب

على وجه الدقة في تحليله الأخير فإننا نلاحظ أنه يتجه الآن – على عكس ما كان عليه في البدء نحو الاعتقاد بالتوحيد، أنه يقول بإله واحد ليس له شرك وكل ما كانت تقوم به جمهرة الآلهة الأخرى ينفرد هذا الإله بعمله، لأن فيه ملايين المخلوقات، هذا هو إله الشمس العام المشترك لكل العالم – الإله الطيب الذي يحب الحق سيد السماء والأرض "أتون" الكبير الحي الذي ينير القطرين".

وهكذا لم يعد الإله (في ديانة أخناتون) إله مصر وحدها بل هو إله الدنيا بأسرها وكذلك لم يعد الملك إلها يعبد لأن أخناتون لم يدع الألوهية مثلما كان الفراعنة من قبله ومن بعده يدعون بأنهم آلهة. إن المهم هنا أن ديانة أخناتون نبذت وشجبت جميع ألوان السحر والخرافات والشعوذة وهذا ما يقوله "أرثر ويكال" بهذا الصدد: "إن أخناتون ألقى إلى النار بشتى (المفاهيم) المختصة بكائنات العالم السحري من جن وعفاريت وأرواح وأنصاف آلهة، وحتى "أوزيريس" نفسه بكل بلاطه، ألقى بهم في اللهب وتحولوا إلى رماد ". ويضيف "ويكال" قوله: "وفي أعقاب نشر هذه الديانة الجديدة مباشرة لم يبق ذرة من الخرافات في صلب هذه الديانة، وقد حرم أخناتون على الفنانين أن يرسموا صوراً لأتون لأن الإله الحق في اعتقاده ليس كمثله شيء ولكن مع ذلك هو موجود دوماً في كل مكان وزمان ". ثم ترك الفن بعدئذ حراً طليقاً فصور الفنانون كل الكائنات الحية نباتية كانت أو حيوانية في تفصيل ينم عن حب وعطف عظيمين، ودقة لا مثيل لها في عصرنا، وكان من أثر هذا أن ازدهر الفن أعظم ازدهار . وفي وصف هذه الديانة الجديدة وإيمان أخناتون الراسخ بها، يقول الأستاذ فؤاد شبل: "وفي الحق لم تعرف الحضارة البشرية هذه النزعة الروحية العالمية قبل أخناتون، فإنه هو أول أبناء الجنس البشري (في التاريخ المدون طبعا) إدراكاً لوحدانية الله وشموليته ... فأخناتون لم يكن فرداً عادياً دفعته أحاسيسه النبيلة لإنقاذ مجتمعه من أوزاره، وتخليص مواطنيه من الجهالة التي يكابدونها بل كان ملكا آثر التضحية بملذات الحياة وبأبهة الملك في سبيل مبدأ اعتقد فيه خلاص الإنسانية من الشرك وما يحوطه من تحلل خلقي... وما هدف أخناتون إلى تمجيد ذاته، بل لقد ضحى في سبيل دوافعه الروحية البحتة بإمبراطورية عظيمة الأرجاء أقامها أجداده العظام، ولم يأبه للانقسام الذي هز كيان مصر الاجتماعي، فلق د سيطرت على ذهنه فكرة واحدة مدارها أن الإله الحق، اختاره للتبشير بوحدانيته ... ومهما يكن من أمر الاختلاف في تقييم منجزات أخناتون الروحية والفكرية، فإن الآراء تتفق على نبل مقاصده وسلامة نهجه، وأن دعوته هي أول دعوة لتحرير العقل من جهالة الشرك، وفك أسار الضمير البشري من سلطان طبقة من رجال

الدين الفاسدين الوصوليين... ويعتبر نهجه أولى حلقات سلسلة تطور العقائد الدينية (في دور آدم) الذي انتهى بظهور الأديان السماوية". ويرى البعض "أن دعوة أخناتون حصرت الإيمان بها في الملك وعائلته وفي طائفة من المقربين إليه" على أننا لم "نلمس في تراتيل أنشودة أخناتون ما يشير إلى ذلك بل نجد العكس، فديانة أخناتون بحسب هذه التراتيل عالمية تشمل جميع البشر، ولو قدر لأخناتون أن يطول حكمه مدة أطول يثبت خلالها أركان ديانته لتغير وجه التاريخ المصري تماماً، وأخذت عبادة "أتون" تنهار من بعده تدريجياً في وجه المعارضة المكشوفة بعد أن كانت غالبية الشعب قد رفضت العقيدة الجديدة وظلت تعبد آلهتها القديمة سراً، أما فشل العقيدة الجديدة فاتجه نحو خراب مؤكد، وقد جاء موت الملك نذيراً بالمصير المحتوم الذي كان ينتظر العقيدة الجديدة التي تبناها ودافع عنها في حياته، ومما زاد من خطورة الوضع أن الملك لم يترك ولياً للعهد فانتقلت مقاليد الحكم إلى زوج ابنته الكبرى، الذي خلفه صهر آخر، أصغر منه سناً وهو الملك المعروف – توت غنخ أتون – ولكن هذه التسمية أثارت ردود فعل بين المعارضين الساخطين مما اضطر الملك إلى الخضوع فبدل اسم ه إلى "توت غنخ أمون" كما اضطر إلى الرجوع إلى "طيبة" حيث افتتح العهد منددا بعهد أتون وملمحا إلى البؤس الذي وصلت إليه البلاد . وفي الوقت نفسه أقام المعابد لأمون ثانية وصنع له تماثيل من الذهب الخالص . وهكذا خربت "تل العمارنة" (عاصمة أمحوتب الرابع صاحب عقيدة التوحيد) ولم يترك شيء من معبدها الأعظم، وقد خربت كذلك مقابر المدينة ومن ضمنها المقابر الملكية، وقد انتهت هذه الثورة تاركة وراءها الأسى الذي أرهق الشعب والحقد الذي يلاحق كل خسائر أو فاشل حتى صار "أمنوفيس الرابع" (أخناتون) لا يجري الحديث عنه إلا ويلقب بـ "مجرم تل العمارنة"، وقد علق أرمان على النتائج التي خلفتها هذه الحركة الدينية الكبرى فقال : "إنها أحدثت رد الفعل الذي كان دافعاً للانحطاط الروحي في مصر".

أمحوتب صاحب عقيدة التوحيد –راجع الضحى العدد 77 – تموز 1998.

موقع أخناتون من مورون ما قبله وأديان ما بعده

إن موقع أخناتون من التراث الثقافي العالمي يضيف إلى ثقله تقدمة السيد المسيح في اعتبار نفسه ابن الله الوحيد الذي يعرف قدر أبيه، والذي خلق من أجل خلاص العالم أجمع . وكانت عاطفة المحبة هي

ألف وياء وجوده وتوجهه . وبدافع المحبة، التي اشتهرت بها المسيح ية كعقيدة، منع أخناتون تقديم القرابين البشرية التي كانت تقدم، حتى سلفه "أمنحوتب الثالث". وقام بتدمير الأصنام التي أسقط عليها البشر قيمة من ذاتهم، وأكبر هذه الأصنام التي أحناها أخناتون أمام قامة الإنسان كان تمثال أبي الهول، الذي كانت تقدم له الذبائح البشرية.

كما أن إيمانه بوحدة مصدر الحياة أوقد فيه احترام الروح الحي في الحياة الحيوانية – النباتية الخرساء، مما دفعه إلى منع صيد الحيوانات من أجل المتعة.

وبينما كان سلفه أمنحوتب الثالث يتفاخر بقتل الطيور؛ ويتمظهر في الرسوم والنقوش كصائد ممتاز للأسود، فإن لوحات الصيد والقنص تغيب عن جداريات مدينة "تل العمارنة" التي بناها اخناتون مركزاً لديانته الجديدة. ولا تظهر لوحات الصيد والقنص حتى في مقابر النبلاء الذين شكلوا بطانة الفرعون الموحد، بل تظهر بدلاً منها مشاهد حيوانات هادئة مطمئنة لمن وما حولها . ولم يعثر على لوحة أو صورة واحدة لأخناتون وهو يرمي صفوف الأعداء بقوسه، أو وهو ينفذ حكم الإعدام بمذنب، وهي مناظر يألفها الناظر لسابقيه وخلفائه المتباهين بقوة السلطان وشجاعة الجسد . ولم ترسم الآلهة في عهد أخناتون في أشكال الحيوانات، وهو تقليد مصري ديني فني عريق مارسه قوم موسى المصري أثناء غيابه عنهم في سيناء حين جمعوا كل ما في حوزتهم من حلي وسكبوا منها تمثال العجل الذهبي وراحوا يتبعونه في ممارسة لتقليد عبادة المصريين لعجل آبيس. وأكثر من ذلك منع أخناتون تجسيم الآلهة في أشكال آدمية، أي أنه كان رائد التجريد والتنزيه التوحيدي.

واكبت عصر إخناتون نفرتيتي، صاحبة أشهر رأس منحوت في العالم القديم أو الحديث، بتاجها العالي، ورقبتها الطويلة، وأنفها المستقيم الدقيق . ولم يكتم أخناتون عاطفة المحبة لنفرتيتي، بل أشهرها وأظهرها في الرسم والنحت، خارقاً القواعد الفنية التي كانت تظ هر الفرعون وكأنه من طبيعة الصخر الذي حفر فيه رسمه . فهو جبار لا تهزه المشاعر التي تهز سائر البشر . وهكذا كان أسلاف أخناتون وخلفاؤه يتكلفون العظمة والقوة . أما أخناتون فقد أحيا مبدأ الإنسان في الفرعون الإله، والواقعية في الفن . كان من

المجددين فنيا حين سمح لنحاتيه بإظهاره ونفرتيتي وهو مستند بذراعه إلى كتفها، أو وهو يداعب فلة أجلسها على ركبته.

إن محبة أخناتون التي شملت الله والطبيعة والبشر، ورحمته التي جعلته يمتنع عن القتل والقنص، جعلت محللين كباراً مثل "فرويد" يعتبرون أخناتون "أنقى مثال من أمثلة دين الوح دانية في تاريخ الإنسانية" ونحن نعلم أن أخناتون ساوى بين الشعوب كافة في عين إلهه النوراني ولم يرغم عقداً خاصاً رمزه الختان بين شعبه وعرقه من جهة، والله من جهة ثانية كما فعل موسى . فالختان كان عادة جرى عليها المصريون وجعل منها موسى رمزاً ليتميز "شعب الله المختار" ذلك الزعم الذي طالما سوغ لليهود عزلتهم ومكن لنزعة "الغيتو" في لا وعيهم، وسعر لهيب المشاعر المسيحية المادية ضدهم في طول أوروبا وعرضها على مدى القرون.

لكن أهم ما يميز أخناتون عن الموسوية، وبنسبة أقل عن المسيحية، هو التجريد والتنزيه اللذان نزعا عن الله كل الصفات الشخصية، وجعلا منه مبدأ الحياة النوراني المتنزل في الأحياء . وهذا المبدأ العرفاني يعيدنا إلى دراسة نشوء الحركة الصوفية العرفانية على يد هرمس، الأقدم عهداً، والأبعد أثراً، ليس في تاريخ مصر الثقافي وحسب، وإنما في تاريخ الثقافيين الشرقية والغر بية كما سنرى. لكننا لا نستطيع طي صفحة أخناتون قبل إيضاح ما يميزه أيضاً من تراث مصر الديني التقليدي . إن إيمان المصري بحياة تبدأ بعد الموت، ثم شرط هذه الحياة الأخروية باستبقاء الجسد سالما مكتمل التكوين في منأى عن التفكك والتلف، جعل مصر موزعة بين باطن الأرض و ظاهرها. ذلك أن "كتاب الموتى" The Book of the Dead بما حواه من صلوات وتعاويذ سحرية وطقوس استهدفت إسكات صوت الضمير كي لا يشهد على صاحبه أمام قاضي الآخرة، ما هو إلا خطاب دفاعي توسله المصري لإثبات أهلية خلقية تفتح له أبواب الخلود، وليس فن التحنيط والمدافن الحجرية التي تبلغ أحجاماً هائلة في بنى الأهرام سوى الت عبير عن هذا الانشغال الهائل بحفظ الجسد من عوامل التلف والفساد كشرط لدخول الروح إليه وسكناها مجدداً في كنفه

الهرمسية هي أول الديانات الفلسفية الفاعلة في الفلسفات الدينية اليونانية :

وفي مقابل هذا الدين الشعبي الكسيح الخيال والذي كان يرهن خلود الروح ببقاء الجسد (في حياة واحدة) وكأنهما من طبيعة واحدة فيولى الجسد كل العناء والجهد العمراني الضائع، عرفت مصر الهرمسية

وهي أولى الديانات الفلسفية أو الفلسفات الدينية التي تسامت بالروح العاقل وقالت باختلافه واستقلاله عن الجسد المحسوس ونسبت إلى كل من الروح والجسد طبيعتين متناقضتين، جعلت لكل منهما مسكناً يتوافق مع طبيعة تكوينه ومصدر نشوئه، فللروح العقال الفلك الأعلى وللجسد مأواه الترابي. وإذا كان اكتشاف ما استبقاه الزمن من أخناتون "تل العمارنة" قد كشف أهم الصفحات في تاريخ مصر الثقافي وأكثرها إثارة لجهة ممارسة التوحيد كنمط حياتي وأسلوب فني، فإن كشف ما خفي من شرعة العرفان التي نصبها هرمس الهرامسة، والتي تشكل أول فلسفة في تاريخ الثقافة، يثبت تقدم مصر بنحو ألفي سنة على ولادة التيار الإشراقي في الفلسفة اليونانية وأثرها المعرفي العميق كما يتبدى في الديانة الأورفية العرفلفية السرية Orphic Mystery Cult ثم في الفلسفة بدءاً بفيثاغوراس التي عرفتها اليونان في القرن السادس ق .م، وانتهاء بأفلاطون في القرن الثالث بعد الميلاد (269 – 205) وبين الكبيرين (فيثاغوراس وأفلاطون) الإشراقي الأكبر في الفلسفة اليونانية، أفلوطين (428 – 348)ق.م، ومؤسس المذهب الرواقي زينون، المتوفى عام 264ق.م، وإذا كان الحكيم "بتاح حوتب" الذي كان وزيراً عام 2400ق.م.، هو المعلم الأول في تاريخ الأدب الحكمي فإن شرعة هرمس الصوفية العرفانية (الغنوصية) كانت أهم ما كشفت عنه نصوص الأهرام

إن "هرمس" هو الاسم الذي أطلقه اليونانيون على الإله المصري "توث" Thoth بعد أن نقلوه إلى دياناتهم وضموه إلى مجلس آلهتهم دون أن يغيروا شيئاً من مواصفاته مما يضفي دليلا قويا على الفرضية القائلة أن اليونانيين قد نقلوا آلهتهم عن مصر.

إن هرمس عند المصريين واليونانيين هو رب الكلمة البدء، ومخترع اللغات، ومبدع الكتابة، وملهم وراعي الفنون الأدبية التي تتوسل الكلمة أداة للإفصاح عن المكنون . وهو "كاتب الآلهة" وترجمان ما تسربه إليه، و "صاحب اللوح والقلم"، بل هو الإله "رع" يتجلى على الأرض. وهو "مؤسس النظام الاجتماعي – السياسي" على قواعد القيم الأ خلاقية. وهو قلب هرمس "المثلث الشعب" أو "المثلث بالحكمة والقوة والملك"Trismegistos Hermes أو "المثلث العظمات" Thrice greatest وهو في تسمية أخرى "عين النور والإثبات" وهي إشارة صوفية لفعل مشاهدة الله (النور) بعين النور في الذات الصفو . وكان اهتمام الغربيين بالحركة الفكرية الهرمسية يتقد ويخبو منذ نقلها إليها العرب الذين استهوتهم خلال القرون الوسطى . وقد انتعش اهتمام المؤرخين الغربيين بالهرمسية في الربع الأخير من القرن العشرين، بعد أن تبدى لهم مدى

الأثر الذي مارسته هذه الحركة التي تلاقى فيها الدين بالفلسفة، وتمازج العلم بالحكمة، والتأمل بالحياة العملية، على تاريخ الغرب الثقافي. وأن كان مؤرخو الثقافة الغربيون يميلون إلى حصر هذا التأثير بالمرحلة الهيلينية والرومانية بدءاً بقيام أمبراورية روما على أرض المشرق، مستبعدين بذلك أثر الغنوصية المصرية على الفلسفة اليونانية في وجهها المشرقي الإشراقي لكي يستقيم زعم لهم يؤسس تاريخ الثقافة الغربية على أرض "الجد" اليوناني يؤسس تاريخ الثقافة الغربية على أرض "الجد" اليوناني الغربي "العاقل". والحقيقة هي أن أثر العرفان الصوفي الهرمسي لا يتمظهر فقط في الأفلوطينية الجديدة والرواقية والأبيقورية، وهي المدارس التي سادت ساحة روما الفكرية بعد انتقال أثينا الثقافة إلى الإسكندرية، وإنما في أعلام الإشراقيين العرفانيين من فلاسفة اليونان الكبار : فيثاغوراس وأفلاطون وسقراط. كما تظهر شريعة العرفان الهرمسية في بعض مبادئها الركنية في الوجه الأفلاطوني من فلسفة أرسطو، وفي جدلية هيرقليطس الحركية كما في مبدأ الواحد الثابت عند بارمنيدس.

ويأخذ بحثنا هذه الوجهة ليؤكد علاقة القربى بين مصر واليونان، وهي علاقة طالما أنكرها أو تجاهلها، أو خفف من وقعها مؤرخو الفلسفة في الغرب في سياق اصطناعهم لتاريخ غربي أحدي للثقافة يبدأ باليونان، وهي في زعمهم بالكامل تقريباً، وهي بداية من عدم تقريباً، هي "معجزة" كما تقول عناوين مؤلفات شتى تحاول أن تثبت عقلانية يونانية تبدأ من عدم لتستمر نامية متطورة في الغرب ومعه

ترك هرمس سبعة عشر بحثاً اتسمت بنزوع صوفي إلى التطور من الحسي والارتقاء إلى العقلي وقد هدفت جميعها إلى تأليه الإنسان بالمعرفة والعرفان وبالعلم والعمل . وقد اعترفت المسيحية بالهرمسية لأنها قالت بالثالوث، وهو ثالوث الله – الإنسان – العالم. لكن الهرمسية وحدت الثالوث في إطار رؤية جدلية تأليفية نفت الاستقلالية عن أي من العناصر المكونة للوجود، وأكدت على تداخلها وتفاعلها تبعاً لقانون التجاذب والتضاد في إطار الو جود الظاهر. وقد استبقت الهرمسية المبدأ الهيرقليطي القائل بسيولة وتحول كافة مظاهر الوجود الحسية إلى نار، أي من مادة كثيفة إلى طاقة لطيفة حسب التعبير الهرمسي . كما جمعت بين حركية الجدل الهيرقليطي ومبدأ الواحد الثابت عند "بارمنيدس" أو "المحرك الذي لا يتحرك"، كما وصف أرسطو مبدأ الخلق.

وإذا كان هيرقليطس قد دعا البشر إلى الإصغاء لا لرأيه الذاتي بل لفعل العقل الكوني الناظم لحركة الكون تبعاً لقوانينه، فإن العقل النوراني في الهرمسية والفلسفات والأديان التي تبعها هو "الخير الفائض" كما سيقول أفلوطين أو "المثال الأعلى" بلغة أفلاطون الذي يسري في الأفراد، ويتكثر في الأعداد، ويتعدد في الصور الحية التي تدل كلها على وحدة المصور "إذ يستدل على المصور من الصورة وعلى ما خفي مما ظهر"، على حد تعبير هرمس . وهذا التعريف الشديد العمومية لا يعفينا من دراسة مقارنة لنصوص فلسفية يونانية من جهة، ولنصوص هرمسية من جهة ثانية.

ينهض التوافق بين الحركة الفكرية الهرمسية والفلسفة اليونانية على ركائز ومفاهيم ركنية عديدة على البنيتين المعرفيتين اللتين يجمع في تركيبهما الدين والفلسفة والعلم في الوحدة

وقد مكن لهذا التماثل المعنى الشمولي الذي تنطوي عليه كلمة فلسفة في مصدر اشتقاقها اليوناني الذي عنى "حب الحكمة"، والذي ألف بين شتى العناصر المعرفية المتاحة لتقديم رؤية مطابقة للوجود في كليته، ما خفي منه وما ظهر.

ونقطة التقاطع الثانية بين الهرمسية والفلسفة اليونانية تتمثل في الهدف المشترك الذي حدده هرمس وفلاسفة اليونان للبحث المعرفي بوصفه البحث عن الحقيقة الأخيرة Uitmate Reality أو "ما هو موجود حقاً"، What is really existent، وهذه التعريفات نؤشر إلى وجود مضادات لها في الوعي الهرمسي واليوناني. فالحقيقة الأخيرة والوجود الحقيقي يتضادان مع الأشياء في مظاهرها الحسية السائلة التي تجعلها دائماً بين منزلتين: منزلة ما كانت عليه ومنزلة ما هي صائرة إليه، وتحولاتها بالتالي تجعلها مستعصية على الفهم، عكس المبدأ البسيط الثابت الذي يحركها من موقع يدرك بالتأمل العقلي لوقوعه خارج مطال الحواس . وهذا الثابت أو الجوهر أو الماهية الكامنة تحت ووراء المظاهر المحسوسة هو الذي جعلت منه الهرمسية، كما الفلسفة اليونانية، موضوع بحثها ومساءلتها.

ومعرفة الجواهر والماهيات (الحقائق الأخيرة والمبادئ الثابتة المحركة) هي الحقيقة وبالتالي هدف البحث الديني – الفلسفي – العلمي لأنها تحدد الغايات والوظائف والأدوار لكل المخلوقات والموجودات. فكل كائن يسلك الاتجاه الذي تقرره له ماهيته أو جوهره أو مبدأ وجوده، فما لطف، كالروح "له طبيعة النار التي

تمتاز إلى العلو، وللجسد وكل ما تكاثف طبيعة المادة وتمتاز إلى السفل" كما يقول هرمس في "شرعة العرفان في علم اللطيف والبسيط"، وهي الرسالة التي تعتمدها هذه الدراسة.

وهذا التدخل بين الديني والفلسفي والعلمي الذي ميز الحكمة الشرقية، من مصر إلى الصين واليابان وشبه القارة الهندية؛ هو ميزة الفلاسفة اليونانيين الكبار، مما يؤكد التواصل، لا الانقطاع الثقافي بين مصر واليونان، ولا ننسى أن نذكر أن مصر كانت أكاديمية العالم، وأن زيارتها كانت ضرورة معرفية للباحثين وكان فيثاغوراس وأفلاطون بين الذين زاروا مصر وتعلموا منها الحكمة كما تشهد النصوص – الشواهد.

وفي هذا السياق تذكر قول لـ "ريس وورنر" Rex Warner في كتابه عن الفلسفة اليونانية، "ابتداء من فيثاغوراس تدخل الفلسفة بحق، مجالاً آخر . فبعد أن كانت مجرد حب استطلاع صارت طريقاً للحياة، ديناً في ذاته، أو بديلاً، ومع ذلك ظلت مهمته بالمشكلة التي كان طاليس أول من أثارها، وهي البحث الذي كان ولا يزال مستمراً عن الجوهر الأساسي، أو المبدأ الأساسي للوجو د". فهل كانت الفيثاغورية في هذه المواصفات كافة شيئاً يختلف عن الهرمسية وهي تجربة صوفية عرفانية حية أو "طريقاً للحياة"، ثم أليس كل طريق صوفي للحياة هو دين جديد في ذاته، أو بديل اختياري عن دين طقسي؟ أم أن طاليس كان "أول من أثار مسألة الجوهر الأساسي والمبدأ ا لأول؟" فهذا ما تنفيه دراسة تاريخ مصر الثقافي وأثرها على اليونان والغرب. إن الهرمسية لم تكن حركة فكرية نظرية وإنما كانت فكراً يحال إلى تجربة حية . والحقيقة هي أن الجمع بين العلم والعمل، المعرفة والنشاط، وهو ثالث القواسم المشتركة بين ديانة هرمس الفلسفية وفلسف ة فيثاغوراس – أفلاطون الدينية. فالذي يميز المتعلم من العالم العارف في الحكمتين الهرمسية واليونانية هو أن الأول يحول معرفته إلى تجربة أو ممارسة حية، ويعيش حكمته في تجربة وجودية كاملة . فالمتعلم يمتلك معارف جزئية لا تنظمها رؤية كلية، وشذرات معارفة تلم بكيفيات وكميات الأشياء وليس بجوهرها وماهيتها التي تحدد وظائفها وغاياتها . ولأن هذه المعرفة التجزيئية تبقى بلا مردود يتصل بمعرفة وصناعة الإنسان لذاته العليا، فإن هرمس يخاطب النفس قائلاً:

"لا تحتفي يا نفس بكيفيات الأشياء وقدرها وإنما بماهياتها".

من هرمس إلى أفلاطون – راجع الضحى العدد 81 – تشرين الثاني 1998.

الحكمة القديمة والاغتراب الصوفي :

إن كل فلسفة تستحق هذه التسمية لا بد أن تنهض على مفهوم معين لطبيعة الإنسان . وأن أحد الفلاسفة الماديين البارزين في الفلسفة الحديثة لم يستطع اجتناب المسألة رغم عزوفه عن التحديات المطلقة الثابتة. فهو حين تكلم عن اغتراب العامل عن انتاجه، والمبدع عن ابدا عه، وانما كان يفترض أن الإنسان يمتاز عن غيره من المخلوقات بأنه كائن منتج ومبدع لوسائل حياته، وأنه يحقق هذه الذات أو الماهية الإنتاجية عبر عمله الذي يساوي حياته النشطة باعتبار الحياة هي مجال النشاط الإنتاجي الحي

فإذا ما سلب من المنتج إنتاجه بات العامل مغترباً عن وجوده الجوهري Essential Being لأن العامل لا يحقق فيه ذاته وإنما ينفيها ولا يشعر بالرضى والغبطة بل الشقاء، ولا يطور جسده وعقله بحرية وإنما يميت جسده ويدمر عقله.

ولو لم تكن نوعية الإنسان مستمدة من كونه "مخلوقاً واعياً" لما كان وعي شقاءه أو أي شيء آخر.

والاعتراب هو مفهوم مركزي في الحركة الفكرية الهرمسية كما في الفلسفة اليونانية لكن الاغتراب في الوعي الصوفي الإشراقي ليس اجتماعيا في مصدره أي ليس هو اغتراب المنتج عن نتاجه بسبب توسط المالك الذي يحيل العامل وعمله إلى مملوك، وإنما هو اغتراب عن الطبيعة والطبيعي –اغتراب البسيط عن الجسد المركب واللطيف عن الكثيف والعقلي عن الجسمي والمثالي عن الدنيوي

وباختصار أنه افتراق بالقوة بين الروح والجسد لا ينحل إلا إذا افترقا بالفعل وعاد كل منهما إلى أصله ومصدره وهكذا تصبح ثنائية الاغتراب تحقق معادلة ومطابقة لثنائية روح –جسد وهي ثنائية تضاد وتناف حتى آخر رمق.

عصفور الروح وقفص الجسد:

لنر كيف يرسم أفلاطون الثنائيات المتضادة بين الجسد والروح في "الفيدو" Phaedo الذي يعتبر بحق إنجيل أفلاطون: "إن الروح هي شديدة الشبه بما هو إلهي خالد، قابل للفهم موحد، غير قابل للتفكك أو الانحلال، قائم بذاته لا يتغير أو يتعدد . أما الجسد فهو الأشد شبها بما هو إنساني، فإنه متعدد، غير قابل

للتفكك أو الانحلال، قائم بذاته لا يتغير أو يتعدد . أما الجسد فهو الأشد شبها بما هو إنساني، فإنه متعدد، غير قابل للفهم، قابل للانحلال، وغير قائم بذاته".

أن متوازيي الروح والجسد المتأتيين من مصدرين مغايرين "علوي وسفلي"، قد التقيا، لكنه لقاء السجين والسجان، العصفور والقفص . فالروح عصفور يتذكر فضاء النور الذي كان فيه ونزل منه . والتذكرRecollection هو المعرفة.

وأن التذكر يعني أن نستعيد معرفة طرأ عليها النسيان أي كانت الروح تعرفها قبل أن تولد ثم نسيتها حين كبر الجسد واغترب في الدنيا. وهذا يعني أن الروح كانت موجودة في حالات من الوعي سبقت وجودها المتميز بوعيها لثنائية الوجود (أي مادة وروح)، وإنها كانت مبدأ النور قبل أن تكتنفها ظلمة الوعي المتكثف، لطيفة قبل أن يحجبها ويغلفها بكثيفه.

وكما وعت الروح وجودها في عوالم سبقت عالم وعيها لتقمصاتها الجسدية، فإنها ستبقى بعد زوال هذا الوعي، وستعود إلى مصدرها متجهة، بحكم جوهرها النوراني، إلى أعلى، بينما يتجه الجسد حكما إلى ترابه. وهكذا تتلخص المعرفة أو الحكمة المستعادة بواسطة التذكر بممارسة الروح لجدلية التنافي في الجسد حتى تميت كل رغباته في الحياة، أي أنها تقتله لتحيا، تمهيداً لتتحرر من سجنه حين تفتح لها لحظة الموت باب التحرر لتتذكر عالمها الأصلي، وفي الحالات ليس هناك موت، وإنما حياة أخرى (حلقة أخرى في مسلسل رحلة معرفة الذات وصقل النفوس) – حياة تتأتى من الموت كما يتأتى النوم من اليقظة، والراحة من التعب والليل من النهار ولا خلاف هنا أيضاً بين الهرمسية والفلسفة اليونانية برموزها الكبار فيثاغوراس، أفلاطون، وسقراط. فلم يكن لعمالقة الفكر أن يتجاهلوا أبسط القوانين الطبيعية المبنية على المتضادات والتي تشمل فلسفة التقمص في طياتها كما تجاهلها معظم الفلاسفة والمتدينين في العصور التي تلت.

ولنستمع إلى هرمس وهو ينص بشريعته كل الفلسفة التي عبر عنها أفلاطون في"الفيدو" حول جوهر النفس ونظرية المعرفة. يقول هرمس:

"يا نفس تيقني أنت قد جئت وخرجت وتسلسلت (أي تقمصت) عن أصل أنت فرعه، وإن الفرع من الأصل كالثمرة من الشجرة فهي وإن بعدت عن أصلها البادئ والمبدئ لها، فإن بينها وبينه اتصالا ذاتيا . فاعلمي أنك راجعة إلى مبدئك الذي هو أصلك".

وإذا كان أفلاطون قد حدد الشبه بين المثالات الكاملة وصورها، بـأنها علاقة الأصل الحقيقي بالظل، فإن هرمس (وهو في مبدأ التوحيد تقمص لأفلاطون) يشبه كافة الصور الحسية أو الأشباح التي تتراقص على جدار الكهف الأفلاطوني الشهير بصور الأحلام التي تشاهدها النفس في نوم اليقظة، أو زمن الغفلة

"يا نفس تيقني قولي هذا، واعلمي أنك في هذه الدنيا راقدة، وأن جميع ما أنت مشاهدة له فيها، إنما هو أحلام".

وهذا يعني أن الخروج من حالة الاغتراب الروحي لن يتم إلا عبر استقلال الروح عن الجسد والخروج من قيد الدنيا، وفي هذا يقول هرمس ما سيعيد صياغته كأفلاطون:

"وتهذبي يا نفس من أوزار جسمك، وتنقي من الأشياء المخالفة لجوهرك المبطنة بك عن سرعة الرجوع إلى عالمك وأصلك".

الشكل الكروي... سيد الأشكال:

وإذا كان أفلاطون يجسم نظرية المعرفة والعلاقة بين المثل الساكنة في عين الشمس خارج الكهف والأخيلة المتحركة على الجدار الكهفي في قصتـه الرمزية المعروفةMyth of the Cave فإن هرمس يقدم تنويعة فنية –علمية تجسم نظرية المعرفة ذاتها، على أسبقية في الزمن، وفي استعارة مركبة لا تقل جمالا:

"يا نفس، إن القمر نير ما دام نور الشمس (وفي التوحيد الشمس هي ممثول العقل الكلي والقمر ممثول النفس الكلية) واردا إليه، فإذا عرض له أن يجول بينهما ظل الأرض، انخسف وأظلم، فكذلك النفس، ما ورد إليها نور العقل فهي مضيئة نيرة، فإذا توسطت أسباب الكون والفساد، حيل بينهما، فعدمت النفس نورها".

وهذه الصورة تؤكد غير ما تعلمنا من أن "كوبيرنيكوس" هو الذي اكتشف كروية الأرض ونتذكر المحاكمات التي أجرتها الكنيسة الكاثوليكية لـ "غاليليو" وإحراق العلماء الذين تجرأوا على الإفصاح عن حقيقة كشفها التأمل العقلي الهرمسي في الألف الثالث قبل الميلاد وليس في عصر النهضة الأوروبية الحديثة.

ولا شك أن فيثاغوراس وأفلاطون قد تلقيا هذه المعرفة الفلكية من مصدرها المصري القديم فنسمع أفلاطون يردد في "الفيدو" أن الأرض كروية Spherical وإنها تدور حول الشمس". والملاحظ أن الهرمسية تعتبر الشكل الكروي "سيد الأشكال". وكذلك أفلاطون القائل بدائرة الوجود " ولو كان مستقيماً وليس دائريا " لانتهت إلى الثبات ولكان تجدد الحياة مستحيلاً.

توحيج هرمس "مت لكي تحيى"

الشوق إلى الموت

نعود إلى مسألة المعرفة لنشير إلى الشوق الصوفي إلى الموت . فتطهير معدن النفس الذهبي بنار المجاهدة التي منهجها فيثاغوراس في أكاديميته، والمتأكدة في اليوغا، إنما هي أماتة الجسد في الدنيا، أي إفناء رغباته بحيث "يشف عن نفس لا جسم لها البتة فتظهر صافية في كنف العقل " (هرمس) "فإذا كان الإنسان فيلسوفا فأنه سيكون صاحب معتقد ثابت بأنه ليس يجد الحكمة بكامل صفوها في أ ي مكان عدا الموت" (الفيدو).

إن الفلاسفة الحقيقيين يجعلون المران على الموت منتهم في هذه الحياة، كما يقول أفلاطون في "الفيدو". وحين يأتيهم الموت فليس يجد ما يميته، بل أنه سيزيل من وجه الروح العاقل أولى العقبات وآخرها. ويجري أفلاطون على لسان سقراط القول : "إن الموت هو أكبر النعم لكن البشر يخافونه وكأنه أعظم الشرور".

إن السؤال الذي طرحه حكماء الشرق من هرمس إلى أفلاطون ليس هو الذي طرحه "شكسبير" على لسان "هاملت": نكون أو لا نكون"، فالحياة مع الشر هي الشر الأعظم والموت الذي يشهد على الحق هو أعظم النعم، هكذا علم سقراط وهكذا عاش، وهكذا مات، وكان موته على شريعة هرمس القائل "كل من أراد أن يحيا مع الحق سعيدا فليمت به شهيدا".

وباختصار يشكل فعل الأمانة من وجهة نظر العرفانيين الصوفيين فعل خروج من حالة الاغتراب التي تعيشها الرح في الجسد والدنيا، أي في حالة الطبيعة فالحياة عل ى المستوى الظاهري هي رحلة خروج الروح من مطلقها الأصلي وذهابها عبر الطبيعة والجماعة أنه فعل مفارق ونسيان للأصل أو انشغال عنه بحاجات جسد يحول البشر إلى عبيد يكدحون في خدمته . وينتهي زمن العبودية والتيه عن الذات حين يعي الروح الراشد أن إلهه فيه . وشمس حريته في داخله وما عليه إلا أن ينظر إلى النور بعين العقل النوراني

عندها ينعي الإبن المسيحي أباه السماوي ويتحد معه في الروح القدسي فيبقى الواحد وينتفي الثالث، وتتم رحلة إياب الروح إلى مصدرها.

"وعندما تستقر الروح في أصلها وتستريح من شقاء الغربة وذلها "، حسب تعبير الحكيم المصري الأقدم هرمس الهرامسة، فالموت يعيد كلا من الروح والجسد إلى أصله: النار إلى أعلى، والتراب إلى أسفل.

وما يجعل الجسد الحي عنصر اغتراب سالب للروح لا ينحصر في كونه مبدأ الظلمة المضاد لمبدأ النور على المستوى المعرفي وحسب، وإنما كونه مبدأ الظلمة المضاد ل مبدأ النور على المستوى المعرفي وحسب، وإنما كونه مبدأ الظلمة الرامز للشر الخلقي في المطلق. إن العواطف الجموح كالطموح إلى السلطة، والوجاهة، واشتهاء الممتلكات مصدرها الجسد الكاره للموت، العالق بحب الدنيا . وتعاكس الهرمسية وشتى مذاهب الفلسفة اليونانية الأفلاطونية والأوسطية، الأبيقورية والرواقية هذا التوجه بشعار "مت لكي تحيا".

إن التعلق بالدنيا والصراع العنيف على امتلاك ما يمكن امتلاكه منها وفيها مصدره الجسد . فالجسد ليس عالقا للبحث المعرفي فقط وإنما هو أصل الشرور كافة . فالحروب كلها تدور بدوافع اقتصادية، كما يذكر أفلاطون في "الجمهورية" قبل "ماركس"، فالجسد الحسي هو الذي يطلب الملكية ويحتاج الشيء المحسوس، وهكذا يلقي الصوفي باللوم على الجسد الطبيعي، بينما يتهم "ماكس" الآخر الاجتماعي ونظام الملكية الفردية الذي "يحول كل منتوج يحتاجه الإنسان إلى شرك فتصبح الحاجة إلى السلعة ضعفاً" ثم أن "حس التملك يستلب كافة الحواس الأخرى فلا نشعر بأن الشيء لنا إلا إذا أكلناه، شربناه، سكناه أي إذا حولناه إلى موضوع متعة حسية كما يقول ماركس في محفوظات 1844 الفلسفية من هنا يحذر هرمس النفس من المقتنيات" التي إذا ما توصلت إليها اكتسبت الخوف عليها ما دامت معك. فإذا فارقتها أو فارقتك أعقبك ذلك أحزانا وهموما وآبت إلى الحسرات". "فاحذري يا نفس أن تقتني ما تفقدينه".

الفلسفة اليونانية

مشاهد من ذاكرة التوحيد

مدارس اليونان

يقول "شيلي" Shelley الشاعر والفيلسوف البريطاني المعروف : "إن الفترة الواقعة بين مولد بـركليز (شاعر يوناني) وموت أرسطو (الفيلسوف) تعد بلا شك أهم فترة في تاريخ العالم كله، سواء نظرنا إليها من حيث هي ذاتها، أم من حيث آثارها في مصائر الإنسان المتحضر من بعدها".

نفهم من هذا التحديد الآنف الذكر أن الفترة الواقعة ما بين 250 - 450 قبل الميلاد هي فترة تأسيس الفلسفة اليونانية بأبعادها المتعددة وبوجه خاص البعد التوحيدي عند أفلاطون وأرسطو ومن أتى بعدهما.

وفكرة التوحيد بالمعنى الديني ارتبطت مع التكوين البشري ورقي الإنسان عبر الأزمان والدهور، واتخذت لها حسب مشيئة الله الواحد الأحد أشكالا ورموزا وأسماء متنوعة ومتعددة في كل حقبة على مر التاريخ.

ولم تقتصر الفلسفة التوحيدية على محتوى الفردانية الإلهية فقط بل تعدتها إلى رسم سلوكيات الإنسان في كل كور ودور على مر الأجيال حتى يومنا هذا.

إذا استطاع أحد أن يقنعني بإنني أخطأت في تفكيري، فإنني بسرور أعدل عن رأيي، لأن رائدي الحق الذي ما أضر أحد قط. (ماركوس اويليوس).

تروي المؤلفات التاريخية أن الإنسان حين بدأ يعي، شرع يؤمن بقوى فوق مستواه، يخافها و يجلها، ويتوسل إليها حين يعتريه مكروه، فكانت عبادة قوى الطبيعة أولا (رياح وأعاصير وصواعق، ثم بحر وجبل وغاب)، وانتقل بعدها إلى عبادة (الطوطم) – وهو حيوان غالباً أو جماد أو نبات – حيث يتصور أن روح أسلافه قد حل فيه، فيغدو مقدسا جدا، ويحرم لحمه أو أذيته، وقد وجد علماء الأحافير في أماكن مختلفة من

أوروبا وافريقيا، كوما من الجماجم البشرية، يستدل منها على أن أولئك الناس كانوا يقدسونها، فقيل بعبادة الجماجم؛ واعتقد أن الحقيقة هي عبادة (العقل) الذي اتخذ من هذه الجماجم قميصا؛ لذا اعتبر "هنري بروي"Henri Breuil في تصديره لمؤلفه (التاريخ العام للديانات)، أن "الإنسان قديم وكذلك هي أفكاره". وما يمكن قوله في هذا المجال أن الجذور الفلسفية والعقلانية لفلسفة التوحيد (ولا سيما التقمص) لم تتواجد منطقياً في الحضارات الما – قبل – يونانية، بل كانت عقائدها وتصوراتها أقرب إلى الأسطورة م نها إلى (التعقل العقلاني). ومن المعلوم أيضاً أن الشعوب المشرقية بكاملها، لم تتوصل مطلقا إلى (عقلنة) Rationalisiationفلسفية للمفاهيم التوحيدية كما فعل اليونانيون، الذين نشأت عن حكمتهم المعرفية، الشرهة بحد ذاتها، بفضل الاحترام الذي كانوا يكنونه للحياة، وبفضل حاجتهم النموذجية إليها. ذلك انهم كانوا يريدون المباشرة لتوهم بعيش ما يتعلمون، فكانوا حضاريين من أجل الحضارة لقد ابتكروا في الواقع (الأنساق الفلسفية الكبرى للعقل التوحيدي)، ولم يبق لمجمل الأجيال اللاحقة أن تبتكر شيئاً جوهريا يمكن أن يضاف إليها.

إن الشعوب كافة تشعر بالخجل حين تتناول مجتمعا نموذجيا من الفلاسفة بهذا الشكل البديع، مجتمع المعلمين الأول في اليونان "طاليس" " انكسيمنديس" " هيراقليطس"، "بارمانيدس"، "انكساغوراس"، "ديموقريطيس"، "فيثاغوراس"، "سقراط"، "أفلاطون"، "أرسطو"، "أفلوطين" والكثير غيرهم. إن هؤلاء الرجال مسكوبون قطعة واحدة وفي نفس الصخرة، وهناك ضرورات صارمة تحكم العلاقة التي تربط فكرهم بسجيتهم. لقد كانوا جميعا في وحدتهم المهيبة، الوحيدين الذين عاشوا للمعرفة فقط. لم يستعينوا بأي زي شائع كان يمكن أن يسهل مهمتهم، فالجبابرة يتخاطبون عبر مسافات التاريخ المقفرة، ويستمر حوارهم الرفيع بين الأفكار دون أن يعكر صفوه المستهترون والصاخبون الذين لا يزالون يزحفون تحتهم.

مقتبسات من سلسلة الفلسفة (معجزة اليونان) –راجع مجموعة أعداد الضحى 1995 – 1996.

كان فلاسفة اليونان القدامى أول من أرسى أسس فلسفة المعرفة، وبحثوا في إشكاليتها، ومهدوا السبيل لظهور الاتجاهات الحسية التجريبية والعقلية في فلسفة العصور الوسطى والفلسفة الحديثة، وكان من رواد فلسفة المعرفة ومؤسسيها: "فيثاغوراس" و "سقراط" و "أفلاطون" و "ارسطو".

فيثاغوراس:

نشأته:

فيلسوف يوناني، "ولد بين 580 و 570 ق.م. في مدينة "ساموس"، كان والده يدعى "مناسار خوس"، طوف في أنحاء الشرق، ولما ناهز الأربعين من عمره قصد إلى إيطاليا الجنوبية، وكان المهاجرون اليونانيون قد بلغوا فيها درجة عالية من المدنية والثقافة، واتجه بعدها نحو المدن اليونانية، حيث أس س في مدينة "أوقروطونا" في اليونان الكبرى، مدرسة لم تلبث أن ذاع صيتها، وراح يتدفق إليها عدد كبير من التلاميذ الـ "لوقانيين" والـ "مسابين" والرومانيين، وقد ألف هؤلاء التلاميذ حول المعلم ضربا من أخوية كانت أهدافها صوفية أكثر منها فلسفية بحصر المعنى، وكانت تقبـل في عضويتها النساء، وأشهر نساء المدرسة كانت "ثيانو" تلميذة "فيثاغوراس" Pythagoras وكان على المرشحين – قبل مثولهم أمام المعلم – أن يراعوا حقبة من الصمت تدوم خمسة أعوام، وكانوا ملزمين، علاوة على ذلك، بلزوم السرية المطلقة حول المذاهب المدروسة، وكانت سلطة المعلم مطلقة هي الأخرى، إذ كان يعد المؤتمن الوحيد على الحقيقة

كان "فيثاغوراس" يرتدي ثيابا بيضا، ويمسك عن الضحك والمزاح، وكانت سحنته تنطق بالجلال والوقار، حتى أنه كان يتراءى لتلاميذه أنه "أبولون" Apollo متجسداً. بيد أن ذلك هو كل ما يمكن جمعه عنه – على وجه الاحتمال لا اليقين –من الروايات المتعددة التي وصلتنا عن حياته، وما لبثت الاسطورة أن وضعت يدها عليها: فحتى "انبادوقليس" Empedocles الذي عاش بعده بخمسين عاماً، كان يعتقد أنه كائن أعلى من البشر، كما أن "هيرودوتس" خلط بينه وبين "تراقيوس رالموكسيس"، وهو شخص خرافي. وقد زعم أن فيثاغوراس" كان ابن "أبو لون" ومنه تلقى حفظ ذكرى تجسداته أو حيواته السابقة؛ وذكر أيضاً أن قصبة ساقه كانت من الذهب، وأنه كانت له قدرة على التنبؤ، وعلى كلية الحضور.

ويرى "ديكاياركوس" أن "فيثاغوراس" علم أولاً أن الروح خالدة وإنها تتقمص، ثم علم أن كل ما يظهر إلى الوجود يعود فيولد في دورة معلومة، فلا شيء جديد كل الجدة، وأن كل ما يولد وفيه دبيب الحياة ينبغي أن ننظر إليه جميعا نظرتنا إلى أبناء الأسرة الواحدة . ويقال أيضاً أن "فيثاغوراس" كان يعظ الحيوان – كما فعل "القديس فرنسيس الأسنري" – انطلاقا من ذلك المبدأ يعتبر "فيثاغوراس" إننا غربا في هذا العالم، والجسد

مقبرة الروح، ومع ذلك فلا يجوز لأحد منا أن يلتمس الفرار بالانتحار، لأننا ملك لله العلي القدير والباري تعالى واحد لا كالآحاد، ولا يدخل في العدد، ولا يدرك من جهة العقل ولا من جهة النفس، فلا الفكر العقلي يدركه، ولا المنطق النفسي يصفه، فهو فوق الصفات الروحانية، غير مدرك من نحو ذاته، وإنما يدرك بآثاره وصنعاته وأفعاله؛ كما أن (الوحدة) تنقسم إلى (وحدة غير مستفادة من الغير)، وهي وحدة الباري تعالى: وحدة الإحاطة بكل شيء، وحدة الحكم على كل شيء، وح دة تصدر عنها الآحاد في الموجات والكثرة فيها وإلى (وحدة مستفادة من الغير)، وذلك وحدة المخلوقات: و (الوحدة) على الإطلاق تنفسم إلى (وحدة) قبل الدهر، و (وحدة) مع الدهر، و (وحدة) بعده وقبل الزمان كذلك ومعه تضاف (الوحدة) التي هي قبل الدهر هي (وحدة) الباري تعالى؛ و (الوحدة) التي هي بعد الدهر و (قبل) الزمان هي (وحدة) العناصر والمركبات.

يذهب "فيثاغوراس" إلى القول بأن الأشياء كلها أعداد وأنغام، والأعداد عنده مجردة عن المعدودات تجريد الصورة عن المادة، وتصورها موجودات محققة، لأنها من إبداع الباري تعالى؛ وبالتالي فإن الرياضيات كان المصدر الأساسي للاعتقاد بحقيقة أبدية مضبوطة، وفي عالم معقول فوق مستوى الحس . إن الهندسة تبحث في دوائر مضبوطة، لكن ليس بين ما يقع تحت الحس من أشياء دائرية مضبوطة، فمهما حرصت في استعمال "البيكار"، فلا بد أن يكون في الدوائر التي رسمها بعض أ وجه النقص وعدم الاكتمال، وهذا فيه إيحاء بأن كل تدليل مضبوط ينطبق على موضوعات الفكر، لا موضوعات الحواس، ومن الطبيعي أن نمضي أبعد من ذلك خطوة، فنقيم الحجة على أن الفكر أسمى منزلة من الحواس، وأن ما ندركه بالفكر أقرب إلى الحق مما ندركه بالحواس، ويقول "فورفوريوس الصوري" Porphire de Tyr في دراسته عن "حياة فيثاغوراس": كان فيثاغوراس يعرض الفلسفة على نحو يحرر الفكر من أغلاله . فبدون الفكر لا نستطيع أن نعرف شيئاً، ولا أن نعلم علما حقا . الفكر يسمع ويرى في ذاته كل شيء، أما الباقي (المحسوس) فكسيح وأعمى. ولتحقيق هدفه يستخدم "فيثاغوراس" العنصر الرياضي لأنه يقع في الوسط بين المحسوس والفكر.

كان امتزاج الرياضيات باللاهوت –والذي بدأ على يدي "فيثاغوراس" صفة تميزت بها الفلسفة الدينية في اليونان، في العصور الوسطى، وفي العصور الحديثة، ففي فلسفة أفلاطون Plato، ترى امتزاجا وثيقا بين العقيدة الدينية والتدليل العقلي بين الطموح الخلقي والإعجاب المنطقي، كونه لا يخضع لقيود الزمان، لأن

ذلك الامتزاج بين الجانبين تحدر إليه من "فيثاغوراس"، وأصبح لاحقاً يميز اللاهوت المصطبغ بصبغة العقل في أوروبا.

لست أعلم عن رجل آخر كان له من التأثير في نطاق الفكر ما كان لـ "فيثاغوراس" فحتى ما يبدو لك أفلاطونيا ستجده عند التحليل فيثاغورياً في جوهره، وأن الفكرة القائلة بوجود عالم أزلي، ينكشف للعقل ولا يكشف للحواس، مستمدة من "فيثاغوراس" ولولاه لما فكر المسيحيون في "المسيح" على أنه (الكلمة)، ولولاه أيضاً لما حاول رجال اللاهوت أن يلتمسوا البراهين على وجود الله وخلق الروح

خصائص (النفس) عند الفيثاغوريين:

هناك قول يرجع إلى "أرسطو" Aristotle عن الفيثاغورية، التي تشبه (النفس) بالذرات المتطايرة في الهواء، والتي تعجز حواسنا عن إدراكها أو رؤيتها إلا أثناء أشعة الشمس (والشمس هي ممثول العقل في التوحيد)، وهي تتحرك دائما حتى عند سكون الهواء؛ والرأي الآخر يقول بأن (النفس) في الفيثاغورية هي المبدأ أو علة توافق الأضداد في الجسد وهي مبدأ حركته الدائمة . وبعد الموت تعود النفس إلى الأرض لتقمص ثوبا جديدا.

ولكي تتخلص (النفس) من دائرة الولادات المتكررة وتصل إلى مقام الحكمة، فعلى الإنسان أن يطيل فترات الصمت، وأن يستبطن نفسه يوميا عن طريق التدريب المنظم، ف المجهود العقلي هو أسمى صور التطهير، وهو أضمن طريق لتحرير النفس من حياتها هذه قبل الموت الجسدي . ويجدر بالذكر هنا أن المجهود العقلي في مدارس اليونان يختلف عن التأمل والتركيز الممارس في مدارس الشرق الأقصى اختلافاً يميز التوحيد من فلسفات الشرق الأقصى.

فكانت وسيلة الفيثاغوريين في شد أزر (النفس) وقمع نزوات الجسد، ومقاومة المؤثرات الخارجية والتغلب على ما له علاقة بالمحسوسات، كانت الوسيلة هي الانكباب على الدراسات العالية، فكان هذا سبيلهم في تطهير (النفس)، أما تطهير الجسد فكان يأتي عن طريق الرياضة الجسدية وا لطب. فلقد أعطت

الفلسفة اليونانية للجسد حقه واعتباره – وهو الشيء الذي لا نجده في بعض فلسفات الشرق الأقصى التي تعتبر عالم المادة وهما يجدر الهروب منه عبر التأمل.

الفيثاغورية، أخيراً، نهضة عظيمة متعددة الوجهات، وهي أول مذهب فلسفي يحاول الارتفاع عن المادة وفهم العالم من خلال قوانين واضحة وأعداد معينة، وهي مدرسة علمية عنيت بالرياضيات والموسيقى، والفلك، والطب، واكتشفت أسس الهندسة والرياضيات، كما أنها هيئة سياسية ترمي إلى إقرار النظام في المدينة على أيدي الفلاسفة، مسار تبنته الفلسفة الأفلاطونية في ما بعد و يعتبر من أهم الأسباب التي أدت إلى تعريض الفيثاغوريين إلى الحرق؛ ويذكر عن فيثاغوراس أيضا أنه أول من استخدم كلمة "فلسفة" قبل "سقراط" Socrates، مؤكدا أنه ليس حكيما لأن "الحكمة" يجب أن تضاف إلى الآلهة فقط، أما هو فليس إلا محبا لها، أي "فيلسوف".

فيثاغوراس –راجع الضحى العدد السابع والخمسون –تشرين الثاني 1996.

طبقات البشر تحددها درجات معارفهم ونوعية مسالكهم لقد أحيت أكاديمية فيثاغوراس، قبل جمهورية أفلاطون، المثال الفلسفي في شموليته وفي علاقته بالحياة السياسية الاجتماعية، وفي جعل الأخلاق سيدة العلوم كافة بما فيها علم السياسة . كما رتب فيثاغوراس البشر طبقات أو أنواعا ثلاثة على قاعدة أخلاقية معرفية، كما سيفعل أفلاطون في الجمهورية. وعن فيثاغوراس أخذ أفلاطون فكرة ترتيب الطبقات ونظام الدولة في صورة الفرد الثلاثي الأبعاد، أي المكون من عقل، وعاطفة وقابليات حسية.

وقد جعل الحكام والحراس ممثلين لمبدأ العقل الفلسفي الذي يجب أن يقود ويحكم ومعدن هؤلاء هو الذهب، يليه الفضة، ثم البرونز أو الحديد الصدئ وهذا التصنيف التراتبي للبشر مأخوذ عن فيثاغوراس الذي رمز لمراتب البشر الثلاث بصورة جمهور الملعب الرياضي (جمنازيوم) الذي يذهب إليه البشر تحركهم حوافز ثلاثة تدل على مراتبهم:

الفئة الأولى: محبي المادة (الذاهبون لكي يبيعوا ويشتروا)، وهؤلاء هم الأكثر انحطاطا بوصفهم جماعة القابليات الحسية العامة في خدمة الجسد.

الفئة الثانية: محبو الشهرة (اللاعبين الذاهبين إلى الملعب بهدف الربح والخسارة).

الفئة الثالثة: محبي المعرفة – الأشراف، (فئة الذاهبة إلى الملعب بدافع متعة المشاهدة)، وهذه الفئة هي التي تحيي مبدأ التأمل العقلي، تحيا لتعرف، وتعرف لكي تحيا وهي التي عمل فيثاغوراس في أكاديميته الشهيرة على صناعتها.

وإذا كان الإنسان لم يخلق لشيء إلا للعلم والعمل به كما رأى فيثاغوراس فالسؤال التالي يكون ما هي معوقات تكون الإنسان المعرف الشارط للحياة الخيرة؟ والإجابة لا بد أن تمر بنظرية المعرفة الصوفية في بدئها الهرمسي واستمراريتها الفيثاغورية – الأفلاطونية.

توحيد هرمس "مت لكي تحيى" – راجع مجموعة أعداد الضحى 1998.

هيراقليطس:

تتمثل أهمية هراقليطس في نظريته عن الحركة والتغير إذ هي تشكل القاعدة التي منها سينطلق فهم الفلاسفة لنظرية المثل عند أفلاطون:

الوجود بنظر هيراقليطس مبني على الصراع الخصب وهو في الوقت نفسه تساوق وتناغم، لا بمعنى التناسب العددي (كما فسره الفيثاغوريون) بل بمعنى الائتلاف بين قوى تفعل كل منها فعلها باتجاه معاكس لفعل الأخرى، وعلى هذا النحو يتحادد ويتزاوج، في تناغم وتنافر، النها ر والليل، الشتاء والصيف، الحياة والموت، الشبع والجوع وكل شطط من قبل أحد الأضداد . "أنهم لا يدركون كيف تنصهر الأضداد في بوتقة وحدة ائتلاف القوى المتعاكسة مثل القوس والقيثارة". إنه – أي الصراع – (روح) الكون: والانسجام رائع، لكنه يحتوي على لحظة سلبية : الميل إلى الثبات والركود، ولكن هذه صفة للأموات . وهنا يحرك الصراع الحياة باستمرار، ويمنعها من (الانطفاء)، وبذلك يحافظ عليها وعلى الكون، ومن هذا المنظار، يختزن السلبي الايجابي في طياته والعكس صحيح، والاثنان يشكلان كلا واحدا، أنه الازدواج الداخلي لكل شيء الذي يشكل سر الوحدة في الوجود.

سر الوحدة في الوجود (ما فوق الفكر):

حسب رأي "بارمانيدس" المضاد لرأي "هيراقليطس"، أن مفهوم الوجود يلغى تماماً المفهوم المعاكس – أي اللاوجود – فالوجود فقط (ما هو موجود) مفهوم، أما اللاوجود – أي ما هو غير موجود – فليس مفهوما؛ إن (الوجود) شيء لا يمكن أن ينشأ عن (اللاوجود)، أي عن لا شيء، ولأن الوجود لا يمكن أن ينشأ عن لا شيء فهو بالتالي لا يمكن أن يزول أيضاً، أي أن يتحول إلى لا شيء، إلى لا وجود، لأن (الوجود) وحده موجود، بينما (اللاموجود) لا يوجد؛ ولكن إذا كان (الوجود) فقط هو المفهوم، يستتبع ذلك أنه خالد، وأنه يملأ الفضاء اللامتناهي، ليس هناك مكان فارغ بمعنى (اللاوجود)؛ إذن ليس هناك حركة أيضاً، لأن هذه الحركة تفترض مكانا فارغا وتستجيب لانتقال (الوجود) إلى (اللاوجود) وليس هناك تحولات أيضاً، كون هذه الأخيرة تفترض وجود الحركة.

الحركة والتغير (طبيعة تشمل الفكر):

أما هيراقليطس فيرد ويقول : الوجود لا يتوقف أبدا عن الحركة والتغير، فالصراع هو "مصدر كل شيء يجري"، وهو ملازم داخليا للانسجام لأن هذا الانسجام (الوحدة والتناسق) يتكون ليس انطلاقا من أي شيء، بل من مختلف الظواهر، والايقاعات، والأصوات واختلافها، وفي النهاية: من كل الأشياء واحد ومن شيء واحد كل الأشياء". وإذ يقود الصراع إلى انتصار أحد الأضداد، فهو يخلق شيئا جديدا، تناسقا جديدا، ولكنه ليس (ساكنا)، بل يكون خاضعا بدوره لقانون الحركة العامة والتغير المستمر، فيخلق بذاته اختلافات جديدة وأضدادا جديدة، وبالتالي يخلق صراعا جديداً لها؛ وهكذا فإن الصراع أبدي، وهو مصدر كل ما يحدث، وهو أحد جوانب (حياة) الكل.

ولكن هناك جانبا آخر أيضا : الاتفاق، النظام، والانسجام، ولا يمكن لأحد الأضداد المتصارعة أن يوجد دون الآخر . ومثلما أن الانسجام يفترض امتزاج الأصوات العالية والمنخفضة، فالكون (الكل المنسجم) يستحيل أن يوجد دون أجزائه، أو أن توجد هذه الأجزاء بدون الكل ال منسجم الواحد، وإذا غابت الأصوات المختلفة غاب التناغم، وبهذا المعنى، ليس هناك تقارب بدون تنافر، إننا لا نعرف الخير دون الشر، والأمر نفسه ينطبق على ما يتعلق بالجمال وكل ما تبقى.

لقد أدرك هيراقليطس جوهر الحركة والتغير المستمرين من حيث هما الجوهر الأقوى للكائن، لنسمعه يقول: "لا يمكن النزول مرتين في النهر نفسه، ولا لمس مادة مرتين في الحالة عينها، لأنها تتفتت وتنكمش مجدداً من جراء حيوية التحول وسرعته، إن المادة، دون ابتداء ودون انتهاء، تظهر وتزول في آن واحد؛ ذلك السيل الشامل هو، بالنسبة لهيراقليطس، عمليةنشوء وزوال الأشياء في آن معا، إن ما يولد يهلك في اللحظة نفسها، وما هو موجود غير موجود.

الزمان:

إن عملية ظهور الأشياء، والولادة والموت، والقرب والبعد مرتبطة بالزمان، وتذكر به، علما بأن (الحاضر) يشكل حدا غير مدرك بين (الماضي) و (المستقبل)، إذ يقترب المستقبل ويصبح حاضرا، في حين أنه عندما يصبح الحاضر حاضرا يبتعد في الماضي كل (الآن) أصبح (غير الآن)، إن الزمن هو الأول والأخير بين كل الأشياء، يتضمن كل شيء، ووحده يوجد ولا يوجد، يخرج دائما مما هو موجود، ويعود من الجهة المقابلة، لأن اليوم هو الأمس بالنسبة لغد، وقد كان الأمس غدا.

يفهم "هيراقليطس" أهمية (الزمان) في العملية العامة للحركة والتغير، والتعارض وزوال الأشياء؛ هناك سلسلة من الأسئلة تطرح الآن: فيما يمكن هذا السيل الدائم للزمان، هذا التعاقب للأشياء والأجيال؛ وهل هناك معنى عقلي – أو نظام – في "كل شيء يجري"، أم ليس هناك سوى لعبة القوى العمياء في الطبيعة التي ليس لها من هدف محدد؟ ألسنا نشهد مأساة كونية عندما يشهد بعض الأحياء موت الآخرين، ويميت الآخرون حياة البعض؟

دور العقل في فلسفة هيراقليطس :

إذا كان "كل شيء يجري" فلا شيء يبقى في مكانه، هذا يعني أن كل شيء عليه التقدم إلى الأمام، إن الحياة تدعونا كي نحياها؛ إن ديناميكية الحياة، "الكل يجري" تدعونا للتصرف حيال الواقع.

لذا يبقى مسألة أخيرة تلك المتعلقة بـ (اللوغوس) أي العقل الكوني –والتي تحتل، بحق، مكانا مركزيا في الفلسفة الهيراقليطية وإحدى القضايا الأكثر غموضا فيها. كان "هيراقليطس" – فيما يذكر مؤرخو الفلسفة،

أول من قال بفكرة (اللوغوس)، فلكي يفسر هذا الفيلسوف النظام السائد في الكون، بعيدا عن الميثولوجيا والأساطير، قال بوجود (قانون كلي) يحكم الظواهر ويتحكم في صيرورتها الدائمة الأبدية؛ والعقول البشرية، تستطيع التوصل إلى معرفة صحيحة عن ظواهر الطبيعة، إذا هي شاركت في (العقل الكلي)، أي إذا اجتهدت في البحث في نظام الطبيعة، وأدركت ما يتصف به هذا النظام من ضرورة وشمول : لقد تصور "هيراقليطس" (العقل الكلي) على أنه محايث للطبيعة ومنظم لها من داخلها، فهو بالنسبة للعالم أشبه بالنفس بالنسبة للإنسان، النفس لا بوصفها (جوهرا) مستقلا متميزا عن الجسد، بل بوصفها مبدأ لحركته، منتشرا في جميع أجزائه، ولذلك كان هذا العقل أشبه ما يكون بـ (نار إلهية لطيفة)، بل هو (نور إلهي)، هو حياة العالم وقانونه، والنفس الإنسانية قبس من هذه (النار الإلهية)، أي من هذا القانون الكلي الذي يسري في الطبيعة ويحكمها، فعليها إذن أن تعرف هذا القانون وتعمل بموجبه. يقول "هيراقليطس": "لا يوجد سوى حكمة واحدة: معرفة الفكر الذي يقود كل الأشياء عبر الكل" ومن هنا كان (الدين الحق) في نظره هو مطابقة العقل الفردي – أي عقل الإنسان الفرد – للقانون الكلي الساري في الكون، أي للعقل الكلي أو الكوني، يقول : "ربما ينجو الإنسان من النار الحسية ولكنه لن ينجو من النار العقلية".

إن فكرة "هيراقليطس" عن (العقل الكلي)، تميل إلى نوع من (وحدة الوجود) باعتبار أن العقل الكوني هذا، محايث للطبيعة وغير منفصل عنها: كما يجب ألا يخفي على أحد أن مفهوم الـ "لوغوس" كان له تأثير عظيم على جميع الفلسفات التي تميل إلى هذا الضرب من التفلسف كالفلسفة الرواقية على سبيل المثال

مقتبسات من مفهوم (الجدل) عند هيراقليطس – راجع الضحى العدد التاسع والخمسون 1997 – كانون الثاني.

كل شيء يتغير في الحياة، الإنسان يتغير، والمجتمع يتغير، النور يصبح ظلاما والظلام يصبح نورا، فلا تخف من كليهما.

رجل يقرأ التاريخ ويتعلم منه العبر والدروس، ورجل يعيش فقط لحاضره متقوقعا على نفسه يسي طر عليه الخوف من المستقبل المجهول، الأول يعلم ما سيحدث لأنه اختبر الماضي فتألم، وإذا هو قد تعلم

والثاني لم يتألم، إذا هذا لن يتعلم، ولهذا يعيش في حاضره وسط الفخفخة والثرثرة والطبول والأبواق، بينما رفيقه هو رجل الحقيقة الصامتة والقناعة الحكيمة.

أيهما تفضل أيها القارئ الكريم بين هذين الرجلين؟ علما أن لكل منهما أنصاره ومريديه . طبعا الجواب صعب وشائك إذ لا شيء ثابتا فالنفس الإنسانية لا تستقر على حال ولها في كل يوم حكاية ومقال. ألم تشاهد كيف أن الشمس تمزق الظلام كل صباح لتطلع علينا، إن هذا التمزق الذي تخا فه هو الذي يأتينا بالنور.

أحداث من واقع التاريخ:

"اللعنة على كل من يعلم الناس أسرع مما يمكنهم ان يتعلموا".

هذه آخر جملة لفظها سقراط الحكيم قبل خروج روحه من جسده بلحظات، مسكين ذلك الفيلسوف الإغريقي الذي أدخلوه السجن لمدة شهر وبحقه صدر حكم الإعدام بالموت، فشرب كأس العلقم وفارق الحياة.

سقراط الحكيم لم يتعرض إلى الإنجيل أو القرآن حتى يحاكم.

فهذا الفيلسوف ولد قبل الميلاد بـ 469 سنة وهو أول من قال : "اعرف نفسك أيها الإنسان " وهذه الجملة المأثورة قالها يسوع المسيح فيما بعد لكن سقراط سبق يسوع.

لم يكن الحكام راضين عن تعاليم سقراط فوجهوا إليه ثلاث تهم هي: إنكاره الآلهة – ودعوته إلى آلهة جديدة وإفساده الشباب الذي فتن والتف حوله مأخوذا بسحر حواره الفلسفي . هذه التهم الثلاث كانت كافية لإعدام سقراط.

وقف أمام القضاة مدافعا عن فلسفته العظيمة. لكن الذين حاكموه كانوا دون مستواه الفكري والفلسفي، فبدت تعاليمه لأذهانهم زلزالا يغير خريطة هذا العالم . ومن تعاليم سقراط الحكيم أقواله هذه : "أنا أعرف شيئاً واحد وهو إنني لا اعرف شيئاً". وهو أول من بشر بوجود الله تعالى، وهو القائل:

"حطموا هذه الأصنام التي تعبدونها وارموها في النار، لأن هناك قوة غير منظورة أوجدت هذا الكون هي الله، اعبدوه ولا تعبدوا الأصنام".

هذه كانت الجريمة التي اقترفها سقراط الحكيم، لقد بشر بوجود قوة إلهية فأعدموه. حاول بعض أتباعه إخراجه من السجن لكنه رفض. وقال التلميذ لسقراط مخاطبا: "أيها المعلم، إن قانون أثينا لا يسمح بالإعدام إلا بعد وصول الشمس بمغيبها فوق جبال أثينا، وما زال أمامك ثلاث ساعات من الزمن، فلم هذه العجلة؟

فأجابه سقراط:

"هكذا أحكام الجهلة. أرفض أن أبقى معهم ثلاث ساعات، دعني أشرب الكأس فأموت وتنتقل روحي وتعود إلى خالقها العظيم، هو الله الذي سوف يرعاني في ملكوته".

طبعا الجلاد لم يفهم كلام سقراط هذا، لكنه أحضر كأس السم وتناوله سقراط وشربه وتذكر ديك الدجاج الذي استقرضه من جاره وأوصى بإعادته إليه، ولفظ جملته التاريخية والتي سبق وذكرناها : "اللعنة على من يعلم الناس أسرع مما يمكنهم أن يتعلموا " ثم فارق الحياة واليوم لا يحق للطالب أن يتخرج من الجامعة الأميركية في بيروت قبل أن يدرس الفلسفة اليونانية وخاصة فلسفة سقراط ويحصل على معدل 70% هذا ما حدث لسقراط الحكيم.

من سقراط إلى يسوع المسيح –راجع مجموعة أعداد الضحى 1998.

سقراط علامة فارقة:

يشكل "سقراط" علامة فارقة في تاريخ الفكر الفلسفي، فهو على مستوى الفلسفة اليونانية يؤرخ به وبعده؛ وهو على مستوى الفكر العالمي أحد أكبر الحكماء القدماء الذين لم يتركوا آثارا مكتوبة تعرفنا بهم، ومع ذلك يبقى لغزا محيرا لا ندري إن كنا نعرف عنه الكثير أو القليل، وما نعرفه عن حياته وعن علومه، إنما نعرفه من أعمال مريديه أو أصدقائه (أفلاطون – أكزينوفون)، أو من آثار خصومه (الشاعر الساخر

أريسطوفان)، ونعرفه أيضاً من خلال مؤلفين لاحقين لأرسطو الذي أعطانا عبارات صريحة تساعد على تصوير مذهب "سقراط".

و "سقراط" كما هو معروف أول فيلسوف يوناني أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض, فهو القائل:

"إن اهتمامي كله ليس بأسرار الآلهة وإنما بعقل الإنسان".

وكان كلما خاطب أحدا خاطبه متسائلا:

"ما هذا؟ ماذا تعني بقولك؟ حدد عباراتك، فإنك تتحدث بغير حساب عن موضوعات كالعدالة والشرف، والحق والخير".

فكل أولئك الذين يتحدث إليهم ما كانوا يعرفون شيئا، ولكنهم يعتقدون انهم يعرفون كل شيء

وهكذا فقد اتجه إلى سبر أغوار النفس الإنسانية، يستطلع الافتراضات ويستجوب اليقينيات، ومن هذا المنطق استحق سقراط –كما أطلق على ذاته – لقب (الذبابة اللاسعة) في صورتها البشرية، لأنه كان يحفز الناس على التفكير حفزا، فأحبه الشباب لأنه كان يشجعهم ويحثهم بينما كرهه الشيوخ لأنه كان يحرجهم ويفضح أمرهم، مع ذلك فقد قدم إلى الفلسفة جوابين ثابتين لسؤالين عن أكثر مشاكلنا تعقيدا، وهما : ما هو معنى الفضيلة؟ وما هي الدولة المثلى؟. والواقع إننا لا نجد موضوعا أكثر أهمية وحيوية بالنسبة لذلك الجيل الأثيني من بحث هذين الموضوعين . لقد دمر السفسطائيون إيمان هؤلاء الشباب بآلهته م، وحكموا القانون الأخلاقي الذي كان يعززه خوفهم من عقاب هذه الآلهة لو قاموا بارتكاب ما يخالف رضاها . وأصبح من الواضح الآن أنه لا مانع من أن يسير الإنسان على هواه . ويفعل ما يطيب له، ما دام يفعل ذلك في حدود القانون. لقد أضعفت روح الفردية المطلقة الأخلاق الأثينية، وتركت المدينة، (أثينا) أخيرا فريسة الأسبارطيين الأشداء بطبعهم؛ أما بالنسبة إلى الدولة، فأي شيء أشد سخرية من هذه الديمقراطية التي تقودها وتتزعمها الجماهير التي تسوقها العاطفة وهذه الحكومة التي توم على النقاش الشعبي، وهذا الاختيار المندفع المتهور، وعزل القواد وتنفيذ حكم الاعدام فيهم، هذا الاختيار –الذي لا اختيار فيه –للبسطاء من المزارعين والتجارب

في تناوب وتعاقب أبجديين كأعضاء للمحكمة العليا للبلاد؛ وكيف السبيل إلى إيجاد قيم أخلاقية جديدة في أثينا، وكيف يمكن إنقاذ الدولة؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة هي التي دفعت بأثينا إلى الحكم على "سقراط" بالموت، متهمة إياه بالفساد الأخلاقي. لقد كان المواطنون الأثينيون الكبار على استعداد لتشريفه لو حاول استعادة الدين القديم الذي يؤمن بتعدد الآلهة، ولو أنه دعا الشباب المتحرر من الخرافات والأساطير القديمة للذهاب إ لى المعابد والحدائق المقدسة، وطلب منهم مرة أخرى تقديم الأضاحي لآلهة آبائهم وأجدادهم، ولكنه اعتقد أن تلك سياسة انتحارية لا أمل فيها وأنها تقدم إلى الوراء، لقد كان له إيمانه الخاص به، لقد آمن بإله واحد وآمن باعتدال بأن الموت سوف لا يقضي عليه تماما، أدرك أن هـ ناك شريعة أخلاقية أبدية لا يمكن أن تقوم على دين ضعيف كالدين الذي آمنت به أثينا في ذلك الوقت؛ وإذا كان الإنسان يقدر على بناء نظام من الأخلاق مستقل تماما عن المبادئ الدينية، ويطبق على المؤمن والملحد على السواء، عندئذ قد تأتي الدياة وتذهب من غير أن تزيل هذا التحجر الأخلاقي الذي يجعل من الأفراد مواطنين غير فاعلين اجتماعيا : إذا كانت كلمة "الخير" (على سبيل المثال) تعني: التعقل و "الفضيلة" تعني الحكمة، وإذا كان من الممكن تعليم الناس أن يروا مصالحهم الحقيقية بوضوح، ليروا من بعيد النتائج الأخيرة لأعمالهم، وينتقدوا، وينسقوا رغباتهم في انسجام بناء ذي أهداف، فإن هذا قد يقدم إلى الرجل المتعلم بميوله السفسطائية القيم الأخلاقية التي يجدها الأمي الجاهل في الشريعة والسيطرة الخارجية أما في المجتمع الذي يقوم حكمه على العقل وهو المجتمع الذي يعيد إلى الفرد سلوكه وولاءه للمجتمع، فإن الحاجة حينها تقتضي حرية واضحة لضمان السلم والنظام والنية الطيبة؛ ولكن إذا كانت الحكومة نفسها حكومة تسودها الفوضى والسخافة، تحكم ولا تساعد، وتأمر ولا تقود، كيف تستطيع أن تقنع الفرد في مثل هذه الدولة على أن يطيع القوانين، ويحصر بحثه الذاتي داخل دائرة الخير العام؛ ولا غرابة أن تعم الفوضى في البلاد التي يسودها الجهل بالقوانين حيث تقوم الجماهير بوضع القرارات في سرعة وجهل؟ أليس من الجهل أن يحل العدل محل الحكمة؟ وعلى العكس ألا نرى الناس مجتمعين في جماعات أكثر سخافة وعنفا وقسوة منهم وهو منفصلون ومنفردون؟ أليس م ن المخزي أن يقوم على حكم الشعب خطباء يضيعون وقتهم في خطبهم الطويلة الجوفاء التي تشبه الأوعية النحاسية التي إذا دقت وقرعت تستمر في الدق والقرع إلى أن نضع أيدينا عليها ونوقف دقاتها؟ . لا جدل في أن إدارة الدولة

مسألة تحتاج إلى أفكار أعظم العقول وأحسنها إذ كيف يمكن إنقاذ مجتمع أو جعله قويا إلا إذا تولى أمر هذا المجتمع أحكم رجاله وأعقلهم؟

مقتبسات من سقراط شهيد الفلسفة الأول –راجع الضحى العدد الثاني والستون –نيسان 1997.

سقراط:

مولده:

ولد سقراط الحكيم في مدينة أثينا سنة 470 ق.م. وكان أبوه "سوفرونيسكوس" نحاتا يصنع التماثيل في "الأكروبول"، وقد تعلم الولد حرفة أبيه أول الأمر ولكنه هجرها واتجه إلى حكمة الأخلاق التوحيدية بالله سبحانه وتعالى.

وتروي بعض مصادر التاريخ أن سقراط علم نفسه بنفسه وشغل نفسه بالحكمة والفلسفة، والمناظرة والتأمل في عجائب الخالق ومخلوقاته.

شخصيته وحياته :

كان سقراط شخصية غريبة الأطوار، إذ كان نصفه مخلوقا إنسانيا ونصفه الآخر قديسا . هذا ما أجمعت عليه مصادر تاريخ الفلسفة، فكانت تشع من عينيه نظرة رحيمة، وكانت ابتسامته ساخرة من العالم الجسماني وودية ورحومة بنفس الوقت.

وتروي الكتب المنشورة عنه أنه كان قوي الاحتمال لدرجة تميزه فوق مستوى البشر العاديين . فعندما كان جنديا في الجيش كان يسير فوق الثلوج والجليد حافي القدمين بينما ينتعل زملاؤه أحذية مغلفة بالصوف الناعم. أما شجاعته فخارقة يعجز عنها الإنسان العادي، وهذا ما تؤكد ه الروايات عن بطولاته في الحروب التي اشترك فيها من سنة 432ق.م. وحتى سنة 429ق.م، والحرب الثانية سنة 422ق.ب. بالإضافة لمعركة سنة 424ق.م.

سلوكه وإيمانه:

كان سقراط يعتقد أنه يحمل في عنقه رسالة إلهية وبشارة سماوية، وأن الله سبحانه قد أقامه وكلفه ليكون معلما ومؤديا مجانيا عموميا يرتضي الفقر ويبتعد عن متاع الدنيا ليؤدي هذه الرسالة الإلهية، وكان يجوب الشوارع والطرقات والأسواق يبشر بما أملاه عليه ضميره الإلهي متبعا أسلوب الحوار والجدل وكان حديثه موجها بشكل دائم إلى الشباب لاعتقاده انهم عماد الحياة بهدف توسيع مداركهم للوصول إلى الحقيقة أي الحقيقة المطلقة التي هي "الله" من خلال العقل أعني عين العقل.

وينقل عدد من مؤرخي الفلسفة أن سقراط الحكيم كان يعتقد بأنه ملهم في أعماله وأفكاره . وهذه المسألة مر بها أنبياء قبل سقراط وخاصة الأنبياء الغابرون. لذلك يستطيع أن يميز النتائج الطيبة من النتائج الشريرة؛ وكان يعتقد سقراط أن الله بواسطة ملائكته يوحي إليه بما ينبغي أن يفعل وينهاه عما ينبغي ألا يفعل، وكانت تنتابه نوبات غيبوبة يقف بعض الأحيان عدة ساعات متسغرقا في أفكاره وتأملاته . وهذا ما جعله يمتلك القدرة العجائبية في السيطرة على غرائزه وشهواته الحيوانية.

وعندما أصبح سقراط الحكيم عضوا في مجلس الشيوخ عرف باستقلاليته ونزاهته وجرأته في محاربة الخطأ مهما كان مصدره من الديمقراطيين أو الأرستقراطيين، كل ذلك دفاعا عن الحق والعدل معرضا حياته للخطر أكثر من مرة مواجها وصامدا ضد انفعالات وهياج هؤلاء أو أولئك.

ويجمع فلاسفة الغرب على أن سقراط كان يتمتع بنظرة نقدية لاذعة. فقد انتقد النظام الديمقراطي في أثينا الذي تقدم على أكتافه مجموعة من الغوغائيين الجهلاء مما أدى إلى سجنه والحكم عليه بالإعدام . وقد اتهمه القادة السياسيون بمحاولة قلب نظام الحكم، وإنكار الآلهة والقول بآلهة جديدة وإفساد عقول الشباب . وفي الحقيقة كان سقراط الحكيم صاحب رسالة، فهو يحاول إصلاح حالة الدولة عن طريق التربية ومحو خرافة الآلهة وإقامة دعامة دين الإله الواحد الأحد . ولقد تقبل سقراط الحكم راضيا مرضيا لإيمانه بالله والقدرة الإلهية والمشيئة الربانية التي لا ترد، لذلك تناول كأس السم وتجرعه بجرأة وكان ذلك سنة 399ق.م. وجرأته هذه كانت بمثابة انتصار للفلسفة والفيلسوف في آن واحد

مذهب سقراط الفلسفي : "الرضى والتسليم نهاية العلم والتعليم ":

"... حين كنت شابا يافعا كنت مهتما بإلحاح بهذا النوع من المعرفة الذي يطلق عليه اسم "البحث في الطبيعة"، فوجدت فيه روعة لا تضاهي، فبواسطته يمكن معرفة علل كل شيء، تلك العلل التي تأتي الأشياء بسببها إلى الوجود ثم تختفي وتستمر في الوجود ... وقد انتهيت إلى رأي بهذا الصدد وهو أن هـ قد ظهر عجزي وعدم استطاعتي الاستمرار في مثل هذا البحث".

نستنتج من هذا أن سقراط عجز كما عجز غيره من فلاسفة الطبيعة عن الإحاطة الكلية لتحقيق المعرفة الشمولية في الكون – وهذه الصفة من صفات الله جل جلاله – واعتقد سقراط أن كل شيء هو ما هو لأنه من الأفضل أن يكون كذلك ولقد تأثر سقراط بـ "أناكساغوراس" لأن هذا الفيلسوف العظيم استخدم العقل واعتمده كأساس في فهم الظواهر والأسباب والعلل والنتائج.

وانحصرت جهود سقراط الأساسية بالإنسان أكثر من الرياضيات والطبيعة، لذلك انحصرت الفلسفة عنده في دائرة الأخلاق، وهذا ما يفسر قول "شيشرون" (خطيب اليونان العظيم) عنه "أنه أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض". أي أنه حول النظر الفلسفي من الفلك والعناصر إلى النفس

النفس الإنسانية عند سقراط :

اعتقد سقراط يسيطر النفس على البدن وبهذا تمكن من إثبات التشابه بين النفس الإنسانية وبين العقل الإلهي. ويعتقد بأن النفس هي سيدة البدن، فكما يحكم العقل الإلهي العالم كذلك النفس تحكم على البدن وتسيره كما تشاء.

وبذلك قال أفلاطون فيما بعد إن النفس تتحكم تحكم السيد في البدن. وفي ذلك تشبيه بالكائن الإلهي. ويلاحظ أن الأدلة التي ساقها أفلاطون للبرهنة على خلود النفس فيها أكثر من فكرة تعزى إلى سقراط مؤداها بأن النفس بما هي عقل خالص لها القدرة على البقاء بذاتها بعد فناء البدن . لذلك اعتبر مؤرخو الفلسفة أن الطريقة التي مات بها سقراط هي البرهان الأكبر والأكيد على إيمانه بخلود النفس. ولم يكن سقراط الفيلسوف الأوحد الذي آمن بذلك بل سبقه فيثاغوراس وأتباعه بالوصول إلى هذه النتيجة وقد تأثر سقراط بالفيثاغورية

حكماً كغيره من الفلاسفة. ويروي أفلاطون أن أستاذه سقراط كان يعتقد أن الفيلسوف الحق هو الذي لا يهاب الموت، وإنما يرحب به، بينما الانتحار فعل غير مشروع، وعلى الإنسان أن ينتظر حتى يقبضه الله، لأن علاقة الله بالإنسان تشبه إلى حد كبير علاقة الراعي بغنمه، فالراعي يغضب لو أن واحدة من نعاجه تحررت من خط سير القطيع.

أما موقف سقراط من الفضيلة كمفهوم مثالي وسلوكي فيتلخص بقدرة هذا الفيلسوف الحكيم على وصل العقل بالقيم المطلقة وخاصة في مجال الأخلاق. فبدت الطبيعة البشرية في نظره جسما وعقلا يسيطر على دوافع الحس ونزواته، وليست مجرد شهوات ولذات . لذلك انطلق سقراط من التعريف بمجموعة من المفاهيم مثل القيم الأخلاقية العامة كالشجاعة، العدالة، التقوى، ضبط النفس، الصداقة، وباعتقاده أن الإنسان إذا تمكن من فهم هذه المفردات بمعناها الأخلاقي يتمكن من الاقتراب من شواطئ الكمال . وتتلخص نظرية الفضيلة والأخلاق عند سقراط بالعلم، فالتقوى هي ا لعلم بما يجب على الإنسان نحو الله، والعدالة هي العلم بما يجب على الإنسان نحو نفسه، والفضيلة واحدة لا تتغير مهما اختلفت الأجيال . وأعطى سقراط مفهوما إضافيا للفضيلة فاعتبر الفضيلة هي الخير، ومعرفة الخير تتجلى في السلوك الصحيح في كل مجالات الحياة.

وخلاصة القول: إن مفهوم الفضيلة والأخلاق عند سقراط تتلخص بما قاله أفلاطون فيما بعد "إن غاية الأخلاق السقراطية هي السمو الروحي".

موقف سقراط من الدين:

اعتبر سقراط أن الدين هو تكريم الضمير النقي للعدالة الالهية، وأن كثرة الصلوات مع تلطيخ النفس بالآثام اليومية لا تجدي نفعا، وأن الله عين لكل فرد منا وظيفة في الدنيا. كما آمن سقراط بخلود الروح واعتقد بتمايز النفس عن البدن، فلا تفسد بفساده بل تخلص من سجنها بالموت وتعود إلى صفاء طبيعتها . واعتقد بأن العقل الكلي هو الذي يحكم العالم بعدالته وحزمه وأن بإم كان الإنسان أن يتصل بالله اتصالا مباشرا من دون حاجة إلى الاستعانة بواسطة أحد. وقد أدى هذا الاعتقاد عنده إلى الشكوى التي رفعت ضده بعدم إيمانه بآلهة المدينة (أثينا) وبإحلاله "الله" محلها.

نظريته السياسية:

اعتقد سقراط أن العدالة لا تتعارض مع القانون، وأن منفعة الفرد يجب ألا تتعارض مع مصلحة المجموع؛ وبهذا يكون سقراط أحد واضعي فكر العدالة والمساواة في العصور القديمة والذين لا زالت أفكارهم الأساس في عدل الدنيا رغم مرور ما يزيد على ألفين ومئتي سنة على الحقبة التي عاش فيها أليست هذه المفاهيم من صلب الديمقراطية الشعبية التي ينادي بها أكثر من مليارين من البشر اليوم؟

مقتبسات من سقراط (شهيد الكلمة والحرية) – راجع الضحى العدد التاسع والخمسون – كانون الثاني 1997.

محاكمة "سقراط":

لم يترك "سقراط" أي أثر خطي وراءه. فلم يكتب دفاعه؛ وقد عرض عليه "ليرناس"، أحد البلغاء دفاعا أعده له. فرفض الاستعانة به قائلا: "أنه دفاع جميل، لكنه لا يلائمني، كما لا يلائمني أن ارتدي ثوبا قشيبا"، وأثر الطريقة التي يتحدث فيها مع الناس.

ويرى "اكزينوفون"، أحد تلامذة "سقراط"، أن هذا الأخير قال لمعلمه: "ألا ترد أن من الواجب أن تفكر بما ستقوله دفاعا عن نفسك؟ " فأجابه: إنني لم ارتكب ظلما، وقد سلكت سبيلي العدل والتقوى . وهي لعمري أفضل طريقة يدافع بها الإنسان عن نفسه".

انتهت إلينا صيغتان عن دفاع "سقراط"، الأولى لاكزينوفون والثانية لأفلاطون، وهما تختلفان لهجة وأسلوبا وروحا، وتلتقيان مضمونا في وقائع عدة فتؤكدان حقيقة الدفاع التاريخية

في القسم الأول من "محاورة الدفاع" لأفلاطون يتحدث "سقراط" عن متهميه الماضين والحاليين : الأوائل كانوا رجالا لا يعرفهم شخصيا والذين ذهبوا، بسبب الجهل، والغيرة أو الخبث، إلى حد ترويج هذه الدعاية الكاذبة بأنه اهتم بالقضايا التي لها صلة بفلسفة الطبيعة، أو بما يجري تحت الأرض وفي السماء، وبأنه كان يعلم تمرير الخطأ على أنه الصحيح، ويؤكد "سقراط" – داحضا هذا الاتهام – أنه أولا، لا يرى شيئا

يستوجب الذم في الانكباب على مسائل فلسفة الطبيعة؛ وثانياً، أنه يستطيع إحضار شواهد كثيرة تؤكد أنه لم ينصرف إلى هذا النوع من الأبحاث؛ وثالثا، فهو يعتبر أن تربية الناس عمل مفيد، وهو لم يقبل أبدا مالا لقاء محاوراته وهو في دور العلم.

ينتقل "سقراط" بعدها إلى متهميه الجدد، ويبرهن أن تهمتهم المزدوجة : إفساد الشباب وذم الآلهة لا أساس لها من الصحة، ويؤكد أن من غير المعقول اتهامه بذلك ما دام لا يوجد دليل ملموس يؤيد أقوالهم؛ أما عنصر الاتهام الثاني فنراه يدحضه بشكل قاطع مبينا التناقض الذي يشوبه قائلاً:

"إن كنت أؤمن بوجود الجان، وإذا كان الجن آلهة ألا أكون مصيباً بقولي أنك تهزأ منا؟ تدعى أولاً أنني لا أؤمن بوجودها ثم أنني أؤمن بوجودها ما دمت اعتقد بالجن، وإذا كان الجن أولادا غير شرعيين للآلهة، فمن من الناس يعتقد بوجود أولاد آلهة دون أن يعتقد بوجود آلهة؛ وهل هناك من لا يعتقد بوجود الجياد والحمير بينما يعتقد بوجود البغال أبناء الجياد والحمير؟..".

باختصار شديد لم يكن قرار المحكمة في صالحه، وأقر "سقراط" مذنبا بأغلبية 280 صوتا ضد 221، إذ كان يحتاج لثلاثين صوتا لكي يبرأ ولم يكن "سقراط" ينتظر البراءة، ولكنه دهش من فارق الأصوات الضئيل؛ وكان القانون في الحاضرات الإغريقية يجيز للمتهم أن يقترح بنفسه القصاص الذي يراه مستحقا له، هذا الحق كان، ودون أن يشكل استغاثة اطلاقا، يسمح بتخفيف الحكم الواقع عليه، وهذه لا شك إحدى السمات الخالدة للعدالة الأثينية؛ وكان على المحكمة من ثم أن تختار بين الحكمين المقترحين (من قبل المتهم والمتهم)، غير أن الحكم الذي اقترحه سقراط لجلاده، كان في ما ادهش هؤلاء: إذا أردتم أن تعدلوا أيها الأثينيون فإني استحق أن أعامل معاملة حسنة تتلاءم ووضعي، فما الذي يلائم رجلا فاضلا فقيرا مثلي يحتاج إلى التمتع بفراغ كاف لينصرف إلى إرشادكم ودعوتكم إلى الأفضل؟ الجواب: أن يعيش على حساب – أو نفقة – الدولة، وهذا شرف مخصص لأولئك الذين امتازوا بخدمة الوطن؛ هذا الاقتراح أثار حفيظة المحكمة واعتبرته وقحا، أما "سقراط" الذي لم ير فيه أي خبث، فقد أكد : "أنا على يقين من إنني لم أسيء لأي إنسان، وأنا بعيد كل البعد أن أتمنى ذلك لنفسي، وأقر بعذابي الأبدي في أن استحق قصاصا وأعلن حكما ضد ذاتي"، ولكن مع ذلك يجب تحديد الحكم بأي ثمن، وكان مستعدا لدفع "مينا"، (مئة درخمة لدى

قدماء اليونان)، من الفضة لكونه فقيرا؛ وكما أثار حفيظة واستياء العديد من القضاة باقتراحه غير المناسب أن يعتاش على نفقة الدولة، كذلك كان اقتراحه بدفع الغرامة قد "رفض؛ وهكذا بأغلبية ثمانين صوتا أصدرت المحكمة هذه المرة حكمها بالموت على "سقراط".

مقتبسات من سقراط شهيد الفلسفة الأول –راجع الضحى العدد الثاني والستون –نيسان 1997.

نهاية رجل عظيم:

وهكذا تنتهي حياة رجل عظيم بصفحة من أشد صفحات التاريخ البشري قتامة ومن أكثرها إساءة إلى الكرامة الإنسانية وبذلك يغتال العقل في مهبط العقل وينكسف النور في بلد النورز وأن موته كان ولا يزال فداء قدمه حتى تستطيع المبادئ التي نادى بها أن تشق طريقها إلى جميع الناس، وأن تصبح المب ادئ الأساسية الخالدة التي ستسير عليها الإنسانية حتى هذا الحين . وسيظل سقراط الحكيم شيخا للفلاسفة الموحدين المؤمنين بالله الواحد الأحد، الفرد الصمد كما سيظل شهيد الكلمة والحرية والإيمان العميق بالعقيدة التوحيدية التي ناضل من أجل توسيع قاعدة مريديها والتي اسشتهد في الدفاع عنها.

وقال عنه صاحب عمدة العارفين: "وكان من روحانية فيثاغوراس يغني في ذاته الشريفة من الصفاء والنقاء والطهارة والكمال، ومما حل بها من مشاهدة الجلال . ولهذا قالت الحكمة التوحيدية : " الأول لفيثاغوراس، وأفلاطون وسقراط الملائكيين والإلهيين لحضهم الناس على إحياء النفس الناطقة وقواها. واثبات الجميل والخير إماتة النفس الشهوانية لتلحق نفوسهم بالملائكة.

مقتبسات من سقراط (شهيد الكلمة والحرية) –راجع الضحى العدد التاسع والخمسون –كانون الثاني 1997.

الجن السقراطي:

ما هو (الجن) الذي تحدث عنه "سقراط"؟ ما طبيعته؟ سبق أن أربك هذا السؤال تلاميذ الفيلسوف وأصدقائه، فضلا عن مؤلفين لاحقين أمثال "شيشرون"، "بلوتارك" و "في يليه". وآباء الكنيسة تحدثوا أيضا

عن "جن سقراط". بالنسبة للبعض، "ترتوليان" و "لاكتانس" المعادين بشراسة للوثنية، كان يعني مخلو قا شيطانيا، وللبعض الآخر "كليمندس الاسكندري" و "القديس أوغسطين"، رأوا فيه نوعا من الملاك الحارس.

يقول "سقراط" في محاولة (الدفاع): "... لقد اختبرت خبرة عجيبة مذهلة، ففي الماضي كان الصوت النبوي الذي اعتدته دائما رفيقا لي، يعارضني في الأشياء التافهة لغاية، وذلك إذا ما كنت عازما على انتهاج نهج خاطئ، وها أنكم الآن ترون أن شيئا حدث لي ونزل بي، الأمر الذي يرى فيه الناس بصورة عامة ويعتبرونه كأشد كارثة تنزل بالإنسان، ولكن ليس حين مغادرتي لمنزلي هذا الصباح... أبدى الصوت الإلهي أية معارضة لي، كان هذا الصوت في أحاديثي ومناقشاتي الأخرى يخرسني وأنا لم أزل في منتصف الجملة، لكنه هذه المرة لم يعارضني في أمر تفوهت به أو فعلته، فما سبب ذلك كما اعتقد؟ وسأجيب أعتقد بأن ما حدث لي هذا اليوم هو خير وبركة، وأننا لنخطئ فاحش الخطأ إذا افترضنا أن الموت شر، وأنا لدي من الأسباب ما هو جدير بأن يجعلني افترض هذا، لأن ذلك الصوت الذي تعودت عليه، ما كان ليتخلى عن معارضتي لو أن ما كنت أفعله لم يكن سيعود بنتيجة طيبة".

نستخلص من هذا الاستشهاد الطويل بعض الأفكار التي سنستعملها لتأكيد وجهة نظرنا، بأن (الجن) السقراطي هو (حدس ترنسندنتالي) أي مجاوز – ينتج عن حالة معرفية متطورة جداً، تصرف "سقراط في كل مرة عن كل ما هو مؤذ له أو غير مقبول".

ومن الملاحظ أيضاً، أن غياب (الصوت) هو أيضا زاخر بالمعاني: إذا لم يوقف (الصوت الإلهي) "سقراط" ولم ينهه عن قول أو فعل شيء، فإنه يدفع به نحو هذا الشيء ضمنا، أو يترك له حرية التصرف

يقوم اعتقاد سقراط بوجود (جن) على الصلة الوثيقة بين (الهاتف الداخلي أي العقل) وإله خارجي، له حضور خاص وفاعل، فـ (جن سقراط) هو إذن أكثر من أن يكون نداء عاديا للضمير، هو هذا الذي يضفي عليه خاصية وبعدا جديدين، يدفعنا لنرى فيه نوعا من التشخيص (نصف – الإلهي)، والتعبير (نصف – المجازي) لما هو (كلي) – بمعنى حقيقي وموضوعي – في عالم الإنسان الداخلي، في عقله وروحه؛ "الروح، يقينا، هي هبة، قدرة غيبية" كما يقول "سقراط" في محاورة "فيدروس".

(الجن) بالنسبة لسقراط، هو ما في نفسه من (إلهي)؛ في فكر الفيلسوف، (الإلهي في الإنسان) يصرف هذا الأخير عن كل ما هو ذاتي، استبدادي، أنوي، خداع، عابر ومبتذل، أنه يوجهه نحو البحث عن دستور أخلاقي كوني، والخضوع الواعي والإداري لهذا الدستور أمام تأييد حصر الروابط التي توحد الإنسان مع غيره على الصعيدين الفردي والاجتماعي. وارتباط الإلهي عند سقراط بالفكر وتجسده كصوت يأمر وينهي هو أكبر دليل على توحيد سقراط وإيمانه بتوحيد العقل المترفع عن الشرائع والنواميس

ما بعد موت سقراط (فلسفة التقمص والتوحيد):

إن مفهوم (الروح) عند "سقراط" يتأثر بقوة بـ (التعقلية) التي تسم أخلاقياته، كما يظهره خصوصا مقطع من محاورة (الدفاع) لأفلاطون، حيث يماثل "سقراط" "عناية الروح" باهتمام العقل في البحث عن الحقيقة.

كان "سقراط" الفيلسوف الإغريقي الأول الذي عرض بوضوح مسألة العلاقة بين (الروح) و (الجسد)؛ فقبله شغلت هذه المسألة، بشكل خاص "الفيثاغوريين" والـ "أورفيين"، إلا أن هؤلاء كانوا قد أدرجوها في دائرة الدين بدلا من الفلسفة؛ ومع "سقراط" بدأت الفلسفة تعالج علاقة الروح بالجسد، وعندما دعا "سقراط" للاهتمام بـ (الروح)، كانت الغاية التي تتبعها (الحكمة)، أي (النشاط العقلي) و (الجهد الأخلاقي)، وليست القداسة.

يبدو أن "سقراط" كان يعتبر (الروح) (والجسد) من خلال وحدتهما، وذلك بمقابلة كل منهما بالآخر، يقدرهما على أنهما جزءان من الإنسان الحي، الإنسان الكامل، إنما جزءان مختلفان جدا ويتباينان جذريا، الروح – يقول "سقراط" – "تنتشر فينا، ولكن تعصى على أبصارنا، هذه "الرئيسة" المحتجبة، تحكم، كما يحلو لها، غطاءنا الجسدي، وفيها يكمن (العقل) الذي يقود ليس جسدنا فقط، بل كل أعمالنا أيضا، لأن الفضيلة (معرفة) وهي (سلوك) أخلاقي، ليس سلوك جسد بل سلوك (روح) عاقلة".

ينتج عن برهان "سقراط"، أنه لا يمكن القبول في أن الإنسان – الذي هو جزء صغير من كل أكبر (العالم) يمتلك عقلا، في حين أن العالم، الذي خارجه، لا يشتمل أي عقل؛ لأن العالم – الكون – هو (نظام) متناغم، ومنسق بمقتضى (العقل)، وليس خواء شاملا، أو سديما خاليا من المعنى؛ كذلك اعتبر "هيراقليطس"

أن الكون بشكله البديع، سيشبه كومة من القاذورات مبعثرة ودون ترتيب، لو لم يكن محكوما بـ (لوغوس) – أي عقل أول –كلي، وسام.

و "سقراط" الفيلسوف العقلاني، لم يكن من هؤلاء الروحانيين الـ "قروسطويين"، هؤلاء اللاهوتيين الذين ينظرون إلى الإنسان – خلق الله والمعتبر من جانبهم بمثابة كائن روحاني صرف – "منفيا في هذا العالم السفلي"؛ كان يعتبر (وجود) الإنسان في (اتحاده) الوثيق مع الكون. لهذا ظن أنه بالإمكان إقامة (مماثلة بين الإنسان والكون؛ وإذن من وجود جسد وروح عند الإنسان، يستنتج أن العالم بمجمله يتكون ليس فقط من عناصر مادية، بل كذلك من (عقل)، من (روح كلي)؛ وعلى أساس من وجود العقل المحدود والناقص لدى الإنسان، بالتوازي مع (جسد) أقل محدودية منه بكثير، كان بنظره الدليل الحاسم على وجود (عقل كلي) وكامل، وجرم كوني منقطع النظير.

ويبقى السؤال: هل يؤمن "سقراط" حقا بالتقمص بالوضوح الذي يميز إيمان فيثاغوراس وأفلاطون بالتقمص؟

سؤال حير الفلاسفة والباحثين لفترة طويلة، فبعضهم يعتبر أن فكرة (الروح) عند "سقراط" هي تصور أفلاطوني يسعى إلى نقل خلود الروح من مجال الدين إلى مجال الفلسفة، والبعض الآخر يميل إلى جعله أقرب إلى (اللاإرادية) منه إلى (اليقين) الاعتقادي القاطع، أي أنه بمعنى آخر، لم يؤمن بوجود (عالم آخر) ومع ذلك فهو يتمنى وجوده.

ولكن كلا الرأيين السابقين يختزن مواقف ايديولوجية، تغيب الحقيقة التاريخية الواضحة، لصالح الاحكام التي تنافي (سيرورة) التطور التاريخي للحقيقة، وتنافي كذلك روحية البحث النزيه المجرد

فمن غير المعقول أن تكون فكرة (التقمص) مجرد إسقاط أفلاطوني على فلسفة "سقراط"، بل هي توسيع كما يبدو، لفكرة "سقراط" الأساسية في (الخلود) عبر التقمص؛ والتي طورها اليونانيون ونظموها، فجعلوا منها علما بكل ما في كلمة (علم) من معنى، فكان لكل من الفلاسفة والحكماء مدرسته الخاصة به، وهذه العقيدة آمن بها "سقراط" كما آمن بها "أفلاطون" وكذلك "أرسطو" و "أفلوطين" من بعده.

ولو تأملنا قليلا تلك النصوص السقراطية، لوجدنا أن عقيدة (التقمص) تلعب دورا محوريا في تشكيل، أو تكوين، المرجعية الفلسفية للخطاب السقراطي:

يقول "سقراط": فالميت يكون على أحد حالين : إما أن يصبح عدما ولا يكون له إحساس بأي شيء كان، وإما، وفق ما يقال، أنه يحدث تحول وهجرة للنفس من مكان إلى آخر، كما هو الحال في النوم .. فلكم سيكون الموت مكسبا مدهشا... وأني لاعتقد أنه إذا كان لأحد أن يختار بين تلك الليلة التي ينام فيها بدون أن يرى أي حلم والليالي الأخرى من حياته، وإذا كان عليه، بعد المقارنة مع هذه الليلة، أن يقول بعد الفحص كم من الأيام والليالي عاشها في حياته وكانت أمتع وأفضل من تلك الليلة، إن أي شخص.. سيجد أنه يسهل عدها بالمقارنة مع بقية الأيام والليالي . فإذا كان هذا هو الموت، فإني أقول أنه يعد كسبا، حيث أن كل الزمان لن يبدو أطول من ليلة واحدة؛ من جهة أخرى فإذا كان الموت رحلة خارجية من هذا المكان إلى مكان آخر، فأي خير أكبر من هذا يمكن أن يتصور أيها المواطنون".

ويختم "سقراط": "ولكن حانت ساعة الرحيل، أنا لأموت، وأنتم لتعيشوا، من منا يذ هب إلى المصير الأفضل؟ الأمر غير واضح أمام الجميع، باستثناء الإله" (الدفاع).

ولا شك أن فكرة (التقمص) تبدو أكثر وضوحا في محاورة (كريتو). وتحديدا في الحلم الذي شاهده قبل يومن من إعدامه:

س: ما الذي أتى بك في مثل هذه الساعة المبكرة؟

ك: أحمل الأنباء السيئة يا سقراط...

س: ما الخبر؟ هل السفينة التي يجب أن أموت عند وصولها قد وصلت من ديلوس؟

ك: لم تصل بعد، ولكني أعتقد ستصل... اليوم، وبالضرورة يا سقراط فسيكون غدا هو اليوم الذي توفى فيه حياتك.

س: يا للحظ الطيب يا كريتو... لا أظن أنها تصل اليوم.

ك: وعلام يقوم تخمينك؟ (...)

س: على حلم رأيته منذ قليل..

ك: وماذا كان هذا الحلم إذن؟

س: تهيأ لي أن امرأة جميلة حسنة الهيئة مرتدية ملابس بيضاء تناديني وتقول : يا سقراط ثلاثة أيام، واليثيا الخصبة تأتي".

ويمكن القول، أن الحلم السقراطي يعكس بوضوح كبير فكرة (التقمص) في أصفى معانيها، فـ (غائية) الحلم ترتبط بشدة بمصير "سقراط" بعد موته، وهو يشكل (حدسا) لما سيصبح عليه فيما بعد، فالـ "أحلام هي (اللغة) التي يتكلم بها صوت الوعي " (فيدون). ومن الملاحظ أن الحلم يشير إلى منطقة محددة – اليثيا – هي اسم قديم لإقليم "تساليا" في اليونان القديمة، لكنه لا يشير مطلقا إلى (العالم الآخر)، بل إلى (انتقال) مكاني للروح من منطقة إلى أخرى فكيف يحدث ذلك يا ترى إن لم يكن بـ (التقمص)؟

ولا يفوتني في هذا الصدد إلا أن أتذكر ذلك الحلم التنبؤي لشاب موحد، قبل وفاته ينسجم تماما مع الحلم السقراطي.

هذه الظاهرة حدثت قبيل معارك لبنان، في الصباح دخل الدركي (ن.ح.) إلى غرفة رئيسه ليعيد له ما رآه في الحلم الليلة الفائتة، قال: نحن الموحدون الدروز نؤمن بالتقمص، وفي هذا الليل تصور لي انتقالي إلى بلدة (ع.د) وأنا الآن في خوف وقلق، ألتمس الترخيص لوداع أهلي. رأف به الضابط على أن يعود في اليوم التالي، على الفور صعد الدركي إلى بلدته (ع.ز) وكانت سهرة عامرة بالأهل؛ قبل الرقاد روى الحلم إلى أبيه مفصلا أنه سيتقمص في (ع.د) وأن المنزل يقابله شجرة ضخمة معلق في أحد غصونها سلة صغيرة تحوي حاجة الوليد الجديد وبعض حبات حمص؛ مع أول الصباح كان الوالد الكهل أمام التينة في (ع.د.) يرقب أحد المارة ليستوضح عن المنزل، وإذا بامرأة شابة حبلى متعبة تفتح باب بيتها، فدنا منها سائلا : هل تسمحين بفحص محتوى السلة؟ سمحت له وتفحصها وغص في البكاء وتلاشى؛ تعجبت الحبلى للوضع ودنت منه تسأل، فاختصر حديثه وانكفأ محطما.

وصل إلى منزله فوجد ولده في غيبوبة الاحتضار، وانتهى مع المساء؛ أقيم المأتم في اليوم التالي، وتألبت الجماهير المعزية ناقلة هذه الظاهرة إلى القرى المجاورة، والناس هناك معتادون على سماع أقاصيص كهذه، كما هو مؤمنون بصحتها . أما ما يفترق منها عن سواه، فهم عنه ساهون، لا ميالون، همهم أن (التقمص) حقيقة كونية)، (والتذكر) دال عليه.

وبالرجوع إلى "سقراط" فإن محاورة (فيدون) تقدم الدليل الحاسم على حقيقة (التقمص) كقانون، وتدعمها باليقين المنطقي والمحاججة الفلسفية العقلانية:

سيبيس: والآن جاء دورك لتطلعني عما يتعلق بالحياة والموت.

سقراط: ألا تسلم بأن الموت هو نقيض الحياة؟

سيبيس: نعم، أسلم بذلك.

سق: ألا تسلم بأن الواحد منهما ينشأ عن الآخر؟

سيب: نعم.

سق: إذن فما الذي ينشأ عن أن تحيا؟

سيب: أن أموت.

سق: وما الذي ينشأ عن موتك؟

سيب: يجب أن أسلم بأنه ينشأ أن أحيا.

سق: إذن فما الذي ينبغي عمله؟ هل أن نحذف العملية المتممة وأن نترك هنا نقصا في قانون الطبيعة؟ أم أن نسد تلك الثغرة بالعملية المناقضة لعملية الموت؟

سيب: طبعا.

سق" وما هذه العملية؟

سيب: العودة إلى الحياة (...)

سق: إذن فنحن متفقان على هذا الأمر كذلك، إن الأحياء قد نشأوا لا يقل عن نشوء الموتى عن الأحياء..".

هذا النص لا يحتاج لشرح أو تعليق.

"سقراط" فيلسوف بعبقريته الفذة عمل على (إعادة بناء) العقل على قواعد علمية منهجية لا يمكن دحضها، وأيضاً إعادة ربطه للعالم الآخر – الذي لا نعرف عنه شيئا – بالعالم الأرضي، عبر نظرية (التقمص)، التي تنتهي إلى نتيجة جوهرية مصيرية لا يستبعد أن تكون أساسا لهذا الوجود ودستوره الطبيعي

مقتبسات من هكذا فهم سقراط فلسفة التقمص والتوحيد – راجع الضحى العدد الثالث والستون – أيار 1997.

أفلاطون:

(أفلاطون 427 ق.م. – 347 ق.م.) رائد الفلاسفة اليونان بل هو الفلسفة اليونانية كلها إذ تلتقي فيه عناصرها الأساسية، والثانوية التي سبقت ولحق ت فاحتوت وشملت كل العلوم والمعارف في الكثائف واللطائف. ونحن نجد في فلسفته كل ما يمكن أن تشتاق النفس البشرية إلى معرفته من المعارف الدينية والعقلية والإلهية والعلمية والرياضية والشعرية والفنية وما يعتقدونه قصصا وحكايات أسطورية، إلى الجدل والمناقشة وعلم النفس والمنطق وكل علم يمكن أن تحتاج إليه وتتذكره وتعقله النفس البشرية الطامحة للعلم والمعرفة. وقد عاش هذا الفيلسوف ومحاوراته الخالدة التي بلغت حوالي ستا وثلاثين أودع فيها كل فنون المعرفة والعلم، عاش حوالي ثمانين سنة وتأثر كثيرا بسلفه الفيلسوف سقراط الذي عاصره حوالي ربع قرن في مطلع شبابه حيث شغف بعمله وفلسفته وترك كل ما يهوى ويرغب الشباب في هذه السن المبكرة وتبع الفيلسوف الشيخ الذي استولى على جميع مشاعره

ولد أفلاطون بأثينا وعاش فيها معظم حياته التي انقضت مراحلها الأولى في تلك الحقبة المضطربة من تاريخ اليونان حيث كانت تحفل بالأزمات والصراعات الإقليمية والمحلية والحروب التي أدت في سنة 404 ق.م. إلى انكسار أثينا وتحطم أسطولها العظيم وسقوط حكومة عم أفلاطون "أقريطياس" رئيس ما كان يطلق عليهم حكومة الطغاة واستلم الحكم الديمقراطيون الذين أصغوا إلى أعداء سقراط وحا كموه وأعدموه فصدم أفلاطون لقتل أحب الخلق لديه صدمة عنيفة وكان في السابعة والعشرين من عمره فشهد دفاع سقراط وسجنه وإعدامه.

ألف روائع فلسفته الخالدة في الحق والباطل والعفة والشجاعة والكثائف واللطائف . وقد كانت له نظرية مخصوصة في الفلسفة حيث أنها، أي الفلسفة الحقيقية، لا تدون وإنما تنبثق انبثاقاً من النفس، ومن هنا اعتبرها أفلاطون تجربة نفسية، أي إنها حالة نفسية لا يمكن أن يجري التعبير عنها بالألفاظ ولا الأمثلة تستطيع أن تفصح عنها إذ إن الألفاظ والأمثلة وغير ذلك من وسائل التعبير إنما هي وسائل قاصرة وهي تحتمل الخطأ أكثر مما تحتمل الصواب.

أما السبيل الأقرب إلى بلوغ الفلسفة فهو الحوار الخصب الذي يقوم بين المرشد والمريد أو من خلال المناجاة التي تحصل بين النفوس الفذة والنقية التي تنسجم مع بعضها البعض بروابط الإلفة والمحبة . وفي هذه الحال فإن العقل يقدح شررا يؤدي إلى الكشف على الحقيقة.

وقد جمع أفلاطون في تفكيره بين الوجدان والمنطق في وحدة لا تنفصم . بمعنى آخر فإن الاعتماد على الحدس والبصيرة هو الوسيلة المثلى لبلوغ الفلسفة؛ بمثابة شرارات متتابعة تنير درب الحق

وقد أعطى أفلاطون للفلسفة وظيفة مرموقة تنحصر في التبصر بالخير والحق والجمال والتأمل بهذه القيم وتوظيفها في سبيل حياة فضلى . وإذا كان من مهمة دقيقة للاشتغال بالفلسفة فهي إنها تصقل النفس وتهذبها وتصفيها وتنأى بها عن الهموم المادية والمشاغل الحسية، وتسعى إلى تدريبها على المجاهدة وتطويعها بالعلم والمعرفة والتفكير والتأمل والتبصر، وكل ذلك من أجل أن تتفجر أمامها الحكمة حيث السعادة الحقيقية.

وعلى هذا الأساس فإن الفلسفة تفضي إلى التشبه بالله عز وجل وذلك بقدر ما تسمح طاقة الإنسان العقلية والنفسية. وأن المرء عندما يبلغ هذه الحالة المرموقة (يصبح قدسيا وعادلا وحكيما) كما يقول أفلاطون في الجمهورية، وأنه لا يصبح الإنسان فيلسوفا إلا إذا انبثقت الأفكار في نفسه وكانت م عبرة عنه هو، لا أن تكون صدى لأفكار الآخرين.

هذا هو معنى الفلسفة على رأي أفلاطون، وليست الفلسفة أن يتلقى المرء الحكمة من أفواه الآخرين أو من بطون الكتب حيث يرددها بشكل حروف وأفكار ميتة لا حياة فيها . فالفلسفة، كما يرى أفلاطون، تحيا بأصحابها وتموت عندما تنفصل عنهم.

أما أولى المزايا التي يجب أن يتمتع بها الفيلسوف فهي أن يكون محبا للحكمة التي تفضي إلى الحقيقة وأن يكون لديه رغبة غير محدودة في التعرف على سائر الأشياء والموجودات . أن يبغض الكذب، ويميل إلى الصدق ويحتقر اللذات الجسدية المحسوسة، وأن يكو ن قانعا لا يكثرث بمال أو جاه، محتقراً للعجرفة والكبرياء لا يخشى الموت لأنه مصير كل البشر والكائنات الحية، وأن يكون عادلا محبا للجمال، وصاحب ذاكرة قوية وفطرة موسيقية متناسقة. "ومن لم تتوفر فيه هذه الصفات فلا سبيل إلى بلوغه الفلسفة". ويقول الدكتور عبد الرحمن مرحبا في كتابه (مع الفلسفة اليونانية) أن أفلاطون جعل من الفيلسوف كائنا فذا ذا مدارك سامية، وفكر حر، وحدس قوي، وطباع دمثة وخاطرة سريعة.

مقتبسات من أفلاطون (أبو الفلسفة اليونانية) –راجع الضحى العدد السابع والثلاثون – آذار 1995.

إن طرح أفكار أفلاطون وسيرته الذاتية مفيد من النواحي الحضارية والوجودية كما كانت سابقاً قبل ما يزيد على ألفي سنة من الآن.

وكان أفلاطون الحكيم ينتمي إلى أسرة عريقة . ويعود تاريخ ميلاده إلى سنة 381 ق.م. تقريباً. وهذا ما أجمعت عليه كتب الفلسفة وبرع الشاب في جميع نو احي الحياة تقريبا فنبغ في الموسيقى والرياضيات والبلاغة والشعر . كان حسن المظهر جميل الخلقة حتى افتتن به الرجال قبل النساء وكان بارعا بألعاب

الرياضة مشهورا بقوته وقوى بنيته الجسدية، وحارب في عدة معارك ونال عدة جوائز في الشجاعة . "وعندما كان في سن العشرين تعرف على الفيلسوف الكبير "سقراط"، وتعمق بدراسة فكر وتعاليم وأنظمة "فيثاغوراس". وبعد ذلك انشأ أفلاطون سنة (386ق.م.) "الأكاديمية" التي ظلت مركزا وعاصمة للعلم والفلسفة طيلة (900) سنة. وكان شعاره على مدخل الأكاديمية "لن يدخل هذا المكان إنسان بلا هندسة".

علومه:

ابدع في الفلسفة والمنطق والرياضة والأدب والموسيقى ولا زالت مؤلفاته المترجمة إلى كافة لغات الأرض تدرس في أرقى الجامعات العالمية.

نظرته إلى الكون:

تتلخص نظرية "أفلاطون" إلى الحياة والكون من خلال كتابه "الجمهورية" وهي التي تخلو من الشوائب الخلقية والفوارق الطبقية بين أبناء الجمهورية . وربما المقصود بالجمهورية التي طرحها أفلاطون المجتمع المثالي الذي قد لا يتحقق في الحياة الدنيا المليئة بشرور الماديات ونزعات الإنسان للثروة والريح والاستغلال والشهوات الجسمانية الفانية وليس طرح السياسي كما فسره معظم الفلاسفة في العصور اللاحقة.

وهذا المفهوم لـ "الجمهورية" عبر عنه الفيلسوف الأكبر في إطار منظومة الأفكار العلمية المجردة التي آمن بها ودافع عنها طيلة حياته.

"فالله – باعتقاده – روح العالم، يحرك كل شيء وينظمه حسب القوانين والأشكال الأزلية وهي الأفكار التي لا تتبدل والتي تكون الكلمة أو الحكمة أو "المثال أو الصورة" الإلهية أو "عقل" الله وأرقى الصور أو الأفكار هو الخير، ويستطرد أفلاطون أحيانا بقوله: "إن الخير أحيانا هو الله نفسه". وبوجه عام يرى فيلسوفنا العظيم "أن الله هو أداة الخلق الهادية المرشدة والشكل الأعلى الذي تنجذب إليه كل الأشياء ". إن إدراك هذا الخير ورؤية هذه الصورة أو المثال الأعلى الذي يشكل عملية الخلق هما أسمى غاية تبتغيها المعرفة ويعتقد أن المادة ليست حقيقة أساسية بل هي مجرد مبدأ من القصور الذاتي، وتتحدد قيمتها، أي المادة، بمدى ما يعطيها الله (سبحانه) شكلا وروحا وكيانا مطابقا لفكرة من الأفكار . والروح هي القوى المتحركة بنفسها

الموجودة في الإنسان والروح قوة حيوية خالصة، مجردة من الجسم، وخالدة . وقد وجدت قبل الجسم، مجردة من الجسم، وجاءت معها، من حلولها في أجسام سابقة، بذكريات كثيرة إذ أيقظتها الحياة الجديدة . وإذا مات الإنسان تنتقل روحه التي فيه إلى جسد آخر حيث تذهب الروح الفاضلة في نهاية المطاف إلى جزائر المباركين في الجنة كما تذهب الروح الشريرة إلى أودية الجحيم وبئس المصير.

أفلاطون والمساواة:

"يجب ألا تكون الطبقات وراثية، وأن يكون للبنات من فرص مثلما للأولاد، وألا تمنع النساء من تولي مناصب الدولة لأنهن نساء. ويعتقد أن على مساواة المرأة بالرجل في الحقوق والواجبات، يتركب مجتمع يسر الفيلسوف أن يعيش فيه".

وخلاصة القول أن عرض ومناقشة أفكار فيلسوفنا العظيم تحتاج إلى أكبر وأوسع من هذه العجالة . وإذا نظرنا بالتفاصيل التي يعرضها أفلاطون للدفاع عن مدينته الفاضلة وفكره التوحيدي يجوز لنا القول عندئذ إن أفلاطون كان مسيحيا مؤمنا قبل السيد المسيح (عليه السلام)، وكان مسلما حنيفا قبل نزول الرسل وظهور النبي محمد (ص).

مقتبسات من الفكر التوحيدي عند اليونان –راجع الضحى العدد الثامن والخمسون – كانون الأول 1996.

ثنائية النفس والجسد عند أفلاطون :

الإنسان عند أفلاطون مؤلف من جوهرين النفس والجسد . وقد أخذ أفلاطون فكرة وجود ا لنفس قبل الجسد من تعاليم فيثاغوراس . الإنسان يحلم في النوم واليقظة، ويعيش في الحقيقة لا في الحلم، فمن يعرف وجود الجمال المطلق، ومن يمكنه أن يرى جمال الحقيقة هذا والأشياء الأخرى معا، التي تشاركه فيه، لا يخلط حينها الجميل بالذات أو الجمال بالذات مع هذه الأشيا ء. هذه الثنائية تعطي الحقيقة لموضوعات المعرفة، وملكة المعرفة للعقل، إنه مثال الخير الذي يتميز عن العلم والحقيقة ويفوقهما جمالا.. برأي أفلاطون هناك عالمان: عالم مرئي وعالم معقول، العالم الحسي هو عالم التغير، بينما العالم العقلي هو عالم الثبات .

إن العالم الحسي هو موضوع (الظن والرأي) بينما موضوع الإدراك والمعرفة الثانية هو (الحقيقة الأزلية). المعرفة الحق عند أفلاطون هي التي ندركها بالعقل لا بالإحساس والتجربة، لأن العقل هو الذي يوصل الإنسان إلى الحقيقة، أما التجربة فهي لا تثبته على هدف معين لأنها كثيرة التبدل و التغير.. يتمتع أفلاطون بمقدرة حدسية كبيرة، مع خيال غزير خصب ودقة ملاحظة مميزة . إن النفس تطلب المعرفة بينما الجسد تحكمه الحاجات والغرائز . لذلك يقول أفلاطون إن جمال الأنفس أسمى من جمال الأجساد بحيث أنه كلما صادف المرء نفساً شريفة مودعة في جسد قبيح تعلق بحبها وبمودتها. لذا، فإن السلوك الإنساني يجري في منابع ثلاثة رئيسية هي الرغبة، العاطفة والمعرفة . إن الرغبة والشهوة والباعث أمر واحد، كذلك العاطفة والروح والطموح والشجاعة أمر واحد أيضاً، كما أن المعرفة والفكر والذكاء والعقل أمر واحد، الفكر هو حوار النفس بينها وبين ذاتها. كل إنسان يجب أن يحصل على ما يساوي إنتاجه، وأن يؤدي العمل الذي يتناسب مع طبيعته ومقدرته.

فالإنسان العادل هو الإنسان الذي وضع نصب عينيه الحق. في الأخلاق لا نحتاج إلى بدع مفزعة، إن علم الأخلاق يبدأ مع الاجتماع والتنظيم . فالأخلاق هي في التعاطف مع الفقراء. ويعتقد أفلاطون أن الشعب لا يمكن أن يكون قوياً إن لم يكن مؤمنا بالله، وهو إله حي يستطيع أن يحرك الخوف في القلوب التي استولت عليها الأنانية الفردية ويحملها على الاعتدال في مسلكها والسيطرة على عواطفها . وإذا أضيف إلى جانب الإيمان بالله الإيمان بوجود حياة أبدية في الآخرة، فإن ذلك يمدنا بالشجاعة في مواجهة الموت.

وبما أن النفس عند تلميذ أفلاطون "أرسطو" هي صورة الجسد، لا بد من علاقة وثيقة بين النفس والجسد.

كذلك الإحساس هو فعل للنفس يتم بمشاركة أعضاء الحس. لا شك أن الإنسان ذو حياة نباتية وحياة حاسة، فالطبيعة تفرض عليه أن يحيا حياة عقلية توصله إلى الخير والسعادة . ولكن كيف يستطيع الإنسان أن يصل إليها؟ إن وصول الإنسان إلى السعادة رهن بسلوكه المتفق بطبيعته مع شروط الحياة الخاصة، لأنه ذو نفس ناطقة تفكر في الوجود وتعقل ذاتها . من العدل أن نعترف أن الحقيقة المطلقة عسيرة المنال، ولا يمكن نيلها إلا بتضافر الجهود.

أخلاق الإنسان ليست بنت المصادفة، إنما هي نتاج قوانين ثابتة تصلح وتفسد، ترقى وتنحط.. فإذا عرفنا تلك القوانين استطعنا إصلاح ما فسد من أخلاق شخص بقدر ما يسمح استعداده وطبيعته . فالوراثة مثلاً قانون ثابت، ولكن مدى تأثيره غير محدد وعلى الرغم من ذلك نسترشد به لمعرفة ما نجهله.

إن المعرفة عند أفلاطون تتعلق بـ "الوجود" بينما الجهل بـ "اللاوجود". وموضوع الوجود هو العلم، والعلم هو معرفة ماهية الوجود، بينما موضوع المظاهر هو الرأي والرأي هو أدنى من المعرفة وأعلى من الجهل. إن المعرفة ملكة النفس الخالدة التي كانت قد أبصرت الجمال المتألق قبل أن تحل في الجسد. عندما تسكن النفس الجسد البشري تنسى معرفتها تلك. لأن الجسد يعيق المعرفة الحقيقية وهو مصدر ارتباك النفس ويجرها إلى عالم التغير والنسيان. عندها تدخل الروح عالم البقاء والأبدية والخلود والثبات تسمى هذه الحالة التي تكون فيها الروح بالحكمة. إن المثل العقلية المجردة عن الجسد هي الوجود الحقيقي. اللذة والخير شيء واحد، واللذة تنشد الخير، والعمل الذي يعود علينا باللذة هو عمل الخير بينما الأعمال التي تسبب آلاما هي أعمال شريرة. فالعيش بدون لذة هو الموت بعينه. والإنسان لا يمكن أن يكون سعيداً وشقياً في وقت واحد . إن اللذة ليست السعادة والألم ليس الشقاء. خلال الفرد في حكم العقل لا في حكم الذا ت. فكل من سار على هدي الفلاسفة وتعلق بآرائهم بهذا الأمر فقط يبلغ شاطئ الحقيقة والأمان . فالفلاسفة أصدقاء الحقيقة، وهم خشبة خلاص الدول والأفراد.

مقتبسات من ماهية المعرفة عند أفلاطون وأرسطو –راجع الضحى العدد الواحد والسبعون كانون الثاني 1998.

الروح ومطلقية الخير والشر:

وصف أفلاطون في محاورة "فيدروس" الروح وصفاً رائعا، مقارنا الروح الخيرة والروح الشريرة بحصانين مجنحين أحدهما سهل القياد، جميل الشكل، قبيح الخلق، ثم حدد كيفية وجودهما . وأضاف أن الروح الشريرة يمكنها أن تغير ما هي عليه بأن تنهل من معين العلم الحقيقي وتحيا بالفضيلة.

لكن في الكتاب العاشر أيضاً من محاورة القوانين، عرف أفلاطون الروح بقوله، أنها من بين الحركات العشر هي الحركة الوحيدة التي تحرك نفسها وتحرك غيرها، وهي الحاكمة للجسد والمحركة له والمدبرة والمتممة لأفعاله. ووصف الروح الخيرة العاقلة بأنها هي الروح التي تنظم السماوات والعالم، أما الروح الشريرة فهي سبب كل مصائب هذا العالم ومآسيه، ولها العقاب قصاصا وجهنم مستقرا وبئس المصير.

أفلاطون والتقمص:

قال أفلاطون الحكيم في الكتاب العاشر من محاورة الجمهورية الشهيرة ما نصه:

"إن الإنسان روح وجسد، والجسد ذاك المركب يمكن تحليله وتدميره كما تفسد كل المركبات بعوامل عدة، والمرض يستطيع أن يحلل الجسد المركب هذا . أما الروح ذلك الجوهر البسيط الأزلي فهي خالدة، ولا أحد يتمكن من تدميرها، لا الشر ولا عوامل الكون والفساد، بل هي باقية إلى الأبد و خالدة. وبما أن الأرواح خالدة، فالاستنتاج الحقيقي أنها هي نفسها على الدوام، لأنه إذا لم يدمر أحدها فإنها لا تنقص في العدد كلا ولن تزيد، لأن ازدياد الطبائع الخالدة يجب أن يأتي من شيء فان، وهكذا فإن كل شيء سينتهي في الخلود وهذا محال".

وأورد أفلاطون الحكيم في محاورة اسمها "مينو"، نظرية التذكر بعد الوفاة، أي أن الإنسان يتذكر ما فعله وما علمه وما تعلمه في حيواته السابقة سواء كان لذلك خيراً أو شرا . وقال أفلاطون أن كل العلوم وكل التحقيقات وكل التساؤلات لا تكون سوى تذكر . غير أن أفلاطون الحكيم في محاورة "فيدون"، أعطى شرحا وافيا لما يتعارف عليه بالحياة والموت، وكان المتحاورون الرئيسيون فيها سقراط الحكيم و "سيمياس" و "سيبياس" الفيلسوفان. أورد أفلاطون في هذه المحاورات ذات الأدب الكلاسيكي العالمي الإثبات وهو أن لكل شيء ضدا في الحياة؛ فالحرارة ضدها البرودة، والرطوبة البيوسة، والنهار الليل، واليقظة النوم، وهكذا فنحن نقدر على أن نذكر عشرات الآلاف من المضادات المشابهة. فكما الحرارة تتولد من البرودة والعكس بالعكس، كذلك يكون بالنسبة لكل المضادات، فهي تتولى من بعضها بعضا. وكما أن اليقظة تتولد من النوم فإن النوم يتولد من اليقظة، ولا يمكن لأي إنسان أن يبقى مستيقظاً ولا ينام، أو أن ينام ولا يستيقظ وبما أنه توجد حياة ويوجد موت، فنحن لا نستطيع أن نفترض إننا نحيا ونموت ولا نحيا من جديد، نكون حينها كمن يفترض أن

الطبيعة عرجاء وتسير على رجل واحدة، وكمن يفترض أن الكون يسير طبقا لخط مستقيم يبدأ به وليس ينتهي، وأن لا عودة للعناصر إلى بعضها.

لكننا نرى بالعقل والبصيرة أن كل شيء في الوجود يتبع ويسير وفقاً لنظام الدائرة، حيث يبدأ من نقطة ومن ثم يعود إلى النقطة التي بدأ منها كي يستمر جديداً متجدداً، هكذا يكون نظام الطبيعة وهكذا هو مسارها، فالنجوم اللامعات الباقيات أبداً والشمس والقمر والنظام الشمسي وكواكبه، كل في فلك يسبح أي كل له مداره ومساره بإرادة العزيز الحكيم. أنه نظام كامل متكامل له مدبره.

الحق يقال أن أفلاطون الحكيم كان له بالغ التأثير على بلورة وصياغة أكثر الأفكار العالمية، فتأثرت بأفكاره الديانات الرئيسية الثلاث اليهودية، المسيحية، والإسلام . كذلك أخذ عنه كبار المفكرين والفلاسفة والصوفيين في الشرق والغرب، أخذوا عنه تعاليمه وكتبوا ما كتبوا . وأفلاطون الحكيم تلقى تعاليمه من معلمه "فيثاغوراس" الذي وضع أسس أفكار عقيدة التقمص، والتذكر بعد الوفاة، ووحدة الوجود، والموسيقى، والهندسة، والعدد، والعلوم، وما شاكل ذلك . ثم أتى بعده تلميذه أرسطو المعلم الأول، الذي ألف اثني عشر مجلداً، باحثا في كل علم وفن، وله كتاب قيم عن الروح، ولقد أكد خلودها بانتقالها من جسد إنساني إلى جسد إنساني آخر، شأنه في ذلك شأن كل الفلاسفة الحكماء.

مقتبسات من التقمص (هذا السر العظيم) – راجع الضحى العدد التاسع والثلاثون (أيار 1995).

أرسطو طاليس:

من هو؟ مولده وحياته:

ولد أرسطو في "اسطاغيرا" في آسيا الصغرى وهي مدينة قديمة كانت تابعة لبلاد اليونان . تقع هذه المدينة على بحر إيجة اليوم. وكان والده "نقوماخوس" على صلة بالملك "أمنتاس الثاني المقدوني" حيث كان يشغل وظيفة طبيب البلاط الملكي

و "أمنتاس" هو والد "فيليب المقدوني" وجد الاسكندر الأكبر . وكان من عادة اليونانيين أن يدرب الطفل على صناعة أبيه. لذلك تلقى الطفل أرسطو العلم على يد أبيه أولا قبل أن يتلمذ على يد أفلاطون . وتروي بعض المصادر أن أرسطو هو الفيلسوف الوحيد الذي ظل ملازما أفلاطون أثناء إلقائه محاضراته عن الروح في سنة 343ق.م. دعاه فيليب كي يؤذب ابنه الإسكندر، واستمرت فترة التعليم أربع سنوات وافتتح في أثينا بعد عودته إليها سنة 334ق.م. المدرسة لتعليم البلاغة والفلسفة، وكان يلقي المحاضرات على تلاميذه وهم يمشون. لذلك لقب اتباعه "بالمشائين".

تدعي مصادر الفلسفة أن أفلاطون وأرسطو يجمعان نهجين متعارضين في الفلسفة . نهج التصوف والنهج الطبيعي مما يتناقض مع التعاليم التوحيدية، فشخصية أرسطو تتأرجح بين نهجين : النهج الطبيعي – العلمي الذي اقتبسه عن والده الطبيب، والنهج الصوفي الروحاني الذي اكتسبه من معلمه أفلاطون . ففيزياء أرسطو تختلف عن علوم الفيزياء الحديثة بحيث أنها تركز على الزمان والمكان والحركة كظواهر تكمن أهميتها كوسيلة للمعرفة وليس كغاية يتوقف عندها الإنسان ويطورها لأسباب مادية . فعلى سبيل المثال، ما ابتدأ بنظرية للحركة عند أرسطو أدى إلى نظرية"المحرك الذي لا يتحرك" (أي العلة الأولى أو الخالق).

أعماله ومؤلفاته:

انقسمت محاضراته إلى قسمين:

- دروس عامة إلى الطلبة المبتدئين.
- دروس في الشعر والبلاغة والسياسة والأخلاق إلى الطلبة المتقدمين.

كان يكلف تلاميذه جمع المعلومات عن الطبيعة وعلومها والفلسفة وأبعادها ودساتير المدن اليونانية وممالكها. وكتب أرسطو العديد من المحاورات لأنصاف المتعلمين لا زالت تعتبر بموازاة محاولات أفلاطون الحكيم.

بلغت مؤلفاته المتبقية لديه قرابة أربعين كتابا وما يزيد على ثلاثمائة وستين بحثا في مختلف شؤون الفكر. إن أفكاره بوجه عام يمكن وصفها بـ " الحكمة المتحفظة الخليقة بصديق الملوك الذي يعيش من رفدهم".

ويمكن تقسيم ما بقي من رسائله إلى:

1- رسائل في المنطق: مقولات، شروح، تحليلات سابقة، تحليلات لاحقة، موضوعات واستدلالات.

2- علوم: طبيعة ميكانيكا – هيئة – علوم فلكية.

3- علوم أحياء: تاريخ الحيوان –حركاته – تناسله...

4- علوم النفس: الروح وماهيتها –طبيعة العالم.

5- ما وراء الطبيعة.

6- علم الجمال: البلاغة والشعر.

7- علم الأخلاق.

8- علم السياسة.

أرسطو كعالم طبيعي:

لم يشتهر أرسطو كعالم طبيعة بقدر ما اشتهر كفيلسوف.

إن رسالته في المنطق ومنهجه الاستدلالي غاية في الدقة والتماسك مما جعل هذه الرسالة دليلا للمناطقة على امتداد ما يقارب ألفي عام . ومما تمتاز به طريقته المنظمة انه قسم المظاهر الرئيسة التي يمكن دراسة أي شيء بمقتضاها إلى عشرة أقسام : المادة، والكم، والكيف، والعلاقة، والمكان، والزمان، والموضع، والملك، والفاعلية، والانفعالية.

ويعتقد أرسطو أن الحواس هي آلة المعرفة، وأن القوانين العامة تكونت من مشاهدات للأشياء المتماثلة، فهي مدركات وليست أشياء.

ويقدم أرسطو أطروحته الشهيرة القائمة على مبدأ تناقض الأشياء حيث اعتمد هذا المبدأ كأساس لعلم المنطق. ويعتبر 'أن الصفة لا يمكن أن تكون من صفات الشيء الواحد ومن صفاته في العلاقة الواحدة'.

وأرسطو في كتابه "الطبيعة" لا يسعى ورا ء اكتشافات جديدة بل يهتم بوضع التعاريف الواضحة للمصطلحات المستعملة في هذا العلم كالمادة، والحركة، والمكان، والزمان، والاستمرار، واللانهائي، والتغير، والنهاية، فالحركة والمكان عنده مستمران والشيء اللانهائي موجود بالقوة لا بالفعل . وهو يحس ما برهنه "نيوتن" فيما بعد بعدة قرون حول نظام وقانون الجاذبية.

ويثبت أرسطو قانون الروافع بقوله: كلما كان الثقل المحرك بعيدا عن نقطة الارتكاز كان اقدر على تحريك الجسم (قانون فيزيائي). ويعتقد أن الأجرام السماوية كلها كرات – ويؤكد ذلك بالنسبة للأرض – لأنه لا يستطاع تفسير شكل القمر إذا خسف بسبب اعتراض الأرض بينه وبين الشمس إلا إذا كانت الأرض كروية. وتعتبر رسالته في الظواهر الجوية عظيمة الخطورة من الناحية التاريخية لأنها لا تستند إلى القوى الخارقة للطبيعة، بل يحاول أرسطو أن يرجع ما في الجو من تقلبات تبدو له غير منطبقة على ق وانين الطبيعة إلى أسباب طبيعية تعمل متعاقبة وفقا لنظام محدد ولم يكن مدتها ابتكارات العصر الحديث بآلات دقيقة في الرصد والقياس.

علم الأحياء:

أما بحوثه في علم الأحياء فتشمل أعضاء الهضم، والخراج، والحس، والحركة والتكاثر والدفاع ... ومن أبرز قوانينه للحفاظ على الجنس البشري قوله : "إن حياة الإنسان تدور حول بؤرتين : الأكل والتولد. فللأنثى عضو يجب أن يعد مثابة مبيض أنه يحتوي على ما يكون في بادئ الأمر بيضة غير متميزة. ثم تتميز بعدئذ فتصبح بويضات كثيرة. والعنصر الأنثوي يزود مادة الجنين بالطعام، أما عنصر الذكورة فيزوده بالجهد والحركة، الأنثى هي العنصر المنفعل، أما الذكر فهو العنصر النشيط الفعال".

بعد هذه المقدمة عن أرسطو، والتي تعطينا فكرة ع امة عن عقله ومؤلفاته، يعنينا بالدرجة الأولى كعنوان الفكر التوحيدي وعلم الإلهيات.

الإلهيات عند أرسطو:

لقد كان أرسطو متحفظاً إزاء هذه المسائل المعقدة رغم إيمانه أن "الموجودات غير الحادثة وغير الفاسدة هي موجودات سامية وإلهية، لذلك يقول "أن موضوع فحصنا لهذا العلم هو الجوهر، لأن المبادئ والعلل التي نبحث عنها هي مبادئ الجوهر وعلله".

وينتقل أرسطو بعد ذلك إلى تعداد أنواع الجواهر فيقول: "يوجد ثلاثة أنواع من الجواهر: اثنان منها طبيعيان متحركان يدرسهما العلم الطبيعي، والثالث أزلي غير متحرك واجب الوجود لذاته، وهذا هو العلم الإلهي. نستنتج من ذلك أن الفيلسوف وضع جوهرا محركا ثابتا للعالم في قمة الوجود . واعتبر أن هذا المحرك أزلي ثابت وبذلك برهن أرسطو وجود الله عن طريق برهانه لوحدة الكون الأزلية وسلامة تنظيمه . ويعتقد أن الله موجود لأنه المطلق الذي يقابل "بالنسبة" التي نعاني منها في التجربة الإنسانية. وهو يتفق مع أفلاطون أن الله "جوهر" غير مادي –وغير جسماني تنجذب إليه الموجودات في الكون ولا ينجذب إليها

والله هو الجوهر الاسمى لأنه لا يحتاج إلى سند خارجه لكي يتحقق به وجود بينما الأشياء المادية لا يتحقق وجودها إلا بوجود المادة المكونة لها في الخارج والأمثلة كثيرة على ذلك منها وجود الإنسان وتكونه (عند الزواج)، وكذلك التمثال لا يوجد دون الرخام.

ومن هنا نستطيع القول أن مفهوم "الله" عند أرسطو يتمحور حول "صورة خالصة مع أنه موجود مفرد بذاته". والله فعل محض وصورة خالصة وقائم بذاته وحاصل على وجود حقيقي إيجابي، ولهذا فإن فرديته تمتاز من فردية الموجودات الأخرى من حيث إنها ترجع إلى عدم افتقاره إلى الغير في وجوده، فهو موجود مفارق يكفي ذاته بذاته".

الموجود الأسمى:

والإلهية عنده حسبما ورد في المصادر المع لومة أن الله هو الموجود الأسمى، وأنه لا يوجد معقول لديه أسمى من ذاته، فهو "سبحانه" يعقل ذاته. لذلك إن الله عاقل ومعقول في آن واحد.

وينتقل بعدها معلم العقل إلى البرهنة على وجود الله من خلال الأفلاك، وبركة السماء الدائرية، وحركة الكواكب، معتبرا أن الله محرك كل شيء في الكون يحرك ولا يتحرك، موجود في العقل، يرى في البصيرة ولا يرى في البصر.

ويؤكد بعد ذلك أن العالم واحد لأنه إذا وجدت عدة عوالم فستكون مبادؤها المحركة واحدة من حيث الصورة، كثيرة بالعدد ولكن الكثرة تأتي عن طريق المادة ولأن تعريفها واحد ينطبق على سقراط وغيره من البشر من حيث أن كل واحد منهم 'إنسان وأن المادة الجسمية لكل منهم تجعلهم أفرادا متعددين".

لكن المبدأ الأول (الله) مفارق لا مادة فيه، لأن الحقيقة كاملة، وهو واحد من حيث العدد ومن حيث الماهية والتعرف، وفعله واحد لا يتغير أي أن موضوع حركته الذي يتحرك دائما وباستمرار لا بد أن يكون موجودا واحد وإذن فلا يوجد غير عالم واحد.

وخلاصة القول إن دراسة أرسطو تحتاج إلى مجلدات من البحث والتنقيب والتفكير العميق. ونرى في كتاباته العظيمة المتشعبة في رحاب العلم والعقل من البهجة ما في أفلاطون، ومن الفكاهي ما في "ديوجين". في إطار معرفي شمولي، ونجد من الحكمة المتحفظة الخليقة بصديق الملوك الذي يعيش من رفدهم.

مقتبسات من أرسطوطاليس (فيلسوف العقل والعلم) – راجع الضحى العدد الرابع والستون – حزيران 1997.

إرتباط الأخلاق بالعقل وليس بالقوانين الجامدة: (الوسط الذهبي):

يعتبر أرسطو أن هدف الحياة ليس (الخير في ذاته)، بل (السعادة)، لأننا نختار السعادة لذاتها، لا لشيء آخر، ونحن نختار الشرف والسرور، والإدراك. لأننا نعتقد أننا نصل من خلالها إلى السعادة، ونكون سعداء بفضلها، ولكن أرسطو يعترف أن تسمية السعادة بالخير الأسمى مجرد حقيقة أولية، وما يريده هو

تفسير أكثر وضوحاً لطبيعة السعادة، وطريق الوصول إليها. ويمتاز الإنسان عن غيره من المخلوقات بقدراته الفكرية، لذلك يمكننا أن نفترض أن تطور هذه المقدرة الفكرية سيحقق له السعادة

عندئذ تكون ديمومة العقل شرطاً للسعادة. وتتوقف الفضيلة على ضبط النفس وتناسق الرغبات وفن الاعتدال، وهي ليست ملكاً للإنسان البسيط ولكنها نتيجة خبرة الإنسان المتطور جدا . مع ذلك هناك طريق لبلوغ السعادة ومرشد لبلوغ الفضيلة . وهي الطريق الوسط الذهبي، حيث على الإنسان أن يدرس الظ روف الخارجية ويحكم عقله في قراراته معتمداً على القوانين الأخلاقية فقط كمرشد وليست كالعنصر المقرر وآخذ بعين الاعتبار طبيعة الحياة المتغيرة. فالقوانين الأخلاقية (بنظر أرسطو) لا ينبغي أن تحجب عنصر العقل الذي يمتاز بالتجدد الدائم.

الصداقة (الفضيلة العليا):

يعتقد أرسطو في فلسفته أن أنبل الأمور التي تساعد في الوصول إلى السعادة هي الصداقة الصداقة الحقة تقتضي الدوام لا الانقطاع المستمر، وهذا يعني الاستقرار في الأخلاق، وانحلال الصداقة يعود إلى تذبذب المواقف الأخلاقية في الشخص، كما أن الصداقة تفترض المساو اة. المعرفة الحسية والعقلية : هي المعرفة المستمدة من الحواس. لكن الإدراك الحسي لا يطلعنا على طبائع الأشياء، بل يطلعنا على خواصها. فالمعرفة الحسية تقوم على إدراك الجزئيات المتغيرة، أما المعرفة العقلية فتقوم على إدراك الكليات الثابتة. لكل موجود من وجوده مرتبة مفردة، تظهر الأشياء منها ويكون عالماً بذاته، فعلمه علة لوجود الشيء الذي يعلمه. لكن على الرغم من أن أعمال الخير والعلاقات الخارجية ضرورية للسعادة فإن جوهرها اللامتناهي معرفياً يبقى في داخل روحنا المحضة، إن الإنسان المثالي في رأي أرسطو هو الذي لا يعرض نفسه بغير ضرورة للمخاطر، ولكنه على استعداد لأن يضحى حتى بنفسه في الأزمات الكبيرة والمسائل المعقدة، مدركاً أن الحياة لا قيمة لها في بعض الظروف. لأن الحياة السعيدة تتطلب المعرفة الحقة والإدراك المتميز. إن أرسطو يدمر النفس ويجعل للعقل أبدية وخلوداً بحيث يصبح الإنسان جزءاً منه أو من الفكرة المجردة.

مقتبسات من ماهية المعرفة عند أفلاطون وأرسطو – راجع الضحى العدد الواحد والسبعون كانون الثاني 1998.

منطلقات فلسفة المعرفة واتجاهاتها :

اقترنت المراحل الأولى لتكون الوعي، بتحول الإنسان من الحالة البيولوجية البحتة إلى الحالة العقلية، أي أن الفطرة الطبيعية للإنسان في مرحلة ما قبل الوعي الثنائي (التي عبر عنها الوجود البشري في الأزمان التي سبقت عصر آدم الأخير)، كانت تبدو وكأنها مزودة بوعي كوني يتعدى حدود الوعي الحسي والعقلي بالمعنى الخاص للكلمة. ومن هنا فإن حاجة الإنسان إلى المعرفة كانت ناجمة عن شعوره المتدرج بأنه مسير في إطار المكان والزمان والحركة بصورة إجبارية استجابة لمقتضيات وضرورات وجوده (في العصر الآدمي الأخير) مما جعل نسمة الوعي الكوني البدئية، التي زودت الكائنات العاملة بإكسير المعرفة، تبدو وكأنها مغيبة بوصفها طاقة مستقلة بذاتها خلف الإحساس بوطأة المادة وكثافتها، وضغط الحاجة القهري لتلبية الغرائز الطبيعية، ومواجهة مختلف التحديات التي تواجه الإنسان، لا سيما تحدي البقاء والمعاناة الناجمة عن التواصل المتناقض بين ظاهرتي الموت والحياة . وفي العصر اليوناني اتسم سع ي الإنسان للحصول على المعرفة بطابع فلسفي، واقترنت تساؤلاته بالحيرة والدهشة حول طبيعة الأشياء، وماهيتها وعلاقاتها وتأثيراتها المتبدلة، إلا أن عدم قدرته على تعليلها وفهم كنهها كان يحثه على المزيد من التفكير والتأمل لمعرفة رموزها وأسرارها وقوانينها.

لقد عالجت الفلسفة إجمالاً مسائل معرفية تبحث في فلسفة الإحساس والإدراك الحسي، والعقل، والنفس، والطبيعة وما وراء الطبيعة، ولقد اهتمت الفلسفة اليونانية القديمة بوسائل المعرفة ابتداء من أشكالها الحسية البسيطة، وانتهاء بأشكالها وصورها التأملية المعقدة، وكان البح ث عن الحقيقة المطلقة يمثل القاسم المشترك بين مختلف اتجاهاتها، أو مساراتها الفكرية المتقاربة أو المتباعدة، فعلى سبيل المثال اعتقد ممثلو الفلسفة الطبيعية بأن العنصر الأساسي لوجود العالم هو (الماء) وظن أخرون بأنه (النار أو الهواء)، ومن فلسفة الطبيعة انبثق علم ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقيا). في هذا المناخ ظهر (الإيونيون) الذين اهتموا في البداية بدراسة الطبيعة ثم تحولوا إلى البحث في جوهر المادة أي (الهيولى) وحركتها الأبدية، وظهر أيضاً (الفيثاغوريون) الذين حاولوا دراسة النظام الكوني بواسطة الرياضيات وبحثوا في ال وحدة والنسبة وتوافق الأضداد والعلاقات الكامنة في الأشياء واعتبروا أن كل شيء سيؤول إلى (العدد) الذي يشكل أساس العالم وروحه وأن الأشياء ليست سوى اعداد محسوسة، وكما أن العدد يمثل (روح الأشياء) فإن الوحدة تمثل (روح

العدد). لقد أعطت الفلسفة الفيثاغورية للرياضيات مكانة "كونية"، عبر تفسيرها للعالم تفسيراً رياضياً مجرداً وتحويل العناصر الرياضية إلى كيانات ومبادئ مجردة، وقد ترك هذا الإتجاه أثراً واضحاً في نظرة "أفلاطون" إلى الرياضيات ومذهبه المثالي الذي يقول بأن عالم الأشياء إنما هو انعكاس لعالم المثل (الصور أو العالم الصوري) والأفكار المطلقة. وكان "سقراط" الذي ابتكر طريقة الجدل اللفظي، المعتمدة على الحوار والتي تحاول أن تصل إلى الحقيقة من خلال تعارض الآراء، وقد صاغ "أفلاطون" هذا الأسلوب ضمن إطار نظري فكري في العديد من مؤلفاته وعلى الأخص (المدينة الفاصلة) La Republique و "برميندس"، والتي ضمنها حوارات فلسفية يقوم على أساسها مبدأ التناقض ونفي الرأي الأخر، وهو خلافاً للسفسطائيين الذين ينكرون إمكانية معرفة حقيقية الأشياء فإن "أفلاطون" يقول بأن هذه المعرفة ممكنة بالبرهان العقلي فقط، وبذلك يعتر "أفلاطون" من العقلانيين لأن ا لحقيقة التي ينشدها من نتيجة الجدل الفكري تعتبر من حيث الشكل حقيقة منطقية عقلية لأنها تجسد الرأي الذي يسود في النهاية ويعتبر حلا للتناقض كونه يمثل الوحدة بين الأضداد أو الأفكار المتعارضة بوصفها حقيقة منطقية لا موضوعية، ومع ذلك فإن الشرط الذاتي مستمد من نظري ة (المثل) التي انبنت عليها فلسفة "أفلاطون".

وبالرغم من أن الفلسفة الحديثة قد اعتمدت على تقدم العلوم الطبيعية إلا أن الفلسفة اليونانية القديمة، لا سيما فلسفة "أفلاطون" و "أرسطو"، قد أثرت تأثيراً عميقاً على مجمل تاريخ الفلسفة، ويعود الفضل للفلاسفة الإغريق في صياغة المقولات الفلسفية الأساسية التي شكلت الموضوعات الرئيسية للبحث في مختلف العصور، وتبعا لذلك فقد اختلف الفلاسفة وعلماء النفس حول حقيقة المعرفة وحدودها ومنابعها ومعاييرها الصحيحة، وتساءلوا عن إمكانية التوصل إلى المعرفة الكاملة، ودور الإدراكات الحسية والعقلية والنفسية في معرفة حقيقة الأشياء وجوهرها، وهل الحقائق مطلقة أم نسبية، كل هذه الأسئلة راودت أذهان الفلاسفة وتباينت آراؤهم بصدد القضايا المعرفية المختلفة.

لقد انقسم الفلاسفة تبعا لآرائهم واتجاهاتهم المختلفة إلى فرق ومجموعات وقد ذهب بعضهم إلى أن معرفة الأشياء متطابقة مع مظاهرها الخارجية والمعرفة بهذا المعنى هي إدراكنا للأشياء كما هي في الواقع، وقد اعتقد ممثلو هذا الاتجاه، الذي اتسم بالنزعة الواقعية، بأن المعرفة هي ما ندركه عن طريق الحس المباشر وأدوات الحس الجسماني، وأن إدراك الأشياء بواسطة الحواس يخلق لدينا اليقين بها وهو أصل

المعرفة. وثمة فريق آخر من الفلاسفة قد اعتقد بأن مصدر معرفتنا هو الإدراك من خلال الحواس الظاهرة والباطنة ومن مؤسسي هذا الاتجاه "أرسطو". فالمعرفة الحسية من وجهة نظره هي أبسط درجات الإدراك وأول عناصر الشعور وهذا المستوى ع لى بساطته يتطلب اشتراك عدة عناصر للتعرف على الظواهر الحسية المختلفة، وقد عرف "أرسطو" (الإحساس) بأنه قبول الحس لصورة المحسوس أو تحول الحس إلى صورة مشابهة للمحسوس. حين أعتقد "ارسطو" بأن عضو اللمس هو القلب وأن اللحم هو وسيط اللمس كما الهواء وسيط للإبصار.

كيف ميز الفلاسفة بين الإدراك والإحساس؟

ويعتقد فلاسفة العصر الحديث بأن فلاسفة اليونان دون استثناء لم يميزوا بين الإحساس والإدراك الحسي، غير أن هذا الاعتقاد لم يكن دقيقاً لأننا نجد لهذا التمييز أساساً في فلسفة "أفلاطون" و "أرسطو" حيث يذهب "أفلاطون" إلى أن إدراك المحسوسات المشتركة هو من وظ ائف العقل لا الحس لأن أعضاء الحس لا يمكنها إدراك الخصائص المشتركة بين موضوعات الحس وأن الذي يدرك هو النفس العاقلة

وهكذا نلاحظ أن النفس العاقلة لدى "أفلاطون" هي مزيج من الروح والعقل والغريزة وهي التي تقارن بين موضوعات الحس المختلفة وليس الحواس، في حين يرى "أرسطو" أن إدراك المحسوسات هو وظيفة الحس المشترك ويذكر "أرسطو" نوعين من التمييز بين المحسوسات، الأول : تقوم به كل حاسة على حدة كالتمييز بين الألوان أو بين الأطعام، والثاني : هو التمييز بين محسوسات مختلفة في وقت واحد كاللون والصوت والطعم والرائحة، وهذ ه الوظيفة وفقا لرأي "أرسطو" لا تتعلق بالحواس الظاهرة بل بـ "الحس المشترك"، إلا أن "أفلاطون" كان أقرب إلى وجهة نظر علم النفس الحديث عندما يقول : "إذا كان الإدراك عقلياً فهو تمثل لصور المعقولات في العقل، وإذا كان الإدراك حسيا فهو تمثل لصور المحسوسات في الحس".

فلسفة ما وراء العقل :

إن استخدام مصطلح (ما وراء العقل) من وجهة النظر الفلسفية يعتبر أكثر معقولية من مصطلح (ما وراء الطبيعة) لأن الميتافيزيقا، بمعنى ما، هي العدم وإذا كان ثمة شيء أو أشياء أو حقائق أو حقيقة مطلقة فهي لا يمكنها أن توجد في دائرة العدم حتى ولو كانت خارج نظام الإدراكات العقلية أو الحسية، فالعقل الحسي هو الذي يعتمد في عمله على الحواس الخمسة المعروفة لإدراك الظاهرات المادية المحيطة بنا، إلا أن ثمة إدراكات نفسية وروحية لا تخضع للعقل الحسي، بل ترتبط بنشاط (العقل الباطن)، وفكرة الحس الباطن ظهرت لأول مرة في أبحاث "أرسطو" الذي يعتبر أول عالم نفس في العصر القديم عندما صاغ مقولات الحس الباطن، والحس المشترك، والتخيل والتذكر، وبحث في وظائفها السيكولوجية واعتبر أن القلب هو مركز النفس الحاسة.

الحس الباطن:

ويرى "أرسطو" أن الانفعالات التي يحدثها المحسوس الخارجي تبقى بعد زوال المحسوس، وتصبح هي نفسها موضوعا للإدراك الحسي . وكذلك اعتقد "أرسطو" بأن الحركات الحسية الناجمة عن الاحساسات الخارجية تكمن في أعضاء الحس الظاهرة وتغتنم الفرصة للظهور وحين يزول العائق الذي يمنعها من ذلك تصبح طليقة وتتحرك في الدم الموجود في أعضاء الحس الظاهر حتى تصل إلى عضو الحس الباطن وهو القلب فتنتقل إليه الحركات الحسية وتحدث فيه الإحساس الباطن . أن حدوث الأنفعال في الحس الباطن حسب نظرية "أرسطو" ناجم عن وصول الانفعالات الحسية الموجودة في أعضاء الحس الظاهرة إلى أعضاء الحس الباطنة.

الخيال والتخيل:

وتبعا لرأي "أرسطو" فإن التخيل يستمد مادة وظيفته من أعضاء الحس الظاهرة

ويعرف "أفلاطون" التخيل بأنه "مصور أو رسام يرسم في النفس أشباه الأشياء المدركة بالحس ويأخذ من الحواس موضوعات الحس التي تصبح مادة للتفكير "في حين ينظر "أرسطو" إلى التخيل كـ "حركة ناتجة عن الإحساس بالفعل" ويهتم بتوضيح العلاقة بين (التخيل) و (الإحساس) أكثر من اهتمامه بتوضيح الطبيعة الخاصة للتخيل.

العقل المجرد:

إن آلية تداعي الصور والمعاني في فلسفة "أرسطو" تعتمد على ثلاثة قوانين رئيسية هي : قانون التشابه – قانون التضاد – قانون التداعي. ومصدر هذه القوانين حسب رأيه هو "الإحساس".

ثلاثة مصادر رئيسية تستمد منها قوانين تداعي الصور والمعاني وجودها وقوتها وهي:

المصدر الأول: هو الحث حيث يقف الإنسان بواسطته على التشابه أو التضاد بين الأشياء أو على مصاحبتها في الزمان والمكان.

المصدر الثاني: هو العقل الذي نستطيع باستعماله أن نكتشف من خلاله مبدأ العلة والمعلول.

المصدر الثالث: هو العقل المجرد أو "العقل الفعال" الذي يتخطى حدود الجزئي إلى الكلي المجرد، وهو بذلك يتفق مع "أفلاطون" و "افلوطين" بوجود المعقولات وجوداً جوهرياً مستقلاً خارج العقل الإنساني أي في العقل المجرد أو المطلق (العقل الكلي) بحيث تصبح المعرفة شيئا لا يستمد من الحواس وإنما من عالم المعقولات بواسطة "الفيض والإلهام". ويحاول "إبن سينا" التوفيق بين مذهب "أرسطو" الحسي ومذهب "أفلاطون" العقلي والذي جوهره التفكير المجرد وتأمل المعاني العقلية البحتة دون مشاركة التخيل المختلط بالصور الحسية . والعقل يصبح فعالا في رأي "إبن سينا" و "إبن رشد" عندما يتحد العقل الجزئي بالعقل الكلي، وهذا الاتحاد يتحقق في رأيهم خارج المادة، أما من وجهة علم النفس الحديث فيمكن أن يتحقق هذا الاتحاد على الأرض وفي إطار المادة عبر مقولة "العقل الجمعي". من جانب آخر فإن الصوفية تنظر إلى هذا الاتحاد على أنه ذوبان كامل ومرحلة عليا يندمج فيها الإنسان مع خالقه وتستخدم لذلك طقوس خاصة تتطلب تحمل الألم والمعاناة من أجل التحرر الذاتي من قيود العالم المادي وقد تم الوصول إلى التوحد الكلي مع عالم المجردات . إن البذرة الأولى لفلسفة التحرر والاتحاد (التوحيد من خلال العقل الكلي) حسب المصادر التاريخية، قد وضعها فلاسفة اليونان وعلى رأسهم "أفلاطون" و "أفلوطين" ويقال بأن أهم مصادر هذه الفلسفة هي

"فلسفة الشرق القديم " وعلى الأخص الفلسفة الهندية التي تم استخلاصها من التجربة والتأملات الروحية التي انطلقت من فكرة البح عن "حقائق الوجود" في "الذات المطلقة" والتي لا يمكن أن تكون مجرد موضوع للمعرفة فحسب بل يجب أن تتجاوز ذلك إلى رحاب الكون الواسعة وبما أن هذه الذات تمثل العامل المطلق فإنه يمكن "إدراكها مباشرة على أنها الوعي الذاتي الكلي...".

الطرق المعرفية وإدراكات ما وراء العقل في النظريات الفلسفية القديمة والحديثة

جوهر المعرفة التوحيدية في مدارس اليونان :

في قراءة لأولى السجلات التي تناولت تاريخ رحلة الـ 7000 عام الآدمية، نجد أن أولى اهتمامات الإنسان الفلسفية نتجت عن صراعه في محاولة فهم الطبيعة

هذه الاهتمامات تطورت فيما بعد لتصبح معروفة باسم الفلسفة حين اكتشف الإنسان ضرورة البحث في طبيعة العقل. أول فيلسوف سجله التاريخ عرف التضارب الحاصل بين العالم الطبيعي كما تراه الحواس والعالم الذي يكشف عنه العقل أو المنطق هو الفيلسوف الإغريقي "أناكساغوراس". هذا الفيلسوف عرف بين جميع الفلاسفة كونه أول من طرح فكرة الثنائية في تفسير أصل العالم حتى قيل إن فلسفة أناكساغوراس غيرت وجه الفلسفة الإغريقية فمنذ ذلك الوقت أصبح الفلاسفة يصنفون في واحدة من الفئتين التاليتين

الماديون وهم الذي يفضلون المادة على اللامادة كعنصر أساسي في الو جود ويجعلون الأخيرة نتيجة الأولى.

المثاليون (أو الروحيون) وهم الذين يرفعون اللامادة على المادة ويجعلون الأخيرة نتيجة الأولى

في ذلك الوقت، قبل ظهور فلسفة سقراط، كانت جميع الفلسفات، بغض النظر عن انتمائها لإحدى تلك الفئتين، تسعى بصدق وراء الحقيقة الموضوعية التي كان الفلاسفة يؤمنون بوجودها ليس هذا فحسب بل كانوا أيضاً ملهمين بقدرة العقل للوصول إلى تلك الحقيقة . لذلك، فإن محاولات ما قبل سقراط لفهم العالم

الطبيعي، بغض النظر عما صنفت به فيما بعد، تعتبر توحيدية. وذلك على قدر ما كانت موجهة نحو هدف المعرفة المتعالية عن أهداف السفسطائيين الذين واكبوا العصر الفلسفي في اليونان.

من منطلق الإيمان التوحيدي الذي يرفع ويسبق العالم الروحي في جوهره على العالم المادي، يلهم الموحد غالبا في تفضيل النظرة المثالية أو الروحية على تلك المادية.

بين الفلاسفة الذين صنفوا كماديين نسمي "هيراقليطس"، "ديموقريطس" و "زينون الرواقي". أما بين الفلاسفة الذين صنفوا كمثاليين أو روحيين: "فيثاغوراس"، أفلاطون وأفلوطين.

في حين أن هيراقليطس قرر أن النار هي العنصر الأساسي (أي المادة التي منها تكون العالم)، قدم "فيثاغوراس" فكرة النار الروحية المقدسة، الموجودة في مركز العالم والتي تجذب كل شيء نحوها . في حين رأى ديموقريطس أن تلك الجسيمات التي لا تنقسم (الذرات) هي التي تكون العالم، أتى أفلاطون بنظريته حول "الصور" (مفهوم الذرات المثالية التي تكون الفكر).

أفلاطون لم يكن أول فيلسوف تكلم بالثنائية أو الإثنينية (كما وردت في بعض المعاجم)، لكن أفلاطون أسس فلسفة مكتملة مرتكزا على هذه النظرية . كانت نظريات وتعاليم أفلاطون شديدة الترابط والشمولية بحيث أن، في نظر بعض المفكرين، كل النظريات والأفكار الفلسفية التي تلت كانت مجرد ردود فعل لفلسفته. كل الفلاسفة مجمعون على أن الأفلاطونية ليست مجرد منظار فلسفي، بل هي حالة عقلية لا يمكن لأي إنسان الهروب من الوقوع فيها . بل ويذهب البعض إلى إلقاء اللوم على أفلاطون لأنه وضع الوعي البشري في منظار الثنائية فلا يستطيع حتى الآن الخروج منه.

إن لوم أفلاطون في فلسفته حول الفارق ما بين عالم الإدراك الحسي وعالم الروح أو العقل هو كلوم إنسان لنفسه لأنه إنسان قدر له أن يذوق طعم "الأنا" الإنسانية في العصر الآدمي الأخير. لا أحد يمكنه أن ينكر الوعي الجدلي الداخلي للثنائية في طبيعة لوجود (الجسد والروح) ويكون في الوقت نفسه واعيا لإنسانيته أو لطبيعته الإنسانية. حتى الذين لا يعترفون بالثنائية من الروحيين أو المثاليين والذين يرغبون فقدان وعيهم لها عبر التأمل التجاوزي أو عبر طرق أخرى، لا يستطيعون فهم أو تعريف رغبتهم وبدء الإحساس في حال

اللاوعي للثنائية (وحدتهم مع المطلق) إلا من خلا المرور في المراحل الأفلاطونية في العبور المنطقي والعقلي في الثنائية.

من غير المنطقي أن يعتقد البعض أن أفلاطون الذي ألهمت فلسفته الكثير من الأديان، كان جاهلا للرغبة البشرية التوحيدية للتويج مادة موحدة أو "حقل موحد" كسبب للوجود، وهي رغبة ألهمت على مر السنين ذلك الهوس العلمي بالذرة . إن الفرق بين فلسفة أفلاطون وباقي الديانات التوحيدية هو أنه، عبر الثنائية في نظرية الصور، استطاع أفلاطون أن يكلم أسمى قدرات العقل، المنطق. ذلك أنه انطلق من النزعة البشرية الأكثر شيوعا وهي نزعة العقل لوعي الطبيعة الثنائية للطبقات التي لا تتمتع بالمنطق الكافي دون اللجوء إلى بعض الأساطير تماما كما كان يسوع المسيح (عليه السلام) يلجأ إلى الأمثال.

عمر العالم:

كنا قد ذكرنا أصل العالم من وجهة النظر الفلسفية الإغريقية في وجهيها، الأ حدي والثنائي (أو الإثنيني) وركزنا على فلسفة أفلاطون الثنائية. يأتي الآن منحى آخر للجدل الثنائي وهو الجدل حول عمر الخلق أو التكوين.

لهذا الجدل أهمية كبيرة في تحديد هوية كل عقيدة فلسفية أو إيمان ديني، وبالتالي له أثر كبير في توجيه الخط الفكري النابع من تلك الفلسفات والأديان.

هناك مبدأن أساسيان ناتجان عن هذا الجدل:

مبدأ قدم العالم

مبدأ حداثة العالم

المبدأ الأول يؤكد على أزلية العالم، أي أن لا بداية له، بينما يؤكد المبدأ الثاني على أن العالم حديث، ولكن الخلاف الحقيقي، كما سوف نرى، ليس على قدم أوحدوث العالم المخلوق من قبل "الخالق" بل

على تعريف الأزل وطبيعة هذا الخالق . هل للخالق جوهر شبيه بالعقل أو بالمادة؟ وهل أن العقل والمادة موحدان بشكل ما أم انهما منفصلان انفصالا تاما؟ من أو ما الذي سبق الآخر في الوجود، العقل أم المادة؟

لو أن طبيعتي العقل والمادة مختلفتان تماما، لتوجب وجود مسبب مادي للخلق منفصل تماما عن المسبب الروحي. ولو أن المادة سبقت العقل في الوجود لكان العنصر (الذي يعتمد عليه وجود العقل على الأرجح) وجد منذ ملايين السنين (كما يؤكد العلماء). ومن جهة أخرى، إذا اعتبرنا أن المادة سبقت العقل، لا نستطيع إلا أن نميل إلى اعتبار المسبب الأول للخلق ماديا، معتبرين العقل نتيجة لتطور المادة

مع ذلك، فأن الميل إلى تفسير المسبب تجريبيا (أي اعتماد على التجربة) بدلا من تفسيره مثاليا أو روحيا لا يعني حكما أن التفسير غير روحي أو غير مثالي أو مدي بالمعنى الحديث للكلمة.

فأرسطوطاليس (أحد أعظم مؤسسي علم الفيزياء) كان من أوائل الذين استندوا في فلسفتهم إلى التجربة الحسية، ومع ذلك فإن فلسفته لم تكن أقل "مثالية" أو "روحية" من فلسفة أفلاطون.

إن مثالية أفلاطون تبدو واضحة في عقيدة أبدية (أو خلود) الروح وفي تقديم وجود الروح على وجود المادة. إن عقائد أفلاطون تؤكد على انبثاق عالم الروح قبل أي شيء آخر وقد اسماه "عالم الأفكار "، ثم أضحى يعرف فيما بعد بـ "عالم المثل" أو الصور.

نوضح هنا أن الصور في فلسفة أفلاطون تختلف عن فكرة الصورة التي نفهمها، فإن "الصور" ليست "مثالية كما ترمز كلمة "صورة أو مثال" بل بالنسبة لأفلاطون هي واقعية بل أكثر واقعية من أي شيء آخر فهي الجوهر الكوني الذي يعطي لكل شيء في عالم الحواس هويته التي يعرف بها. فإذا، بالنسبة لأفلاطون، فإن عالم المادة متعلق بوجود عالم المثل، بينما عالم المثل موجود وجودا مستقلا عن أي وجود مادي . إن نظريات أفلاطون ترى كنموذج للمثالية أو الروحية بحيث تعطي السيادة للروح على المادة، بغض النظر عن مدى اعتراف هذه النظريات بوجود المادة، كون الروح هي ذات جوهر الهي.

هناك أيضا نوع متطرف من المثالية التي تنفي نهائيا وجود أي شيء غير الروح. هذا التطرف نراه في بعض أعمال فلاسفة الشرق الأقصى الذين يعتبرون العالم المدرك حسيا هو مجرد وهم (مايا) فهذه

الفلسفات، خلافا للتوحيد، تقيم وزنا للتأمل الروحي في طريق المعرفة أكثر من التأمل الفكري أو التفكر كما في أعماق أفلاطون.

المثالية في أعمال أرسطوطاليس تتجلى في عقيدة "المحرك الذي لا يتحرك أو لا يتغير . لكي نفهم هذه العقيدة علينا الإطلاع أولا على جدل آخر مهم وهو الجدل القائم على السببية وطبيعة الوجود المانوية (أو الأحدية).

فمن جهة، هناك ميل للتفكير بأن الوجود هو واحد متكامل، ومن جهة أخرى، هناك ميل للاعتقاد بأنه شيء سببه شيء آخر.

وأرسطوطاليس، برغم كونه لم يوافق على مبدأ ثنائية الوجود الذي يقول بأن المادة والشكل (أو الجوهر) لا يمكن تفريقهما وأن العالم المادي هو أعلى ما يمكن للإنسان الوصول إلى معرفته، لم يستطع أن يعتمد على المعرفة التجريبية (أو الحسية) لحل هذه المعضلة. في بحثه الماورائي أو الميتافيزيقي لطبيعة الحركة، لم يستطع أرسطو طاليس إنكار المنطق وراء ضرورة وجود المحرك الأول، والذي وصفه بالـ "محرك الذي لا يتحرك"، والذي لا بد أن يكون مسؤولا عن أنو اع الحركة التي ندركها في العالم . بمعنى آخر، أن بحث أرسطاطاليس العلمي عن المعرفة لم يجعله ينكر وجود اله أو خالق.

بعض محاولات لحل هذه المعضلة تزعم أن الخالق، فيما بعد الخلق، لم يبق خارجه بل أقام بداخله ليصبح هو بذاته. هذه العقيدة ألهمت الصوفية في الإسلام التي ترى في كل شيء في العالم تجليا أو ظهورا الله.

ظهور العالم:

معضلة ثنائية أخيرة لا تقل أهمية عن المعضلات الأخرى هي تلك المعروفة فلسفيا بمسألة"السكون والحركة".

بعض الفلاسفة مثل هيراقليطس رفض مبدأ السكون ورأى العالم في حركةوتغير دائمين . فبالنسبة إليه، العالم في حال من الانسياب الدائم "فلا تستطيع أن تطأ نفس النهر مرتين". فمياه النهر، بالنسبة إليه، لا يمكن أن تكون هي نفسها في وقتين مختلفين.

والمشكلة في مثل هذه النظرة هي التالية:

كيف يمكن وجود إمكانية للمعرفة في عالم دائم التغير لا يمكنه إعطاء هوية ثابتة؟ ومن جهة أخرى، فإن فلاسفة آخرين مثل برمنيدس يعتقدون أن كل ما يتغير هو ساكن في ذاته أو جوهره، أي أنه يتغير وفق هوية محددة. فهم بذلك يأخذون هوية الأشياء كمبدأ أساسي وينكرون أحد أكثر الوجوه ظهورا في العالم وهو أنه دائم التغير.

هذه المختارات من كتاب "و.ت. جونز" العقل الكلاسيكي" قد توضح أكثر مسألة السكون والحركة : كيف يمكن للحقيقة أن تبدو مختلفة عما هي حقا؟ ثم أن القول بأن كل شيء في الحقيقة هو واحد يدخلنا في مسألة الواحد والعدد، لأننا نقول أن ما هو واحد (المياه) هو في الواقع مجموعة عددية (سفن، خضار، ملوك)، وهذا يبدو متعارضا مع نفسه.

فلنحاول الالتفاف على هذه المسألة بالقول أن الواحد يتغير ليصبح أعدادا، أو أن الواقع يمر بمرحلة تحول كي يصبح إدراكا . كل هذا لا يفيد فعلا لأن التغيير بحد ذاته معضلة . فمثلاً، عندما نقول أنه، في سياق الزمن، تغيرت من طفل إلى إنسان بالغ فنحن نعني أن شيئا معمرا (أي مستمرا في الزمن) قد تغير أو تحول. وهذا يبدو بسيطا فقط لأننا لا نستطيع التوقف عن التفكير فيما نعني. لو كنا نستطيع ذلك لبدأ المعنى متعارضا مع نفسه. فنحن نقول أنك ما زلت نفس الشيء الذي كان طفلا منذ عدة سنوات، إلا أنك مختلف طبعا لأنك لم تعد طفلا . ولكن كيف يمكن ذلك؟ كيف يمكن أن تكون نفس الشيء لكن مختلفا عنه، فإن كنت مختلفا فلست هو!".

وفي نظريته حول عالم المثل، ذكر أفلاطون كلا المبدأين، السكون والحركة. فحين أن عالم الإدراك الحسي هو أبدا في تغير مستمر، فإن عالم المثل أو الروح، التي منه وإليه المعرفة، يبقى ساكنا لا يتغير .

بمعنى آخر بالنسبة لأفلاطون، فإن المثل هي كونية ثابتة لا تتغير . فعلى سبيل المثال، يتغير التفاح شكلا ولونا وحجما وتتغير التفاحة الواحدة في الزمن من ثمرة جيدة خضراء إلى عفنة بنية. ولكن التفاحة المثال أي الصورة أو المبدأ الكوني المثالي للتفاح، والذي يؤلف مفهوم التفاح في العقل هو واحد كوني، لا يتغير.

فبما أن التفاحة تأخذ هويتها أو وجودها من مثال التفاحة الكوني (الصورة أو الشكل) يصبح الوجود بالنسبة إلى أفلاطون عملية تواصل ديالكتيكي أو جدلي بين التفاحة – الجوهر والتفاح الذي ندركه في العالم المحسوس. وتبعا لنظريته حول المعرفة، فإن رؤية تفاحة في العالم المحسوس يجعل العقل يسترجع الشكل أ الصورة الأبدية للتفاحة التي يعرفها فطريا أو (التي شافهها في العالم الصوري قبل تواجده في الزمان والمكان).

ولكن، مع مر الزمن، طرح فلاسفة آخرون موضوع السكون والحركة بطريقة أكثر تحديا من طرح جونز أعلاه، وذلك بطرح مسألة أن التغيير يحدث أيضا على المستوى الميتافيزيقي. فعلى سبيل المثال، إذا كان شكل وفكر شخص ما تغيرا خلال تحوله من طفل إلى راشد، فما هو إذا الشيء الذي يجعل هذا الشخص هو نفسه طفلا وراشدا؟ ما هي طبيعة هذه "الأنا" التي تبقى ثابتة على الرغم من تغير وتحول كلا العالمين المادي والفكري؟

أن ما تقدم يثير الكثير من الأسئلة حول نظرية أفلاطون ويدفع الإنسان للتساؤل : هل أن للافكار أيضا صوراً أو أشكالا أبدية؟ لأنه إذا كان عالم المثل يحتوي فقط على المثل أو الصور المتعلقة بالأشياء الملموسة (كالتفاح مثلا) أو الأشياء المدركة بالمبدأ (كالحب والجمال) وليس بالأشياء العقلية كالفكرة، يصبح هذا العالم بعيدا عن أن يحتوي العقل . فإن كان عقل شخص ما غير ما تصوره أفلاطون في حديثه عن العالم الأبدي، وأن كانت المادة بحسب أفلاطون وقتية حتما، فما هو ذلك الشيء الذي يجعل الإنسان أبديا؟ ما هو ذلك الذي يحتمل كل التغيرات الجسد ية والميتافزيقية الفكرية في الإنسان؟ ومن ناحية أخرى، إن كان العقل هو كل ما كان يتصوره أفلاطون في العالم الأبدي فما كان من المفترض أن يتجاوز عالم المثل أو العقل الأفلاطوني عالم الفكر المتغير لكي يكون أبديا؟ فإذا كان صحيحا فلا بد من وجود عنصر في الإنسان يتجاوز المادة والفكر.

تصف فلسفات الشرق الأقصى هذا الشيء الذي يحتمل تغيرات الفكر بأنه الـ "شاهد" أو "الأتمان" (الذات العليا). فإذا كان عالم أفلاطون الأبدي (أو ما عناه أفلاطون بالـ "أبدية") مشابها لهذه "الذات العليا" في طبيعته، فكيف ترتبط معرفة عالم المادة بمعرفة هذا العالم الأبدي؟

من خلال الجواب على هذا السؤال يفهم المرء الفرق بين الفكر التوحيدي وفكر الشرق الأقصى . فبشكل عام، تشجع فلسفة الشرق الأقصى على الاتحاد "بالأتمان أو الذات العليا (الأنا الأبدية) وذلك عبر تمرين العقل على عدم التفكير بحيث أن كل ما هو فكر يرتبط بعالم المادة الوهمي . مع أن التوحيد يعترف بوهمية المادة وبالطبيعة الخيالية للتفكير، فهو لا يذهب إلى حد التنكر إلى الوعي البشري لعالم الإدراك الحسي، الذي هو الوعي الذي يطلق الفكر، كما أنه لا يقلل من أهمية هذا الوعي . لذا، فليبق بالأذهان أن التوحيد هو إيمان قوي بما في خلق الله من حكمه . فإذا كان الهدف الأسمى من الوجود البشري هو العيش في حال دائمة من اللافكر، أو إذا كان مقياس النجاح هو المدة التي يستطيع فيها الإنسان البقاء متربعا في الهواء، فلماذا إذا خلق الله البشر بأجساد؟ لماذا يريد الله خلق ع الم محكوم بقوانين الفيزياء؟ يعترف التوحيد ويؤكد فوائد التأمل والتركيز في تنقية العقل ولكنه لا يذهب إلى حد التقليل من أهمية طبيعته الخلاقة. بمعنى آخر، أن التوحيد ليس غياب الفكر أو التخلي عن كل ارتباط مادي. التوحيد، هو أن نعرف ماذا، أين ومتى يجب أن نفكر ونفعل لكي نكون خلاقين أكثر . فلنحسب أن عالمنا المادي وهم (وهي نظرة صوفية توحيدية) لا أحد يستطيع الإنكار أن هذا العالم يفرض واقعاً على الأغلبية من البشر، واقعاً لا يمكن التهرب منه إلا على حساب الآخرين.

فعلا أن طبيعة الفكر قد تكون خيالية، وقد يكون الإدراك البشري للمكان والزمان جزءا من هذا الخيال. ولكن، لا يمكننا أن ننكر أن معظم البشر يفكرون ويتصرفون في العالم بشكل يعطي واقعية لهذا الخيال. التأمل وحده لا يمكنه مساعدة البشرية بأكملها على الارتقاء نحو مستوى أعلى من الوعي. هو مجرد حل مؤقت للأفراد أو ربما لبعض الأمم الصغيرة، ولم يكن التوحيد يوماً رسالة مخصصة لأمة أو عرق أو مذهب واحد، بل هو رسالة كل الأديان والأمم والمذاهب والأعراق.

إن العقيدة الأفلاطونية، إذا ما فهمت في حقيقتها، هي ما ورائية (ميتافيزيقية) التوحيد، فأفلاطون في عقيدة التوحيد هو تجسد النفس الكلية التي هي أصل العديد من العقائد في التوحيد.

بالنسبة إلى أفلاطون، المعرفة هي تذكر والجهل هو نسيان . والنفس أن الروح لا تتذكر الشكل الأبدي التي عرفته في عالمها الأصلي، أي العالم الأبدي، إلا من خلال رؤيتها لشيء ما في الزمان والمكان. (وهنا تلتقي مثالية أفلاطون ما واقعية أرسطو خلافاً لما يقول بعض الفلاسفة عن تناقض فلسفتهما) بمعنى آخر، فقط من خلال وجودها في الزمان والمكان تستطيع الروح البقاء واعية لهويتها الأبدية.

وبما أن الروح أبدية، وبما أن المعرفة تعتمد على وجود الروح في الزمان والمكان، فإن التقمص بالنسبة إلى أفلاطون، واقع محتوم . لأنه كيف يمكن للروح بعد الموت، على افتراض أنها تغادر الزمان والمكان، أن تكون واعية لعالمها الأصلي إذا لم يكن هناك أشياء أو حتى أفكار تذكرها بالمثل الأبدية؟ بالنسبة إلى النظرية الدينية التقليدية لما بعد الحياة فإن الروح بعد الموت يفترض أنها تبقى قادرة على العمل بوعي وإدراك (التفكير والتذكر) كما لو أنها ما زالت في الجسد في الزمان والمكان . في التوحيد، الوجود الواعي أو المدرك يعتبر دائما غير ممكن من دون الوجود في عالم الزمان والمكان. وذلك يعتمد على القاعدة الأهم في عقيدة التوحيد وهي التقمص. إن فهم العلاقة المتقاربة بين عالم الأبدية وعالم الزمكان كما قدمها أفلاطون من خلال نظرية المثل هو المفتاح إلى فهم تأكيد عقيدة التوحيد على أهمية كلا العالمين، عالم المادة وعالم الروح. وكذلك فإن ذلك يوضح الفارق بين عقيدة التوحيد وفلسفات الشرق الأقصى التي تقلل من أهمية عالم المادة.

لذلك فليبق في الأذهان أن أفلاطون لم يعزل عالم المثل عن عالم الإدراك الحسي . لقد أصبح أمرا اعتياديا وشائعا أن يتهم أفلاطون بالإيحاء (عبر نظرية المثل) بأن عالم الأبدية هو عالم تجاوزي كليا (أي روحي صرف) وهو معزول تماما عن العنصر البشري، وهذا ما الهم المذهب التنزيهي وهي فكرة تمنح السمو والترفع للنص المقدس عن العقل البشري كونه أنزل من أصل أسمى من العقل . كما أن أفلاطون باعتباره الصور أو المثل موضوع الفكر البشري جعل واضحا كون العالم الأبدي للمثل على علاقة وطيدة مع عالم الإدراك الحسي، لأن الأخير أشبه بعالم من الظلال التي تساعد الروح على البحث عن النور (أي العالم

الحقيقي) الذي سبب هذه الظلال. لم يجعل أفلاطون مطلقا العالم الأبدي عالما يفوق قدرة العقل على الفهم . من خلال أساطيرة أوضح أفلاطون أن عالم الأبدية (هدف الروح ا لأسمى) يمكن البحث عنه من خلال هذا العالم وليس في عالم تختبره الروح بعد الموت . وإلا فإن فيلسوفاً عظيماً مثل أفلاطون، حيث تترابط فلسفته بعضها ببعض بمنطق عظيم، لا يمكنه أن يؤمن بالتقمص بسبب نزوة ما كما يؤمن به الـ "براغماتيون" في يومنا هذا، كما أنه لم يكن لير مز في "جمهوريته" إلى غير الأمور المتصلة بالوجود البشري على الأرض . ومع هذا، فمن الملفت للنظر كيف أن المنطق وراء معتقد أفلاطون في التقمص لم يطرح أو يدرس جديا في تاريخ الفلسفة. وإذا كان لهذا التقصير أي معنى، فهو يثبت إلى أي مدى تؤثر الأديان في تفكير أولئك الفلاسفة والمفكرين الذين يدعون أنهم من أكثرهم انفتاحا؟.

أصل العالم في التوحيد (المنظور الفلسفي) –راجع الضحى العدد 84 – شباط 1999.

العهد القديم

مشاهد من ذاكرة التوحيد

عصر اليهودية

يخضع مفهومنا الديني للكثير من المقولات الخاطئة والأوهام الشائعة التي أبقت الأبواب موصدة دون استجلاء أسرارها وفك مغاليقها بمفاتيح النقد والحوار العلمي والسجال المنطقي، لتشريع منافذ التفكير الديني نحو سماوات رحبة من حقائق العبادات التي سادت في الأزمان الغابرة والسحيقة، والارتقاء بمعارفنا إلى مصاف الحقيقة، وإيصا ل تلك الحقائق إلى مستحقيها، وهذه رسالة كل موحد مستنير دأب على التحقيق والتمحيص والبحث بنور العلم والبصيرة . فمن جهة تعتبر اليهودية كديانة منطلق العبادات التوحيدية وإنها السباقة بين الأمم برفض تعدد الآلهة والإيمان بإله واحد وم جهة أخرى عاش أغلبية اليهود في ب يئة غلبت عليها الوثنية. لذا، هناك من يشكك بتوحيد اليهود في تراثهم التلمودي، حيث أهملوا النواحي الماورائية

كالقيامة والآخرة وخلود الروح فيما تقوم تعبداتهم على الطقوس والأضاحي، وحتى العالم اليهودي "سيغموند فرويد" أثار الأمر في كتابه "موسى والتوحيد"، والدلائل أكثر من أن تحصى منها تكرار كلمة آلهة في أكثر من سفر من أسفار العهد القديم مثلا "هوذا آلهتك يا إسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر" (سفر الملوك 28/12) و "من مثلك بين الآلهة يا رب". (سفر الخروج 11/15) و "لأن الرب إلهكم هو إله الآلهة ورب الأرباب" (سفر التثنية 17/10)، وغيرها الكثير. ويعتبر بعض الباحثين أن التوراة قد حورت وأخذ الكثير من أسفارها ونصوصها عن معتقدات قديمة، "وجدت آثارها في السومرية والأكادية والبابلية والآشورية والمصرية فضلا عن الكنعانية، وكل من قرأ ملحمة غلغاميش البابلية وجد التشابه بل التطابق بين قصة الطوفان وبطلها "أوتنابشتيم" وبين سفر التكوين، ويجد الباحث كثيراً من التشابه بين أسفار الشريعة حمورابي، أما الحكمة المصرية الفرعونية فنجدها بشكل جلي في ثنايا التوراة، ولا يسع مقالنا استطراداً في هذا الموضوع . ويدور اللغظ الأكبر حول كلمة "يهوه" عند اليهود وه و إله يستشيط غضبا ويهدأ حين يتنسم رائحة شواء الأضاحي التي ترفع إليه، يضرب شعبه ثم "يندم على الشر الذي فعله" وهو أشبه بإله بدائي رعوي، ومهما حاول أحبار وحاخامات اليهود أن يجتهدوا في تأويل هذه المثالب فلن يستطيعوا أن يصنعوا مها صفات إله منزه كلي القدرة . وهنا تبرز أهمية الإرث الكبير الذي اقتبسه العبرانيون عن الشعوب القديمة، فمنذ أيام إبراهيم، تعترف التوراة بأن هذا، "النبي الذي لم يكن يهوديا" ولم يكن لليهود في أيامه أي وجود بعد، كان يعبد "إيل عليون" أي الله العلي، ولم تعرف كلمة يهوه التي يطلقها اليهود على اسم ا لجلالة سوى في أيام "موسى" وما بعده.

وكان دين العبرانيين قبل "موسى"، دين إيل "الإله السامي المشترك" الذي لا بد أن تكون الشعوب أشركت في ما بعد في توحيده وتحولت عباداته إلى أسطورة وثنية من ضمن آلهة عديدة شأن كل الأديان التي تشوهت عبر التاريخ، والدليل على أن الشعوب التي سبقت أو عاصرت العبرانيين كانت تعرف عبادات توحيدية لإيل –الله الواحد، قصة "إبراهيم" ولمك "اليبوسيين"، "ملكي صادق" الكاهن الأكبر لمدينة "سالم" أي القدس عاصمة اليبوسيين الكنعانيين، فالتوراة تقر أن "ملكي صادق" كان يعبد إيل عليون، أي الله العلي، وأنه كان على منزلة عظيمة وكان شعبه يؤمن معه على قاعدة "إن الناس على دين ملوكها "، وفي سفر يونان، فإن النبي يونان حين أرسل إلى نينوى عاصمة الآشوريين لينذرهم بعقاب شديد بعد أربعين يوما، وجد سكان

المدينة الأثني عشرة ربوة أي 120000 نسمة، يعبدون الله مؤمنين به، ويخافون مقام ربهم فاستجابوا لإنذاره ولبس الملك وسكان المدينة أجمعين المسوح وتضرعوا للرب لكي يجنبهم سوء العاقبة، ولقد استجيب لهم دعاؤهم، وعفا الله عن المدينة وسكانها لأنه غفور رحيم . ولم تخل النذر من أية أمة أو بلد، ويقول القرآن الكريم "وما من أمة إلا وخلت من قبلها النذر " أي خلت بها توعظها وترشدها وتنذرها بعاقبة الكفر والإشراك. ويعتقد الباحث الفرنسي "الفرد مر " في كتابه "أيل، يهوه، يسوع" أن السيد المسيح استعاد صفات الله (إيل) وهي الرحمة والشمول والسلام، وأعاد الاعتبار إليها، وأهمل "يهوه" الإله الصحراوي الضيق الآفاق القاسي والقبلي، ويقول "مر" إن اليهود طمسوا معالم عبادة إيل التوحيدية التي تعرفوا عليها عند غزوهم لبلاد الكنعانيين، وأن يسوع استشف مجدداً تعاليم الفداء والأخوة البشرية من العبادات القديمة . وليس بالخفي أن الأساطير والعبادات الوثنية عند الشعوب السامية كالأكاديين والكنعانيين ومن ثم الآراميين جعلت من إيل إلها وثنيا ضمن مجمع من الآلهة، لكنه من المعروف أن الأسطورة كانت وليدة المعتقدات الدينية الغارقة في القدم التي تشوهت مع الزمن ودخلت عليها طقوس العبادات الوثنية وغيرها، شأنها مثلا، شأن الزرادشتية التي انتهت بعبادة النار والشرك بعد ما بدأت بعبادة توحيدية. وتلك الصفات التي أطلقت على إيل كانت، كخالق الخلائق والملك الأبدي وإله الرحمة والشفقة، و "لطفان" أي اللطيف قد تكون من بقايا عبادة توحيدية ترقى إلى أيام النبي نوح . ويؤكد الباحث "الفرد مر " أن المسيح أثناء معاناته استنجد بإيل وليس بيهوه حين قا ل "ايلي، ايلي، لما شبقتني" أي إلهي إلهي لما تركتني، وهو قول للنبي داوود في أحد مزاميره . وتصادفنا كلمة إيل (أي الله) في أسماء الملائكة والأنبياء في التوراة كجبرائيل وسفرائيل وميخائيل وعمانوئيل وغيرها، وقد كانت عبادة إيل سابقة لاستعمال كلمة "يهوه" في الإرث التوراتي منذ أيام موسى، وأول ما تعرف يعقوب على إيل الكنعانيين الذي طلب منه البركة وقد غير اسمه من يعقوب إلى "إسرائيل". وقد تضاربت المعلومات حول معنى التسمية. وهنا يطرح السؤال بقوة عن مصدر عبادة إيل وهو إله "سام" أو عربي مشترك بين الشعوب "السامية" أي العربية القديمة. للعالم المستشرق الشهير "روبرتسن سميث" رأي صريح في هذا الموضوع، حيث يؤكد أن الكثير من الموضوعات الدينية الغامضة تتوضح بالعودة إلى ديانة العرب، فقد تبنى العالم "سميث" نظرية الأصل العربي لحضارات وديانات الشرق الأدنى القديم، ووقف في وجه العديد من الن ظريات التي تبنتها شعوب أخرى لإبعاد الانظار عن شبه الجزيرة العربية، وذلك في كتابه الثمين "محاضرات في ديانة الساميين". وقد حاول أحد المؤرخين اللبنانيين جاهدا، أن يقارن كلمة إيل، بآل التي يكثر استعمالها في تسمية

القرى والبلدات في جنوب الجزيرة العربية. والأصول العربية القديمة للديانات ليست بالشيء الغريب، فالقرآن الكريم، يعلمنا أن أسماء الأوثان التي اشرك قوم نوح بعبادتها كانت ذوات أسماء عربية "ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر". وهي أسماء بعض الأوثان التي اشتهرت في اليمن، وقد تكونت هذه الأسماء صفات لإله واحد كان يعبده القوم قبل نوح، ثم تحولت إلى آلهة مستقلة بعد اشراكهم بعبادة إيل واستغراقهم في لجج العبادات الوثنية، ونجد أثراً لكلمة إيل مثلا في الاسم اليمني "شرحبيل". فهل كان العرب في تلك الأيام السحيقة يعبدون "إيل" الواحد القدير البار، في اليمن وجواره وباقي أنحاء الجزيرة العربية؟؟

"إيل والأصل العربي لديانات الشرق" –راجع الضحى العدد السبعون (كانون الأول 1997).

"يا أورشليم"، يا أورشليم، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين". (إنجيل متى الأصحاح 23).

بتلك الصرخة المدوية خاطب السيد المسيح يهود أورشليم أولئك "الخرفان الضالة" الذين تحولوا إلى ذئاب كاسرة نهشت أجساد أنبياء، حاولوا هدايتهم نحو طريق الخلاص.

لكنهم قتلوا أنبياءهم مرتين، مرة بالسيوف الغادرة، ومرة ثانية بأقلام كهنتهم المزورة.

وطالما كان الأنبياء كبش فداء لتذمر اليهود وعصيانهم وقسوة قلوبهم الغلف، فأذاقوهم صنوف العذاب والتنكيل والقتل، وهوذا نبيهم أرميا يقول: "أكل سيفكم أنبياءكم كأسد مهلك".

لكن شناعة القتل الجسدي لا تقل خطورة عن تلطيخ سمعتهم وتحريف تعاليمهم وتزييف سير تهم وإبدال فضائلهم بالرذائل التي تحلى بها بعض اليهود في بلاد السبي في بابل حيث انتهى شبانهم وشاباتهم غلمانا وراقصات في قصور ملوكها.

واعتبر المؤرخ البريطاني "ه ج. ويلز" بأن اليهود وصلوا أيام السبي إلى بابل "همجا وشعبا مخلطا لا رابطة وعي ذاتي بينهم وعادوا ممدنين ومعهم القسم الأكبر من مادة التوراة " حيث استقوا من معارف بابل ومكتباتها وموروثها الثقافي وجاؤوا بما أملى عليهم الكهنة والأحبار وهم في بلاد السبي، وتكشف الأدلة العلمية اليوم أن اليهودية المتمثلة بـ "التلمود" ظهرت في تلك الحقبة من التاريخ (القرن السادس قبل الميلاد)

على يد جماعة من كهنة اليهود (وأشهرهم عزرا) ليس لديهم أي علاقة بالأنبياء الموحدين لا من ناحية العقيدة ولا من ناحية الدين، فاقترفوا آنذاك أكبر عملية تزوير عرفها التاريخ حينما دونت معظم أسفار التوراة المزيفة، المستند الرئيسي لليهود "المتهودين" اليوم، فقد نسبت تلك المدونات المشبوهة والمضللة إلى أنبياء كرام.

"ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا وإياي فاتقون". (سورة البقرة).

"وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه يعلمون". (سورة البقرة).

"فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون" (سورة البقرة).

ونجد في القرآن أيضا أنهم "... يحرفون الكلام عن مواضعه".

وجاءت الاكتشافات الأثرية الحديثة لمدونات قديمة لتثبت ما جاء في القرآن وهو قول صدق لا ريب فيه، وقامت دراسات التاريخ والحضارات القديمة لتقوض دعائم التلفيقات التلمودية وتناقضاتها التاريخية

وقد أشار الكاتب الفرنسي الدكتور "موريس بوكاي" في كتابه "القرآن والتوراة والإنجيل والعلم " إلى الفرق الشاسع والواضح بين مصداقية الإنجيل والقرآن وتكريمهما للأنبياء وتطابقهما المدهش مع المفاهيم العلمية والمنطقية، وبين أباطيل التوراة وخرافاتها وأخطائها التاريخية التي اختلقها كهنة اليهود في الخفاء للانحراف بالدين اليهودي عن رسالة الأنبياء والوحي الحق.

فقد تعرضت سير الأ نبياء وقصصهم لعبث المتهتكين وتضليل المتشككين الذين تهجموا على عصمتهم في جرأة ووقاحة ما بعدها وقاحة، حيث تجنوا على صفوة الخلق والنخبة المختارة لحمل أمانة النبوة ونقل الحقيقة إلى الناس لإتمام رسالتهم بتهذيب الأنفس وتقويم الأخلاق وتنوير البصيرة بأنوار الإيمان والهداية والخير.

وقد طاولت جرأة كهنة اليهود هؤلاء حتى مقام ربهم "يهوه" فصوروه كإله "منفصم الشخصية" تارة ينتقم من شعبه وطوراً يندم على الشر الذي فعله، وإله رعوي لا يرضى إلا برائحة شواء الأضاحي، وهوذا القاضي جدعون يجرب الرب إلهه في التوراة مرتين لكي يصدق وعده إياه بالنصر، رغم تلك الوصية الأساسية في التوراة "لا تجرب الرب إلهك" (سفر القضاة الإصحاح السادس).

هؤلاء الأنبياء الذين وجب احترامهم وإجلالهم والإقتداء بسيرهم الصالحة نجدهم في أساطير التوراة "المنحولة" وفي الأسفار التي عبثت بها أيدي الكهنة والأحبار رعاعاً اقترفوا جميع أصناف الخطايا والكبائر، فأينما قرأت وجدت اللصوصية والزنا والقتل والغش والاحتيال وحتى الاغتصاب بين أنبيائهم، فهؤلاء الأنبياء الكرام المنزهو عن ارتكاب الكبائر والرذائل والمعصومون عن الإجرام والاحتيال شوه المدونون المشبهون سيرهم ولوثوا مكارم أخلاقهم بافتراءاتهم الباطلة الملفقة والمختلفة، ليصبغوا أنبياءهم بصبغة موبقاتهم ورذائلهم وخبث سرائرهم وزيغ طواياهم.

وحيثما قرأت في التوراة تصدمك حالات السكر والخلاعة والمجون ضمن آيات حسية غليظة من المحال تأويلها بتفسيرات دينية أو روحية بل هي نتاج الرغبات والشهوات، فنشيد الأناشيد الذي ينسب زوراً إلى النبي سليمان، ما هو إلا قصيدة إباحية لا تمت إلى الدين بصلة، كما ومن يقرأ الإصحاح الثالث والعشرين من نبوءة حزقيال يندهش لبذائة بعض العبارات، ومن يقرأ الإصحاح الثالث عشر من سفر صموئيل الثاني يصعق لوجود سفاح القربى في بيت النبوة، وكل هذا بالطبع مختلق ومدسوس، وهكذا دواليك لم ينج لوط من فعل الفحشاء والمنكر، أما يعقوب الملقب بـ "إسرائيل" (أبو أسباط اليهود الإثني عشر)، فأفعاله في التوراة لا تنم عن نبوة بل تظهره بأخس وأحط طوية . فيعقوب (كما جاء في التورا ة سفر التكوين الإصحاح 27) خدع والده النبي إسحاق بانتحاله شخصية أخيه "عيصو" ليسرق بركته وبالتالي النبوة، ومن ثم سرق خاله لابان الآرامي الذي حضنه وزوجه ابنته وأراد اقتسام أغنامه مع صهره الحبيب، فكانت خديعة يعقوب "الداهية" بأن إشترط على خاله أن تكون حصته الأغنام المخططة (سفر التكوين – الإصحاح 30)، وبدهاء ما بعده دهاء وضع يعقوب قضبانا على أجراه المياه "لتتوحم" الشاة حينما ترد المياه للشرب فتلد حملانا مخططة، وبهذا سرق النبي يعقوب معظم قطيع خاله لابان وعزا ذلك إلى إرادة إلهية.. فتأملوا!!!

وأما يهوذا، ابن يعقوب المميز الذي فضله على أخوته الآخرين (والذي إشتق إسم "اليهودية" Judia و "اليهود" فيما بعد من اسمه) فكان بنظر هؤلاء الكتبة إنسانا زانيا لم تسلم من مجونه كنته ثامار أرملة أحد أبنائه (سفر التكوين الإصحاح 38)، ونصل في بحثنا هذا إلى النبي داوود الذي اتهموه بجريمة سوقية يأبى إتيانها الأشرار فكيف الأنبياء الأطهار، فقد اتهموه بامرأة أوريا الحثي وبتدبير اغتيال ذاك الضابط الشهم الذي أبى على نفسه الراحة في بيته وجنود داوود يقاتلون أعداءه في القفار (صموئيل الثاني – الإصحاح 11)، وتلك إدعاءات باطلة ومدسوسة، فالنبي د اوود باعتراف التوراة ذاتها، رفض بشهامته شرب مياه خاطر ثلاثة من أبطاله للحصول عليها، كيف يقتل ضابطا من جنوده المخلصين من أجل شهوة بهيمية؟، وقد قال القرآن الكريم : "ولقد أتينا داوود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد " (10 سورة سبأ)، وروي عن الام ام علي بن أبي طالب قوله "لا أوتي برجل يزعم أن داودد تزوج إمرأة أوريا إلا جلدته حدين: "حداً للنبوة وحداً للإسلام".

أما النبي سليمان وهو صاحب الحكمة الشهيرة "شهوة الأبرار هي للخير فقط " فقد زعموا أنه تزوج 700 امرأة وامتلك 300 سرية وهذا منتهى الدس والتشويه، ومعاذ الله أن يكون سليمان الحكمة والفطنة انتهت نبوته بعبادة الأصنام والأرجاس كما يدعي هؤلاء الكتبة المغرضون (انظر سفر الملوك الأول – الإصحاح 11).

وبناء عليه، اقترح أحد أهم الباحثين الأميركيين وضع عبارة keep out of the reach of children (احفظه بعيداً عن متناول الأطفال) على كتاب العهد القديم حفاظاً على أخلاقهم ورهافة أحاسيسهم من الشناعة الموجودة في طيات الكتاب.

ولكننا في المقابل لا نعتبر أن التوراة برمتها مدسوسة ومرفوضة، فهناك لا تزال تلك الحكم المضيئة وتلك الدرر المتناثرة في ثنيات ذلك ا لخضم الهائل من الطقوس والمراسم والتشريعات والتواريخ، في أقوال الأنبياء العظام (قدس الله سرهم) أمثال أيوب وداوود وسليمان وشعيب، و "أشعيا" و "أرميا" و "دانيال" و "حزقيال" و "زكريا" و "ملاخي" وغيرهم ممن نطق بالحق، دون أن ننسى جماعة الأسينيين، وهي طائفة يهودية جليلة، اشتهرت بفضائلها وتقواها في القرن الأول الميلادي

وخلاصة القول إن عصمة الأنبياء مثبتة بالبرهان العقلي والدليل المنطقي فضلا عن الإيمان، لأن من يعصى الله في نواهيه ووصاياه، يعصيه في طاعته وفي كيفية ابلاغ رسالته فيحق عليه ساعتئذ إسقاط نبوته.

وإذا سلمنا بأن الأنبياء بشر والبشر يخطئون، فنقول أن الأنبياء برقيهم الأخلاقي وصفاء نفوسهم لا بد أن تكون أخطاؤهم هنات وهفوات صغيرة، ومن المحال بما اصطفاهم الله بنعمة الإيمان ونور العقل أن يقوموا لا بكبائر ولا بصغائر، ولا أن ينحرفوا عن صراط الحق كالقوم الضالين، بل هم القدوة والمثال والسرج المنيرة التي تبدد غياهب الجهل والشرك لتضيء لنا رحاب البصائر بالإيمان

عصمة الأنبياء والافتراءات التوراتية –راجع الضحى العدد 71 –كانون الثاني 1998.

الغنوصية والأسينيين (بنو إسرائيل الحقيقيون):

انتشرت الحضارة اليونانية انتشار النار في الهشيم في العالم المتمدن كله، بفضل الفتوحات الواسعة التي تمت على يد "الإسكندر المقدوني" قبل الميلاد، وكان "الإسكندر" يجمع بين شجاعة القائد وحكمة الفيلسوف، بفضل تتلمذه على يد "أرسطو" فيلسوف اليونان العظيم من جهة وبفضل تربيته العسكرية الفذة من جهة أخرى . بفضل هذه الفتوحات تحقق الامتزاج بين الشرق والغرب على أوسع نطاق، وأتاحت هذه الإمبراطورية الجديدة المترامية الأطراف لمعتنقي الديانات والفرق المختلفة أن يمارسوا شعائرهم علانية، ويطلعوا غيرهم على مواكبها وحفلاتها التي كانت تجذب إليها الأتباع والمعجبين.

الغنوصية كمثل تلك الحركات، وهي حركة فلسفية سبقت المسيحية، جاءت لتوفق بين الديانات المتعددة. فقد استوعبت تعاليمها الفلسفات الشرقية والبابلية والمصرية والهرمسية واليونانية بالإضافة إلى اليهودية وأخيراً المسيحية ا لتي أصبحت أحد أنظمتها الثلاثة في القرن الأول . ومع مطلع القرن الثاني الميلادي تشكلت عدة فرق غنوصية داخل الإمبراطورية الرومانية على الطرف الشرقي المحاذي للبحر الأبيض المتوسط. بعض هذه الفرق عاش وعمل بين الجماعات المسيحية الأساسية كالـ "درويد" في بريطانيا واللثثار في فرنسا الذين استمروا حتى القرن الثاني عشر والمندائيين في العراق والبعض الآخر شكل

جماعات منعزلة عن باقي المجتمعات كالأسينيين الذين عاشوا على ضفاف البحر الميت، والبعض الآخر كانوا أفراداً مستقلين، ومع هيمنة الكنيسة تعرض الغنوصيون للضغوطات والمضايقات، كما اتهموا بالهرطقة وحكم عليهم بأبشع أنواع القتل والتعذيب، إلى أن اختفى أثرهم كليا مع مطلع القرن السادس الميلادي . هناك الكثير من العالم اليوم من الفرق الدينية تتبنى العلوم الغنوصية وتبحث في مصادرها القديمة

جوهر الغنوصية:

Gnosticism الغنوصية كلمة مشتقة من الكلمة اليونانية Gnosis أي المعرفة، لكنها ليست أي معرفة، بل معرفة حقيقة الوجود عبر تجربة روحية حسية مباشرة. إذا الغنوصية ليست مذهباً بعكس ما يشاع عنها، بل هي ما يشار إليه بالفلسفة اليونانية بالـ Epistimology أي فرع من الفلسفة يعني بتعريف ماهي المعرفة (كيف يعرف الإنسان إنه يعرف). الكلمة Pistis اليونانية المشتقة من كلمة Epistimology تعني العقيدة النابعة من إرادة المعرفة المتحررة من كل ضغط اجتماعي أو ديني.

ولا تتحقق المعرفة، بالنسبة للغنوصيين، بالشرائع والطقوس، ولأنه ما من وسيط بين الباحث عن المعرفة مخير . وهي لهذا تلقي مسؤولية تعريف الوجود على لافرد . فالمعرفة التي يمكنها أن تحرر بعض الأشخاص قد تشكل عقبة في وجه البعض الآخر، لذا فعلى كل إنسان أن يجد في السير نحوها على قدر طاقته وقدراته . فإذا اختار الإنسان التوحيد بين عالم المادة وع الم الروح فهو يصل إلى المعرفة المطلقة المتعالية عن الازدواجيات والتناقضات التي يفرضها عالم المادة المركب وإذا اختار الدوران في حلقات المادة المفرغة متقلبا بين الجوع والشبع، بهذا يكون قد اختار الوهم بتجاهله العالم الاسبق والأساسي وهو عالم الروح، والخيار بالنسبة للغنوصية ليس في الاعمال وحسب بل في كل لحظة وفي كل فكرة يفكر بها الإنسان. تؤيد الغنوصية نظرية أفلاطون عن الأرستقراطية الروحية أي أن هناك أرواحاً عارفة وضوح مقاصدها وعت الحقيقة منذ البدء وأخرى جاهلة منذ البدء أيضاً. وبما أن الغنوصية تعتبر الجهل شرا والخير معرفة وتعتبر أن الناس ينقسمون إلى قسمين : أهل الخير وأهل الشر، لذلك فهي تستبعد مبدأ نسبية الخير والشر أو ديمقراطية الأرواح . فإحدى ركائز الغنوصية هي نظرية ثنائية الوجود أي انقسام عالم المادة عن عالم الروح، لذا يجدر على طالب المعرفة ألا تخدعه المظاهر الخارجية للبشر عن إدراك ذواتهم الباطنة.

"كثير هم المدعوون وقليل هم المختارون" يقول أحد الأناجيل الغنوصية، وعلى الرغم من هذا يحذر بعض الغنوصيين من كل استغلال لهذه العبارة يقوم بها أحد الغنوصيين بذريعة تمييز نفسه عن الآخرين أو في تفسير رؤيا ما جعلته يشعر بالامتياز. ففي الحقيقة هذه العبارة على الرغم من وضوح مقاصدها، فقلة قلة تعرف مضامينها الحقيقية، أولئك القلة هم المستعدون للإفضاء، فالمختارون بالمعنى الغنوصي ليس كنظرية "شعب الله المختار" (كما صورها لاحقا التلموديون) والتي تستغلها الدولة العبرانية عبر تكريس نفوذها المادي لتخضع شعوب الأرض، بل تأخذ معنى آخر لدى الغنوصية، فالمختارون يبادلون الله محبته في كل نفس من أنفاسهم، ويعون أن الوصول إليه ليس بمعجزة بل يتم عبر العقل والنفس والقلب، وهي ما وهبه الله لكل إنسان بتعبير آخر، المختارون يقدرون أن إمكانية معرفة الله موجودة في جميع العباد هم يتميزون فقط بإدراكهم لهذه الإمكانية وسعيهم وراء تحقيق الممكن . وبهذا يمكن أن يعتبر الغنوصي "محفوظا"، يمكن أن يعتبر مباركاً، ولكنه لا يمكن أن يدعي الألوهية مهما بلغت درجة انعكاس الوجود الإلهي فيه. مفهوم توحيد الإنسان مع الله لدى الغنوصية غير قابل للنقاش، ولكن هذا التوحيد له قانون وهو: أن يكون الإنسان جزءا من الكل. ومعرفة الله بالنسبة للغنوصية الحقيقية ليست مسألة إثبات عقيدة ما أو الدفاع عن فكرة فلسفية، بل هي إفساح المجال للإرادة الإلهية بأن تعبر عن ذاتها المطلقة عبر إرادة الذات الفرد ية فيظهر الله في الإنسان . لكن ادعاء الألوهية مرفوض لدى الغنوصيين وبالرغم من أن معرفة الله بنظرهم تتم عبر معرفة الذات وحتى من توحدت ذاته مع الذات الإلهية، يبقى على وعي بأن الله (جل وعلا) أكبر من أن يحدد وعلى إدراك بأن ذاته جزء ولو غير متجزي من كل. الذات لدى الغنوصية هي المرجعية المسؤولة عن الأجوبة، فإذا فكرت في الله كما تفكر في أي شيء آخر فأنت لست بغنوصي أو "عارف"، إن التجربة الروحية التي يمر بها الغنوصي الحقيقي مع خالقه تعطي للإله قيمة معرفية هائلة لا توجد للأسف في ممارسات الأديان المعروفة فهو نصف حقيقة لأن ه لا يتصل بجوهر الذات، وهو نصف خال لأنه يتعالى عليها فالطريقة الوحيدة لمعرفة الله هي معرفة ما يمثله الله في الذات وماذا تمثل هذه الذات الفردية في الذات الكلية

الوصول إلى الذات:

إن الأسئلة البسيطة التي تجول في خاطر الإنسان الواعي هي: "ما الذي أفعله في هذه الدنيا؟ لماذا أنا هنا؟ لماذا أنا موجود؟ من يسأل؟ ومن سيجيب؟.

تتحدث الأناجيل العرفانية عن حماقة العمل اللامنتج، وخصوصاً الأعمال التي تتعلق بوضع الإنسان في هذا العالم، ذلك الإنسان الذي يحصل على أجوبة معلبة بالتوراث و "يسوي أموره" الاجتماعية والمادية عبر التملق والمجاراة والتدليس.

"هيرماريتيا" كلمة يونانية تعني عدم بلوغ الإنسان هدفه، أو بمعنى آخر "أن يخطئ". من المؤسف أن تأخذ كلمة "الخطيئة" طابعا اجتماعياً أخلاقياً يختبئ المرء خلفها هرباً من الفضيحة أو خوفاً من كلام الناس، وفي الحقيقة إن الخطيئة تعني انحراف الإنسان عن هدفه ومن المؤسف أن يشعر الإنسان بالذنب لمجرد أنه ارتكب ما يستحق المعاقبة عليه. فمن يعاقب من؟ شعوره هذا ينم عن جهله للهدف.

تلقي الغنوصية مسؤولية تحديد الهدف على الإنسان العارف، كونه عارفاً ومسؤولاً فينبغي أن يكون حريصاً على أن تعبر أفكاره وأعماله عن حالته الذاتية وليست مجرد انعكاس لحالات اجتماعية أو دينية

الوصول إلى الذات بتحديد الهوية :

هوية الإنسان الحقيقية ليست في جنسيتة أو مهنته أو عائلته كما أنها ليست في ما نسميه بـ "الشخصية". الهوية هي الذات. وهذه الذات ليست وسيلة لكي يعرف الإنسان من خلالها كفرد، بل المفهوم الحقيقي للذات هو التجرد من كل المفاهيم الأنانية التي تفرق الذات الفردية عن الذات المطلقة لذا فمعرفة الذات على الرغم من طموحها إلى استقلالية الفكر والعمل فمصدرها وتكوينها لا يتحققان في "الفردية" في المجتمع أو بتعبير أكثر عامية عبر "بناء الشخصية" بل تأخذ معنى "ميتافيزيقيا"، فمعرفة الذات الواحدة وإدراكها التي هي الهوية الحقيقية تعني معرفة الذات الكلية مصدر كل الذوات، فالذات الفردية هي بمثابة ترائيات الذات الإلهية. لذا فالتجربة الجسدية بالنسبة للغنوصية أو ما يسمى بتجربة الأنا الفردية هي فرصة للإنسان يحصل من خلالها على زاوية في الزمان والمكان يستطيع من خلالها تعقل ماهيات الوجود المطلق بتأمل المركبات بدءا بمركبات المادة وانتهاء بمركبات الصور . وتنبه الغنوصية الإنسان إلى هدفه. فإذا كان هدفه هو الوجود فعليه أن يعي مطلقية الوجود ويجتهد لكي يوحده في (الفكرة) فمن العبث أن تجزئه أو تبني أفكاراً عنه، لأن المطلق لا يتجزأ . مجموع تجارب الإنسان في حياته هي بمثابة جزئيات من الانطباعات المتصلة ببعضها البعض بالوعي وهذا ما يدعى بالـ "ذاكرة". هناك القليل من المنطق الذي يمكن استقراؤه من

مسلسل هذه الانطباعات في حياة واحدة خصوصا . من المؤسف أن أغلبية الناس لا تلحظ عبثية هذه الانطباعات إلا في مراحل متقدمة من العمر لتوفر الوقت لديها للتأمل، وعندها ينتابها اليأس والخوف . لذا فالسبيل ليس في بناء المستقبل بجمع المادة، الخبرة أو الفكر كما يفعل الأغلبية من المفكرين، فأسمى الأهداف هو معرفة الوجود، والوجود مطلق غير محتاج، لا ينقص ولا يزيد، لا يعرف له ماض وحاضر ومستقبل، أما الفكرة فهي موجة عدمية دخيلة تعكر صفو بحر المطلق وتنتحل صفة الأحدية ولكنها غير مكتفية بذاتها، لذا فهي متعلقة بغيرها . حتى لو كان ما يبحث الإنسان عنه هو نهاية أو مستقر ما في المستقبل، يجب ألا يتوقف عن طرح الأسئلة حتى لو تطلب الأمر التأمل الفكري العميق، فمن ناحية أخرى لا يمكن للإنسان أن يتجاوز المطلق عبر الانغماس في غيبوبة فكرية.

وهنا تكمن أهمية التوحيد الغنوصي (وهو في التوفيق الفكري والعملي بين الوجود الزمكاني والوجود المطلق). سئل السيد المسيح في أحد الأناجيل العرفانية : "هلا أخبرتنا عن نهايتنا" فأجاب "هل رأيتم البداية لكي تسألوا عن النهاية، فعند البداية النهاية".

كان هذا القول كالنوتة الموسيقية النافرة في آذان المستمعين من بعض رجال الدين التقليديين، حيث أشار السيد المسيح من خلاله إلى تطبيق العالم المطلق أو "عالم المثل" كما أشار إليه أفلاطون بحيث أنه ذاتي لا يتقيد بزمان أو مكان. لذا تحذر الغنوصية الرجال العارفين إلا يعطوا انطباعات للغير على أن كل ما يقولونه عن الدنيا والآخرة هو جواب أكيد أو مطلق لا يحتمل الجدل، فالغنوصية الحقيقية غرضها تشجيع التساؤل "السقراطي" المتفائل بوجود الحقيقة ولكن غير المتسرع في تقديم الأجوبة لعمله بأن هذه الحقيقية تفوق قدرة العقل على كنهها . فمتى يصبح الإنسان شكاكا ويفقد عزيمة البحث عن أجوبة؟ حين يشعر أنه على الرغم من مصداقية الذين كلموه عن الرب، فهو عاجز عن الإيمان أو الاعتقاد به، لأن ليس هناك ما يراه أمامه من فعل على الأرض يعزز هذا الكلام . لذا فالغنوصية الحقيقية لا تتخم الإنسان بالأجوبة بل تطرح أمامه الأسئلة وتمرنه على أن لا يتوقف يوماً عن التساؤل وأن يعي أن الأجوبة موجودة في ذاته.

الغنوصية (بين ديموقراطية الأجساد وأرستقراطية الأرواح) – راجع الضحى العدد السبعون (كانون الأول 1997).

بعد فتوحات الإسكندر الأكبر وانتصاره على داريوس الفارسي خضعت منطقة "اليهودية" Judia إلى سيطرة اليونانيين، وفي ظل هذا الحكم تعرف الشعب اليهودي إلى "سنن الأمم والعبادات الوثنية، ففقد التزامه بدينه وأهمل شريعته الموسوي التوراتية ما أدى إلى نشوب "الثورة المكابية" التي قادها الكاهن "متتيا" وأبناؤه الخمسة ضد الملك الهيليني "أنطيوخس إبيفانس" بسبب تدنيسه هيكل سليمان وقد سيطر على أورشليم يهوذا المكابي التي سميت سلالته بالمكابيين.

وكانت ثورة المكابيين للتخلص من التعاليم الجديدة وعبادة الأوثان التي حاول فرضها الملك السلوقي والعودة إلى شريعة الأجداد فظهرت طائفة من اليهود عرف أتباعها بالفريسيين انتهت التشدد في الشريعة وتعلقت مع الزمن بالنصوص الحرفية دون الإيمان الروحي، واشتهدت بالرياء والتكبر والتعصب الأعمى والانغلاق، وبرزت بعدها طائفة أخرى عرف أتباعها بالصدوقيين خاصمت الفريسيين ونافستهم بالتشدد من ناحية الشريعة، ولم تعترف إلا بالأسفار الخمسة الأ ولى من التوراة التشريعية، وأنكرت هذه الطائفة البعث والقيامة والآخرة وآمنت بأن ثواب الإنسان وعقابه يلقاهما في هذه الحياة الدنيا ماديا.

وفي خضم هذا التشدد اليهودي الذي تاه في متاهات الطقوس والشعائر الظاهرية التي كثيرا ما تشبه العادات الوثنية البعيدة كل البعد عن روحية التدين، غرق رجال الدين اليهود وأحبارهم في لجج الممارسات الطقوسية من ذبائح وقرابين وتقتير وترنيم وتبخير لتخلو تعاليمهم من أي صفاء روحي أو مسلك ديني يهدف إلى خلاص الروح ومعرفة الخالق، عندها نشأت بينهم طائفة غنوصية سامية عرف أتباعها بالأسيين، نبذت هذه الممارسات الناموسية التي شرعها نبيهم موسى وأخوه هارون الذي أسس سلالة الكهنة اللاويين، ونسج شعائرها التكليفية الكاهن "عزارا" وتذكر الاسينيون قول النبي أشعيا عن لسان الرب : "ما فائدتي من كثرة ذبائحكم. قد شبعت من محرقات الكباش وشحم المسمنات وأصبح دم العجول والحملان لا يرضيني ... لا تعودوا تأتوني بتقدمة باطلة. إنما البخور رجس لدي. رأس الشهر والسبت ونداء المحفل لا أطيقها إنما هي إثم واحتفال. رؤوس شهوركم وأعيادكم كرهتها نفسي.

صارت على ثقلا قد سئمت احتمالها . وأن أكثرتم من الصلاة لا استمع لكم لأ ن أيديكم مملوءة من الدماء. فاغتسلوا وتطهروا وأزيلوا شر أعمالكم من أمام عيني وكفوا عن الإساءة".

واتعظوا في صلاة النبي داود إلى ربه: "أنك لا تبتغي ذبيحة ولا ترتضي بمحرقة. إنما ذبائح الله روح منكسر. القلب المنكسر المنسحق لا ترذله يا الله". (مزمور 50).

سنة 1947، فتى عربي يرعى الأغنام قرب شاطئ البحر الميت في فلسطين، كان يمري الحجارة على مدخل مغارة بحرية تعلو مكان وجوده تدعى مغارة قمران، فجأة سمع صوت انكسار جرة، فتسلق المنحدر ليتحقق من الصوت، وما اكتشفه بصعوده هذا أحدث ثورة في طريقة دراسة الكتاب ا لمقدس، فهناك في هذا الكهف وداخل هذه الجرة وجد عددا كبيرا من لفائف ورق البردى المتراصة والتي تحتوي معلومات تتعلق بأدق مضامين العهد القديم ونبؤاته.

إنها تعاليم مميزة من آثار العهود القديمة وجدت وهي تحتوي على حكمة أزلية تصلح للتطبيق في كل زمان ومكان. ومن الممكن العثور على بقايا جديدة منها ومثيلاتها من حيث المحتوى ويمكن الوصول إليها فقط عبر المخطوطات "الهيروغليفية" السومرية المنقوشة على صخور المعابد والتي يعود قدمها إلى فترة زمنية تتراوح بين ثمانية وعشرة آلاف سنة، كما أن بعض الرموز وخصوصا منها ما يتعلق بالشمس و القمر والهواء والماء والقوى الطبيعية يعود قدمها إلى قبل ذلك أي قبل التغيرات الطبيعية العظمى التي أنهت الدور السابق.

ولا نعلم كم من آلاف السنين قبلا كانت هذه الرموز ومعانيها موجودة والتي يعتبر درسها وتطبيقها بمثابة موقظ أو منبه للمعرفة الحدسية التي إذا تمكن الإنسان من بلوغها لاستطاع أن يحل مشاكل العالم كله، وآثار هذه التعاليم قد ظهرت في كل بلد وفي كل دين ومبادئها الأساسية قد علمت في بلاد فارس ومصر والهند والتيبت والصين وسوريا القديمة وفلسطين واليونان ولم يسبق أن نقلها شعب أو حضارة بعفوية ودقة وصفاء كما نقلها الأسينيون، هذه الأخوة الغامضة التي عاشت بين المئتين قبل المسيح والمئة الأولى بعده في فلسطين وعلى ضفاف بحيرة "ماريوتيس" في مصر، وقد عرفت هذه الأخوة بالـ "أسينيين" في سوريا وفلسطين أما في مصر فقد عرفت بالمعالجين والشافين . وبالنسبة لتعاليمهم فإن الجزء الخفي منها كان يلقن من خلال رسائل أسموها "شجرة الحياة" و "الاتصال الأسيني مع الملائكة " و "السلم السابع المضاعف "

وغيرها، أما الجزء الظاهري منها فمدون في كتابهم الأول وعنوانه "إصحاح السلم عند الأسينيين" وهو الذي اكتشف في مغارة قمران الآنفة الذكر.

إن أصل ومنطق هذه الأخوة غير معروف حتى الآن كما اشتقاق اسمهم فالبعض يعتقد أن اصلهم يعود إلى اخنوخ وأنه هو من أسسها وهو كان يشكل محور الاتصال بينها وبين العالم الملائكي . والبعض الآخر يعتبر أن اسمها مشتق من اسم إسرائيل . ومهما كان فمن المؤكد أن الأسينيين كانوا موجودين كاخوة وجماعة منذ أوقات بعيدة ونستطيع أن نتلمس تعاليمهم في "الأفيستا" (كتاب الزرادشتية المقدس) والذي جعل من هذه التعاليم طريقة وطريقا للحياة كما أن أسس المبادئ الـ "براهمانية" وعلوم الـ "فيدا" والـ "أوبانيشاد" (النظرية اللاهوتية للفلسفة الهندوسية القديمة) ونظم اليوغا والهندية تنبثق جميعها من نفس المصدر وقد أبرزها بوذا لاحقا في فلسفته وفي كتابه المقدس "شجرة البوذيين" والذي يتناغم مع كتاب الأسينيين "شجرة الحياة". أما في التيبت فالتعاليم عينها تجسدت في كتاب "عجلة الحياة في التيبت". الفيثاغوريون والرواقيون في اليونان القديمة اتبعوا أيضا ما يماثل المبادئ الأسينية في طريقة حياتهم وهذه المبادئ عينها كانت أسس الحضارة "الفينيقية الأدونيسية" والأساس الذي قامت عليه مدرسة الفلسفة في الإسكندرية في مصر كما ساهم في عدة مجالات في بناء الحضارة الغربية وترجمها المسيح بأجمل وجه وشكل في خطبته على جبل الزيتون والتي تضمنت مبادئه السبعة الشهيرة.

عاش الأسينيون على شواطئ البحيرات والأنهار بعيدا عن المدن والبلدات ومارسوا حياة طغى عليها الطابع الجماعي الذي يقتضي المساواة والمشاركة في كل مظاهر الحياة، وكانوا معظمهم مزارعين ولديهم معلومات واسعة عن عوامل التربة والمناخ وزراعة الحبوب والعوامل الطبيعية في مناطق تعد صحراوية بأقل قدر ممكن من استهلاك الطاقة البشرية، لم يكن لديهم أي عبيد أو خدم وهم مشهورون بأنهم أول أناس دانوا العبودية كنظرية وكتطبيق. لم يكن بينهم غني أو فقير فقد اعتبروا أن كلا الحالتين شاذة عن القانون الإلهي وقد اسسوا نظامهم الاقتصادي الخاص بهم والذي يتماشى مع هذا القانون وأثبتوا بمسلكيتهم أن مجمل حاجيات الإنسان المادية يمكن الوصول إليها من دون صراع، قضوا معظم وقتهم في دراسة المخطوطات القديمة التي ركزت بمجملها على الطب وعلم الفلك ويقال انهم ورثوا هذه المعارف عن الكلدانيين والفارسيين والمصريين، كما امتازوا بتمرسهم بفن النبوءة والتي كانوا يصلون إليها بالصيام المطول وكانوا محترفين في

العلاج بواسطة الأعشاب . عاشوا حياة بسيطة عادية، يستيقظون كل يوم قبل بزوغ الفجر ليدرسوا ويتصلوا بقوى الطبيعة. ويستحموا بماء باردة كعادة متبعة ويلتفوا بقماش أبيض يتناولون الطعام بهدوء يفتتحونه بصلاة وينهونه بصلاة، ولشدة احترامهم العميق لجميع المخلوقات الحية لم يأكلوا اللحوم ولم يشربوا الخمر . أما أمسياتهم فقد تكرست للاتصال بالمساوات، وأن طريقة حياتهم مكنت الفرد منهم من العيش حتى مئة وعشرين عاما وأكثر ويقال أنه كانت لديهم قوة عظيمة وقدرة وثبات في كل أعمالهم كانوا يعبرون عن محبة خلاقة . من أعظم المعالجين الشافين أو رسلهم إلى العالم إيليا (يوحنا المعمداني) والسيد المسيح السيد الإسيني الأكبر.

أما الانتماء للاخوة فكان يستوج ب نظاما وقواعد دقيقة من فترة انعزال لا تقل عن السنة إلى ثلاث سنوات من الممارسة العملية والتجريبية وصولا إلى سبع سنوات من العلوم الظاهرية قبل التعرف على الحكمة السرية الأزلية.

إن سجلات سير الحياة الأسينية أتتنا من خلال كتابه المعاصرين عنهم وأبرزهم "بيليني" (عالم الطبيعة الروماني) و "فيلو" (الفيلسوف الاسكندراني) "ويوسفوس" (المؤرخ الروماني اليهودي) و "سولانيوس" وغيرهم، والذين أجمعوا كلهم في وصفهم للأسينيين على أنهم شعب مستقل ومتميز أتم التمايز بشكل لا مثيل له في العالم.

بعض التعاليم الظاهرية للأسينيين حفظت في الفاتيكان باللغة الآرامية والبعض الآخر باللغة الـ "سلافية" والتي كانت بحوزة "الـ هايسبورغ" في النمسا ويقال أنها انتقلت إلى آسيا عبر الكهنة النسطوريين الذين هربوا من جيوش جنكيز خان وصداها اليوم يتجلى بأشكال عدة كما تظهر ملامحها في عبارات نستعملها يوميا كـ "السلام عليكم" وفي أسماء أيام الأسبوع أيضا.

ويثبت صمود هذه التعاليم عبر العصور أنها ليست من صنع فرد ولا جماعة بل هي تفسيرات لعلوم إلهية أوتيت للعالم عبر أسياد وأنبياء علموا البشر النظام الكوني، فهي تفسير للقانون الإلهي بإلقائها اللوم بما يتعلق بالكوارث والخلل الطبيعي على شذوذ الإنسان عن هذا النظام، وتفسح السبل للرجوع عن الخطأ وخلاص النفس.

المسلك الروحي للأسينيين:

احتقر الأسينيون الحياة المادية والبذخ والترف وإشباع النزوات التي كان يعيشها اليهود في أورشليم، فاشتهروا بالعفة والتعفف والصدق والمحبة والتآلف فيما بينهم . دانوا العبودية وتقشفوا زاهدين في متاع الحياة الدنيا في مسلك صوفي باطني متمسكين في صفاء الروح ونقاء النفس والفضيلة والخشوع متوجهين إلى الله دون واسطة أو وسيط.

وآمن الأسينيون بخلود الروح وفناء الجسد وحساب النفوس فتعرضوا للاضطهاد في أورشليم لهذا المسلك البار، فانتبذوا ناحية البحر الميت وعاشوا حياة نسكية جماعية عنوانها الطهر والعفة والعبادة الروحية

ورد ذكر الأسينيين ونظام حياتهم وتنسكهم في موسوعة ال مؤرخ اليوناني الأصل "بلينيوس الأكبر" والمؤرخ اليهودي الأصل "يوسيفوس" في كتابه "حروب اليهود" والذي وصف حياتهم ومنهجهم الديني . أما الأديب ميخائيل نعيمة فقال أن معنى اسمهم هو "الساكتون" أو "الأنقياء"، أو "الأطباء"، وأشار إلى انضمام يوحنا المعمداني ويسوع المسيح إلى الأخوة الأسينية وهما في الثالثة عشرة . ويتردد أن الفيلسوف فيثاغوراس قدم من كروتونا إلى جبل الكرمل حيث تصوف مدة من الزمن ونشر رسالته بين الكنعانيين فأثرت فيما بعد على الأسينيين، وهذا قد يفسر مدى التشابه بينهم وبين الفيثاغوريين في تصوفهم واعتقادهم بخلود الروح. وادعى الصابئة المندائيون الذين اشتهروا في جنوب العراق، بأنهم جاؤوا من ضفاف البحر الميت ونقلوا معهم تعاليمهم الغنوصية متشبهين بالأسينيين.

وهذه مقتطفات مترجمة عن الآرامية من أسفار مخطوطات خربة قمران:

لا تسعى وراء قانون الكتب، فالحياة هي القانون

فما الكتب إلا كلمات

حقا أقول لكم

الأنبياء لم يتلقوا القانون من الربا كتابة

بل من خلال الكلمة الحية

فالقانون هو كلمة حية وينطق بها إله حي إلى أنبياء أحياء

ففي كل ما هو حياة كتب القانون

فهو في العشب والأشجار

في الأنهار والجبال وطيور السماء

في كائنات الغابات وأسماك البحار

ولكنه يوجد خاصة في ذواتكم

فكل الأشياء الحية اقرب إلى الرب من الكتب

فالله صنع الحياة والأشياء الحية

لتكون هي الكلمة الأبدية

فعلموا كلمة أب السماوات

والأرض الأم

إلى الآدميين

فالرب لم يكتب كلمته على صفحات الكتب

بل كتبها في قلوبكم وأرواحكم

في أنفاسكم ودمكم

في لحومكم وعظامكم

في عيونكم وآذانكم

وفي كل أعضاء جسدكم

في الهواء والماء

في الأرض والنبات

في أعماق المرتفعات

فكل هذه الكائنات تتكلم إليكم

لكي تفهموا سر اللسان والإرادة

لسان وإرادة الرب

الكتب هي من صنع الإنسان

ولكن الحياة وحامليها هي من صنع الرب

رب أنت أولا

خلقت قوى السماء

وأفصحت عن قانونها

ومنحتنا الأفهام

من عقلك أنت

وصنعت حياتنا الجسدية

فنحن ندين لك يا أب السماوات

بما وهبتنا من تنوعات الحياة

فنحن ندين لك يا أب السماوات

لأنك وضعت فينا منبع الينابيع

وضعت فينا ينبوعا حيا وسط صحراء قاحلة

ليروي جنة أبدية

ليروي شجرة الحياة، ولغز الألغاز

لتتشعب منها أغصان الأبدية

ملاك الحكمة العقل الكلي:

ما هي الكلمة البليغة؟

هي كلمة الحكمة المباركة

ما هي الفكرة الحسنة؟

هي تلك التي يفكر فيها طفل النور

الطفل الذي ينظر إلى الفكر المقدس

نظرته إلى أغلى ما في الوجود

وهكذا ينشأ طفل النور

في تركيز وعلى اتصال

لكي تنمو فيه الحكمة

وهكذا يثابر

حتى تنجلي أمامه

غوامض الجنة الأبدية

حيث شجرة الحياة

وعندها سينطلق بهذه الكلمات:

يا أب السماوات!

هبني رسالتي

في بناء مملكتك على الأرض

من خلال الأفكار والكلمات والأفعال المحكمة

أفكار ولكلمات وأفعال طفل النور

وأغلى ما عندي!

هو عقلك الكلي!

سأعبده وأعبدك يا أب السماوات،

لأنه صاحب عقل فينا

مسؤول عن الحفاظ على مملكتك

حرريني أيتها الحكمة المقدسة من الخوف

حرريني من الجهل

ابعثي فينا الإدراك اللامتناهي

الذي لا يحد بكتاب

وابعدينا عن سبب المآسي والخراب

إبعدينا عن الجهل

جهل الذين قد قضوا وماتوا

وجهل الذين سوف يموتون

نبوءات:

اصغوا لي، يا شعبي

واولوني أذنا

ارفعوا عيونكم إلى السموات

وانظروا إلى الأرض أدنى

السموات سوف تتلاشى كالدخان

والأرضون ستغدو رديئة كرداء رث

والذين يقطنون في السموات والأرضين

سيفنون فناءها

ولكن مملكتي ستكون إلى الأبد

وقانوني لن يقضي عليه

في ذلك اليوم جهنم ستمتد امتدادا

وتفغر فاها لا قياس له

ومجد وازدراء وأبهة الأشرار ستنحدر

في داخل الفم انحدارا

عندها تلتهم النار الجذامة

ويستهلك اللهب العاصفة

ويصيب التلف جذور الاشرار

وزهوهم كغبار يتلاشى

لانهم هجروا قدسية النظام الإلهي

واحتقروا كلمة أبناء النور

وفي ذلك اليوم، ينظر الإنسان إلى الأرض

ولا يرى إلا آلاما واسى

ونور السموات يغدو قاتما

وحكام يدفعون بشعوبهم إلى الخطأ

وأتباع لهم يزهقون باطلا

فالكل في ذلك الوقت مراء ومنافق وشرير

وكل فم ينطق بحماقة

وتصبح الناس كوقود نار

يحترق بلهيبها الفجار

ولا أحد يعتق أخاه

ويل لمن يخطئون ببصيرتهم،

ويتعثرون بحكمهم

أولئك هم الكاذبون المتمردون

هم من رفضوا سماع صوت الرب

هم من يقولون لذوي الرؤية: "تعاموا"

وللأنبياء: "ليست النبوة علينا بخير"

لكنهم يتكلمون بأصوات ناعمة

ويل لمن يحكمون ظلما

ومن ثم يبعثون بتعاز لمآس هم سببها

ويل لمن يصلون بيتا ببيت وحقلا بحقل

في أواسط الأرض حتى يأتي الزمن الذي لا

يوجد مكان فيه للخلوة

ويل لمن يستيقظون باكرا

ليس توقا للقاء الملائكة

بل ليتابعوا الشرب حتى الليل

إلى حيث لهيب الخمر يشعلهم

ويل لمن يسمون الشر خيرا والخير شرا

ومن يمزجون الظلام بالنور والنور بالظلام

ويل لمن يسلبون الفقير حقه

ويجعلون من الأرامل ضحايا ويسرقون اليتامى

سيأتي زمن تقلم فيه يد الرب أغصانهم

بأصابع النظام الإلهي

وكل غطريس يقهر

هللوا فيوم الرب قريب آت

سيكون دمار من الواحد القهار

وقلب كل امرئ سيذوب

عندها سينتابهم الخوف

ووقع فاجعة يستحوذهم

وألم امرأة في مخاض

يذهلهم والكل مذهول بالآخر

ووجوههم كدخان

انظر، فيوم الرب آت

يوم موحش وحشة غضب جبار

يجعل من الأرض فقرا

سيحصل في ذلك اليوم

أن الرب سيعاقب المتكبرين

وملوك الأرض على الأرض

عندها سيجتمعون معا

كسجناء حفرة ويسجنون سوية

ويظهر الرب من مكانه

وينزل ويلامس الأماكن العليا على الأرض وستطوى

الجبال تحته والوديان تذوب

ذوبان شمع على نار

والمياه تنجرف نزولا من أعالي المرتفعات

ويختفي القمر وتنخسف الشمس

وتخل نجوم السموات بنورها

ويهز الرب السموات

والأرض تمور

في يوم غضب الرب

تتبدد المدن المضيئة

وتسكنها وحوش الصحاري

وتفقد الأرض خضرتها

في ذلك اليوم تصبح المدن الحصينة كمقابر مهجورة

وعواصف حبات برد تجرف ملاجئ الكذب

والمياه غاضبة

تطوف على مآوي الأشرار

وعلى قمة كل جبل

وعلى قمة كل تلة

ستكون أنهار وسيول

في يوم الذبح العظيم

عندما تنهار الأبراج

بعد ذلك اليوم سيصبح نور القمر كنور الشمس

ونور الشمس سبعة اضعاف

انظر، اسم الرب آت من بعيد

يتأجج بلهيب الضغب

والعبء في ذلك الحين ثقيل

وشفاه الرب مليئة بالسخط

وفمه كنار ملتهمة

سيريهم قوة ذراعه

بلهيب نار ملتهمة

فأبناء آدم قد هجروا النظام الإلهي

مدينة الفوضى والإرباك قد دمرت

وكل بيت مقفل بوجه صاحبه

ونحيب وولولة على الطريق

ومرح قد لطخ بالدم وطرب الأرض قد ولى

سيحدث أن كل من يتفادى صوت الرعب

سيقع في الحفرة

ومن سينجو من الحفرة

سيؤخذ في الفخ

والنوافذ في الأعالي تفتح

وأسس الأرض تهتز

وتتدمر الأرض وتنحل

وتمور بسرعة

عندها سيذوي القمر وتخجل الشمس

وترقص الأرض متأرجحة رقصة سكران

وستقع ولن تقوم أبدا

ومضيفو السموات ينفضون منها

والسموات ستطوى كالسجل

وضيوفها سيسقطون أرضا

كما تتساقط أوراق العنب

وكما يتساقط التين من شجرة التين

والبحار ينفد ماؤها

والأنهار تجف

والينابيع تتحول إلى مستنقعات

والغبار إلى كبريت

والأراضي ستصبح بركا من الحمم

تلتهب ليلا نهارا

وسيسكن الأرض طيور الواق

والبوم والغراب

وعليها تمتد منادية

خطوط الضياع وصخور الفراغ

منادية حكام الأرض

وما منهم أحد هناك

وأمراء الأرض يصبحون لا شيء

وشوك ينمو على صورهم

وقراص وعليق على حصونهم

وستكون مستوطنة للتنانين

وملعب للبوم

وسفراء السلام يذرفون دمعا مرا

والطرق العامة ستدمر

والأشجار لانقراضها معدودة

وطفل يمكن أن يعدها

انظر، اليوم آت

وكل ما ذكر سيحل في الأرض

وكل ما ذخره آباؤنا

سيتبخر مع دخانها

فأنتم قد نسيتم أب السموات

وقد احتقرتم الأرض الأم

وقد اضطهدتم قانون لأب ولهذا ستخفيكم

السموات وستلقي بثقلها عليكم

وستهبط الجبال نزولا عند حضوره وستريهم يده قوة قانونه

انظروا، فنحن لا نستحق، لأننا أخطأنا

نحن كبحر هائج، لا يعرف استقرارا

ومياهه تقذف الوحول والأوساخ

فقد تحلينا بالغرور، وتبوقنا بالكذب

وأقدامنا تركض نحو الشر

تاركة وراءها الدمار والخراب

نلتمس طريقنا إلى حائط مسدود عميا

ونتعثر في الظهيرة كما لو كنا نمشي ليلا

نحن في أماكن مقفرة كالأموات

ولكنك اليوم، أنت أبانا يا أبا السموات

فنحن الطين وأنت لنا الخزاف

ونحن شعبك

فالمدن المقدسة بدونك قفر

والأرض هدر

بيتنا المقدس

ذلك المكان الذي فيه مجدك آباؤنا

قد حرق بالنار

حتى بريق علوم أبينا أخنوخ

قد دفن تحت رماد وغبار

ونظرت حينها إلى الأرض

فلم أجد فيها شكلا بل فراغاً مخيفا

وإلى السماء

فلم أجد فيها نورا

بل ظلاماً مخيفا

ونظرت إلى الجبال فرأيتها تنهار

ورأيت تلالا تذوي وتذوب

الأسينيون... أخوة الصدق والفضيلة (يوتوبيا على ضفاف البحر الميت) – راجع الضحى العدد السابع والستون (أيلول 1997).

النبي أيوب:

... وقالت المباركة لأيوب: ماذا بقي لك في بلواك هذه من لحم على جسد، ومن عم في قوام، ومن جلد يتراءى لي في القرب والبعد، وكأنه بقايا من ظلال الصمت وبقية باقية من رماد السكون، في ثورة النار الحسية وفوران مادتها وحركيتها خارج الذات يا أيوب:

أجابها صاحب البلوى وصاحب التجربة، وصاحب الاجتباء عبرهما: كلي وقري عينا ما طاب لك من جسدي الزائل هذا يا رفيقة كهفي ونسكي وتعبدي، ومحض توحدي وتوحيدي في ذروة الانعتاق من وهج التراب، وفي روعة الانخطاف الروحي في وهج التوحيد : فيا أيتها المباركة : لقد بقي لي النار الموقدة في الأفئدة؛ ولدت فينا على الفعل مولانا وهادينا، وبقي لك الحرير البراق في مادة تحول وتزول، وتفنى وتتحول؛ تدخل وتخرج من سجن إلى سجن للروح فيك فحذار الانزلاق إلى درك الشهوات، والتعلق بالأرض . فالثمر والانعتاق هو البغية والمراد . فليست الروح من هذا العالم، وليست النفس من معدنه : إنها من معدن الهي أسمى وأرفع وأقدس، وتجربة أيوب عليه السلام تؤكد حقيقة توحيد ما تاقت إليه نفسه وتشوقت، والصراطية المستقيمة، في ذاته، في مخرج تطهره ونقائه، وصفاء روحه، وأحقية الاجتباء فيه وبه؛ ومعنى الاختيار ورهبة الامتحان في الذات وبها، شكلت، كلها، في الحالين والسفحين والمنورين: حال الصبر في أيوب؛ فكان صابرا وصبورا واستمرارا هذه الحال في رياضها، وعبق عبيرها، ونفح الطيب في شذاها، في حلها وترحالها، على دروب التوحيد ومسالك الحق في حنايا الذات وتشوفات النفس في محض تواصلها وكشفه وحقيقة النور فيها، النور الإلهي الأزلي فيها من قبل ومن بعد : هنا بلغت الرؤيا بأيوب مفاتيح الملأ الأعلى وخزائن الرحمة والبركة والصدق، ونعم العطاء المقدس بلا حساب؛ فكان أيوب "الجد والفتح والخيال" شهداء الحق في "مقام الصبر" لأيوب فإذا به عليه وعليهم السلام ر مز للصابرين. فنعم الأوبة الكبرى لحقيقة الذات في أيوب . وجميل الصبر والعقبى والدار لكل الصابرين في كل الأكوار والأدوار : فالمقام هو هو وحقيقة ذات التوحيد لم تكن إلا معطى الأخيار والأبرار من لدنه تعالى، فقدس من ذاته لا موجود ولا معبود سواه، وليس كمثله شيء: له العزة والملك؛ البدء والانهاء : هو الواحد الأحد، في الظاهر والباطن في الأول والآخر . أنه العزيز الحكيم. أنه تنزيه التجريد تبارك وتعالى

من هنا، في ذروة شاهقة من ذرى عز التقوى والتعبد، وسكون العقل الإنساني من صدق عبادته تجلى في أيوب الزمان ومقام الصبر أرفعها وأعزها بعد مقام الفقر في الحالين فيدروب السالكين والمريدين فلا بد أن يخاطب عقولكم ونفوسكم ومجاري حركة العصر فيهم إنكم جميعكم، وبنو البشر قاطبة في القيم والمثل والجوهر أخوة في إنسانيتكم، أخوة في حقيقة أديانكم، أخوة في صرف الترفق من مفاسد المنقولين في الأديان، والجاحدين لخير مناقبها ودريتها، وحسن توجه القصد منها، وتوسم الخير في مراقي تقدمها وتطورها، ورهافة خشوع النفس في رحاب جنائنها . ما كان الدين يوما، ولن يكون، أداة تفرقة وفرقة بين الناس . ولا يمكن أن يكون قطعا وسيلة حروب ودمار، وقذارة اجتماعية، وانحطاط في التعامل الاجتماعي؛ كون الأديان كلها على اختلاف أزمانها وأدوارها ومراحلها وسيلة محبة في الإنجيل ورضى وإسلام وتسليم في القرآن. الأديان كلها الله مرجعها وباعثها ومعطيها بني الإنسانية قاطبة وعلى أيدي الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

فإذا كان دين الله الإسلام فالإسلام توحيد ومحض توحيد في حلقات متتابعة ومشعة منذ أن كان الوجود، وكان الموجود الحقيقي موجده ومبدئه وباعثه وبانيه، مقيمه ومؤيده بالحق بكافة الألسنة واللغات، وفي كل الأزمنة والدهور . أنه حقيقة السابق في وجوده كل الموجودات، وسابق لها ولعلة وجودها. ولا يمكن أن يكون علة لمعلول سواه. فتيقنوا وتفهموا أن السر بالمعرفة. وحقيقة العبادة أن نعرفه به، بالذات الجوهرية حيث لا يمكن أن نعرفه بغيره إطلاقا . وحدة في الدين واختلاف في المظاهر والعرض، وحدة في ذات الحق وتكثر في الشكل؛ وحدة في القرب والنجوى وتفرق في المذاهب والمسالك؛ والحقيقة هي هي في كل حال وزمان.

فحذار السقوط والزلل في متاهات الانحراف والمنحرفين، متاهات العدم والاعتكاف على عبادته في مسالك العدميين. فلا منجاة بعد فالعدم بوار ونور الحق في ذات توحيده : جنات ورضوان. بقي أن نعرف وتسلك. ويحضرني استشهاد الحلاج في صلاته الشهيرة: ".. وهؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلي تعصبا لدينك، وتقربا إليك، فاغفر لهم؛ فأنك لو كشفت لهم ما كشفت لي، لما فعلوا ما فعلوا . ولو سترت عني ما سترت عنهم لما ابتليت بما ابتليت. فلك الحمد فيما تفعل. ولك الحمد فيما تريد".

أنه سر محض التوحيد، لا يدركه ولا يعقله، ولا يعرفه إلا المتبصرون به، بذوات أبصارهم وبصيرتهم ولهم البلغة فيما يرومون ويجهدون وهذه السرية وكانت نهج حكماء الهند ومصر القديمة والصين وإيران واليونان وسواهم من الأقوام . ولا تزال ميزة من لا يزالون تعمر حياتهم وأرواحهم بمسلك الحكمة القديمة، المتصل المتجدد أبد الدهر . فالتوحيد المحض هو هذا العرفان ذاته من فرادة الحق الذي هو محض اختبار ولا يتحقق إلا في سر البصيرة العقلية والمخاطرة. إن هذا التوحيد المحض ونظرية التوحيد الثورية في الاسلام ذاته. (سورة النور) هو إحداثه الموجود في ذاته أو هو مسلك الأحدية: نهاية كل معرفة، هو "الحقيقة وحدها تشير وتدل إلى الحقيقة. ولا تدخل في أي اختلاف أو مشاحنة مع أي دين أو معتقد آخر . فالحكمة لا تنفك في أي زمان أو مكان عن الاستطلاع الأخير للعقل، ونزعته الجوهرية إلى معرفة مصير إبداعه وأصل ينبوعه ومعين خلقه

مسيرة أيوب الروحية هي الجهاد الأكبر، جهاد النفس.

مقتبسات من وأيوب إذ نادى ربه –راجع الضحى العدد الخامس والأربعون 1995.

التوحيد في المسيحية

مشاهد من ذاكرة التوحيد

عصر المسيحية

"لو كنتم من العالم لكان العالم يحب خاصته، لكن لأنكم لستم من العالم بل أنا اخترتكم من العالم لذلك يبغضكم العالم". (يوحنا 19/15).

"تأتي ساعة فيها ينظن كل من يقتلكم أنه يقدم خدمة لله". (يوحنا 20/16).

صباح 16 آذار 1244، 205 من الرجال والنساء والأحاث ساروا لحتفهم ينشدون أناشيد الوفاء والتضحية حيث حرقوا سوية في ما يعرف اليوم بـ Le Champs des Cre'mats أو "بستان الذين حرقوا"، وهو يمثل اليوم رمزاً لماض مسيحي مشرق بالحرية والكمال وسط ظلمات العصور الوسطى المكفهرة.

وتقف فوق ذرى جبال فرنسا الجنوبية المقدسة بقايا حصن "مونتسوغر" كذكرى حيّة لآخر عقيدة عرفانية في الغرب: العقيدة "الكاثارية" والإسم "كاثار" مشتق من الكلمة اليونانية Katharos أي الطاهر.

وبما أن الكنيسة الكاثوليكية آنذاك اتهمتهم بالهرطقة، حُكم على كتبهم كما أجسادهم بالحرق، لذا قلما نجد أثراً عن كتابتهم.

وطالما كان التاريخ عبر العصور بأيدي الأكثرية المتسلّطة وطالما كانت الأقلّيات النخبوية كالأسينيين والكاثار مُضطّهدة حتى في اختزان ذكراها بين صفحات كتب المؤرخين وتلافيف الذاكرة البشرية. طُمست فضائل الكاثار في المجتمعات الأوروبية بالرغم من تعاظم تأثيرهم في فرنسا وإيطاليا ويوغوسلافيا وبلغاريا وسويسرا وألمانيا إضافة إلى إثباتات عن علاقتهم العميقة بالمجتمع الصوفي الإسلامي في أسبانيا والشرق الأوسط دون أن ننسى الصين الغربية وتأثيرات الفلسفة الطاوية على عقيدتهم

وأصول الكاثار غير معروفة، والكثير من البحوث التي أُجريت عنهم لم تصل إلى نتيجة، وأول جذر لهم في الغرب وُجد في "شامبانيا" جنوب فرنسا قرابة سنة 1000 ميلادية، وغير معروف كيف ولم وُجد الكاثار في محافظة "تولوز" على الحدود مع ايطاليا، ومع هذا لهم جذور ضاربة في إيطاليا ، ومع هذا لهم جذور ضاربة في إيطاليا وألمانيا وشرق فرنسا، وكانت اللغة آنذاك Langue d' Oc والكتابات الكاثارية التي يُعتقّد أنها كانت وفيرة حُرقت وأتلفت من قبِل محاكم التفتيش الشهيرة لخدمة الكنيسة، فقط وثيقتان سلمتا من العبث، الأولى مخطوطة لاتينية The Book of the Two Principles أي "كتاب المبدأين" التي حُفظت في فلورنسا وهي ترجمة نُفِّذَت عام 1260 تستند إلى عمل كاثاري لِـ "جين لوجيو" من "برغامو" وكتبها عام 1230، والمخطوطة الثانية ترجمة لاتينية لكاتب قد يكون الكاثاري "بارثلمي من كاركاسون" وُجدت في "براغ" (التشيك) سنة 1939، وما تبقى من كتابات تعود لفرنسا تابعين للكنيسة الذين نظروا إلى الكاثار كما نظر الرومان إلى ال "درويد" بوصفهم سحرة ومشعوذين وعبدة للشياطين، وقلة من المؤرخين تطرقوا بموضوعية

لهم لأن نظرتهم الفلسفية لم تكن مجاوزة لنظريات ذلك العصر وحسب بل لنظريات هـ ذا العصر الحديث أيضاً، إذا بماذا اعتقد الكاثار؟

عبر العصور، كانت هناك فرق غنوصيّة تعهدت بالبحث العميق عن أسرار الوجود ولم تكتفِ بالتفسيرات السطحية السائدة لتضليل العامة، ومن الفيثاغورية إلى الأفلاطونية المُحدثة وصولاً إلى بعض الفرق العرفانية دأبت تلك الجماعات على كشف الحُجُب الكثيفة التي تستر الحقائق المتوخاة شغفاً بالرقي الروحي بعيداً عن السفسطة والعقائد العمياء، وكانت محاولاتهم المخلصة تعمُّقاً في حنايا النفس وتحدِّياً لقوانين الزمان والمكان وعوائقهما والتحرر منهما وصولاً إلى الإدراك أن الإنسان يك من في ذاته المقدرة على معرفة الوجود المطلق.

في الوقت الذي أفلس فيه الماديون من سبر أغوار التكوين، وتخلّى المثاليون عن العالم المادي وحلَّقوا في خيالاتهم وفي وقت لم يجد الباحثون عن الإله الواحد إليه سبيلا، عرف الكاثار ما لم يدركه الآخرون وعرفوا يقيناً أجوبة تلك التساؤلات الخطرة

لماذا يوجد الشر إذا كان الله كُلي القدرة؟

اعتقد الكاثار أن الخير والشر حالات يعيها الإنسان فقط في إدراكه لازدواجية العالم المادي المبني على التناقضات، وهذا الإدراك اعتقد الكاثار بأنه خيار يقوم به الإنسان بمحض إرادته متقلِّباً في دوامة وهمية تعطِّل غاية الوجود إلى ما لا نهاية، وكان اعتقادهم أن الوجود آحادي مطلق ويمكن الانجذاب روحياً إليه . من خلال الاستدلال العقلي لتناقضات العالم المادي الازدواجي الذي يتضمَّن حالات الخير والشر ارتقاء إلى إدراك المعنى الخفي في النظام الأحادي لعالم الذات، والاعتقاد عند الكاثار يستند إلى الثنائية: العالم الروحي وهو الحقيقي، والعالم المادي الذاتي وهو الوهمي، الحقيقة تتمثَّل بالمعنى الموضوعي الذاتي فيما الوهم يتمثَّل بالنظرة الشخصية الخاضعة للتأثيرات الجسدية

واعتقد الكاثار أن الإنسان روح وجسد، والروح فيض من الله والجسد من الأرض المادية لذا فهو على مفترق طريقين، فجزءه الإلهي يجاهد لتصفية ذاته ليتَّصل بالوجود المطلق عبر وجوده المادي، ويظهر

المفهوم المسيحي للكاثار في اعتقادهم أن بنور المسبيح يستهدي الإنسان إلى أنوار حقيقة الوجود وبذلك يرتبط رباطاً مقدساً مع الله.

"الذي يؤمن بي ليس يؤمن بي بل بالذي أرسلني". "الحق الحق أقول لكم انه ليس عبدٌ اعظَم من سيده ولا رسولٌ اعظَم من مرُسِله. إن علمتم هذا فطوباكم إن علمتُموه". (يوحنا 13/17–18).

ادَّعى الكاثار انهم المسيحيون الحقيقيون والعقيدة الكاثارية اعترفت بالمسيح كسيد أو رسول ولكنها رفضت اعتباره إلهاً أو مخلِّصاً للبشرية وفي حين أكَّد الكاثار بشرية المسيح اعتبروا من جهة ثانية أنه ذو قوى خارقة وحاشا أن يُهان ويُصلب لذا رفضوا فكرة الصلب والقيامة بعد الموت، وبما انهم اعتبروا العالم المادي وَهْم من تقلُّبات الكون والفساد أخذوا تعاليم المسيح بوجه روحي باطني، ونبذوا كل الطقوس الكاثوليكية كالقداس والتعميد ورمز الصليب، وآمنوا أن جهنم هي على الأرض وهي حرمان الروح من طبيعتها الإلهية المقدسة ولذلك أوّلوا القربان المقدس إلى معانٍ روحية، ومَثّل آخر على تفسيراتهم الرمزية أن شفاء المسيح للأعمى كان شفاءً روحياً فجعله يبصر الحقيقة، ورفضوا العهد القديم من الكتاب المقدس معتبرين ابراهيم وموسى أعداء الله أتيا بشريعة تفتقد إلى الروح، فركَّزوا في صلواتهم على العهد الجديد خاصة إنجيل يوحنا لاعتقادهم أنه سلم من عبث الكنيسة التي اعتقدوا أيضاً أنها اخفت صفحات مهمة من الأناجيل منها ما يؤكد حقيقة التقمص.

فقد آمن الكاثار بالتقمُّص حيث يُحَتَّم على الروح أن تعيش في أجساد عدة حتى يتحقق وعد يوحنا بأرض جديدة وسماء جديدة . وبإعتقاد الكاثار بتعدُّد الحيوات عبر التقمص لم يجبروا المقصرين منهم على استكمال معارفهم حيث باستطاعتهم تحقيق ارتقائهم في حياة لاحقة لكن على المقصرين أن يعرفوا المبادئ الأساسية للعقيدة. وينقسم المجتمع الكاثاري إلى جماعتين:

الجماعة الأولى: ال "بارفي" وال "بارفيت" Parfait et Parfaites الذين أقسموا يمين الولاء للعقيدة عبر طقس وحيد يُعرف بالـ "كونسوليمينتوم" Consolementom يتمثّل بوضع إنجيل يوحنا على رأس المعتنِق كما يضع الموجودون أيديهم، فوق الكتاب ويؤدي قَسَم الولاء، واشتهرت نساء الكاثار بحريتهن وبحقوقهن الراقية . كما وكان الرجال يسافرون اثنين اثنين لكي

يُحاسِب الكاثاري زميله إذا اخطأ . وحازوا على المعارف العليا وهم نباتيون رجالاً ونساءً كرسوا أنفسهم لشفاء الناس وتوجيه الجماعة الثانية إلى سُبُل الخلاص الروحي، وتعهَّد الرجال منهم بعدم الزواج.

الجماعة الثانية: ال "كريّون" وهم الكاثار الذين لم يختاروا طريق الكمال (البارفي) لكنهم خضعوا لبعض القوانين التي اعتبرها الكاثار ذات قيمة روحية وليست تنظيمية منها وصايا أهمها أن لا يجعلوا الله عُرضة لُحلفانهم لأن من يحلف مرةً يكون قد كذِب حين لم يحلف، ومثل ال "درويد"، لم يكن الكاثار مجتمعاً منعزلاً بل انتشروا في المجتمع الفرنسي فكانوا أطباء وواعظين ولم تكن لديهم مهن منبوذة لكنهم فضَّلوا الخياطة ولُقِّبوا بالخياطين، وكان الكاثار يعرفون نظرة الناس إليهم وإلى فلسفتهم لذا لم يخوضوا في نقاشات قد تؤدي إلى تصادم ولم يناقضوا عقيدتهم من أجل أي غرض وفضَّلوا الصمت على الكذب الذي اعتبروه الخطيئة الكبرى لذلك عُرِفوا بالمسالمين، وبالرغم من نبذهم للحياة في عالم المادة الوهمي رفضوا بشكل قاطع قتل النفس أو الانتحار . وكأن اختيارهم للحياة في عالم معكوس جُرم دفعوا ثمنه، فحين تنامت قوتهم في منطقة Langue d'oc بدأ قلق الفاتيكان وقرر أن مثل هذه "الهرطقة" لاتُحتمل فليست سلطة الكنيسة الكاثوليكية فقط هي التي ستتعرَّض للخطر بل كان نظام أوروبا الاقطاعي، فليس من الخطر إذا ما انتهج ناسك حياة الزهد والتقشف لكن الخطر يكمن حين تنتهج جماعة كبيرة حياة كهذه، وهذا ما شكَّل تهديداً لنظام الكنيسة آنذاك الداعم للإقطاع، فحل غضب الكنيسة والاقطاع الشمالي على الكاثار، وبدأت الحملات عليهم م نذ سنة 1209، وفي سنة 1215 أسس مجمع "لاتران" L atran محكمة تفتيش مخيفة وفي غضون خمسين سنة ارتفع عدد ضحايا هذه المحكمة إلى مليون قتيل وفاق هذا العدد ضحايا كل الحملات الأخرى ضد الهرطقة وحطَّم جنود الفاتيكان قلاع الكاثار خلال هذه الحملات واعتقلوا البارفي والبا رفيت وقاموا بحرقهم بالطُرُق التقليدية على الأعمدة الخشبية، واستمر البارفي الذين أقسموا ولاء الـ Consolementom على مساعدة المعتقدين. وكان العدو الرئيسي لهم "كونت تولوز

ريموند السادس" (صهر الملك البريطاني وابن عم ملك فرنسا)، حيث طلب منه البابا "إنوسنت الثالث" القضاء على الكاثار، فتعرَّضوا لحملة إبادة في جميع البلاد وأهمها "حادثة مونتسوغر"

مونتسوغر:

قاد الهجود على جنوب فرنسا ضد الكاثار المتعصب "سيمون دو مونفور"، وكل المدن الموالية لهم تعرضت للتدمير بأبشع أنواعه. وخلال هذه الحملات، تحدَّت مونتسوغر الكنيسة ووقفت حصناً من الإيمان، وكان مقتل اثنين من مفتشي الكنيسة في "أفينيون" الشرارة التي أدَّت إلى الهجوم على مونتسوغر.

لجأ معظم قادة الكاثار "البارفي والبارفيت" إلى حصن مونتسوغر، لأن الحصون الأخرى كانت قد سقطت في الحملات الأخرى، ودام الحصار عشرة أشهر عانى خلالها ال بارفي من العطش والجوع وكانوا بقيادة "بيار روجيه دو ميربوا" وبحركة خيانة وصل جنود الكنيسة إلى قمة الحصن، وفي 16 آذار 1244م سقط حصن مونتسوغر وسجَّل التاريخ ثبات عقيدة نخبة الكاثار حيث لم يتخلَّ أي "بارفي" أو "بارفيت" عن عقيدته عندما خُيِّر بين الموت ونكران ا لعقيدة، فتوجَّه الكاثار إلى الموت حرقاً وهم ينشدون أشعار الوفاء والتضحية.

الكاثار (منارة العصور الوسطى وضحايا التعصُّب)– راجع الضحى العدد التاسع والستون (تشرين الثاني 1997).

أين وُلِدَ السيِّد المسيح؟ في الناصرة أم في بيت لحم؟: سؤال تردَّد منذ أن كانت المسيحية حتى اليوم. فقد عكست الأناجيل الأربعة المعروفة وُجُهات نظر عِدَة حول حياة ورسالة المسيح ومنها مكان ولادته.

يخبرنا متّى ولوقا في إنجيليْهما أن المسيح وُلد في بيت لحم، لكنه ما يختلفان في سرد وقائع ما بعد ولادته، ففي حين يصف نتىّ قدوم الحكماء الثلاثة من الشرق (المجوس) بعد عدة أيام من ولادته : "وأتوا إلى البيت ورأوا الصبي مع مريم أمه"، يخبرنا لوقا عن "رعاة متبدّين يحرسون حراسات الليل على رعيتهم" وكيف ظهر لهم "ملاك الرب" وبشّرهم بمولد الطفل يسوع: "تجدون طفلاً مضطجعاً في مذود". والتباين جلي الوضوح

بين الروايتين، فكما لم يأتِ متىّ على ذكر الرعاة غاب عن قول ذكر المجوس، في حين لم يتطرَّق كل من مرقس ويوحنا في إنجيليهما إلى مولد المسيح، وانتقلا مباشرة إلى معموديته على نهر الأردن، وأطلقا عليه تسمية "يسوع الناصري" من دون أن يُذكَر ! "بيت لحم". ويستمر السؤال: هل وُلد المسيح في بيت لحم أم في الناصرة؟ وهل كان الزائرون لمكان ولادته رعاة أم مجوساً، أم كلاهما معاً؟

هناك عدة تباينات وتناقضات بين الأناجيل الأربعة . مثلاً، ما هي كلمات المسيح الأخيرة ؟ في إنجيلَيْ متّى ومرقس كانت عبارة من أحد المزامير: "إلهي إلهي لماذا تركتني"، في حين يورد لوقا عبارة أخرى " يا أبتاه في يديك أستودع روحي"، بينما نجد عبارة قد أكمل في إنجيل يوحنا لكن أية عبارة هي الصحيحة؟ أو هل نطق المسيح كل هذه العبارات حقاً كما يدّعي البعض؟ أسئلة كهذه جعلت الباحثين يستنتجون بأن كُتّاب الأناجيل أقحموا آراءهم في أقوال المسيح فاكتُنِفت بالغموض، ومنذ القرن الثامن عشر شرع الباحثون في التقصّي عن شخصية المسيح "التاريخية". وقام "هيرمان صموئيل ريماروس" (1694–1768)، بروفسور في اللغات الشرقية في جامعة "هامبورغ" (ألمانيا)، بالمحاولة الأولى لفصل "يسوع الحقيقي" عن طبقات الخرافة والتقليد التي تحيط بشخصيته. وقد كشف "توماس جيفرسون" جانباً من هذه الحقائق في رسالة إلى "جون آدامز" عام 1814 جاء فيها: "في العهد الجديد هناك إثبات ضمني بأن بعض أجزائه صدرت عن رجل خارق غير عادي في حين أن الأجزاء الأخرى يبدو أنها نتاج عقول أدنى . وإنه من السهل بمكان أن تُفصَل تلك الأجزاء عن بعضها كفصل ألماس عن الحصى".

هل تُعتبر الأناجيل تاريخية :

منذ كتابة الأناجيل في القرنين الأول والثاني حتى طباعة الكتاب المقدس عام 1455 عقب اختراع "غوتنبرغ" للآلة الطابعة، نُسخت الأناجيل باليد، وقام الرهبان والكتبة بنسخ كل مخطوطة متكبِّدين العناء الشديد. وكما هو معروف يقترف النُسّاخ أخطاءَ عديدة أثناء قيامهم بهذه المهمة الشاقة، ونُسّاخ الكتاب المقدس غير مستثنين بالطبع، فقد ظهرت أخطاؤهم وكذلك الحشو والحذف حينما قارن الباحثون كل المخطوطات الموجودة، وبرهنوا أن الأناجيل الحالية غير خالية من الأخطاء نظراً للتناقُض الموجود في ما بينها أحياناً، وليست كما اعتبرها مجلس الفاتيكان الأول (1869–1870) "مؤلِّفها هو الله" إنما هي وليدة

تقليد ديني تطوَّر خلال حقبة من الزمن. وبانتاجهم هذا التحليل المنطقي، استنتج الباحثون مبكراً مع بداية هذا القرن أن كتّاب الأناجيل لم يكونوا شهوداّعلى أحداث حياة المسيح وحتى أنهم لم يلتقوا بشهود، في الواقع لقد كتبوا أناجيلهم بعد موت المسيح لم يولد في بيت لحم، وأن ولادته كانت عادية وطبيعية وأن قصص ولادته العجائبية في بيت لحم بعيدة عن الواقع . ومصدر الاضطراب في قصة ميلاد المسيح يعود إلى نبؤة ميخا التي تشير إلى أن المسيح سيأتي من بيت لحم، وقد حاول بعض المسيحيين الأوائل الإثبات أن يسوع يجسِّد هذه النبؤة في حين تُظهر الأبحاث تناقُضاً واضحاً في الناحيتيْن التاريخية والدينية. والسبب الآخر الذي جعل الباحثين يشكِّكون بروايتَيْ متّى ولوقا حول مولد يسوع هو أن كُتّاب الأناجيل الأخرى لم يشيروا إلى ولادة عجائبية للسيِّد المسيح، فمرقس ويوحنا لم يذكرا شيئاً عن "الحَبَل بلا دنس" عبر الروح القُدُس ولا عن ولاد ة العذراء وكذلك أمر بولس (كتب رسائله ما بين عامي 48 و 64 ميلادية). إن متّى ولوقا هما المصدران الوحيدان لرواية الولادة غير الطبيعية، وتوصَّل الباحثون إلى حقيقة مفادها أن إنجيليهما كُتبا بعد إنجيل مرقس في حدود عامي 80 و 90 ميلادي بالتتالي، وقد أرسل لوقا "العائلة المقدسة" إلى بيت لحم في محاولة لإثبات أن يسوع الناصري كان المسيح المنتظر وليس لأن هذا الانتقال حدث حقاً، لذا، كما أوضح"ماركوس بورغ"، يرى هؤلاء الباحثون اليوم قصص ولادة المسيح "روايات رمزية اختلقتها الحركة المسيحية الأولى "، وغضّوا الطرف عن تلك الروايات واتَّجهوا إلى الكلمات التي يُعتَقَد أن يسوع نطق بها . فغالباً ما اقتبس متّى ولوقا أقوالاً متشابهة ووضعاها في ترتيب مختلف، ومثال على ذلك "الموعظة على الجبل"، فبينما نجد يسوع "صعد إلى الجبل" في إنجيل متّى فتقدم إليه تلامذته، نراه في إنجيل لوقا "وقف في موضع سهل هو وجمع من تلاميذه وجمهور كثير من الشعب ..." حوله، وفي حين تمتد الموعظة عند متّى إلى 111 آية تقتصر عند لوقا على 34 فيما انتثرت آيات الموعظة الأخرى في أنحاء عدة من إنجيله . وفي دراستهم للتشابهات والاختلافات استنتج المحّللون بأن كتّاب الأناجيل استندوا إلى مجموعات من أقوال المسيح ونسجوا قصصاً حولها وفي بعض الأحايين أعطوها تأويلاً مغايراً، ومجموعات الأقوال هذه اعتمدت على نقل شفهي كما تذكَّرها أولئك الذين سمعوها وتناقلوها . وبمقارنة إنجيلَيْ متّى ولوقا مع إنجيل مرقس توصَّل الباحثون إلى أن متى ولوقا نقلاً عن مرقس ومن مصدر غير معروف دعوة "Q" إنجيلاً اعتقدوا أنه مجموعة من الأقوال من دون نسج قصصي، لكنهم لم يعثروا على أي أثر له.

وبعد ذلك، وفي سنة 1945 وجد مزارع مصري وهو يحرث الأرض قرب جرف على النيل في نجع حمّادي، جرة تحت التراب تحتوي على ثلاثة عشرة مخطوطة من ورق البر دى كُتبت باللغة القبطية بأحرف يونانية، وتعكس النصوص وجهة نظر غنوصية كانت تحظى بالقبول في دوائر المسيحيين الأوائل لكنها اعتُبرت فيما بعد "هرطقة".

ومن ضمن تلك المخطوطات ثلاثة نصوص دينية : سفر يوحنا السرّي، وإنجيل فيليب، وإنجيل توما وهو عبارة عن مجموعة من أقوال المسيح من دون نسج قصصي كما توقَّع الباحثون أن يكون إنجيل "Q" أو "المصدر". ويتألف إنجيل توما من 114 قولاً يبدأ معظمها بعبارة: "قال يسوع..." وتتشابه مع أقوال عديدة في أناجيل مرقس ومتّى، ولوقا، ويوحنا.

والسؤال البديهي الذي طُرح بادئ ذي بدء: هل اعتمد "توما" على الأناجيل الأربعة أم كتب إنجيله في وقت سابق لها؟ وبعدما تفحَّص الباحثون تلك الأقوال، وجدوا أن اسلوبها السهل أكثر "أصالة" من الأقوال ذاتها الموجودة في الأناجيل الأخرى، وهذا ما حدا بالباحثين الأميركيين بتحديد تاريخ كتابة إنجيل توما في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الميلادي الأول أي قبيل كتابة أناجيل متّى ولوقا ويوحنا، وبالتزامُن مع مرقس، وبإسلوب علمي اعتمد على التحليل والمقارنة أشاروا إلى تداخل تأويل الكتّاب مع الأقوال الصحيحة التي صعُب عليهم فهمها فأضافوا برأيهم ما يساعد المسيحيين الأوائل على استيعابها . واستناداً إلى إنجيل توما ونصوص غنوصية معاصرة له، استنتج هؤلاء الباحثون أن تعاليم يسوع الأصلية أُخذت في أكثر من اتِّجاه من قِبَل مجموعات مختلفة من الأتباع، ولذلك تكلَّموا عن "مسيحية توما" مثلاً و "مدرسة يوحنا". وقد أثار هذا الإنجيل ضجة في أوساط الدارسين ولسبب أن الأناجيل المعروفة أظهرت فريقاً من المسيحيين أوّلوا أقوال يسوع في إطار "مسيحاني" أو "رؤيوي" فيما يؤكِّد لنا إنجيل توما وجود مجموعة مسيحية في القرن الميلادي الأول أوّلت تلك الأقوال في إسلوب باطني صوفي . وقد أنجز هؤلاء الباحثون عملاً قيِّماً في تمحيصهم وتنقيبهم في العهد الجديد بحثاً عن أقوال السيد المسيح الحقيقية وفَصْلها عن المُخْتَلَقَة لدعم آراء مدارس الأتباع المتشعِّبة، واستنتاجهم الأكبر أو خلاصة أبحاثهم كانت التأكيد على أن تعاليم الكنيسة ليست التفسير الصحيح والأوحد لرسالة يسوع إنما هي من ضمن تفاسير عدة ازدهرت في القرون الأولى للحقبة المسيحية، وتأتي النظرة الغنوصية الباطنية في المقدِّمة وخير مثال عليها "إنجيل توما". ولنرَ كيف يفسّر كل

من متّى وتوما أحد الأقوال المشهورة "لا تُعرِّف شمالك ما تفعل يمينُك ". يستعمل متّى هذه العبارة في مقطع عن الصَدَقة حيث ينهي يسوع الناس عن التباهي بالدين علانية "فمتى صنعت صدقة فلا تُعرِّف شمالك ما تفعل يمينُك، لكي تكون صدقتك في الخفاء. فأبوك الذي يرى في الخفاء هو يجازيك علانية". في حين يضع توما العبارة ذاتها في نسيج آخر، ففي القول رقم 62 من إنجيل توما: "أكشف أسراري (أي يسوع) لأولئك الذين يستحقون تلك الأسرار، فلا تُعرِّف شمالك ما تفعل يمينُك"، وكما هو واضح وجلي فإن كاتب إنجيل توما يعطي هذا القول تفسيراً مختلفاً عن تفسير متّى، فهو يخبرنا أن يسوع لديه تعاليم سرية لا يفضي بها لأيٍّ كان. إنه معلِّم حكمة باطنية . إذاً، يقدِّم إنجيل توما مسيحية باطنية سرّية تؤكِّد على تماثل النفوس مع المسيح، ويعتبر بعض الباحثين هذا الإنجيل أكثر قُرْباً من رسالة المسيح الحقيقية

ما يجدر تعلُّمه من هؤلاء الباحثين المعاصرين هو أن شخصية المسيح كمعلِّم للحكمة الباطنية تتناظر مع شخصية "المسيح المصلوب" التي بُنيت عليها المسيحية التقليدية. هذه الشخصية الباطنية تتألَّق في الأناجيل الغنوصية التي لا تقل أهمية عن الأناجيل الأربعة المعروفة، وسوف تنبثق كالشمس من بين الغيوم حينما نكتشف المفاتيح المعرفية التي تساعدنا على فهم إنجيل يوحنا ورسائل بولس فتتألَّق مجدداً تلك الحقائق الغنوصية الصوفية.

المسيح.. معلم الحكمة الباطنية ومصدر الحقائق الغنوصية الصوفية (إيليزابيث بروفيت) إعداد قسم البحوث الروحية في الضحى–راجع الضحى ابتداءاً من العدد 77– تموز 1998

عاصفة الجدل اللاهوتي:

في يوم يعود تاريخه إلى بدايات القرن الرابع، وبينما كان أُسقف الإسكندرية "الإسكندر" يشرح عقيدة التثليث لجماعته وُلدت عاصفة من الجدل اللاهوتي ولم تهدأ حتى الآن . يومها وقف راهب بقامته الفارعة وبشعره الشائب المنسدل حتى كتفيه، يُدعى "آريوس" وطرح هذا السؤال الذي كان يبدو لأول وهلة بسيطاً: "إذا كان الآب قد أنجب الإبن، فإنَّ المولود لا بد له من بداية بكلمات أخرى : إذا كان الأب هو والد الإبن ألا يعني هذا أن للإبن بداية (من حيث الحياة والوجود) أم أنه وبحسب آريوس، "كان هناك زمان لم يكن فيه أي وجود للإبن". كان واضحاً أن مثل هذا السؤال لم يطرحه أحد قبل ذلك واستنكر كثير من الكهنة هذه الهرطقة

التي قال بها آريوس من أنه كان "للإبن" بداية. وعلى الفور اندلع الجدل بين أفراد الجماعة التي انقسمت بين فريقين: فريق يقوده آريوس من جهة، وفريق يقوده الإسكندر وال "قسّيس أتاناسيوس" من جهة أخرى. وقد تزعم أتاناسيوس فيما بعد حملة هذا الفريق في نضال جَدَلي استغرق حياته بكاملها . وكان أتاناسيوس بقامته الهزيلة ولحيته الحمراء ندّاً مثيراً للسخرية في مواجهة آريوس العملاق الذي يكبر بكثير خصمه، بحيث كان الأول يبدو في مقام الحفيد للثاني . عام 320م عقد الإسكندر مَجمعاً في الإسكندرية بهدف تفنيد أخطاء آريوس، ولكن هذه المحاولة لم تفلح في إقفال باب الجدل، لأن آريوس نقل الجدل يومها إلى صفوف عامة الناس ملخِّصاً لهم المسائل في ترانيم خلاّبة . وهكذا فإن الإعصار الذي تمخَّضت عنه هذه الترانيم اجتاح الشوارع من الإسكندرية إلى القسطنطينية (إسطنبول حالياً)، وزبدة هذه الترانيم تقول: "كان هناك ثمة زمان لم يكن فيه الإبن موجوداً ". وفجأة انتشرت حُمَّى الجدل الديني حتى بات كلُّ بقّال عالماً لاهوتياً ... الجوَّالون والصَّرافون وحتى الخدم وسائر سُكان المدن، سَرَتْ في أوساطهم عدو ى النقاش في هذه المسألة : "هل للإبن بداية؟". وكادت الكنيسة نفسها أن تنقسم إلى كنيستيْن عندما تناهى الخبر إلى أُذُن الإمبراطور الروماني قسطنطين، الذي قرّر التدخُّل شخصياً لفض هذا النزاع في حركة غيَّرت وجه المسيحية إلى الأبد ولكن لماذا كان هذا النزاع؟ وما هو وجه المشكلة سواء أكان هنالك بداية للإبن أم لا؟ !! فالأثوذوكس التقليديون اتَّهموا أتباع آريوس بمحاولة الانتقاص من الإبن بالقول أن له بداية، لكن الحقيقة تُقال أن جماعة آريوس أعطوا للإبن اعتباراً مقدَّساً بجعلهم إياه "أولاً بين المخلوقين "، فقد وصف آريوس "الإبن" بأنه ارتقى لمنزلة "الإله الكامل المولود الواحد اللامتبدِّل"، لكنه مع ذلك له بداية وأصل . وأضاف: "نحن مُضطهدون لأننا نقول بأن للمسيح بداية". وإذا لم تكن جماعة آريوس تستهدف مقام الإبن فماذا كان قرارها يا ترى؟ لقد كان بيت القصيد في الجدل الذي أثاره آريوس : طبيعة الإنسان وطريق خلاصه، ولقد افترضت هذه العقيدة صورتين ليسوع المسيح لا ثالث لهما، فهو إما أن يكون إلهاً منذ الأزل، وإما أنه كان إنساناً ارتقى إلى منزلة إبن الله . وإذا كان المسيح قد صار إبناً لله، فإن ذلك يستبطِن أن آدميين آخرين يستطيعون، نظرياً، سلوك دربه والوصول إلى منزلة عالية. وهذه الفكرة كانت غير مقبولة عند التقليديين، ومن هنا كان إصرارهم على أن المسيح كان دائماً إلهاً وأنه كان على الدوام مختلفاً تمتماً عن جميع المخلوقات . وكما سنرى فإن موقع الكنيسة الثيولوجي كان في جزء كبير منه محكوماً بمصالحها السياسية، لقد كان تيّار آريوس يشكِّل خطراً يهدِّد بجرف سلطة

الكنيسة لأنه يخفي في طيَّاته فكرة تقول: يمكن أن يتم الخلاص ويتحقَّق دونما حاجة للكنيسة (كما حصل مع يسوع).

الروح والجسد:

كانت نتيجة الجدل الذي أثاره آريوس حاسمة في التأثير على موقف الكنيسة من التقمُّص وم ن فرصة الروح في الاتحاد بالخالق. لنفهم وجهة نظر آريوس علينا أن نعود إلى الوقت الذي قرَّرت فيه الكنيسة أن الروح البشرية لم تكن يوماً ولن تكون جزءاً من الله، بل هي تنتمي إلى عالم المادة وهي بالتالي منفصِلة عن الله أيما انفصال. لقد عاش "أوريجانوس" وسلفه "كليمونس" في الإسكندرية في جوّ أفلاطوني. لقد اعتقدوا بوجود (عالم المُثُل) غير المنظور والسرمدي، وبوجود عالم المادة الزائل المتبدِّل، ونسبا الروح إلى عالم المُثُل بينما نسبا الجسد إلى عالم الطبيعة . فمِن وجهة النظر الأفلاطونية فإنَّ العالم لم يُخلق وإنما صدر عن ا لله الواحد الأحد، لقد جاءت الأرواح من العقل المقدس وحتى بعد اتِّحاد هذه الأرواح بأجسادها فإنها بقيت متصلة بمصدرها. ويعلِّمنا كليمونس بأن الإنسانية في شكلها الأرضي هي غرسة سماوية، وبأن الإنسان إنما صُنع ليكون "ظلاً وشبيهاً للخالق". مع كليمونس وأوريجانوس، اللذين علّما في مدينة الإسكندرية، كان هنالك فريق من الآباء ينسجون نظرية لاهوتية مُضادة . لقد رفضت هذه الجماعة المفهوم الإغريقي للروح لتقول ولأول مرة أن الروح ليست إطلاقاً جزءاً من (عالم المُثُل)، هي مثلها في ذلك مثل الجسد، جزء من عالم الطبيعة المتبدل والمتحوّل. لقد تركَّز لاهوتها على تحوُّل الروح وتبدُّلها وتساءلت كيف يمكن للروح أن تكون إلهية وخالدة طالما أنها متبدّلة متحوّلة وطالما هي عِرضة للزلل وارتكاب الآثام؟ وقد استنتجت أنها لا يمكنها أن تكون إلهية، أو شبيهة بالله، لأن الله لا يتبدّل ولا يتحوّل تناول آريوس مسألة تقلُّب الروح، لكنه انتهى إلى نتيجة مختلفة، فقال: لقد خُلِقَت الروح، لكنه انتهى إلى نتيجة مختلفة، فقال : لقد خُلِقَت الروح لتكون خالدة، ومع أنها تسقط وتتقلَّب لأسباب عديدة، إلا أنها تملك القدرة على استعادة حالتها الخالدة الأساسية . والنفس بالنسبة إليه في منزلة بين الروح والمادة وهي تستطيع أن تختار الانجذاب إلى أي منهما . فالإرادة التي تمتلكها النفس هي في موقع وسط بين الجسد والروح، وهي بلا شك خادم لأحد هذين السيِّديْن بحسب اختيارها. وإذا حصل واختارت النفس أن تنضم إلى الروح، فستَّتحد بها تلقائياً. أن تعريفه للنفس يشبه تعريف أوريجانوس ويعتبرها وجوداً بالقوة وهي موهوبة بالإرادة الحرة التي تجعلها تجنح نحو الفناء أو نحو الخلود،

نحو الطريق السامي أو الطريق الأسفل، لكنها وبصرف النظر عن الطريق الذي تختار سلوكه، هي بالتأكيد إلهية المصدر . وهكذا فإن بمُستطاعها أن تختار الاتِّحاد بالخالق إذا سلكت الطريق القويم الذي يؤدي إلى كمالها. ومع أن الروح قد تبتعد عن الخالق بفعل ممارستها لإرادتها الحرة، فهي ستحقِّق الحرية والخلود عن طريق تكرار الولادات وإعادة الالتحام بالشرارة الإلهية، التي هي جوهر الخالق في داخلها . ولو لم يعطِنا الله حرية الاختيار لكنا جميعاً مجرَّد دمى ولو كنا نفتقد الإرادة لما استطعنا أن نختار الصراع الهادف لإعادة الاتِّصال بالخالق، ولما كان لنا أن نُهنّأ بتحقيق هذا الهدف. أما لاهوتي العصر الثاني "تاتيان" فقد اعتقد مع الإغريق أن النفس تملك القوة الاحتمالية لكي تكون خالدة ولكنه قلب مفاهيم عصور الفكر الإغريقي المديدة، عندما ذهب إلى أن النفس والروح هما من مصدريْن مختلفيْن، فبينما تأتي الروح بحسب زعمه، من الأعلى فإن النفس تأتي من الأسفل وعليه تكون النفس جزءاً من عالم المادة أكثر منها جزءاً من عالم الروح، وهنا سيستنتج الأحبار التقليديون في وقت لاحق بأن الإنسان لا يستطيع أن يعبُر إلى عالم الروح دون أن يتلقّى مساعدة الكنيسة. هذه العقيدة، التي ربطت النفس بالجسد، قادت إلى نفي الوجود المُسبق، فإذا كانت النفس مادية وليست روحانية فإنها لا يمكن أن تكون موجودة قبل الجسد، يقو ل "غريغور النيسي": "لا يمكن للنفس أن توجد قبل الجسد ولا يمكن تفريق الجسد عنها ... كلاهما يصدران عن مصدر واحد ". متى تُخلق النفس إذاً؟ أجاب الآباء عن هذا السؤال بجواب بعيد الاحتمال: "إنها توجد في الوقت نفسه مع الجسد لحظة الحبل" وأضاف الأب جيروم قائلاً : "إن الله لا ينفكّ يصنع الأنفس كل يوم". إذا كانت الأجساد والأنفس تُخلق في الوقت نفسه وإذا كان عدد الأنفُس يتزايد يوميّاً مع تزايد الولادات، فإن الوجود السابق والتقمُّص يصبحان خارج نطاق أي بحث لأنهما مبنيان على فرضية وجود النفس قبل الجسد وأن النفس لا يمكن أن يكون لها وجود سابق للحظة ولادتها في جيلها الحالي. إن الكنيسة الكاثوليكية لا تزال إلى الآن تعلِّم أن النفس تولد في الوقت نفسه مع الجسد، وبناء عليه فإن النفس والجسد يكّونان وحدة واحدة . نمط التفكير هذا قاد بشكلٍ مباشر إلى نشوء الجدل الذي أثاره أوريجانوس، والآن وم ا دامت الكنيسة تنكر أسبقيّة النفس على الجسد، كما تنكر انتماء النفس إلى عالم الروح فإنها في الوقت نفسه تنفي أيضاً إمكانية صدور الأنفس والأجساد والعالم المخلوق عن الله؟

الهاوية الفاصلة:

بعد أن نفى آباء الكنيسة فكرة خلود النفس وإلوهيَّتها، وبعدما كانت هذه ال فكرة جزءاً من العقيدة المسيحية أيام كليمونس وأوريجانوس، طوَّر الآباء مفهوم الخلق من لاشيء، فإن لم تكن النفس جزءاً من الله فلا يمكنها أن تكون مخلوقة من ذاته. بناء على ذلك نراهم يستنتجون أن الله خلق الأنفس في الوقت نفسه مع أجسادها وكذلك سائر ماديات العالم من لا شيء على الإطلاق. وقد عبرّ عن ذلك الأب "تارتوليان" قائلاً: "إن الله أبدع هذا النسيج الكامل بكل ما فيه من عناصر وقوى وأجساد وأنفس من لاشيء ومن أجل عزَّته وجلالته". وعليه فإن النفس المخلوقة لا تحتوي على بذرة الله في ذاتها، وليس من الصعب التصوُّر من أين انبثقَت نظرة الإنسان لله على أنه ذلك السيِّد المستعبِد الذي خلق النفوس منفصلةً عنه وتحت تصرُّفه كالعجينة يلهو بها كما يشاء. ويقول لنا الأب "كلود ترسمونتان"، وهو لاهوتي معاصر: "بحسب العقيدة المسيحية الأصولية فإن النفس الإنسانية مخلوقة، وليست مصنوعة من مادة إلهية"، وعليه فإن النفس ضعيفة ولا تقوى على الوجود بمفردها، وهي مُسيَّرة بمشيئة الله ومختلفة عنه. بالإضافة إلى ذلك تقول لنا الموسوعة الكاثوليكية المعاصرة ما يلي: "بين الخالق والمخلوق هناك فرق واسع لا يمكن تصوُّره، إن الله ليس جزءاً من العالم، ليس مجرَّد ذروة الوجود. بين الله والإنسان توجد هاوية كبيرة". وكون الموجود مخلوقاً يعني أن الوجود بذاته لا يستقلّ عن سواه، وغير مكتفٍ بذاته أن النفس في حالة تبعية جذرية دائمة وكاملة. فلا مناص من الاعتراف بأن العالم ليس حقيقياً إلا بقدر ما شاءه الخالق وأراده وهذا يتناقض مع الأفلاطونية، فلا وجود لتلك السلسلة التي تربط المخلوق بالخالق، كما أنه لا وجود للشرارة الإلهية في قلب كل منا، بل على العكس هناك هاوية سحيقة تفصل الخالق عن المخلوق. هذه النظرة الجديدة في علاقتنا بالله والتي تبنَّتها بعض الفرق الإسلامية وليس فقط المسيحيّة لا تبعث فينا الأمل على الإطلاق، إنما تقول لنا بأننا، معشر البشر، محشورون في بؤس مقيم على حافة الهاوية السحيقة الغور ننظر إلى القعر ... مُحدِّقين في اللاشيء، نتألَّم عندما نرى الجانب الآخر المقابل لنا حيث يقيم الله في خلوده. غير أنه فوق هذه الهوة هناك جسر واحد للعبور، إنه الكنيسة، وسلوك هذا الجسر يتم عبر بوابةٍ مُحكَمة، بعضنا يُسمح له بالدخول ويُؤْخَذ بيده إلى الجانب الآخر منه. أما مَنْ يحاول العبور معتمِداً على نفسه فقط فيترنَّح ويسقط في الهاوية. عندما قال التقليديون بأن الإنسان مخلوق من العدم فكم تراهم ابتعدوا عن مفاهيم أيام كليمونس!!. لقد بعث كليمونس في إبن آدم الروح عندما وصفه: "ترنيمة مباركة من الله هو الإنسان. خالد هو، ومجبول على الحق وفوق هامته ترتفع هياكل النور والحقيقة". بإنكارها المنشأ الإلهي للإنسان، وكذلك احتمال صيرورته إلهاً، فإن عقيدة "الخلق من العدم"

ألغت بشكل صارم فكرة الوجود السابق أو الحياة اللاحقة . حالما اعتنقت الكنيسة عقيدة الخلق من العدم، فإنها بذلك قد أتَّخذت موقفاً وصارت مسألة نبذ كل من أوريجانوس وآريوس مسألة وقت ليس إلا في الحقيقة، إن الجدل الذي أثاره آريوس لم يكن سوى الخطوة الأولى من الم عركة التي ستحرق الأفكار الرهبانية التي مثّلها أوريجانوس.

إشكالية آريوس:

وُلِدَ آريوس بعد وفاة أوريجانوس بزمن غير بعيد ونشأ في التقاليد ذاتها من حيث ممارسة الرهبنة وتلقى التدريس على أيدي معلِّم مرشد، مردداً أفكار أوريجانوس ومحاكياً إسلوبه، ولكنه مع ذلك لم يستطع اعتناق جميع أفكار أوريجانوس لأنه مُجبَر على البقاء ضمن حدود الخط اللاهوتي الموجود الذي تُشكِّل عقيدة الخلق من العدم جزءاً منه . وعندما أثار آريوس السؤال عن بداية الإبن فإنه في الواقع كان يشير إلى شرحٍ عميقٍ في العقيدة، فالعقيدة لم توضح طبيعة المسيح، و هكذا كان يتساءل : هل توجد هوةً عميقة بين الخالق والمخلوق؟ وعلى أي ضفة من ضفتي هذه الهاوية يقف المسيح؟ وهل خُلق المسيح من العدم مثله مثل باقي المخلوقات؟ أم أنه كان جزءاً من الله؟ وإذا كان جزءاً من الله فلِمَ اختار الإنسان كجسد له؟

تُعلِّمنا الكنيسة أن الإشكالية التي أثارها آريوس كانت في سياق النضال ضد الذين قالوا أن المسيح ليس بإله. ولكن المسألة الحساسة كانت تكمن في الجواب عن السؤال التالي : كيف يكون خلاص الإنسان؟ هل يكون ذلك بمحاكمة المسيح أم بعبادته؟ لقد أجاب آريوس عن هذا السؤال بالقول إن المسيح قد أصبح إبناً لله، وأنه بذلك ضرب لنا قدوة شاملة نستطيع أن نقتدي بها . لكن التقليديين قالوا: إن المسيح كان دائماً وأبداً إبناً لله وكان جزءاً منه، وعليه يكون هو والله واحداً ولا يمكن للمخلوقات تقليده في ذلك لأنهم ليسوا من جوهر الله. بالتالي، إن خلاص الإنسان لا يمكن تحققه إُلا برحمة الله ومن خلال الكنيسة ليس إلا. لقد اعتقد آريوس أن الله تبنّى يسوع كولدِ له عندما بعثه من الموت وأن باقي البشر يمكنهم ذلك أيضاً إذا سلكوا طريق المسيح. لقد قال أتباع آريوس : "إن المسيح استحقَّ البنوة بالطريقة نفسها الممكنة لسائر بني البشر وإن تقمُّص المسيح كانت غايته إرشاد البشر إلى مقدرتهم في اللحاق بيسوع أو كما قال بطرس : "المشاركة في إرث المسيح". وربما كان أوريجانوس سيتفق مع آريوس حول الفكرة التي تقول إن هدف الإبن كان مساعدة

المخلوقات على تحقيق ألوهيتهم وقد كتب قائلاً: "إن مهمة المسيح هي مساعدة حتى يصبحوا آلهة" وإنه أي المسيح، "جاء ليعطي البشر الوسيلة التي ستمكّنهم من بلوغ القداسة"، وعندما باعدت الكنيسة الأرثوذكسية ما بين المؤمنين وبين المسيح فإنها أنكرت عليهم إمكانية أن يصبحوا مثله أبناء الله. لقد هاجم أتاناسيوس أتباع آريوس قائلاً: "إذا سلّمنا أن البشر يمكنهم الارتقاء إلى مستوى الإبن فإننا نكون قد جعلناهم في درجة متساوية مع الإبن الطبيعي والحقيقي وفي ذلك طغيان واضح . ولطالما أن الآب كما الإبن، والإبن كما الآب فكيف يمكن أن ينسب ذلك إلى باقي البشر؟". لقد رأى أتاناسيوس أن حمل العذراء بولدها دون دنس هو برهان على أن يسوع مختلف عنّا جميعاً وأنه هو الإبن الطبيعي الوحيد الممثل لله . وأن الحمل قد تمّ ليس بفعل زواج بشري بل بفعل الروح القدس.

هذا هو جسدي:

إن السبب الذي منع أتاناسيوس من تقبّل فكرة إنسانية يسوع، سببها إخفاقه في إدراك أن أيّ شخص يستطيع أن يكون بشراً وإلهاً في الوقت نفسه، لقد قرأ أتاناسيوس المعادلة من طرفٍ واحد ... فبالنسبة إليه إما أن يكون إنساناً وبالتالي متحوّلاً زائلاً . وإما أن يكون إلهاً وبالتالي خالداً وغير متحوّل . إن النظرة التقليدية ليسوع كإله، مبنية في جزء كبيرٍ منها على سوء فه لإنجيل يوحنا. يقول يوحنا: "في البدء كان الكلمة، وكان الكلمة مع الله، وكان الكلمة الله ... كل الأشياء صُنعت بواسطته وبدونه لم يكن لشيء أن يوجد ". ثم يقول لنا يوحنا في مكان لاحق: "صار الكلمة جسداً وأقام بيننا ". واستنتج التقليديون من هذا القول بأن يسوع المسيح هو الله وهو الكلمة التي صارت جسداً . إن ما استعصى عليهم فهمه هو أن يوحنا عندما دعا يسوع "بالكلمة"Word فإنما كان يرمز إلى أصل هذه الكلمة اليوناني وهي كلمة Logos، ووفقاً لتقاليد الفكر اليوناني فإن كلمة "لوغوس" تعني العقل الكُلّي وقد قال "فيلو" أحد الفلاسفة عن اللوغوس: "إنه شبيه الله الذي أبدع منه الله العالم أجمع"، وأطلق أوريجانوس عليه "النفس المسؤولة عن تماسك العالم". لقد اعتقد "فيلو" أن الشخصيات الإنسانية المميزة، مثل سليمان، تُعتبر تجسيداً للعقل الكُلّي Logos، وهكذا فإن يوحنا عندما كتب أن يسوع هو ال "لوغوس"، إن ما قصده يوحنا ه: "أن يسوع الإنسان قد أصبح العقل الكلّي اللوغوس". بعض اللاهوتيين الأوائل اعتقدوا أن أي شخص يمكنه الحصول على مثل هذه الفرصة إذا سلك درب السيد المسيح وآمن بتعاليمه وعمل بها.

كليمونس يقول لنا: "إن ظل "الكلمة" "logos" موجود في داخل كل منا" ومن أجل ذلك جاء في سفر التكوين: "إن الإنسان صُنع على "صورة الله ومثاله "، "فالكلمة" إذاً هو الشرارة الإلهية وبذرة المسيح في قلوبنا... ومن الواضح أن التقليديين إما رفضوا هذه الفكرة وإما تغافلوا عنها.

علينا أن نعي أن يسوع صار كلمة الله، مثلما صار مسيحاً، لكن هذا لا يعني أنه الإنسان الوحيد الذي يستطيع نظرياً أن يكون كذلك، وقد شرح يسوع هذا اللغز عندما كسر الخبز في العشاء السري الأخير. لقد تناول رغيفاً واحداً كرمزٍ للعقل الكلي الأوحد Logos، و"للمسيح الأوحد" وكسر هذا الرغيف قائلاً: "هذا جسدي أكسره من أجلكم ". لقد كان يشرح من خلال ذلك لأتباعه بأن هناك إلهاً واحداً مطلقاً أحداً ومسيحاً واحداً أو كلمةً واحداً أو عقلاً كلياًً واحداً لسائر العالم. لكن جسداً مثل جسد المسيح يمكنه أن يتجزَّأ وينكسر ومع ذلك تبقى في كل جزء منه جميع خصائص الكل . لقد كام يرمي إلى تعليمهم أن بذرة المسيح موجودة في داخل كل واحد منهم، وأن رسالته هي إذكاء هذا القبس وإيقاظ هذه البذرة الهاجعة في باطنهم . وأن هذه البذرة لا يمكن أن تبور مهما تكسَّر جسده . إن أصغر ذرةٍ من المسيح تحتوي على الطبيعة الكاملة لقداسة المسيح التي لا تزال إلى أيامنا الحاضرة جزءاً من تكويننا. لقد أساء التقليديون فهم يسوع وتعاليمه لأنه لم يكن بمستطاعهم أن يتقبَّلوا الحقيقة القائلة بأن كل إنسان يملك الطبيعة البشرية والإلهية وإمكانية الترقّي إلى القداسة في آن واحد. لقد استغلق عليهم أن يفهموا طبيعة المسيح البشرية والإلهية، فلم يستطِعوا فهم أنفسهم وعندما تراءى لهم الضعف البشري، قاموا بنفي الطبيعة الإلهية في الإنسان . هذه الطبيعة التي لا تنفك من وقت لآخر ترسل ومضاتها اللامعة إلى أبسط الناس وأشدّهم ضعة وضعفاً.

الطريق إلى القداسة:

لقد صعُب على الكنيسة الاعتراف بأن يسوع جاء ليضرب لنا المثل في عملية التحوّل التي بمقدور الإنسان اجتيازها حتى يصبح إلهاً، ووجد أوريجانوس تفسيراً في غاية السهولة. لقد اعتقد أن الطبيعيْن البشرية والإلهية تتمازجان بشكل دائم، وأن التداخل بين الطبيعتيْن يقود الطبيعة البشرية ذاتها نحو الإلوهية، وهو ينتهي إلى القول إن فرصة التحوّل هذه ليست وَقفاً على يسوع بل هي في مقدور كل من يسلك بإخلاص طريقة الحياة التي سلكها يسوع وبشَّر بها. لم يرَ أوريجانوس حرجاً في وصف الصلة والعلاقة التي تربط بني

البشر بـ "الإبن" فقال: "إننا نمتلك البذرة إياها الموجودة في الآب والإبن . وعليه فإننا مفطورون على صورة تشبه الآب والإبن، ويمكن أن نكون إزاء الحقيقة كما الآب للإبن أو الإبن للآب.. وبما أن الخصائص النبيلة "للإبن" كامنة في ذواتنا : فنحن نستطيع أن نوقِظ هـ ذه الخصائص في عملية السير نحو القداسة ". إن مخطوطة "هيمس"، التي تؤرِّخ تقاليد يسوع في الهند، تشير أيضاً إلى هذه النقطة، إنها تخبرنا أن يسوع جاء ليعلِّمنا كيف نكيِّف أنفسنا في مسلك القداسة، ولكي يضرب لنا مثلاً عن كيفية وصول الإنسان إلى هذه الدرجة من الكمال ا لضروري لدخول ملكوت الله... علينا أن نقتفي آثار الإبن لكي نوحِّد أنفسنا مع الآب . إستعار أوريجانوس كلام يسوع: "أنا وأبي واحد" ليشرح لنا العلاقة بين الآب والإبن. إن يسوع البشري يستطيع أن يقول لنا أنه والآب واحد . وهو في جسده الفاني، لأنه يعرف أن هناك جزءاً خال داً في داخله هو دائم الاتِّحاد بالآب. لقد كانت حياة يسوع أمثولة تعلِّمنا كيف يتسنى لنا أن نحوِّل أنفسنا يومياً لكي تُصبح خالدة ولتدخل في الإتحاد بالخالق... نعم، الموحِّدون الحقيقيين اليوم يستطيعون أيضاً أن يقولوا ما قاله يسوع: "أنا وأبي واحد" وأنهم يعزِّزون هذا القول بشكل يومي من خلال سلوكياتهم وأعمالهم وليس من خلال الطقوس والتعبُّدات السطحيّة تطبيقاً لقول يسوع"أبي يعمل دائماً وكل يوم وهكذا أنا أيضاً أعمل" بالنسبة لأتباع آريوس كانت عملية التطهُّر ضرورية للخلاص أما بالنسبة للتقليديين فقد كان ذلك "هرطقة". في عام 324 دخل الأمبراطور الروماني "قسطنطين"، وكان قد مضى إثنا عشر عاماً على اعتناقه للدين المسيحي، معمعة الجدل الذي أثاره آريوس فكتب رسالة إليه وإلى أسقف الإسكندرية يحثّهما فيها على تسوية خلافاتهما، وقد أرسل "الأسقف هوسيوس" من قرطبة إلى الإسكندرية لكي يسلِّ هذه الرسالة، لكن رسالة الإمبراطور لم تستطِع أن تهدِّئ العاصفة التي ازداد اضطرامها حول طبيعة المسيح وعلاقته بالإنسان، لقد أيقن قسطنطين أن عليه أن يعالج المسألة بطرق إضافية استثنائية إذا ما أراد فعلاً حلّ هذه العقدة

تجسد الله في الإنسان:

" لقد كان من الخطأ بالدرجة الأولى طرح مثل هذه الأسئلة أو التورُّط بالإجابة عنها عند طرحها (قسطنطين– من رسالة إلى الإسكندر وآريوس عام 325م).

وقف سيِّد العالم عارياً يحتضر أمام كاهن مسيحي ...! لقد كان قسطنطين حاكماً لرعيّة يزيد تعدادها عن الثمانين مليون نسمة عندما خلع أثوابه الأرجوانية متهيِّئاً لمراسم تعميده . ومع أنه كسب حرباً أساسية بإسم الصليب لربع قرن خلا إلا أنه شاء أن ينتظر نهاية مرضه المميت لينضم إلى الكنيسة بشكل رسمي كأحد رعاياها. فما هو سبب هذا التردُّد في قبول التعميد؟ لقد اعتقد قسطنطين أن المعمودية تعطي الإنسان فرصة فريدة، لكنها أيضاً فرصة وحيدة يتطهَّر فيها من جميع ذنوبه وخطاياه . ولم يكن الرجل يرغب في أن يضيّع على نفسه فرصة العمر الثمينة هذه. كان يؤخِّر العمادة لأنه خشيَ أن يفقد ذلك النقاء بسبب عودته مجدَّداً إلى ارتكاب الأخطاء والذنوب قبل وفاته . وكما قال المؤرِّخ "مايكل غرانت": "لقد أجّل قسطنطين معموديته بدافع خوفه من الله وخشية من أن يعود إلى الخطأ من جديد بعد تلقي مراسم العمادة فتهلك روحهُ .

إن استنكاف قسطنطين تقبُّل العمادة يفضح طريقته في الإيمان، فكون المرء مسيحياً يعني بالنسبة إليه، تحاشي غضب الله وعقابه أكثر من السمّو في الإيمان وتحقيق الاتِّحاد مع الله . وهذه النظرة تلقي ضوءاً كاشفاً على الخلفية التي وقفت وراء موقفه من الجدل الذي أثاره آريوس . فبعد أن تلقّى معموديته، وبالتالي أصبح واثقاً من أنه سوف يُعطى حياة خالدة، لبس قسطنطين أثواباً بيضاء واعتكف في مسكن مجاور حيث استلقى على فراش الموت مفارقاً الحياة. وقد ذكر مؤرِّخ الكنيسة "أوسيبوس" أن قسطنطين قال قبل أن وافته المنية بوقت قصير : "الآن أشعر أنني أستحق الخلود في الأبدية ". ومع ذلك، يبقى السؤال، هل كان فعلاً قسطنطين يؤمن بتعاليم المسيحية؟ أم أنه كما يقول بعض المؤرخين رأى في المسيحية أداة تجمع شمل الأمة سياسياً؟ إن الجواب الصحيح يقع على الأرجح في منزلة متأرجحة بين هذين الاحتمالين

القديس الثالث عشر:

لقد رأى قسطنطين في المسيحية الأداة التي يمكن استعمالها لتوحيد الإمبراطورية التي حارب ثمانية عشر عاماً من أجل جمع شملها . وبعد تشتيت العقائد الوثنية، قيل أنه لم يعد في الإمبراطورية سوى قوَّتيْن منظِّمتيْن هما: الكنيسة والجيش. مع ذلك، فإن قسطنطين كان مسيحياً مؤمناً، على الرغم من أن إيمانه كان من النوع الساذج، لقد نظر إلى نفسه كمُرسل من الله لخدمة الكنيسة، حتى أنه كان يشترك بنفسه في تقديم المواعظ والقداديس وإحياء احتفالات عيد الفصح . تُرى هل كان قسطنطين يلتزم حقاً بتطبيق المعايير المسيحية لاحترام الحياة؟ فبعد مضي عشر سنوات على انقلابه نحو المسيحية كان لا يزال يحكم على

المجرمين بالصلب، لقد كان حاكماً سفاحاً لا يتوانى عن القتل والخداع وقد وصفه "غرانت" بأنه مثال الحاكم ال "أوتوقراطي" المؤمن بحقِّه في قتل من يشاء . لقد أمر بصلب ولده البكر "كريسبوس" بتهمة التآمر غير الثابتة، وعندما ارتاب في أمر زوجته الثانية "كوستا" التي هي أم أولاده الثلاثة الباقين، فإنه لم يتورّع عن الأمر بإعدامها خنقاً في حمام بخاري شديد الحرارة، كذلك أمر بإعدام صديقه ومستشاره الفيلسوف "سوباتير" Sopater بتهم كاذبة ملّفقة، هذه الدماء التي سفكها لا بد أنها ألقت بثقلها على عقله عندما قرَّر نزع الأثواب الأرجوانية عن جسده لكي يغطس في مياه المعمودية . لقد سخرت الأمم من المسيحيين أمثال قسطنطين لإفراغهم قوة المعمودية من مضمونها، وقد كتب "بورفيري" Porphyry وهو أحد أتباع الأفلاطونية المُحدَثة، بإسهاب منتقداً الاعتقاد المسيحي بأن معمودية واحدة يمكنها غسل جميع الآثام السابقة، ولقد ذهب إلى القول أن مثل هذه الطقوس قد تشجِّع الناس على إتيان الأعمال الشريرة طالما أن ورقة المعمودية في يدهم بحيث يمكنهم استخدامها في نهاية المطاف لغسل جميع الذنوب السابقة . لقد كانت سيرة قسطنطين شاهداً حياً على صحة قول بروفيري، لقد أتى الأمبراطور بجميع المظالم وثابر عليها منتظراً الأيام القليلة قبل موته للتعمّد بالماء المقدَّس والتحرر من جميع الآثام والذنوب. ومع هذا النموذج عن المؤمن المسيحي، اعتقد الناس أنهم يستطيعون الإتيان بجميع الموبقات قبل أن يؤوبوا أخيراً إلى الكنيسة، ولم يسمح قسطنطين لذنوبه وخطاياه أن تحول بينه وبين التمتُّع بمكانته المرموقة في الكنيسة، فبعد وفاته سجي جثمانه في نعش مُذَهَّب مُغَطّى بالحرير الأرجواني ودُفِن في الكنيسة المُزَخْرفَة بالذهب المُخَصَّصة لدفن الرُسُل القديسين والتي بناها كمصلىّ خاص به، وتحت القبة الرئيسية الخالدة لهذه الكنيسة يوجد صفان من الأضرحة ستة في كل صف تخليداً للقديسين ومن أجل تأكيد مكانته وفضله على الكنيسة ك "قدّيسها الثالث عشر"، أصدر أوامره بأن يُضع ناووسه في الوسط بين هذه الأضرحة ... ألم يكن فضله على الكنيسة يضارع فضل هؤلاء القديسين؟ ومع أنه كان ينظر إلى نفسه كقدّيس ... فقد اعتبر إلهاً رومانياً بعد وفاته وفقاً للتقاليد الخاصة بالأباطرة الرومان التي ابتدأت مع الأمبراطور "أغسطس"، لقد جرى تأليه قسطنطين على أساس سلطته الأرضية، وليس على أساس تحوّله الروحاني، ويبدو أن قسطنطين نظر إلى الله وكأنه أمبراطور روماني، وعندما غيَّر اللاهوت المسيحي فقد طبع الله بطابع بشري

الجدل العقيم:

وإذا كان فهم قسطنطين للمسيحية في هذا المستوى من السطحية فإنه ليس بعجيب أن يغيب عن ذهنه جوهر المسألة التي أثارها آريوس . ففي رسالته إلى آريوس، ينفضح فهمه السطحي الساذج للإيمان المسيحي، فها هو يقول أنه بعد التمعُّن الدقيق في هذه المسألة وجدها مَبْنِيّة على أسباب قليلة الأهمية، فبالنسبة إليه لم يكن الأمر أكثر من مجرَّد جدل أو محاكمة ذلك الجدال، وحسب رأيه هذا الجدل ما كان يجب أن ينشأ أساساً وهو ينصح آريوس والإسكندر قائلاً: "كركما على حق... فعليكما إذاً بالانسجام والعمل معاً على إصلاح مجرى الشؤون العامة "، ثم يعنّف انخرطهما في هذا الجدل العقيم لأن السؤال الذي أثاره آريوس غير حري بالانتباه وإذا جرّ الانتباه إليه فيجب أن يُدفن في تراب الصمت المطلق، وإذا كانا يجدان متَّسعاً من الوقت يستهلكانه في الجدل فإن نزاعهما قد تاه في مراعي المتع الضارة، لكن الرسالة لم تجد نفعاً... لقد اشتدّ الجدل بدل أن ينطفئ، ويخبرنا "أوسيبيوس" Eusebius أن قساوسة المدن كافة قد دخلوا في صراع عنيد مع زملائهم ووقف الناس في الشوارع إزاء بعضهم البعض، وحصلت صدامات عنيفة تلتها كتابات كانت من العنف بحيث تناولت بالاحتقار مركز الإمبراطور. ولم يكن قد مضى على انفراد قسطنطين بحكم الإمبراطورية سوى أشهر معدودة عندما انخرط في عمل حاسم لتثبيت وحدة الكنيسة المسيحية . لذلك فإنه دعا إلى مَجْمَع كَنَسي، دعا إليه الأساقفة من جميع أقطار مملكته مقدِّماً لهم وسائط النقل . وانعقد المجمع في نيقيا Nicaea وهي مدينة تقع على ضفة بحيرة جنوبي شرقي القسطنطينية

ومن الصعب تسمية هذا المجمع بالمسكوني لأنه من أصل ثمانمئة أُسقف حضر ثلاثمائة فقط، منهم ستة فقط من غربي الإمبراطورية الناطقين باللاتينية. أما أُسقف روما فقد أرسل من يمثِّله ولم يحضر شخصياً بحجة أنه رجل كبير في السن لا يتحمل مثل هذا السفر الطويل. لقد أَوْجَد مجمع نيقيا سابقة شديدة الأهمية، فلأوّل مرة يقوم حاكم دنيوي بالتأثير على العقيدة المسيحية، لقد كان عند القساوسة عدد كبير من الأسباب التي تدفعهم إلى مُداهنة حاميهم الإمبراطور، ولا عجب في ذلك، فبعضهم ما زال يحمل على جسده آثار التعذيب التي أنزلها به الإمبراطور السابق.

نيقيا:

عُقِد المجمع الكَنَسي في يوم من شهر حزيران سنة 325م، وأوشك المؤتمر على أن يفتتح أعماله بعدما أخذ الأساقفة مقاعدهم ودخل قاعة المؤتمر ثلاثة من أقارب الإمبراطور كمقدِّمة لدخول الوفد الإمبراطوري، بينما انتظر أفراد الحرس الخاص خارج القاعة.

وأخيراً دخل الإمبراطور الذي يُشار إليه بأنه المقدَّس الجليل، فسيطر الروع على قلوب الأساقفة . كان يرتدي أثواب ملك من الشرق، وشعره منسدل طويل، وعباءته الأرجوانية الموشاة تتلألأ بالذهب والأحجار الكريمة أخذ الإمبراطور مكانه على مقعد وثير موشَى بالذهب، وبدأ خطابه، لقد كانت رسالته إلى المؤتمر واضحة: هو يريدهم متَّحدين ويعملون معاً بشكل متناغِم . إنه يحذِّر من الانشقاق ويعتبره أشد أنواع الخطر على الإطلاق، ولذلك فهو يأمر الأساقفة بالانصراف فوراً إلى العمل على تسوية الخلافات وإزالة أسباب الشقاق وطرح التنابذ جانباً. بعد ذلك تنحّى الإمبراطور عن كرسيه وجلس وراء المؤتمرين آخذاً دور المعتدل الذي لا يريد أن يطغى رأيه على أعمال المجمع. ومع أن تفاصيل النقاشات التي دارت في المؤتمر لم تصل إلينا إلا أننا نستطيع تبيانها من وثائق المساجلات التي حصلت لاحقاً . لقد كان الخلاف الأساسي حول مسألة خلق المسيح وما إذا كان يخضع لناموس التحوّل كباقي البشر، وكما أسلفنا فإن المسيح إذا كان مخلوقاً، كما قال آريوس، فإنّ الخلاص يصبح في منتهى السهولة لسائر البشر إذا حذوا حذوه، أما إذا كان المسيح غير مخلوق وشبيهاً بالله، كما قال المحافظون، فسيختلف بذلك عن الخلق كلياً ولا يشبههم في شيء ولا مناص للبشرية من الخضوع المطلق للكنيسة وقوانينها توخِّياً للخلاص، لقد جعله الفريق المحافظ في منزلة بعيدة عن متناول البشر . كان عليهم أن يتوسّعوا في تفسير أقواله لتبرير كل ما ذهبوا إليه في هذا المجال، وذهب بهم الأمر إلى حد إنكار أو تجاهُل جميع النصوص التي ورد فيها وجود صفات إنسانية للمسيح. إلا أن جماعة آريوس استشهدت بهذه النصوص، وعلى سبيل المثال قول يسوع أنه لا يعلم متى ستكون عودته الثانية كقوله: "عن ميعاد اليوم والساعة لا أحد يعلم حتى الملائكة في السماء وكذلك الإبن وهو علم يختص به الأب دون سواه". ألا يشير هذا النص بكل وضوح، يقول فريق آريوس، إلى أن أدنى منزلة من الآب؟ ويرد عليهم الإسكندر وأسقفه آتاناسيوس .. "بلى إن يسوع يعرف اليوم والساعة ولكنه مع ذلك لا يريد أن يفضي بعمله هذا لأحد". لقد أرادنا المسيح أن نحذو حذوه، كما يرى فريق آريوس، وصلاة المسيح إلى أبيه ترمز إلى ذلك بوضوح شديد : "وأجمع شملهم ليكونوا واحداً كما نحن واحد " هذا يعني أن يسوع كان يريد لأتباعه أن

يتحدوا بالله كما هي الحال بالنسبة إليه . وردَّ الأصوليون على هذه المقولة بقولهم : "إن يسوع لم يكن في صلاته هذه يسأل الله في الحقيقة إعطاء تلا ميذه العلاقة الخاصة نفسها التي يتمتع هو بها، ما ذهب إليه يسوع فقط هو الطلب من تلاميذه الاتحاد فيما بينهم وبشكل منسجم ". كما ناقش الإسكندر هذه الصلاة من وجهة نظر أخرى قائلاً : "إن البنوَّة المَمْنوحة للإبن تختلف عن البنوَّة التي يمكن أن تُمنح لسائر البشر ولا علاقة بين البنوَّتين أبداً وليس هنالك من أبناء آخرين بالمعنى الطبيعي للبنوَّة سوى يسوع وحده ". وذهب أتاناسيوس أبعد من ذلك في بحث هذا الموضوع عندما قال أن مجرد مخاطبة يسوع لله بعبارة "أبونا" Our father لا تعني بالضرورة أنه يقصد أن الله هو "أبونا" كما هو "أبوه" وبالتالي لا يسوِّغ لنا أن نساوي أنفسنا بالإبن. وأقفل أتاناسيوس الباب نهائياً عندما انتهى إلى القول: "لن نكون أبداً شبيهين به ولن يكون كلمة الله شبيهاً بنا". وعبثاً حاول آريوس وفريقه تقديم البرهان على أن يسوع كان مخلوقاً مثلنا جميعاً وردّوا على الفريق الآخر بعبارة اعتقدوا أنها تشير إلى الإبن وهي تقول: "لقد خلقني الله في بداية البدايات".

توالت اجتماعات المؤتمر طيلة شهرين وبحضور قسطنطين، الذي أصغى إلى النقاش الدائر وشارك فيه، مشدِّداً دوماً على وحدة الكنيسة . ثم تقدَّم آلأب "هوسيوس" كبير أساقفة قرطبة Cordova قائلاً بأن هناك طريقة واحدة لحسم النزاع وهي التصويت علىميثاق واحد للكنيسة المسيحية . لقد عدّل الأساقفة المؤتمرون ميثاقاً كان موجوداً في حينه ليناسب مقاصدهم وقد استمر العمل بهذا الميثاق على الرغم من تعرُّضه لتعديل طفيف آخر في القرن الرابع، كما هو حتى الآن في كثير من الكنائس، لقد دُعي هذا الميثاق، بميثاق نيقيا The Nicean Creed، وقد بذل واضعوه جهداً كبيراً متكلفاً أحياناً، ومستفيضاً أحياناً أخرى، للفصل بين الآب والإبن من جهة وبين الآب وسائر البشر من جهة أخرى، فقد جاء فيه : "إننا نؤمن بإله واحد، الآب القدير صانع جميع الموجودات، المنظورة، وغير المنظورة كما نؤمن برب واحد هو يسوع المسيح إبن الله المولود الوحيد لأبيه الآب من مادة الآب الإله، ونور النور، والله الحق، المولود، لا المخلوق، من مادة واحدة مع الآب، الذي خلقت به جميع الأشياء- الذي تجسّد وصار إنساناً". أسقفان فقط بالإضافة إلى آريوس رفضوا التوقيع على هذا الميثاق، لذلك طردهم قسطنطين من الإمبراطورية، بينما انصرف باقي الأساقفة إلى الاحتفال باتِّحاد الكنيسة مُجدداً في احتفال عظيم جرت مراسمه في القصر الإمبراطوري.

التوصية:

لقد ذهب الميثاق إلى أبعد من تأكيد قداسة يسوع عندما أكَّد أيضاً على افتراقنا عن الله وعن المسيح، لقد بذل الميثاق جهداً متكلِّفاً كما أسلفنا، لكي يُبرهن على أن المسيح هو إله تماشياً مع إنكار كونه مخلوقاً وهو يختلف عنا نحن البشر تمام الاختلاف.

لقد تكرر وصف يسوع في "ميثاق الأولياء" Apostle's Creed الذي لا يزال مُستخدَماً حتى الآن في كثير من الكنائس البروتستانية بأنه الإبن الوحيد لله . وقد جاء فيه أيضاً "إني أؤمن بالله، الآب القدير . إنيأؤمن بربنا يسوع المسيح ولده الوحيد". ولكن حتى هذه اللغة التي تدعو يسوع بالإبن الوحيد لله تنكر على البشر أن يتوصلوا إلى درجة البنوَّة التي حصل عليها يسوع. لعله من المفيد أن نلفت أنظار المسيحيين إلى أن الكثير من العلماء الذين يعكفون على دراسة الإنجيل هذه الأيام يعتقدون : "أن يسوع لم يسبق له أبداً أن ادَّعى بأنه إبن الله الوحيد". وأن ذلك تفسير خاطئ لإنجيل يوحنا... وهنالك دليل أكثر صلابة يُشير إلى أن يسوع كان يعتقد بأن الناس يمكنهم أن يصيروا أبناء الله . لكن الكنائس بإخفائها هذه المواثيق ستبقى مرتهِنه لقسطنطين وقساوسته الثلاثمائة. بعد انتهاء المجمع المسكوني المذكور، وحالما دخل القساوسة إلى القصر الإمبراطوري لحضور المأدبة التي أعدَّ ها قسطنطين لهم ومشوا تحت سيوف حرَاسه، ثم استقلوا على الأرائك المخملية وتناولوا من طيبات اللحوم والفواكه وتقبلوا هدايا العرفان بالجميل من الإمبراطور ... هل تراهم تصوّروا أن هذه الرعاية الملكية التي تترافق مع الكنائس الدنيوية التي سيبنيها قسطنطين ستقف بينهم و بين فرصتهم نحو الارتحال إلى القصور السماوية لله المقيم في دواخلنا؟ في رسالة وجهَّها إلى الأساقفة الذين لم يحضروا مؤتمر نيقيا، طلب الإمبراطور منهم الإذعان إلى هذه "التوصية المقدسة" لأنها صدرت عن المجمع المسكوني المقدس، فعلى رُعاة الكنيسة النظر إلى هذه التوص يات وكأنها إرشاد صادر عن الإرادة الإلهية المقدسة"، indicative of the divine will لقد نطق "الإله" الروماني قسطنطين بكلمته، لقد قالها بوضوح ملخِّصاً الموقف التقليدي الذي يصب في مصلحة وحدة الكنيسة وقوتها أكثر من الموقف المعارض الذي يتوجب لجمه. لقد انتهز أيضاً الفرصة ليطبِّق قانون العقاب الحكومي الرسمي بحقّ المسيحيين المنشقّين، فأصدر أمراً عالياً ضد "الهراطقة" واصفاً إياهم بـ "مُبغضي الحقيقة وأعداء الحياة وحلفاء الشر". مع أن حكمه اتَّصف بالتساهل الديني، فها هو الآن يمنع مَنْ اعتبرهم "هراطقة" (معظمهم من اتباع آريوس) من التجمُّع سواء في العلن أم في الأماكن الخاصة بما فيها بيوت الأفراد، كما حرَّم توفير أي مكان لهذه الاجتماعات

"الموسومة بالشعوذة"، بما فيها جميع أماكن العبادة التي يجب أن تكون تحت إشراف الكنيسة . لقد أُجبر المعلِّمون (الهراطقة) على الفرار، وأجبر أتباعهم على العودة قسراً إلى القبضة الأصولية، لقد أمر الإمبراطور بالتفتيش عن كتب "الهراطقة" ومصادرتها وإتلافها، كما حكم على كل من يخبِّئ مؤلفاتهم بعقوبة الموت. كان قسطنطين يعرف كيف يسيِّر الأمور وفق مصلحته، كحاكم أوتوقراطي. لقد استمات من أجل تحقيق الانتظام والوحدة، لكنه كان يعرف كيف يدوِّر الزوايا عندما تتوافق الأمور مع مصلحته، عندما أمر مثلاً بإعادة آريوس إلى أبرشيته، وكان قد بلغ هذا الأخير الثمانين من عمره وسمح له بالوعظ إلى أن توفي بعد ثماني سنوات.

لقد رسم مجمع نيقيا بداية النهاية لنظرية الوجود المُسبَق ولمسلك الخلاص عبر الاتحاد بالله في العقيدة المسيحية. لكن قسطنطين سلَّح الكنيسة على ما يبدو بجميع الأدوات اللازمة لإتمام هذه المهمة عندما قَولب المعتمد المسيحي وفقاً لفهمه الشخصي جاعلاً من يسوع الإبن الوحيد لله

أريوس.. وأنسنة المسيح سر الإله في أنفسنا بتصرف عن ك تاب "التقمص... الحلقة المفقودة في المسيحية" للكاتبة إيليزابيث بروفيت–إعداد قسم البحوث الروحية في الضحى– راجع مجموعة أعداد الضحى 1998

يخترق ضياء المشاعل ما تبقى من ظلال فجر يوم شباطي شاحب، ويتدافع المحتشدون لمشاهدة الموكب القادم، فيلسوف في الثانية والخميسن من العمر يشق طريقه جارّاً قدميه على الحجارة البركانية التي رُصفت بها شوارع روما، عاري القدمين ومكبَّل بالأصفاد حتى العنق، مرتدِياً قميصا أبيض رُسِمت عليه الصلبان ولُطِّخ برؤوس الشياطين وألسنة النيران، والرهبان يسيرون إلى جانبه يحثونه على التوبة، ويدنون الصليب من شفتيه مانحين إياه كل فرصة للخلاص. حجَّاج من شتى أنحاء أوروبا تجمَّعوا حول ساحة حقل الزهور، نصف ميل من "برج نونا" حيث كان السجين مكبَّلا بانتظار تنفيذ حكم الإعدام فيه، وتوّاقون لمشاهدة عملية إحراق "الهرطقي الفاسد" الذي قيَّده الحُرّاس على وتد حديدي مُحَاطا بحزم الحطب، وبعدما رفض تقبيل الصليب كفرصة أخيرة للعودة عن آرائه وفيما بدأ الرهبان بإنشاد الابتهالات أُشعلت النيران في الحطب، وبينما أخذت السنة اللهيب تلعق لحيته والدخان يملأ رئتيه، هل ندم "جيوردانو برونو" على القضية التي

أوصلته إلى هذه النهاية؟ حينها بدأ جِلده بالتشقُّق ودمه بالتبخُّر في اللظئ هل تساءل عن أبدية العذاب في نار جهنم؟ أم تمسَّك بحلمه في مشاهدة شموس أخرى وعوالم سماوية لا تُحصى في رحلة عبر اللانهاية؟ . لكن لماذا عاقبت الكنيسة الفيلسوف والراهب "الدومينكاني" السابق "جيوردانو برونو"؟ لقد تمَّ إحراقه بسبب ما اعتُبر في حينه "هرطقة" ومن ضمنها فكرة عودة الروح إلى الحياة في جسد جديد بعد الموت. لقد تمسَّك بفكرة غالبا ما ترافق الاعتقاد بالتقمص، وهي الاتِّحاد المقدس خلال الحياة الأرضية. وبالنسبة له كان الدين المسلك الذي عبره يمتلك النور المقدس الروح ويرفعها نحو ذلك الاتِّحاد، وهذا ما يحدث في أي يوم.

وفي معتقد برونو عن القدرات البشرية تلك، تجد السبب الحقيقي لرفض المسيحية فكرة التقمُّص، انه يقِّوض سلطة الكنيسة. فكما يعتقد برونو، ان الخلاص لا يرتبط بعلاقة المرء بالكنيسة بل بعلاقة مباشرة مع الله، ومن هذا المنطق إضافة إلى اعتقاده بالتقمص، تصادم برونو مع محكمة التفتيش.

لقد كان برونو شوكة في خاصرة الكنيسة منذ لحظة ترسيمه كاهنا دومينيكانيّا في "نابولي" بعمر اثنين وعشرين حيث لم تناسبه حياة الرهبنة

لقد كان برونو مفكِّرا واسع الإطلاق لكنه ذو طبع حاد ولديه ميل في إغضاب السلطات. وكراهب شاب كانت لديه أفكار خاصة كثيرة. لقد دافع عن آريوس اللاهوتي الشهير، وقرأ الأعمال الممنوعة للفيلسوف الألماني "ايراسموس"، وحينما وُجدت نسخة محظورة للفيلسوف المذكور في أحد مقاصير الدير، وقع برونو في مشكلة خطيرة، وبدأت الكنيسة في نابولي ب تحضير إدانة ضده فقرَّر الهرب من إيطاليا عام 1578. وأمضى برونو 14 عاما متجوِّلا في كل من فرنسا وإنكلترا وألمانيا وسويسرا، وبسبب نقده اللاذع أُجبر على الهرب مراراً وقد ألقت الكنيستان الكاثوليكية والبروتستانتية الحرم عليه . كان برونو من المع رجال عصره، وجَّه الملك الفرنسي هنري الثالث، وعلَّم الفلسفة في جامعة "تولوز"، واختلط مع الدائرة الآبية التي أحاطت بالملكة الإنكليزية إليزابيث الأولى . وقد استقطبت كتاباته الغزيرة وغير العادية فئة صغيرة لكن غيورة من الأتباع. لقد كان سابقا لزمانه بأشواط بعيدة، وسبقت أفكاره عن ا لكون بعض اكتشافات القرن العشرين في الفيزياء وعلم الفضاء رغم أن برونو لم يكن عالما.

في القرن التاسع عشر، اعتبر المثقفون برونو شهيداً للبحث العلمي وحرية التفكير، خاصة في دفاعه عن نظرية "كوبرنيكوس" في مركزية الشمس ضمن منظومتها الشمسية . وقد تشارك مع "كوبرنيكوس" بتهجم عدو لدود في محكمة التفتيش الكاردينال "روبرت بلارامين" الذي سأل "غاليليو" لاحقا عن دوران الأرض حول الشمس، لكنه من جهة ثانية لم يشارك "كوبرنيكوس" في نظرته العامة للعالم.

لقد كانت الفلسفة والصوفية مصدر رؤية برونو في العوالم التي لا تُحصى، لقد وافق برو نو كوبرنيكوس أن الأرض ليست مركز الكون، لكنه اعتقد في المقابل أن الشمس أيضاً ليست مركزاً له، وآمن أن الأرض واحدة من ضمن عدد لا متناه من العوالم . وفي وقت اعتقد الناس فيه أن النجوم ملتصقة دائماً في جلد السماء.

فصَّل برونو معتقده الثوري : "هناك فضاء واحد كلّي، مدى واسع واحد باستطاعتنا أن نطلق عليه، الفراغ، وفيه كواكب لا تُحصى، كهذه الأرض التي نعيش ونترعرع عليها، هذا الفضاء نعلن انه لا نهائي، وفيه لا نهاية من العوالم من نفس نوع أرضنا هذه". بالنسبة لبرونو، فتحت فكرة العوالم اللامتناهية الباب أمام فكرة القدرات الإنسانية اللامتناهية. إذا كانت هناك عوالم غير متناهية، لمَ لا تكون هناك فرص غير محدودة لإظهار تلك القدرات؟ "الإنسان"، كما كتب برونو، "ليس مكتملاً ولديه الفرصة لاختيار الحياة في مجالات مختلفة".

ولقد ادَّعت الكنيسة لاحقا أن برونو لم يُحرَق من أجل دفاعه عن "كوبرنيكوس" أو لعقيدته في العوالم اللامتناهية لكن من أجل "أخطائه اللاهوتية" واعتقاده في السحر، فيما أظهرت سجلات المحاكمة أن اعتقاده بالتقمُّص والعوالم اللامتناهية كان المأخذ الرئيسي وقد ظهر ذلك في محضر إدانته، بالإضافة إلى "قذف يختص بالوحش المنتصر"، أو ما فُسِّر في حينه "البابا"، إشارة إلى كتاب برونو "طرد الوحش المنتصر" الوحيد المذكور في الإدانة، لكن البحث يؤكِّد أن وحش برونو المنتصِر لم يكن البابا، بل قصد برونو بالوحش الناحية الشريرة في الطبيعة الإنسانية كالجهل والخرافة، لقد جادل من أجل دين مبنِيّ على العقل وا لمنطق، عبره يستطيع المرء أن يخلِّص نفسه من الوحش القابع في داخله، وكتاب برونو هذا يتضمَّن اكثر أعماله توسُّعاً في عقيدة التقمُّص.

وفي دفاعه يقول برونو داعما رأي الفيلسوف اليوناني فيثاغوراس في التقمص: "لقد أدركتُ إدراكا تامّاً أن النفوس خالدة ومن الناحية الكاثوليكية لا تَعبر من جسد إلى آخر، بل تذهب إلى الجنة أو البرزخ أو الجحيم، لكنني استنتجتُ بعمق منطقي، وأتكلَّم كفيلسوف، ان الروح كونها لا توجد من دون جسد وليست مع ذلك بجسد فباستطاعتها أن تنتقل من جسد إلى آخر ". لكن دفاعه الفلسفي لم يخفِ اختلافه الحقيقي مع الكنيسة. لقد اعترف بشكّه في مبادئ الثالوث الأقدس، خاصة بجسد الإبن، وتحدَّى العقيدة القائلة بخلق النفوس من لا شيء وأنها ليست جزءاً من الله. وفي المقابل شدَّد برونو على أن النفوس صدرت عن الخالق وإنها خالدة واعتقد أن الموت ليس إلا افتراقاً واتِّحاداً جديداً بين النفوس والأجساد، ودَعْمَاً لمعتقده هذا، اقتبس من سفر الجامعة في العهد القديم عبارة "ليس تحت الشمس جديد".

لقد تم نقله إلى روما عام 1593، حيث واجه الكاردينال روبرت بلارامين لأول مرة إلى جانب هيئة من ثمانية كرادلة. والمبدأ الأول لمحكمة التفتيش في إخضاع برونو كان في إبقائه وحيدا في السجن، وهكذا مرَّت سبع سنين لم يُعرف عنه شيْ، حُرِم خلالها من المأكل والكتب وأدوات الكتابة ومن المحتمل عن مبادئ اعتبرت هرطقية، أُقتيد برونو في شباط 1600 إلى كنيسة "سانت ماري"، وقد حاول الحراس إركاعه أمام الكاردينال لكنه بقي منتصبا ومتحدِّيا، والكلمات التي تردَّدت في أنحاء الكنيسة لم تكن مفاجئة "هرطقي عنيد غير نادم" وطرده ثانية من الكنيسة، وحرمه من "رحمتها" ووضع كتبه في قائمة الممنوعات، وأطلق عليه الحكم بالموت حرقا، لكن برونو توجه إلى محكمة التفتيش قائلا: "لعلكم انتم من أعلنتم الحكم علي في خوف أعظم مني أنا الذي أتلقاه". وأخذه الحراس إلى حاكم روما الذي سجنه في برج نونا، على نهر "التيبر"، ليتم إعدامه حرقا بعد 11 يوما. إن محاكمة جيوردانو برونو هي فصل مهم في تاريخ التقمص في المسيحية، ليتمثَّل في مواجهة مفكِّر مستقل وعنيد واحدة من أقوى المؤسسات في العالم، وذلك الفيلسوف الكستنائي اللحية كان جزءاً من تقليد غربي قديم يعتقد بالتقمُّص، تقليد تطور إلى جانب المسيحية، طورا د اخل الكنيسة وتارة خارجا عنها.

جيوردانو برونو (شهيد الإيمان بالتقمُّص).

مالا يعرفه المسيحيين اليوم هو أن التقمُّص ليس جديداً في المسيحية اليوم معظم المذاهب قد تجيب بـ "لا" عن السؤال: "هل تستطيع الإيمان بالتقمص، وتبقى مسيحياً؟لكن في القرن الثاني الجواب كل نعم!.

ففي غضون القرون الميلادية الأولى، ازدهرت مذاهب مسيحية عديدة، بعضها علّم التقمص . وبالرغم من مهاجمة اللاهوتيين المتشدِّدين لهذا المعتقد منذ القرن الثاني، استمر الجدل حول التقمُّص طوال القرن السادس.

من بين المسيحيين المعتقدين بالتقمُّص، الغنوصيون، أو لئك الذين يزعمون امتلاك تعاليم السيِّد المسيح (عليه السلام) الروحية الباطنية، التي أُخفيت عن عامة الناس وحُفِّظت لأولئك الذين يفهمونها ويستحقَونها. إن الممارسات الروحية الغنوصية تتمحور حول معلمين متنورين روحانيين، وحول التجربة الشخصية لاكتشاف الله في الداخل عوضاً عن عضوية كنيسة منظمة.

في الحقبة الممتدة ما بين القرنين الثالث والسادس أبادت سلطات الدولة والكنيسة المسيحيين الذين آمنوا بالتقمص، لكن معتقدهم هذا عاد بقوة ليظهر ضمن الملامح المسيحية المميزة. وقد انتقلت فكرة التقمص إلى ما يُسمّى اليوم بالبوسنة وبلغار يا حيث ظهرت في القرن السابع مع البوسنيين وغيرهم . كما انتقل هذا المعتقد إلى فرنسا وإيطاليا في القرون الوسطى حيث أصبح المبدأ الرئيسي في مذهب الكاثار.

وبعد أن أُزيلت الكنيسة "الكاثارية" من الوجود في حملة عسكرية إبان القرن الثالث عشر وما تلاها من حملات محكمة التفتيش والتعذيب والحرق، استمر الاعتقاد بالتقمص حيّاً خلال القرن التاسع عشر في التقاليد السرية للخيميائيين والهرمسيين وغيرهم من الجماعات السرية، كما استمر في النمو داخل الكنيسة ذاتها. في بولندا القرن التاسع عشر، رئيس أساقفة كاثوليكي، "المنسنيون بسافلي" Passavalli (1820–1897)، طعَّم معتقده بالتقمُّص واعتنقه بكل انفتاح، وقد أثَّر على كهنة بولنديين وإيطاليين الذين بِدَوْرِهِم تبنّوا هذا المعتقد.

إن الإحصاء الذي يكشف اعتقاد 25 بالمئة من الكاثوليك في أميركا بالتقمُّص هذه الأيام قد يثير عجب الفاتيكان، لكن الحقائق والإثباتات الملموسة التي تؤكِّد وجود أقلية صامتة للكاثوليك المعتقدين بالتقمص تدعم مثل هذه الإحصاءات.

يشكِّل التقمص حلاً مقنعاً للكثير من التساؤلات حول العدل الإلهي، لكن السلطات الدينية لا زالت تعارِض هذا المعتقد تاركة المؤمنين في برزخ روحي ما بين إيمانهم بالتقمص الذي يلبي حاجات النفس وسلطة دينية ترفض الاعتراف بها.

التقمُّص يغيث الملهوف الذي يبحث عن أجوبة للعدل الإلهي، وقد أمدَّ عقولاً كبيرة بتلك الأجوبة اليقينية أنمثال مفكِّرين غربيين كبار كالفيلسوف الفرنسي "فولتير" والفيلسوف الألماني "شوبنهور" ورجل الدولة الأميركي "بنجامين فرنكلين" والشاعر الألماني "غوته" والروائي "بلزاك" و "إمرسون" و "لونغ فلو" و "الدوس هكسلي"، و "بيش"، "كللنغ"، "سلفادور دالي" وغيرهم من المفكِّرين العظام.

في سن الثامنة والعشرين، كتب بنجامين فرانكلين مسودة لكي تكون شاهداً على قبره مؤكِّداً تقمُّصه؛ لقد قارن جسده بغلاف كتاب مهترىء وصفحات ممزقة، لقد تكهَّن أن محتوياته لن تضيع لكنها ستظهر في طبعة جديدة وأنيقة بعد أن يكون الكاتب راجعها وصحَّحها.

إن أسرار الألوهية والملكوت لا يفقهها اليوم إلا قلة مغبوطة عَرَفت المعنى الحقيقي لرسالة السيد المسيح .. تلك الرسالة الروحانية الباطنية.

فكرة التقمُّص تجتاح الملايين- راجع الضحى العدد 81- تشرين ثاني 1998.

تدل بعض فصول العصد الجديد على حقيقة التقمص، بينما تشير فصول أخرى إلى أن هناك حياة واحدة نحياها . وقد اعتقد عدد من الباحثين أن المقاطع التي تدلً على التقمص تمثِّل رؤى كاتبي الأناجيل وليست من تعليم يسوع.

نقطة الجدل الأساسية كانت: هل علَّم العهد الجديد حقيقة التقمص في المقاطع التي أكَّدت أن إيليا عاد ثانية بقميص "يوحنا المعمدان"؟ ورغم أن ثلاثة من الأناجيل الأربعة تخبرنا بذلك، فإن الكنيسة قاومت التأويلات الحقيقية التي تثبت هذا الأمر.

تمهيداً لهذا الموضوع: قد كان هناك اعتقاد شائع ما بين اليهود أيام يسوع أن إيليا قد يعود كسابق للمسيح وليوم الحساب، وأن النبي "ملاخي" في السِفر الأخير من العهد القديم أشار مؤكداً إن الله سوف يبعث رسولاً لكي يَمهِّد الطريق"، وتخبرنا الايات الأخيرة عن "يوم الرب العظيم والرهيب"، حين أرسل الله النبي إيليا اعتقد الناس أن ذلك اليوم أتِ".

هناك رؤيتان عن عودة إيليا الأولى وظهوره في جسد سماوي أو روحاني (من المرجَّح أن جسده الأرضي قد انتقل عندما رُفِع في عربة من النار قبل تسعمائة سنة)، كما وصفت العلوم الباطنية والمعتقدات اليهودية ظهور إيليا في جسد روحاني، فبهذا توقعت الناس بعفوية أن عودته النبوئية ستكون أيضاً في جسد روحاني.

إلاَّ أن هناك من رأى أن إيليا سيأتي متَّخِذاً طريقاً آخر عبر التقمُّص، إنها الرؤية التي يثبتها الإنجيل، لقد أخبرنا كل من متى ومرقس ولوقا أنه بعد أن بدأ يسوع تعاليمه شاع اعتقاد أن يسوع كان تقمُّصاً لإيليا أو أرميا أو أحد الأنبياء.

يخبرنا الإنجيل مراراً أن الناس تساءلوا إذا ما كان يوحنا هو إيليا أو لم يكن، هذه القضية أُثيرت ثلاث مرات، المرة الأولى عندما بشَّر يوحنا في البرية وأتى الكهنة واللاويُون ليسألوه فأنكر أنه إيليا، لكنه عرَّف بنفسه على أنه: "صوت صارخ في البرية أعدوا طريق الرب واجعلوا سُبُله قويمة". (متّى 2/3) (اشعيا: 3/4). غالباً ما صدَّق اليهود أيام المسيح أن هذا "الصوت" كان سابق المسيح المعرَّف عنه بإيليا في نبوءة ملاخي إذا كان هذا الحوار قد جرى فعلاً فقد يكون يوحنا قد أنكر أنه إيليا ليتجنَّب ردَات فعل السلطات الروحية والسياسية التي قطعت رأسه فيما بعد لكنه يعطي لاحقاً تأكيداً خفياً ليُطَمئِن أتباعه

لقد أتى إيليا:

في الإشارتين التاليتين، وعندما يَرِد ذكر السؤال عن إيليا يُعلن يسوع بنفسه أن يوحنا هو إيليا قد أتى ثانية، المرة الأولى عندما كان يوحنا في السجن، قدَّم يسوع عرفاناً بجميله أمام الناس قائلاً: "... لأن الأنبياء والناموس إلى يوحنا تنبأوا وإن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا المزمع أن يأتي" (متى: 11/13–14).

إن الشيء الأكثر أهمية في الرؤيتين ما جاء بعد موت يوحنا المعمدان حدث التجلي على الجبل : "وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا فأصعدهم إلى جبل عال على انفراد وتجلّى أمامهم وصارت ثيابه تلمع بيضاء جداً كالثلج حتى لا يستطيع قَصَّارٌ على الأرض أن يُبيض مثلها وتراءى لهم موسى وإيليا وكانا يخاطبان يسوع... ونظروا حولهم بغتة فلم يروا أحداً إلا يسوع وحده معهم . وفيما هم نازلون من الجبل أوصاهم ألا يخبروا أحداً... وسألوه قائلين: 'كيف يقول الفرّيسيون والكَتَبة أن إيليا ينبغي أن يأتي أولاً؟ فأجاب لكني أقول لكم أن إيليا قد جاء وقد صنعوا به كل ما أرادوا كما كتب عنه. (مرقس: 9/1–12)

ويضيف متى: "حينئذ فَهِم التلاميذ أنه قال لهم عن يوحنا المعمدان". (متى: 17/13).

ما يريد كتاب الأناجيل إظهاره هنا، أن يوحنا كان حقاً إيليا متقمِّصاً، وأنه أدّى دوره النبوي كرسول للرب ومهيِّئاً الطريق. قد يكون الحواريون فهموا عبارة'لقد صنعوا به ما أرادوا" بأنها إشارة إلى إعدام يوحنا .

بعد هذه التأكيدات الثلاثة أصبح من الصعب الإنكار أن يسوع قد علَّم التقمص على الأقل في حالة إيليا، لكن هناك رؤيتين حول مقاطع إيليا : الأولى، تبنّاها في البدء علماء اللاهوت المسيحي حيث عرضوا كلمات يسوع الأصلية لكنهم لم يقدِّموا عقيدة عامة للتقمُّص، والرؤية الثانية تبنَّاها معظم الباحثين المعاصرين وهي أن يسوع لم يكن صاحب الأقوال التي نُسِبَت إليه حول إيليا لكنها أُدخِلت إلى الأناجيل لكي تُبرهن أن يسوع هو المسيح وبذلك لا تُثبت أنه علَّم التقمُّص

لنأخذ أولاً الجدل اللاهوتي الذي اعْتَبَر أن قول يسوع بأن يوحنا كان إيليا المُزمع أن يأتي لم يقصدى به التدليل على أن النبي قد تقمَّص، إيليا كان فريداً لأنه لم يمت بطريقة عادية لكنه رُفع في عربة إلى الجنة، كان مختلفاً عن أي إنسان آخر في التاريخ.

دعم الدكتور "روبرت موري" Robert Morey في كتابه "التقمّص والمسيحية" الجدل المسيحي التقليدي بأن إيليا لم يمُت. وحينما ظهر على جبل التجلي كان يُظهر نفسه حياً وفي جسده الأصلي

غير إن موري يهمل الاحتمال الآخر وهو أن إيليا جاء في جسد روحاني، قد يكون هذه النتيجة رسمها شخص ما يألف العلوم السرية الغنوصيّة (أنتجت حادثة التجلي عدداً من المشابهات لرؤى "المركبة" السرية) شاهد هؤلاء الباطنيون أخنوخ في صعوده شبيه بصعود إيليا، ونظروا إلى إيليا وإخنوخ كمخلوقات مقدَّسة انتقلت أجسادهم الفاسدة والفانية إلى أجساد روحانية "الأجساد السماوية" التي وصفها بولس.

إن المسيحيين الذين آمنوا بالتقمص تقبَّلوا بسهولة الفكرة القائلة بأن يوحنا هو تقمُّص لإيليا، وبما أن يوحنا قد مات فإن روحه تظهر في تجلّي إيليا مرتدية جسداً روحانياً . عندما يحاول "موري" إقناعنا بأن إيليا كان لا يزال يرتدي جسده المادي وعمره تسعمائة سنة كان يتجاهل القول الواضح في الأ ناجيل "إن إيليا قد جاء ولكنهم لم يعرفوه بل صنعوا به كل ما أرادوا "من الواضح أن الإنجيليين قصدوا بهذا التقمُّص حقا".

يعتقد عدّة باحثين أن يسوع لم يكن صاحب المقولة التي ترى أن يوحنا هو إيليا لكنهم يعتقدون أن كُتّاب الأناجيل أضافوها، لذلك فإن "هانس كينغ" Hans King (العالم اللاهوتي الكاثوليكي المعاصر) يؤكِّد أن المقاطع التي تكلَّمت عن إيليا هي "تقاليد شعبية مهمَّشة في الإنجيل".

كما أن مجموعة تضُمّ أكثر من مئتي باحث معتدِل ترى أن هذه المقاطع اختلقها بعض الذين يُريدون البرهنة أن يوحنا المعمدان كان سابقاً ليسوع المسيح كما تقول النبوءات.

فبِغَضَ النظر عمّا إذا كان الباحثون على حق أو لم يكونوا، فإن جدلهم هذا لا ينفي حقيقة أن الذين كتبوا الأناجيل في الجزء الأخير من القرن الأول قد اعتقدوا بالتقمُّص، لكننا نعرف على الأقل بعض المسيحيين الأوائل ممَّن حاول استعمال هذه الأقوال ليثبت بالبرهان واقع التقمُّص.

إذا كان الاعتقاد بالتقمُّص حديثاً في أوائل المسيحية فهل نشأ أصلاً مع يسوع نفسه؟ . إذا ما اقتفينا أثر هذا المعتقد في الغنوصية المسيحية وقابلناه مع العلوم الباطنية اليهودية سيصبح السؤال واضحاً وكبرهان إضافي على وجود هذا المعتقد في أوائل المسيحية، ذكر قصة الرجل المولود أعمى من إنجيل يوحنا:

من أخطأ؟

"وفيما يسوع مجتاز رأى رجلاً أعمى منذ مولده فسأله تلاميذه قائلين يا رب من أخطأ أهذا أَمْ أبواه حتى وُلد أعمى؟ أجاب يسوع لا هذا أخطأ ولا أبواه لكن لتظهر أعمال الله فيه، صنع يسوع طينة من التراب واللعاب ووضعها على عيني الرجل وقال له اذهب واغتسِل في بركة سلوام وعندما عاد الرجل كان بصيراً . (يوحنا: 9/1–3)

السؤال الأكثر أهمية في هذا الفصل كان سؤال الحوّاريين: "من أخطأ أهذا أم أبواه حتى وُلد أعمى؟" لقد قدَّم الحوَاريون تفسيرين محتملين لاختلاف الناس حول حقيقة مولده الجزء الأخير كان مقبولاً في اليهودية فالناس تعاني من ذنوب أهلها. ألم يقل الرب عندما أعطى الوصايا العشر لموسى: "إنه يفتقد ذنوب الآباء في البنين إلى الجيل الثالث والرابع". (سفر الخروج 34/7)

ولكن ماذا عن التفسير الأول الذي قدَّمه الحواريون بأن الإنسان يعاني من أخطائه الشخصية؟ ولم يكن ليُجيب أن خطيئة الرجل جعلته يولد أعمى ما لم يعتقد مسبقاً بأن الرجل كان له حياة أخرى سابقة اقترف فيها خطيئته.

وقد تعمَّد يوحنا إظهار عدم اكتراث يسوع في الإجابة وهو بذلك يكون قد تخطّى المستوى العقلي لمستمعيه وأوصلهم إلى مستوى جديد: "لا هذا أخطأ ولا أبواه لكن لتظهر أعمال الله فيه"، وأراد يوحنا إيضاح أن هذا الرجل قد وُلد أعمى ليس فقط بفعل أعماله السابقة بل لأن روحه استجابت بحرية لدعوات الله، لقد تقبَّل العمى بصبر حتى التقى النبي الذي يعيد إليه الرؤية

وقبل الانتهاء من قصة الرجل المولود أعمى دعونا ننظر إلى سؤال مثير للجدل حول التقمُّص هل، يتحمَّل المعاقون مسؤولية بلائهم؟ في كل ا لحالات الجواب نعم، قد تُحتم أعمالهم في حيواتهم السابقة أن يختبروا ويتعلَّموا التجديد في حياة ثانية قد يقود هذا التجديد إلى نمو النفس، إن احتياجات النفس المختلفة تُقرِّر ولادة الناس أغنياء أو فقراء، عند أهل طيِّبين أو قُساة

وليس معنى هذا احتقار الناس فيما هم فيه من بلاء وإعاقة لكن للتأكُّد من إنهم فعلوا شيئاً ليستحقوا هذا مع العلم أن معرفة التقمُّص قد تساعدنا على فهم أسباب معاناتنا أو معاناة الآخرين، وأن لا ندَّعي أنها تمكِّننا من سبر أغوار التاريخ الكارمي لكل شخص. في الواقع قد لا تكون الإعاقة عقاباً، لكنها قد تكون حالة تقبَّلت فيها النفس الصبر مثل الرجل الأعمى بهدف تعليم وتشجيع الآخرين (كعبرة لهم)، قد يكون المساكين وتعساء الحظ قديسين غير مبشِّرين ويتحمَّلون أخطاء العالم

وبناء على ذلك، توضح قصة الرجل المولود أعمى أن الاعتقاد بالتقمص كان جزءاً من تعاليم القرن الأول للمسيحية.

يموتون مرة واحدة:

في ظل المجهود الذي قامت به الكنيسة لحرق الغنّوصيين وحذف النصوص الداعمة للغنّوصيّة من الأناجيل يُعتبَر الدليل الأقوى الذي يثبت أن يسوع علّم التقمص هو أنه لا يوجد هناك أية أقوال ليسوع في الأناجيل، ولا في كتابات الحواريين ولا في الأسفار ولا في النصوص الغنوصية ينكر فيها التقمُّص. فربما قد كان من السهل على الأساقفة حذف أو إعادة صياغة بعض النصوص الإنجيليّة، ولكن من الصعب ابتداع أقوال عن لسان السيِّد المسيح . فلو كان التقمُّص حقّاً ضرباً من ضروب السحر أو الجنون، فلِمَ لم يحذِّر لسيِّد المسيح أتباعه من هذا المعتقد لا سيما وأن التقمُّص كان عقيدة معروفة في الحكمة الهنديّة واليونانيّة آنذاك. وما يثبت أن السيد المسيح كان بإمكانه أن ينقض حقيقة التقمُّص هي بعض النصوص من إنجيل يوحنا التي يبحث فيها يسوع مفهوم التقمُّص بوضوح. خذ مثلاً في إنجيل يوحنا الفصل الثالث حين جاء إلى يسوع ليلاً رجل من الفريسيين اسمه "نيقودمس" وجرى هذا الحوار:

يسوع: الحق الحق أقول لك إن لم يولد أحد ثانية فلا يقدر أن يعاين ملكوت الله

نيقودمس: كيف يمكن أن يولد إنسان وهو شيخ أَلعلهُ يقدر أن يدخل جوف أمه ثانية ويولد؟

أين العدل الإلهي؟

وأكثر ما يؤكِّد أن يسوع علّم التقمص هو أنه أورد مستلزمات الخلاص التي يراها معظم الناس مستحيلة كي تُسدَّد في حياة واحدة.

هناك عدة أمثلة في العهد القديم عن معاقبة الله للناس بقسوة على جرائم لا تبدو سيئة كثيراً . بدون مفهوم التقمُّص، تبدو هذه الحوادث غير عادلة، لكن إذا نظرنا عبر عدسة الحيوات السابقة، نقدر أن نراها كأستحقاق لدَيْن الأعمال ونفسِّرها كعقاب عن آلاف السنين . عندما تعاد "نظرية التقمص" (الحلقة المفقودة) إلى المفهوم الديني يصبح العهد القديم مفهوماً.

في وعظه على الجبل أوضح يسوع بدقة مبدأ ردّات الفعل: "لا تدينوا لئلا تُدانوا، فإنكم بالدينونة التي بها تدينون تُدانون وبالكيل الذي به تكيِّلون يُكال لكمّ؟ (متى:21/7)

إذا كان عقاب مَنْ قطع رأس يوحنا تحقَّق لاحقاً في عالم آخر، فمِنَ الواضح أن ليس هذا هو العقاب الذي عناه يسوع بقوله "بالدينونة التي تدينون بها تُدانون"، وإذا كان لم يُعاقَب مَن قطع رأس يوحنا، بل عاش ومات ميتة طبيعيّة، أفلا يكون هذا متناقضاً مع قول يسوع وانتقاصاً من مفهوم العدل الإلهي؟

وتابع يسوع عِظَتَه ليقول القاعدة الذهبية: "فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم فافعلوه أنتم بهم، فإن هذا هو الناموس والأنبياء" (متى: 12/7). وفصل آخر في متى يدل على أن لدى كل إنسان تراكُماً من الأعمال الجيدة والسيئة، يقول يسوع : "الرجل الصالح مَنْ كنَّز قلبه الصالح يظهر بالطبع أعمالاً صالحة " والرجل السيء يظهر أعمالاً سيئة، ومقصد المسيح هو أن الإنسان يتَّجه حسب نموذج تصرُّفاته الشخصية وأنه يتلقى أشياء جيِّدة وسيئة حسب المخزون الجيد أو السيء الذي جمعه

التقمُّص في مُعتقَد المسيحيين الأوائل (يوحنا.. إيليا المزمع أن يأتي)- (إعداد قسم البحوث الروحية في الضحى)

المسيحية وتجلّي الصورة الأزليّة:

شكّل التقمّص جزءاً رئيسياً من اللاهوت الغنوصي، حيث أعتقد الغنوصيون أن المسيح علّم هذه الحقيقة ظاهرياً في أقواله وأمثاله، وباطنياً في تعاليمه السرية لتلامذته. وقد اعتبروا موعظته على الجبل مثلاً تلميحاً إلى التقمُّص، حين يؤكِّد يسوع بـأن على الإنسان أن يسدِّد ديون "الكارما" في حياته الحاضرة وإلا سيبقى في حلقة الموت والولادة، في سجنه المادي ... الجسد. وفي "إنجيل توما"، أقدم مخطوطة غنوصية مسيحية (70م)، تلميح أيضاً إلى وجودٍ سابق للنفس قبل حلولها في الجسد، في مناقشة لفكرة "الصور": "حينما تشاهد شبيهك تصبح مسروراً، لكن حينما ترى صورك التي سبقتك إلى الوجود والتي لم تمت ولم تصبح مرئية، كم باستطاعتك التحمُّل؟!". لقد اكتسبت الغنوصية الكثير عن الأفلاطونية، ويرى البعض أن "صور" أفلاطون لم تكن مجرد انعكاسات كما يحدث في المرآة، لكنها أشكال بشرٍ وأشياء أكثر حقيقية وواقعية من النسخ الباهتة التي توجد في العالم المرئي . ولذلك فسّر الغنوصيون "الصورة التي سبقتك إلى الوجود" على أنها الذات الحقيقية (والتي وُجدت قبل الجسد)، الرداء الملوكي الذي يُنزع قبيل "الهبوط" إلى العالم المادي. وقد علَّم الغنوصيون بأن قدرنا يكمن في الاتحاد مع تلك الذات، ولذلك قصد "توما" بقوله هذا عندما ترى صورتك الخالدة، أي عندما تتوحَّد ذاتك الآنية بذاتك الحقيقية، باستطاعتك أن تتحمَّل حالة من النعمة الأزلية. وتبدو حقيقة التقمُّص أكثر جلاءً في كتاب غنوصي آخر "توما المجادل" (أواخر القرن الميلادي الثاني) وورد فيه ما قاله "المخلِّص" لتلميذه توما بأنه بعد الموت، أولئك الذين آمنوا لكنهم استمروا في تعلّقهم بـ "الجمال الزائل"، سوف يستهلكون في "همومهم الحياتية" وسيرجعون مُجدَّداً إلى العالم المرئي . وفي نهاية كتاب توما يقول يسوع "ترقّبوا وصلّوا كي لا تولدوا في الجسد بل كي تتحرروا من عبودية هذه الحياة المُرة"، أي وبعبارة أخرى صلّوا كي لا تكونوا في حياة ثانية على الأرض فريسة النسيان.

وهذه الدلالات تشير إلى أن التقمُّص كان من خصائص الغنوصية في القرن الميلادي الثاني

ويضيع 'كتاب يوحنا السرِّي التقمُّص في صميم مناقشته لخلاص الروح، ويحتوي على عناصر من الغنوصية التي تُعتبَر أقدم من المسيحية. وهذا هو المفهوم السّري ليوحنا عن التقمص: كل الناس شربوا من ماء النسيان، وهم موجودون في حالة من الجهل، البعض باستطاعته أن يتغلَّب على الجهل عبر روح الحياة التي تهبط عليه، تلك النفوس "ستحقِّق الخلاص وتصبح كاملة". ويُسأل يوحنا المخلِّص عن مصير أولئك

الذين لم يحقِّقوا الخلاص، فيجيبه بأنهم سيغرقون في "النسيان" ويُرمون في "السجون" أي الأجساد الجديدة، والسبيل الوحيد لخروجهم هو في التَّخلص من النسيان وتحصيل"المعرفة".

الجحيم على الأرض:

اعتمد الغنّوصيون على مبدأ التقمص لشرح أسباب الألم والمعاناة ومظالم الحياة . وأكَّد الفيلسوف المسيحي "باسيليدس" في مطلع القرن الثاني أن التقمُّص يوضِّح لماذا يذوق الأبرياء طعم الشهادة، فالشهيد يسدِّد ديون أخطائه في الحياة السابقة. ويلقى نص غنوصي آخر الضوء على ما يتضمَّنه التقمص من عقاب وثواب، ويبرهن النص هذا على أن اختلاف الأقدار ما هو إلا نتيجة لأعمال الحياة السابقة . إذن يخبرنا الغنوصيون، كما أكَّد فيلو الإسكندري، بأي علينا تقع مسؤولية البحث عن الحق ائق الروحية كي ننفذ من حلقة الولادات التي يسيطر عليها طابع النسيان والانغماس أكثر فأكثر بالخطيئة، ويقول "زوستريانوس"Zostrianos بأن النفس التي تلتمس الأشياء الموجودة هي النفس التي "تختبر في داخلها اكتشافاً للحقيقة" لذلك إن التماس "الأشياء الموجودة" يعني الاتِّصال بالله في داخلنا (الوجود الحق). والتبديل في قيمنا هذا يعني عند الغنوصيين الوعي الروحي حينما تدرك النفس أصلها الإلهي، وعندما تحيا تلك النفس في وحدة مع الله في الداخل تعي عندها الوجود الحقيقي. وبناء عليه، يعتقد الغنوصيون أن قيامة الأموات أو البعث الوارد ذكره في سفر الرؤيا يجب أن يُفهم رمزياً وليس حَرفياً، ويؤمن البعض أن سفر الرؤيا يصف طريقنا الشخصي في الكفاح النفسي ضد ماديتنا وكلنا في حالة من الوحي أو الرؤيا ونختبر عناصر عدة منها. لقد تبنَّت الكنيسة التفسير الحَرْفي للبعث معتمِدة على مقاطع من سفر الر ؤيا، لكن هذا التفسير لا يتلاءم مع رسالة يسوع التي تتوافق مع التأويل الروحي، في حين يرى الغنوصيون أن البعث هو بعث روحي، في حين يرى الغنوصيون أن البعث هو بعث روحي يحدث خلال الحياة على الأرض وليس قيامة للأموات في زمن ما في المستقبل، وأن هذه النظرة موجودة بين طيّات الكتاب المقدس لكن علينا أن نعرف أين وكيف نجدها. وفي حين أن البعث الجسدي يقضي على فكرة التقمص، فإن البعث الروحاني لا يتعارض مع التقمُّص بل يتكامل معه، وتعتبر الغنوصية أن البعث والحياة الأبدية والملكوت ليست أحداثاً مستقبلية وحسب بل بمقدورنا اختبارها على الأرض، وأن العارفين الذين وصلوا إلى ينبوع الحياة الأبدية باختبارهم البعث الروحاني باستطاعتهم الخروج من حلقة الولادات التي يطغى عليها طابع النسيان . واعتقد اللاهوتي الكبير

"أوريجانوس الإسكندري" بأن هناك بَعثَيْن: واحداً عند نهاية الزمن، وواحداً يحدث في الر وح والإرادة والإيمان خلال حياتنا الحاضرة، وأن البعث روحاني وليس جسدياً.

وعدَّد الغنوصيون أربع مثالب للبعث الجسدي في المسيحية لا تتوافق ورسالة المسيح

أولاً: يجد الكثير من المسيحيين فكرة قيامة الأموات في نهاية الزمن منافية للعقل وعصية على القبول والفهم.

ثانياً: أنها تنكر الطريق الشخصي للخلاص، حيث المطلوب فقط الإيمان بيسوع المسيح رباً ومخلِّصاً، والتطهر بمعمودية الماء للحصول على الخلاص بعد القيامة من الموت بغض النظر عن مسؤوليتنا تجاه أعمالنا.

ثالثاً: أنها تجعل من العقيدة المسيحية طرحاً لاهوتياً واحداً، إما أن تحصل على الحياة الأبدية عبر قيامة الأموات أو لا تحصل عليها وتبقى في الخارج ملعوناً إلى الأبد.

رابعاً: إن قيامة المسيح جسدياً تُعتبر من الناحية التاريخية غير مثبتة كلياً، فيما تعتبرها الكنيسة إثباتاً مسبقاً لقيامة كل الأموات . ويعزو أوريجانوس هذا المعتقد إلى "نقص في المنطق ". وقال أن التفكير به يتناقض مع تعاليم بولس الذي يعتبر الجسد القائم "روحانياً"، وأكَّد أن الاعتقاد بقيامة جسدية ما هو إلا طرحٌ لـ "العقول البسيطة" و "عامة الشعب الذين أُريد لهم أن يحيوا حياة أفضل بمعتقدهم".

تحوّل سحري:

إلى جانب تنافيها مع المنطق، تعني فكرة القيامة بعد الموت أن المعمَّدين، أكانوا يستحقّون الجنة أم لا، يتم انتقالهم بعد الموت إلى الجنة بشكل سحري وكل ذنوبهم البشرية سوف تُمحى تلقائياً! لقد غذّى أحد مقاطع بولس الرسول فكرة التحوُّل العجائبي هذه التي أدَّت إلى المعتقد الشائع بـ"الغبطة". لقد كتب بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنثيا : "لن نرقد كلنا ولكننا كلنا نتغير، في لحظة، في طرفة عين عند البوق

الأخير، فإنه سيبوَّق فقيام الأموات عديمي فسادٍ ونحن نتغير . لأن هذا الفاسد لا بد أن يلبس عدم فساد ". (كورنثيا الأولى 51/15–53) وقد فسَّر المسيحيون لقرون عدة هذا المقطع على أنه وصف للبعث الجسدي، في حين اعتبر البعض أن "الغبطة" هي لحظة يتم خلالها نقل جميع المسيحيين إلى الجنة دون خضوعهم لسُنّة الموت في نقلة عجائبية . وهنا يتساءل الغنوصيّون عن محو الذنوب جميعاً في هذه اللحظة، متى نحصد ما قد زرعناه على هذه الأرض؟ فما نفع كفاحنا الشخصي نحو الفضيلة والصلاح؟ إذاً التقمص أكثر عدالة من البعث الجسدي لأولئك الذين توفّاهم الله قبل جهوزيتهم ل دخول الجنة. "ليسلس ويذرهد" Leslie Weatherhead، راعي أبرشية لندن من سنة 1935 إلى 1960، وصل إلى نتيجة مماثلة، لقد اعتقد ويذرهد أن التقمُّص جزء من الحكمة الإلهية وأن الأرواح التي لم تمر في اختبارات أرضية لا ترقى إلى مستويات عليا وتُصقَل إلاّ عبر التقمص، أي كي تُمتَحن مجدداً".

القيامة الروحية:

للغنوصية المسيحية لغتها الخاصة، وهي نوع من الكلام الباطني قيل أن يسوع وحتى بولس نطقا به، لم يكن البعث عندهم حَدَثاً مادياً، لقد كان البعث في مفهومهما حَدَثاً روحانياً، ببساطة .. يقظة للنفس، واعتقدوا أن أولئك الذين اختبروا البعث الروحاني باستطاعتهم تحقيق الحياة الأبدية، أو الاتّحاد المقدس على الأرض، والذين لا يختبرونه سوف يتقمَّصون أجساداً أشبه بالأشباح بلا أرواح تطغى عليها ظلمة النسيان . فَسّر الغنوصيون بعض المقاطع من رسائل بولس التي تبدو وكأنها تشير إلى قيامة جسديةبأسلوبهم الخاص، وادّعوا أن بولس علَّم على مستويين، واحد للدنيويين أولئك الذين على مستوى الأشياء المادية، وآخر للروحانيين القادرين على استيعاب الحكمة الإلهية. واعتبر الغنوصيّون أنفسهم روحانيين، والقسم الأكبر من المسيحيين دنيويين، وأكَّدوا أن الروحانيين وحدهم باستطاعتهم فهم المستوى العالي لتعاليم الإنجيل، لكن هذا لا يستثني الدنيويين نهائياً، الذين بمقدورهم أن يصبحوا روحانيين عبر انتهاجهم مسلكاً روحيّاً، حين يدركون غوامض الأسرار. إن النظر في خفايا معاني النصوص الدينية كان شائعاً في العالم الإغريقي– الروماني، فقد رأى فيلو الإسكندري في العهد القديم قصصاً ذات مغزى، في حين اعتبر أوريجانوس الإسكندري أن النصوص لها معنيان، ظاهري وباطني.

المعنى الحقيقي للحياة والموت :

إن وعد يسوع لـ "مارثا" في إنجيل يوحنا يلقي الضوء على مفهومه الحقيقي للموت والحياة "أنا هو القيامة والحياة. من آمن بي ولو مات فسيحياً . وكل من كان حياً وآمن بي فلن يموت إلى الأبد . أتؤمنين بهذا". وفسّر عدد كبير من المسيحيين هذا القول على أن أولئك الذين يؤمنون بيسوع سيعيشون بعد البعث في أجيادهم المادية إلى الأبد!، لكن أليس واضحاً أن يسوع يشير إلى أبعد من بعثٍ للأموات؟ كل الأجساد تموت، إذاً عندما يقول يسوع أن الذي يعيش ويؤمن بي "سوف لن يموت "، هل كان يقصد ببساطة بأن أجسادهم لن تموت؟ هنا يعتقد الغنوصيّون بأن المسيح يقصد بكلامه هذا أن نفوسهم لن تعود أبداً إلى حالة "العبودية والنسيان"، ويؤكدون بدورهم أن ا لمؤمنين بالمسيح (الكلمة، اللوغوس، أو العقل الكلّي) سيتم بعثهم روحياً بخطوة ترقى بالحياة على الأرض إلى مستوى أرفع من الكينونة، ويشيرون إلى أن مصطلحاتهم منثورة في أعمال الرسل، مثلاً تتضمن الرسالة إلى أهل أفسس كلمات "اليقظة، النوم، الموت" في مفهوم غنوصي: "استيقِظ أيها النائم وقُم من بين الأموات فيضيء لك المسيح " (ألإسس 14/5). وآمن هؤلاء الغنوصيّون أن الدنيويين (النفوس غير المستيقظة) نِيامٌ وبحاجة إلى إيقاظ طبيعتهم المقدسة. وبمساواتها فكرة الاستيقاظ من النوم مع القيامة من الموت، تدعم رسالة بولس إلى أهل أفسس، ال تفسير الغنوصي للبعث على أنه ولادة روحية لا جسدية. وتُقدِّم المخطوطات الغنوصية رؤية واضحة وبسيطة عن البعث . أولاً، يبدِّد "إنجيل توما" الأوهام لدى العامة بأن البعث حدث مستقبلي : "قال له أتباعه، متى تحدث راحة الأموات، ومتى يأتي العالم الجديد؟، فقال لهم (أي المسيح) ما تبحثون عنه قد أتى لكنكم لا تعرفونه " وهذا يعني أن البعث والملكوت موجودان الآن، لكننا لا ندركهما، أو وفقاً للمفهوم الغنوصي، لم نتكامل بهما بعد . وفي نص آخر من نصوص المخطوطات الغنوصية التي اكتشفت في "نجع حمّادي" ، (حوار المخلِّص)، نجد جواباً للسؤال البديهي عن أي نوع من الأجساد سيرتدي القائمون من الموت . وبدلاً من الاستنتاج، كالمتشدِّدين، أن النص أن تلك الأجساد زائلة وفانية لا تدوم "ليس بهذه الأثواب الزائلة ستكسو نفسك ". إن فكرة "الارتداء" وتبديل الأثواب مجاز غنوصي يساعدنا على فهم مبدأ البعث عند الغنوصيين، ويوضِّح النص الغنوصي بأن علينا أن ننزع أثواب هويتنا المادية وزخارفها لنرتدي الثوب الروحاني، هويتنا المقدسة (رداءنا الملكي)، وبذلك

نحصل على الحياة الحقيقية– الحياة "المنبعثة". إن بحث الغنوصيين في نظرية البعث يرمي إلى الاتِّحاد بما هو إلهي داخلنا، وتَرْك كل ما هو زائل ومتغيِّر، ووهمي.

إذاً، البعث هو معراج روحي نحو الاتِّحاد المقدس، عندما تتأجج شعلة النار في قلب المؤمن إلى حدٍ تتلاشى معه الأشياء الزائلة. وتحدث هذه اليقظة عندما تقرِّر النفس أن هدفها هو ذلك الاتِّحاد وتبدأ محاولة تحقيقه على خطى السيد المسيح (اللوغرس)،

المفهوم السّري ليوحنا عن التقمُّص (البعث يقظة نفسية لتحقيق الاتِّحاد المقدِّس)– قسم البحوث الروحية في الضحى–راجع الضحى ابتداءاً من العدد 77– تموز1998.

كثيراً ما تكلَّم يسوع عن الملكوت. لكن ما هو الملكوت وكيف يستطيع الإنسان الدخول إليه؟

سنرى في بحثنا هذا أن بلوغ الملكوت هو تحقيق الاتِّحاد المقدس، الملكوت ليس مكاناً بقدر ما هو كل مكان– حالة الكينونة التي يمكنك ولوجها عندما تحقِّق الأحدية مع الله . وسنفهم هذه الحالة عندما نتفحَّص أقوال يسوع عن الملكوت.

أين هو الملكوت:

فكَّر الناس في زمن يسوع وبحثوا عن الملكوت الآتي وتساءلوا كيف سيكون. اعتقد البعض أنه سلطة الله السرمدية المقبلة والمتمثِّلة بالمسيح وتساءلوا هل سيحدث على الأرض أو في السماوات؟، كان هناك دعمّ للفكرتين.

دعم للنظرية الأرضية سأل كاتب "مزامير سليمان" في الأسفار الغنوصية (القرن الأول ق.م".) الله أن ينصّب ابن داود ملكاً على إسرائيل في زمن مقبل غير مُسمّى لكن أسفار موسى تخبرنا أن الصُلاّح سيُؤخَذون إلى الملكوت السماوي: "سوف يرفعكم الله إلى الأعالي نعم سوف يثبتكم بقوة في جنة النجوم".

حتى ولو كان هناك اختلاف في الآراء إذا كان الملكوت في السماء أو على الأرض فإن هذه المقاطع تصف الملكوت أنه مكان وقدومه حدث مستقبلي. تبنَّت الكنيسة الكاثوليكية هذه الفكرة، واليوم تؤكِّد

أنه علينا أن ننتظر "نهاية الزمن" بعد الحساب ا لأخير كي يأتي ملكوت الله بكماله وعندها يصبح العالم المرئي الكلي متغيِّراً.

لكن هناك مفهوماً آخر "للملوكية" والذي يشير إلى حالة باطنية للإنسان– القدرة على الحكم . تأتي عبارة الملكوت في العهد الجديد من الكلمة الإغريقية "باسيليا" Basileia التي تعني الملوكية وتدل على قوة السلطة.

كيف يمكن لأي شخص أن يحقِّق هذه القوة؟ تخبرنا النصوص الإنجيلية وحتى التوراتية أن قوة السلطة والسيادة تُمنحُ للحكيم لأن الحكمة تقود إلى الخلود الذاتي، تقول حِكَم سليمان "ابتداء الحكمة هي الرغبة الأكثر صدقاً للتعلُّم، و مراعاة قانونها هو تأمين الخلود، والخلود يجعل الإنسان قريباً من الله، فهذا التوق إلى الحكمة يقود إلى الملكوت".

الحكمة تقود إلى الملكوت:

تَعدِ حِكَم سليمان الصُلاّح بالخلود، ويقول إنهم سوف يَحكِمون الأمم ويواجهون الناس ويكون لهم مطلق السلطة. في المسيحية دور الحكمة منوط بيسوع فهو إنسان وسيط مقدَّس يُمنح الخلود والسلطة

تصل مخطوطات بحر الميت أيضاً بين تحقيق الحكمة وسيطرة الملكوت، يخبرنا"سفر ليفي" الآرامي (القرن الثالث ق.م) المكتشف في قمران، أن من يعلِّم الحكمة سيجلس فوق عرش المجد . وفي مقطع أخر يخبِّر هؤلاء الذين يبحثون عن الحكمة أنهم سيصبحون ملوكاً وحكاماً في الملكوت الأبدي

يخبرنا فيلو أيضاً أن الحكماء هم الذين يشتركون في الملكوت وقد أُعطيت لهم القوة كي يحكموا : "الحكيم الذي يمتلك الفضيلة هو الملك... الحكيم وحده هو الحاكم والملك، والفضيلة هي سلطة ملوكية لمن سلطانه نهائي".

لا يصف فيلو الملكوت الأرضر عندما يتكلم عن ملكوت الحكيم : "تأسست الممالك الأخرى بين الناس في الحروب والحملات وحالات المحن التي لا تُحْصى . لكن ملكوت الحكيم يأتي كهدية من الله والزغنسان الفاضل الذي يستلم هذه الهدية لا يؤذي أحداً".

الطريق إلى الحرية الحقيقية :

تأمَّل الإغريق في الملكوت وكيف يمكن بلوغه، يخبرنا فيلو (المتأثِّر بالفكر الإغريقي) أن امتلاك الملكوت هو الطريقة الوحيدة لبلوغ الحرية الحقيقية، وهذه الحرية تأتي فقط لِمَنْ يجد الحكمة، يقول فيلو أن الإنسان الحكيم يصبح ملكاً أقل من الملك العظيم (الله). ويُعْتبَرَ حراً وسيِّد نفسه حتى لو كان محكوماً بعشرة آلاف رجل، بمعنى آخر لو كان الرجل الحكيم عبداً فهو أكثر حرية من سيده.

قارن الفيلسوف الرواقي "إيبيكتيتوس" Epictetus نفسه بالملك مع أنه كان فقيراً كمتسوِّل : "أنا أنام على الأرض لا زوجة لي ولا أطفال ولا سلطة رسمية لكن لي فقط الأرض والسموات وعبارة فقيرة واحدة . وماذا أريد؟ هل أنا حزين؟ هل أنا خائف؟ ألست حراً؟ .. من الذي يراني ولا يظن أنه يرى ملكه وسيده؟ "إيبيكتيتوس" هو أفقر من أي ملك، لكنه حرّ لأنه غير محكوم بمخاوفه ورغباته.

ينصح فيلو هؤلاء الذين قد يبلغون منزلة الحرية والسيادة بأن يقهروا حاجاتهم ويسيطروا على رغباتهم، لا تعتمد الحرية على ما إذا كان الإنسان عبداً أو حراً، بل إذا كان محكوماً بعواطفه وأهوائه (مثل البوذية). تجعل المدفوعة بالشهوة والسعادة والخوف أو الحزن، الإنسان عبداً لعشرة آلاف سيِّد، بينما تم تلك النفوس التي تحرِّر نفسها من العبودية، القوة والسيادة والسلطة على الذات.

يخبرنا فيلو في عمله "كل رجل صالح حر " أن "ديوجينس" Diogenes كان مثلاً للإنسان الحر والملكي حتى ولو أن اللصوص أخذوه سجيناً وباعوه عبداً فهذا لن يخمد روحه . عوضاً عن ذلك كان يمازح رفاقه العبيد ويسخر ممَّن سيشتريه"، ويؤكد لنا فيلو أن الإتِّزان وعدم الاكتراث هما من خاصية الملك . يتكلَّم واحد من نصوص "نجع حمّادي" The Sentences of Sextus عن الحرية بنفس طريقة فيلو : "الإنسان الحر الحكيم يشارك في ملكوت الله".

ليأتِ ملكوتك:

انتشرت هذه الأفكار عن الملكوت في القرن الأول وبدون شك كانت مألوفة بالنسبة ليسوع، حيث أخذها بأهمية وبنى عليها تعاليمه . واستنتج تلاميذ يسوع أن أقواله عن الملكوت كانت جزءاً أصيلاً من وعظه.

اعتقد الباحثون (مثل فيلو) أن يسوع لم يرَ الملكوت كرؤيا مستقبلية، بل م نزلة يمكن أن يختبرها الإنسان وينعم فيها اليوم إذا كانت لديه المفاتيح، ودون أن ينتظر حتى نهاية العالم، وهذا يظهر واضحاً وجلياً في أقواله عن الملكوت في إنجيل لوقا:

"وكان يقول ماذا يشبه ملكوت الله وبماذا أشبهه، إنه يشبه حبة خردل أخذها رجل وألقاها في بستانه فنمت وصارت شجرة عظيمة واستظلَّت طيور السماء في أغصانها، وقال أيضاً بماذا أشبه ملكوت الله إنه يشبه خميرة أخذتها امرأة وخبَّأتها في ثلاثة أكيال دقيق حتى اختمر الجميع". ("لوقا: 18/13–19–20–21) ما هو الشيء المشترك بين حبة الخردل والخميرة؟ لكليهما تأثير أكبر من ت ناسب حجميهما، فحبة الخردل الصغيرة أصبحت شجرة كبيرة واستظلَّت الطيور في أغصانها، والخميرة رغم صغرها بالنسبة لحجم الطحين فإنها تخمر أغلبية العجينة ملكوت الله هو صغير وضخم في ذات الوقت ونفس الخصائص موجودة في الشرارة المقدسة "الآتمان" (الذات العليا) وهي مخبَّأة داخل كل إنسان وصغيرة جداً . عندما يخبِّرنا يسوع أن الملكوت هو مثل الخميرة وحبة الخردل، فهو يشير إلى أن الملكوت يُدْرَك عبر الشرارة المقدسة ومثلما تصبح حبة الخردل الصغيرة نبتة كبيرة، تسمح الشرارة المقدسة لنا أن نصبح الشجرة الإلهية الكبيرة . ومثلما تُنْضِج الخميرة العجينة فإنّ الشرارة المقدسة لديها القوة لتوجِّه الكائن الباطني داخلنا إلى الله، فعندما نُدرِك الملكوت عبر الشرارة المقدسة تلك نبلغ تخوم الألوهية. يخبرنا يسوع في أقوال أخرى عن الملكوت أنه يقيم في كل جزء من الحياة وينفخ الروح في الكون وهو حاضر في كل مكان لكن لا يُؤذَن بدخوله لكل شخص . سأل الحواريّون يسوع: "متى سيأتي الملكوت؟ أجابهم سوف يأتي بغير ترقُّب . لن يُقال أنظر هنا أو أنظر هناك لأن ملكوت الرب منتشر على الأرض والناس لا تراه ". (إنجيل توما: 113) وهذا يشبه ما ورد في إنجيل لوقا: "ولما سأله الفرّيسيون متى يأتي ملكوت الله أجابهم وقال إن ملكوت الله يأتي بغير ترقُّب ولا يقال إنه هنا

أو هناك لأن ملكوت الله في داخلكم " (إنجيل لوقا: 21/20/17). لمزيد من البراهين أن الملكوت هو حالة ذاتية ويمكن اختبارها في الحاضر نرى في رسالة العبرانيين : "فلذلك إذ حصلنا على ملكوتٍ لا يتزعزع فلنتمسَّك بنعمةٍ بها الله عبادةً مرضيةً بتقوى وورع " (العبرانيين: 28/12). يدعونا كاتب الرسالة إلى التبصُّر في طبيعة الملكوت ويصفه وكأنه مصنوع من شيء لا يتزعزع مغاير لخلق الأشياء التي يمكن أن تتزعزع هذا يظهر أن الملكوت روحاني خالد.

مفاتيح الملكوت:

إذاً لقد عرفنا الملكوت في مخطوطات بحر الميت وفي تعاليم الحكمة على أنه حالة من الكينونة وقوة السلطة التي تُمنَح إلى الحكيم الصالح وتقوده إلى الخلود . يخبرنا فيلو أن بلوغها يكون بفصل أنفسنا عبر العالم المادي، ويقول لوقا وتوما (في الإنجيل) أن الملكوت مُتاحٌ لنا هنا على الأرض ولكن ليس بمقدور كل شخص أن يدخله، وتعلِّمنا رسالة العبرانيين أنه روحاني، ويسوع يخبرنا أنه موجود في داخلنا مؤكِّداً الفكرة الصوفية القائلة بالإتِّحاد مع الله.

ويشير إنجيل توما وبعض نصوص نجع حمادي الغنوصية إلى هذا الاتِّجاه . ففي أقوال توما تأكيد على أن الملكوت (صغير جداً) داخلنا، (كبير جداً) خارجنا، ويتكلَّم كاتب الإنجيل بتفصيل ويبني على فكرة فيلو "الهلنستية" عندما يخبرنا أن بلوغ الملكوت يكون عبر المعرفة الذاتية : "قال يسوع إذا قال لكم أسيادكم انظروا هوذا الملكوت في السماوات فعصافير الجنة سوف تسبقكم، وإذا قالوا لكم إنه البحر فإن الأسمال سوف تسبقكم، فالملكوت هو في داخلكم وخارجكم، عندما تعرفون أنفسكم سوف تعرفون وتفهمون أنكم أطفال للأب الحي".

"ولنعرف أنفسنا ولنصبح معروفين" هي عبارات غنوصية لعملية التمثُّل والتماثُل مع الله في الداخل، فلهذا يخبرنا توما أنه كي ندخل الملكوت علينا أن نكون واحداً مع الله

يبدو كتاب توما وكأنه يردد أقوال فيلو عندما يخبرنا كيف يصبح العبد ملكاً عندما يهزم سلطة السعادة والألم: "من يترك الآلام الجسدية والعواطف سوف يلاقي الطمأنينة من الشخص الصالح وسيحكم مع الملك".

ثم يخبرنا النص فيما بعد أن بلوغ الملوكية هو تماماً مثل الاتِّحاد المقدس: "عندما تحكم سوف تكون متَّحِداً مع الملك والملك متَّحِداً معك الآن وإلى الأبد".

يكرر النص الغنوصي "بيستيس صوفيا" Pistis Sophia هذه الفكرة حيث يعد يسوع بالملوكية والاتِّحاد المقدس لهؤلاء الذين سيستلمون أسراره قائلاً: "كل الذين سيستلمون الأسرار التي لا ينطق بها، سوف يصبحون حكّاماً متشاركين (ملوكاً) معي في ملكوتي وأنا هم وهم أنا ". بعبارة أخرى عندما تصبح واحداً مع المسيح تكون قد بلغت الملكوت (يضرب المثل بيسوع لأنه نموذج للصورة المقدسة الخالدة).

تؤكد أقوال أخرى في إنجيل توما أن "إيجاد الملكوت" هو رمز للاتِّحاد المقدس، أولاً يقارن يسوع نفسه بالملكوت: "من هو بقربي هو بقرب النار (المقدَّسة) ومن هو بعيد عني فهو بعيد عن الملكوت " إذا كان الملكوت مثل يسوع فمن يريد أن يبلغ الملكوت يحتاج إلى أن يصبح أكثر تشبُّهاً به".

العودة إلى البداية:

في إنجيل توما شَرْحُ آخر يوضح كيف يصبح الإنسان مقدَّساً، هو "العودة إلى البداية"، الحالة الأزلية للكمال قبل أن تتحدَّر النفوس إلى الشكل الفاني، استنتج الباحث "ستيفان دايفس" Stevan Davies (ممّا ورد في إنجيل توما) أن البداية وملكوت الله، ويسوع، والنور عبارات متساوية.

عندما سأل الحواريّون يسوع عن "النهاية" أخبرهم أن الطريق لبلوغ الحياة الأبدية تكون بالعودة إلى البداية، قال يسوع : "هل وجدت البداية التي تبحث عنها؟ في المكان الذي تجد فيه البداية ستكون هناك النهاية. مباركُ هو الذي سيقف في البداية ويعرف النهاية ولن يذوق طعم الموت ". ويخبرنا يسوع في إنجيل توما أكثر عن كيفية بلوغ حالة البداية (أو الكمال) التي حقَّقها، يقول الحواريّون: "أظهر لنا المكان حيث أنت

حتى نبحث عنه". يجيب يسوع: "هناك نور داخل كل شخص منكم يشع على العالم بأسره، وإذا لم يشع فالعالم مظلم وحالك".

ولذلك عندما تكتشف كيف تجعل النور داخلك يشع، وتصبح واحداً مع نور الله في قلبك، عندها سوف تقف عند البداية وتكون قد اكتشفت الملكوت.

الحاضر في كل مكان:

وصف الفكر الصوفي حالة الاتِّحاد كمثل كائن تجده في كل مكان دفعة واحدة، يقول يسوع (في إنجيل توما 77): "أنا نور العالم الذي هو فوق كل الأشياء، أنا كل الأشياء، كل الأشياء تظهر مني، وكل الأشياء تتَّصل بي، شق الخشب أنا هناك، ارفع الحجر ستجدني هناك".

"شق الخشب أنا هناك" تعني: "الآن وقد حققت الاتِّحاد المقدس فأنا حاضرٌ مع الله بكل ذرة وجُزَيء} من الكون".

يشرح إنجيل فيليب الغنوصي هذا الشكل للوجود، أي حالة الكينونة كجزء من الحياة كلها وأنه "المملكة الحقيقية"، وعندما نصبح واحداً مع الله نتَّحد مع جوهر الروحانية الحقيقية للأشياء وليس مع وهم العالم المادي.

"لا يستطيع الناس أن يروا أي شيء في المملكة الحقيقية إلا عندما يدخلونها. في مملكة الحقيقة، إذا رأيت أي شيء تصبح أنت وإياه واحداً، وإذا رأيت الروح أصبحت الروح، وإذا رأيت المسيح أصبحت أنت المسيح، إذا رأيت الأب ستصبح أنت الأب. في العالم ترى كل شيء ولا ترى نفسك، لكن هناك ترى نفسك لأنك ستصبح ما ترى".

في الملكوت، تصبح كل شيء، وعندما تبلغه ستكون حاضراً تحت الحجر تماماً كما يسوع، وتكون معه الشمس والسماء والأرض . فصميم رسالة يسوع هو أن نجد هذه الحالة بالأتحاد الصوفي الذي هو الملكوت والحياة الأبدية. لم يرغب يسوع في أن يكون ملكاً معظَّماً فوق الآخرين بل يريد أن يظهر لنا الطريق

إلى الملكوت، وعندما نجدها سنجد مخرجاً لحيرة الإنسان وآلامه ومعاناته وعجلة الولادة، ونتحوَّل إلى حالة غير اعتيادية من التنوير. حالة الاتْحاد المقدَّس خارج العالم– عالم الزمان والمكان والمادة.

شرارة الذات المقدسة (ملكوت الله في داخلنا)– إعداد قسم البحوث الروحية في الضحى.

السابقون والعرفانيون والمتصوِّفون

مشاهد من ذاكرة التوحيد

عصر الإسلام

إن رحمة الباري بعباده جعلته يتدرَّج بهم في سلّم معرفته (في هذا الدور الآدمي الأخير) كما في سائر الأدوار بتؤدة وعلى قدر أفهامهم . ذلك لأن البشرية ما برحت تتدرَّج من عهود الجهل والظلام، إلى عهود المعرفة والإشراق والنور ... لذلك كان لا بد من إعطاء الحقي قة جرعة جرعة ... ولذلك أيضاً جاءت الحكمة الأزلية مبثوثة في باطن جميع الفلسفات والأديان منذ أقدم العصور . فمثلما يتدرَّج الطفل، وتنمو مداركه من الحضانة إلى الجامعة حيث يتخرَّج مسلحاً بالمعرفة إلى ميدان العمل، كذلك هو الحال مع البشرية من أقدم عصورها مع الدعوات التوحيديَة المتعاقبة.

عليه نقول، إن الإسلام اعتقاد وإيمان، وبالطبع فلا بد للإيمان من أن يكون طريقاً للخلاص والنجاة، وإلا كان كالشجرة التي تورِق وتُزهِر دون أن تنعقِد ثمارها وتنضج.

وقد حذَّرنا الله العظيم من الشرك به... لكن التوحيد كان لا بد أن يصل إلى منهاه عبر سلوك طريق الفكر المتحرِّر.

إنها لدلالة على الولاء للحقيقة وعدم الشرك بالله أن نتقبَّل الأنبياء الكرام على أنهم رُسُل بُعثوا جميعاً من مصدر واحد ولهدف واحد . فتكون الأديان ليست سوى حلقات متعاقبة، ومتسلسلة تاريخيّاً في معراج البحث الصاعد عن الحقيقة . ويكون البحث عن الحقيقة ليس بالتعصُّب للأنبياء والرُسُل، بل يفهم جوهر الأديان والرسالات التي أتوا بها.

إن الإسلام يدعو إلى عبادة الله وتوحيده والخضوع لمشيئته وقوانين الوجود التي أوجدها، كما يدعو إلى احترام الأنبياء الذين دعوا إلى الكلمة السواء التوحيديّة التي سبقت الإسلام في الظهور.

أمّا التوحيد فهو الإسلام بمعناه الأشمل . عندما أرسل النبي سليمان إلى بلقيس ملكة سبأ مَن يدعوها إلى الإيمان بالله الواحد فإنه كان يدعوها في الحقيقة إلى الإسلام بمعناه الواسع، وهو التسليم لمشيئة وإرادة الله الواحد الذي لا وجود لإله سواه. وهذا في الحقيقة جوهر عقيدة التوحيد الإسلامية.

والإسلام لا يعني بالنسبة للموحِّدين الوقوف الحرفي عند النص، فالقرآن الكريم معروف بمعانيه الباطنيّة التي لا يعلم تأويل بعضها إلا الله ولذلك فإن الكثير الكثير من آياته يتتطلّب منّا الاجتهاد المخلص المترفِّع عن القيود الفكرية لفهم وتفسير وتدبُّر القرآن الكريم. ففي آيات القرآن المُحكَمات أبعاد وأعماق مرموزة ومعبِّرة عن كثير من الظواهر والبواطن من المعاني. وكلها صحيحة يغوص في طيّاتها المؤمن بقدر ما أوتي من الإلهام والتوفيق، وسمو الذوق، وتحرُّر العقل، ورهافة الإيمان . وفيها يجد العوام والعلماء ضالَّتهم . فمنهم مَن يطفو على سطح الألفاظ، ومنهم مَن يغوص في عمق المعاني . ومن المهم التذكير بأن ليس جميع ما ورد في الكتب المقدَّسة إنما يمكن أن يؤخَذ عن ظهر قلب على حرفيته، لأن الحقيقة ومنذ قديم الزمن كثيراً ما كانت تأتي مغلَّفة حتى لا يصعب على العامة تقبُّلها، أو حتى لا يسيئون إليها

التوحيد ليس ديناً بالمعنى التقليدي الظاهري للكلمة. إن الموحِّدين هم مسلمون لتعلُّقهم بجوهر الأديان الأبدي؛ والذي هو منذ الأزل وهو ما أثبته القرآن الكريم في كثير من آياته...

يعتقِد الموحِّدون أن الإسلام جاء برسالة الهدف منها إكمال توضيح الحقيقة الإلهيّة بتزكية النفوس وتهيئتها لمشاهدة الحق سبحانه، وهذه الحقيقة شاهدتها كل نفس، وكاشفها كل عقل منذ بداية التكوين، فبذلك

يكون الإسلام معراجاً جديداً مكمِّ لاً للأديان الأخرى ومصدره النور الذي أتى في كل عصر وزمن لهداية الخلق إلى معرفة الحقيقة.

ويقول القرآن الكريم أن رسالته هي "التوحيد" وليس التفرقة. والتوحيد هو رسالة الأديان المقدَّسة التي تحثُّ على المحبة والسلام بين البشر.

فكانت هذه الرسالة دائماً تُهدَر على مذبح التعصُّب والجهل . وهذا ما أدّى إلى تضييق أُفُق الفرد وهامش حريته في البحث عن الحقيقة التي ستُحاسب عليها نفسه وحدها

فيتخبَّط الفرد في أجياله وتقمُّصاته بين جبهات الأديان ليشن حرباً ضد نفسه، فيُدافع مثلاً عن يهوديته في جيل ضد المسيحية وعن مسيحيته في جيل آخر ضد البوذية ناسياً ذاته العليا التي تعطيه هويَّته الحقيقية.

لماذا دُفِع بالفرد إلى هذه الزاوية؟

إنه استغلال لحاجة الفرد بأن يشعر بالانتماء وخوفه من الموت، وأحياناً حاجته إلى العون المالي والاقتصادي والا جتماعي والسياسي ... وأحياناً أخرى حاجته إلى غسل عقدة الشعور بالذنب . كل هذه الممارسات القاهرة للإنسان إنما تُفرَض عليه باسم "الله"، فباسم الله قام الأميريكيون البيض باجتثاث الأميريكيين الأصليين (الهنود الحمر) ليشيِّدوا أميركا. وباسمه قام العرق الأبيض باستعباد العرق الأسود. وباسم الله أنشأت الكنيسة الكاثوليكية محاكم التفتيش في القرون الوسطى ونظَّمت المذابح الجماعيّة للجماعات الغنوصيّة. وباسم الله سُفِك دم الحلاج. وبإسم الله تُنظَّم المذابح الجماعيّة في الجزائر اليوم. وباسم الله اغتصب اليهود "فلسطين" وباسم الله يُقتَل السوّاح الأبرياء في مصر.

ما هو الإسلام؟ الإسلام هو إسلام الوجه إلى الله، فكل من أسلم وجهه إلى الله كان مسلما . كل من وحَّد الله وأقر بأنبيائه وكُتُبه وملائكته واليوم الآخر وقضاء الله خيره وشره كان مسلما . أما أن يختلف المسلمون في أفكارهم فتن حٍّ عن الإسلام. الفكر والعقل هو غنى وثروة للإسلام، طالما أن الإنسان يشهد

بوحدانيّة الله ويشهد بمحمَّد كرسول له يكون مؤمنا ونيته صادقة في أركان الإسلام فلا نستطيع أن نلغيه ولا نستطيع أن نلغي غير المسلم.

مع الأسف الشديد، إننا نرى المتديِّنين أحياناً بخلاف ما تقول به الأديان وليس فقط اليهود أو الغرب بل المسلمين والشرقيين أحياناً. عندما قتل أحدهم مسلما أنبه الرسول (ص) فقال: "لماذا قتلت هذا تارجل؟" قال له القاتل: "لأنه كافر"، سأله: "ألم يشهد أن لا اله إلا الله ومحمداً رسول الله؟ " قال: "نعم، ولكنه غير مخلِص في شهادته". فأجابه الرسول (ص) قائلا: "أشققت عن قلبه؟" فالكفر أمر يحاسِب عليه الله".

رّفْض الغير هو ضد الإسلام. من هنا، نرى أن الإسلام يضعف عندما يصبح مُلْكا ولم يعد خلافا، هذا ما يجب أن ندركه كإسلام وكعرب لأنه عند ذلك تصبح أرواحنا إسلامية وتنفتح قلوبنا للمحبة وللخير. علينا كموحِّدين في الإسلام أن لا نمالئ في كلمة الحق ولو على حساب كبريائنا . على الإسلام أن يعيد النظر في مواقفه من غيره ويكون شجاعاً في مراجعة ذاته وانتقاد نفسه، النقد الذاتي إذا كان صادقاً ينقّي النفس نحو الأفضل. وهذا ما يجب أن يكون عليه عمل المسلمين كي يتوحَّدوا ويبتعدوا عن التنافر والتناحر.

الذي يريد أن يسلك مسلك إسلام التوحيد فعليه أن يكون حقيقة موحِّدا، ليس فقط في عقله ومنطقه، إنما في توجُّهاته أي أن ينفي كل أنانية، وهذا أمر لا يستطيع كل إنسان أن يصل إليه، والمقصود بانتفا ء الأنانية هو العمل في سبيل الحق وليس في سبيل إظهار ذات أو أية مصلحة . التوحيد هو طهارة وكلما تطهَّر الإنسان بالمحبة استطاع أن يقترب من الله

القرب إلى الله أمر دقيق جداً. ليس القرب إلى الله أن أرى الله في مخلوقاته بل أن أرى الأشياء من خلال الله. "الله أقرب إلينا من حبل الوريد. الله أقرب إلينا منا. هذا ما يقوله التنزيل العزيز.

رسالة سلمان الفارسي:

يتألَّق فجر الإسلام، وتتأنَّق الحكمة في تفريده، فينفرد سلمان في قومه الأولين، ويستوحد في فراديس العقل الإلهي سابحا في ملكوت اللطافة إلى ناسوت الكثافة.

خرج من النار نورا على خمسة فروع، وقيل على خمسة حروف، وكان عقله حدود الأصل أو أصل الحدود. ففي النبع لا تُعرَف القطرة من أختها، ولا يُعرَف النهر من منبعه ومجراه . هنا الكل واحد : النار والنور، الحرف والحد، الفرع والأصل، ومن حرم من علم الرموز وسمو التكوين في ما كان وما لم يكن، إنما يحرم نفسه من متعة النظر في الجوهر ومشيئته! هو السابق قبل العهد. وهو المنادى والمستجيب: لا إله إلا الله.

في المهد التوحيدي عرفته بلاد فارس، ولم يعرف حقا إلا من هداه ودعاه يُقال انه سلمان باك. ويُقال انه حمل على كتفيه مئتين وخمسين سنة مما تعودن، ليختبر الأديان والمسالك كلها

من النار، سر اللطافة والحيوية كما رأى هيراقليطس، خرج بالنور إلى عين الإنسان . كان يعرف جوهر النار، وكان يعلِّم أن طريق التوحيد طويل وأن زاد الموحدين قليل، إذا هم لم يحسنوا قبس النور من مكانته الجوهرية الشعشعانية.

كان الإنسان الحكيم العاقل فيه، وكان في كل أرض يناديه ويؤاتيه . لا تكون مؤاخاة العقول إلا في ربيع الحكمة وفصول التألُّق على مشارف الأدوار والأكوار . وكان سلمان سلاما وإسلاما، قبل الكلمة . عاش في قميصين أو جسدين : قميص الحقيقة وجسد الظل. وفي كل حال، كان حاضراً، ماثلا في نقطة بيكار الكون والوجود. وكان يحرِّك الروح وكأنها ريح الحياة التي لا تكشف ثمارها الطيبة إلا لِمَن رعاها ووعاها.

حارت به الدوائر وهو ينتقل من نقطة إلى نقطة، في مسار كان يضع الصيرورة والتحوُّل في منزلة " ظلال الموت"، فيما قميص الحقيقة يرتدي "نور الكلمة".

مرة أخرى، تأنقت مرايا الوجه الواحد وهو يسافر من بلاد المهد (فارس) إلى بلاد العهد (الجزيرة العربية)، واشتعلت حتى كادت تنكسر من شدة حكمته، وهو يأخذ الكتاب بقوة

هو الضيف الإلهي، المسافر أبدا من بيت ناره إلى بيت نوره يطفِئ نار الجهالة والتلحيد بماء العرفان ونور التوحيد. يخلع قميص حياة مهدية، ويكتسي كسوة المصلوب في بلاد الشام قبل الإسلام، ويرى كسوة

المصلوب في بلاد الشام قبل الإسلام، ويرى الإنسان فيه وفي العالمين مصلوبا، طالما انه رفع يديه منقادا لغير خالقه "حرَّم الله على الموحِّد أن يذل نفسه لغير خالقه، إلا إذا شاء".

من بيت النار في فارس، إلى بيت المصلوب وفمه ذهب الكلمة، كان سلمان يجوس الأيام، يختبر الناس وكأنهم نقطة سوداء تبحث عن عمامة بيضاء يخرج سنا الفجر من مكنونها الروحاني العقلاني البحث

سلمان: س. ل. م.ا.ن:

اسم فريد في بلاد فارس. لا سابق له ولا لاحق، فهو الاثنان معا. وكيف لفارس وسواها أن تعرِف ما لا عهد لها له؟

الفريد يبحث عن الفريد. اختبر المسيحية في ديرها، ولم يرتو. حملة شوق الكلمة التوحيدية إلى بلاد امحوتب (وهو هرمس الهرامسة عند الإغريق وإدريس القرآني) وهناك أماط اللثام عن فرادة الدعوة وعزم الداعية. ففي محراب أهل التوحيد تنكشف السرائر والبصائر، وتتهاوى الستائر، لأن الهرم مهما عرضت قاعدته وتسامق في اتِّجاه سماء الواحد، يؤدّي إلى نقطة واحدة تصل المتناهي باللامتناهي، وتدغم أبيض الأرض والإنسان بأزرق الأثير والواجد.

في بلاد إخناتون، حمل صليب التوحيد إلى هلاله. قدَّم نفسه قربانا، وقيل أن تُجّاراً أخذوه عبداً، وهو الحر المحرر؛ وقيل انهم تحرَّروا به، فيما كان العميان يظنونه عبدهم، وهو مولاهم وسيِّدهم ففي كل موحِّد سيد، يسود نفسه، يسوسها بالحكمة، ويكون بها اقرب إلى الواحد من حبل الوريد، كما يكون إلى عبارة في مُنتهى التواضُع والرهافة.

كان سلمان "مألفة ألأديان"- كما يقول الشيخ عبد الله العلايلي في الإسلام-   بمعنى أن كل من يقصده يجد في بيته بغيته.

في المدينة، كان على موعد من مهاجري الله ورسوله. كان يعمل ليعيش، ولكن ظلال الجسد ما كان ليخفي قميص نقائه وتقواه. هناك عرفوه مذ رأوه. والى السابق تسابقوا لعتقه ممّا هو فيه، بينما ينتقل من قوم

إلى قوم، وهو يدرك انهم كلهم عيال الله. واصطفاه المصطفى إلى بيت هاشم، وكان البلاغ: "سلمان من أهل البيت أي بيت التوحيد، بيت الله العتيق، الذي يتَّسع لكل الأديان، ولكل الناس، لو علمّوا

السلام في روحه، بل هو روح السلام . من السابقين الخمسة، كان كلمة وكان عقلا وكان نفسا لكل اللاحقين المستجيبين. وحرَّم رسول الله نعته بالفارسي، بالمعنى الشائع تلك الأيام، إذ الموحِّد فوق التسميات القومية أو العرقية الضيِّقة: انه عقل الجميع، وجامعهم! وصار ينُادى بـ "سلمان المحمدي"، أي المحمود فيما يأتي ويحكي. وكان له عهود مع رسول الإسلام، ومع أول فتى مسلم، علي بن أبي طالب . وحين انتقل من عهد الرسول إلى عهدة الرفيق الأعلى، كانت عروش الجهالة تتهاوى، وكان دعاء "الله أكبر" يؤذِّن بنهاية ممالك "الشيطان الأكبر".

عهد سلمان (الضيف الإلهي المسافر)- راجع الضحى العدد الرابع والثلاثون 1994

نحن مع رجل ملأ في زمانه القلوب والعيون والبصر، و البصائر، والأسماع، والأفهام، مع رجل كان في التوحيد، والورع، والتقوى آيات ظاهرة، وفي العلم والمعرفة بحرا زاخرا، كان يتكلَّم من حنايا فؤاده يزهُد الناس في الدنيا، وهو أول وإمام الزاهدين لا يزهِّدهم فيها ليسبقهم إليها، ويزاحمهم عليها وينافسهم فيها، كان دينه دين فعل وعمل لا دين قول باللسان، دين إخلاص وخلوة، لا دين رياء وإعلان، وتغاضٍ وكان يتواضع لله حتى رفعه الله عز وجل ويعيش ويحيا حياة الفقر والضَنَكِ، وبيديه الشريفتين خزائن الأرض ومطارح الثروات، ومنابع الجواهر فلم يجمع في حياته الأموال الهائلة، والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة وإنما كان يحمل سلاحه، ومصحفه الشريف عندما يريد الخروج ويقول : "هكذا ينجو المُخِفّون"، انه سلمان الفارسي (رضي الله عنه) بل سلمان الخير، والمحبة والنور الشعشعاني حيث كان إذا سُئِل عن اسمه الطاهر قال : "عبد الله. وعن نسبه؟ قال: "ابن الإسلام"، وعن فخره قال : "سلمان منا"، وعن لباسه قال : "الواضع"، وعن طعامه، قال: "الجوع"، وعن شرابه، قال : "الدموع"، وعن وسادته قال : "السهر"، وعن قصده، قال : "وجه الله" (عز وجل).

لقد شبَّ سلمان الفارسي (رضي الله عنه) وعين المولى تحرسه وترعاه وتحفظه، وتكلؤه من أ دناس الجاهلية، وعبادة الأصنام، والأزلام، والأوثان، والشمس، والقمر، وآلهة النيران، فنشأ ولم يسجد لأي بيت من

بيوت نار قومه، ولم يشاركهم في أعيد عيد من أعيادهم ولم يذق قرابينها، حيث قال عن نفسه الشريفة "كنت ابن دهقان في قرية جيّ من اصبهان، وبلغ من حب أبي لي أن حبسني في البيت كما تُحبَس الجارية فاجتهدت في المجوسية حتى صرت قطن بيت النار " ففي هذه الأجواء الموبوءة وغير الصحِّية حيث الميل إلى عبادة النيران، والآلهة المتعدِّدة والأوثان تنبثق شخصيته التي تأبى الخضوع، والسجود لها، وعلى الرغم من انه كان قطن بيت النار إلا انه كان قويا في توحيده، شجاعا مقداما، لا يبالى أن يقول كلمة الحق ما دام يعلم أنها حق، كانت تختلج في طوايا صدره أحاسيس مختلفة، وتبث من حنايا فؤاده أشواق ملتهبة إلى ترقُّب من يشد أزره ويأخذ بيده الشريفة نحو الطريق القويم باتِّجاه دين قيِّم لا عوج فيه ولا اضطراب في مبادئه ولا زيغ في شيء من توجُّهاته . كان إماما وسيِّدا والمثل الأعلى لكل المحرومين والمستضعفين واليتامى والمساكين من أقاربه وأخوته وصحابته حتى لُقِّب ولُقِّبوا بأهل الصفة وهم قوم ترفَّعوا عن الدنيا ومشتهياتها، واستصغروا وبادوا عنها، وهانت عليهم م تعها ولذتها، فاقبلوا على العبادة، وانسوا بالله، وتجافت قلوبهم عن المضاجع يعبدون ربهم محبة وعشقا لا طمعا ويرجون رحمته يحسبهم الناس من الأغنياء من التعفُّف فهم دائما أفئدتهم مع الله عز وجل يتجلى نور التوحيد ونسيمات الإيمان وقبسات الأنوار الربانية على وجوههمعد أن فاضت طفحت نفوسهم وعروقهم بها، وأثر العبادة الحقة واضحة وبادية على وجوههم وسيماهم المشرقة "، هؤلاء الذين عناهم وأصابهم المولى عز وجل في محكم تنزيله : للفقراء الذين احصروا في سبيل الله، لا يستطيعون ضربا في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفُّف تعرفهم بسيماهم، لا يسألون الناس إلحافا " وقال الرسول الكريم (ص): "إذا رأيتم الرجل أعطى زهدا في الدنيا، وقلة منطق فاقتربوا منه فإنه يلقِّن الحكمة"، ففي قرية جيّ باصبهان، وتحت لهيب النيران وبين حنادس الجهل والشرك والظلم والظلمات أشعل سلمان (رضي الله عنه) قبس الإيمان، وحمل علم التوحيد، وأصاب بقومه الجاهلية والمنحرفين والمستكبرين والمعاندين أن أربوا بعقولكم وقلوبكم عن عبادة النيران، وكرموا جباهكم إن تسجد لها، وارفعوا عن عيونكم غشاوة التقليد، وفرِّقوا عن عقولكم نسيج الأوهام، لكن الجهل والاستكبار والغل والمعاندة والأحقاد رانت على قلوبهم، واستقرَّت معشِّشة، فلم تتبصَّر، وغشى على بصائرهم، وأعمى أبصارهم فلم تتدبَّر، حتى طَمْطَح وبدَّد شمل شركهم، وأخمد نيران عبادتهم، وصاح وهاج فيهم : "يا قوم إني بريء مما تشركون، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين "، وقال فيه الإمام جعفر الصادق : "إن سلمان كان عبدا صالحا حنيفا مسلما، وما كان من المشركين "، فكان صحيح العقيدة قوي الحجج، وصاحب حلم وعلم

ومما يتناقله الموحدون في مواعظهم عن مشايخهم الأجلاء بأنه شتمه رجل فقال له : "يا هذا إن كنت ممَّن ثقلت موازينه فلا أبالي بما تقوله وان كنت ممَّن خفَّت موازينه فأنا أشر مما تقوله "، وهذا ما فعله صحابي جليل وأخ لسلمان (رضي الله عنه) وهو أبو ذر الغفاري جنادة بن جندب الذي سبَّه رجل فلم يجبه فقال له رجل: دعني اكفه عنك، فقال له أبو ذر بصوت مفعم بالمحبة والحنان والرأفة والحلم: "من أَذِنَ في الشر ليس بحكيم"، وأهل التوحيد والذوق يلتقون دائما على موائد مفتوحة عامرة وطافحة بالمحبة والتسامح

حياة ومسافرة سلمان الخير إلى درجات التعليم :

وقال: "إني مهاجر إلى ربي انه هو العزيز الحكيم" اسمه روزبا بن بوذخشان، وسمَّاه المصطفى عليه السلام سلمان الخير، كان والده من زعماء بلاد فارس ويملك بعض الحقول والبساتين في منطقة أصبهان وفي أحد الأيام كان والده منصرفا لتوسيع داره طلب منه الذهاب إلى رزقه ليشرف على سير عمل المزارعين عن قرب، وأوصاه أن لا يتأخر في العودة فخرج سلمان مستجيبا لأوامر والده فمر بخلوة لعبّاد يدينون بدين المسيحية وهم قائمون يصلّون خاشعين فأعجبه أمرهم وحالهم، وانشرح صدره لهم، وقال في نفسه : "والله هذا خير من ديننا "، فأقام عندهم حتى غابت الشمس لا هو تابع إلى البساتين، ولا رجع إلى والده حيث كانت روحه الشريفة تتوق وتشتاق إلى الحكمة والمعرفة والاستشراق حيث كان يبحث ويفتِّش عن غناء قلبه وعن سرور وغبطة روحه ويريد أن يلتمس، ويشعر في مرضاة ربه سبحانه وتعالى فكان يشعر ويحس منذ ولادته الطاهرة بحرارة العقل، وقوة النور وسكون التواضع، وبرودة الحلم وليونة الهيولى وهذه الطبائع التي جُبِل عليها وطُبِع فيها كانت صفاته وتحيط به من جميع الجوانب . وكان يستأنس بذكر المولى عز وجل في الدَّجرات وللفلسفة ناخيا جاذرا، ونفسه الشريفة تئدُّ إلى محارم الله عز وجل، فاقترب من العُبّاد فرآهم وسمعهم يرتِّلون فصولا من الإنجيل المقدس بصوت رخيم حزين ذي شجون يأخذ بمجامع القلوب و يفتت الأكباد فيه هدى لترانيم العابد الذي اثقل كاهله الحزن والشجن يبكي السيِّد المسيح وتلامذته، فما كان من سلمان (رضى الله عنه) إلا أن استغرق ببحر من التأمل والتفكير في عالم اللاهوت والتجلِّيات ضمن أجواء ومخاضات من قَسَمات الحزن وتملَّكته غصَّة البكاء وجحظت عيناه الطاهرتان وانقلب من حال إلى حال، واريد وجهه وانتعشت روحه الشريفة، وشعر بحرارة الإيمان باسقة إلى عنان السماء " ووالده يكثر النَّوْس والاضطراب عليه قلقا مضطربا فأرسل جماعة لطلبه، وبينما هو يتلوى ويتكوى حائرا متوترا وإذا بسلمان أمامه، فبادره والده

بعنف: "لقد بعثت إليك بغلمان أين كنت؟" فقال بشجاعة متناهية: "لقد مررت بقوم يصلون في خلوة فاعجبني ما رأيت من أمرهم وعلمت أن دينهم خير من ديننا ". فأجابه والده بعنف: يا بني دينك ودين آبائك خير من دينهم" فبادره سلمان (رضي الله عنه) قائلا: "كلا والله"، فعمد والده إلى استخدام القسوة والعنف والشدة معه لتأديبه فوضع الأصفاد في قدميه الشريفتين وتركه في الدار، فألقى سلمان القيود من رجليه وخرج وبدأت رحلته ومهاجرته إلى الباري عز وجل متوجِّها إلى الشام مع قافلة، وبعد مسافة حط حاديها ليستريح مع قافلته من مشقة السفر المضني، وسلمان (رضي الله عنه) يسأل هذا وذاك عن رجل الدين الذي يولونه ثقتهم، وأمانتهم فأرشدوه إلى عابد منقطع متنسِّك مقيم في خلوته على رأس جبل، فصعد أليه والفرح والغبطة تعمران وتغمران فؤاده المشتاق إلى لقاء الأحبة، فسأله العابد : "من أنت؟ وماذا تريد؟" قال: "أنا رجل من ذي جيّ جئت أطلب العمل وأتعلَّم العلم فضُمَّني إليك أخدمك وأصحبك وتعلِّمني شيئا ممَّا علَّمك الله "، فوافق العابد على رعايته وتعليمه، ومرَّت الأيام والسنوات والعابد المتنسِّك يتقدَّم في السن حتى اشتكى علة قوية في جسده ألصقته في فراشه. فأدرك سلمان انه مفارق هذه الدنيا لا محالة عن قريب فقبع عند رأسه يبكي وينحب ومما قال له العابد وهو يعاني سكرات الموت : "يا بني لقد ترك الناس دينهم ولا أعلم أحدا يقول بمقالتي إلا عابدٌ في إنطاكية فإذا لقيته فاقرأه مني السلام، وادفع أليه هذا اللوح " ثم مات العابد، فغسَّله وكفَّنه ودفنه، وحمل اللوح وسار إلى إنطاكية فوصل إلى العابد بعد السؤال عنه، وسلَّمه الأمانة فأخذ اللوح من يده السؤال عنه، وسلَّمه الأمانة فأخذ اللوح من يده بشوق وحنين، وأكرم وفادته، وضيافته، وأنزله معه يتولاه بعنايته زمن طويلا إلى أن مرض فرمق سلمان (رضي الله عنه) بعينيه اللتين أتعبتهما العبادة قائلا: إني سألاقي ربي عز وجل ولا أعلم أحدا على مسلكي وطريقتي إلا عابدا في الإسكندرية فإذا جئته بلغه سلامي وسلمه هذا اللوح "، وما لبث العابد هنيهة حتى اغمض عينيه باطمئنان وراحة بال ووافته منية القدر فقام سلمان بتجهيزه وغسله وكفنه ودفنه، وخرج متوجِّها إلى الإسكندرية فوصل إليها ومعه الأمانة وسلَّمها للعابد ولازمه، وكانت الأيام تمر مسرعة والسنون تمضي حتى اقعد التعب العابد عن الجد والنشاط والعبادة فالتفت إلى سلمان قائلا : "اني متوفٍّ ولا اعلم أحداً على منهجي ولم يبقَ أحدٌ كما اعلم على دين السيد المسيح وقد أظلك زمان نبي يبعث بأرض العرب، واقتربت ولادته فإذا بلغك انه قد خرج فانه الرسول الذي بشر به، وآية ذلك أن بين كتفيه خاتم النبوة وانه يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة. فإذا جئت أليه فاقرأه مني السلام وادفع ألية هذا اللوح "فغادر سلمان (رضي الله عنه) الخلوة متوجِّها نحو أرض تُهامة فواجه قوما متوجِّهين إلى الحجاز فقال لهم: "يا قوم اكفرني

الطعام والشراب، أكفيكم الخدمة" فوافقوا على مطلبه فلما حان وقت الغداء عمدوا إلى شاة فقتلوها بالضرب ثم اخذوا لحمها، وتحلقوا حولها يأكلون . أما هو فتنحى جانبا ولم يذق ط عم اللحم فقالوا له: كُلْ؟ فرفض وقال لهم: "إني غلام ديران، والديرانيون لا يأكلون اللحم "، فما كان منهم إلا أن أوسعوه وأثخنوه ضربا حتى كادت روحه الشريفة تخرج من جسده الطاهر، وأرادوا أن يغصبوه على تناول المسكرات فلم يشرب وقال بصوت هاد: "إني غلام ديراني والديرانيون لا يشربون الخمر"، فعذَّبوه وأوثقوه بالسلاسل، فقال لهم حتى يتخلص من شرورهم: "لا تضربوني، وتعذِّبوني ولا تقيِّدوني فإني أُقرُّ لكم بالعبودية " حتى وافق لئيم منهم على استلامه فكان عبدا بالجسد لهذا الأبلة الحاقد، وأما روحه الطاهرة فلا يسلِّمها ولا يستعبدها لغير طاعة الله (عز وجل) والخضوع لإرادته ومشيئته. ورغم هذه المحن والبلايا التي امتحنه المولى (عز وجل) بها كان مؤمنا بالغا في توحيده، صادقا في قوله ولفظه صحيحا في فعله وعمله، وكلما زاده الوقت امتحانا وتجربة زاد في نفسه توحيدا ويقينا وإيمانا، فما كان من هذا اللئيم الوضيع إلا أن أخرجه وباعه بثلاثمائة درهم إلى رجل يهودي، فسأله عن قصته فأخذ يحدِّثه فيها بالتفصيل إلى أن وصل على ذكر الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) فغضب اليهودي، وحقد، وقال بنبرة لؤم: "إني لأبغضك وأبغض محمداً فأخرجه من الدار إلى بابها وإذا بتلة لكبيرة من الرمل وقال له : "والله لئن أصبحت ولم تنقل هذا الرمل كله لاقتلَنَّك؟ " فأخذ يعمل طيلة ليلته بجد ونشاط فلما بلغ منه التعب أشده وتزلعت قدماه يديه الشريفتين نحو السماء دليلا على افتقار ذات يده ونصب حاله وقال: "يا ربي انك حببت الرسول إلي فبحق وسيلته عجل فر نجي وأرحني مما أنا فيه " فاستجاب الله (عز وجل) لدعائه واستغاثاته وتوسلاته ولم يخيب آماله، فأرسل ريحا قوية قلعت ذلك الرمل من مكانه إلى المكان الذي يريده اليهودي، فلما فلق الصبح نظر إلى التل وقد نُقِل متحيِّراً وكاد يطير صوابه وخُيِّل أليه انه صنف من صنوف السحر فخاطب سلمان قائلاً: "أنت ساحر ولا أعلم لأخرجنك من هذه البلدة لئلا تهلكها "، فباعه لامرأة أحبته حبا شديداً لصدقه وإخلاصه، وحسن مَعْشَره، وكان لها حائط "بستان" وسمحت له أن يأكل منه ما يشاء وما يريد، وبينما هو ذات يوم يسقي الزرع ويؤبر النخل دقَّت ساعة الخير والخلاص وإذا بكوكبة من الرجال الأشداء قد أقبلوا تظلِّلهم سحابة يتقدَّمهم المقداد، وأبو ذر الغفاري، وعلي بن أبي طالب (رضي الله عنهم) وعلى رأسهم الرسول الكريم (ص) فدخل البستان ومن معه فانتهز سلمان الفرصة التي قيضها الباري عز وجل له بعد أن كان متلوما فاقبل إ لى ربة عمله مستميحا إياها أن تستوهبه قليلاً من الرطب، فرخَّصت له بستة أطباق فحمل طبقا منها ووضعه بين يديه متأكدا مستيقنا وقال للرسول الكريم : تفضَّل هذه

صدقة فقال: "كلوا" وامسك هو، وحمل طبقا آخر وقال : "هذه هدية" فمد يده وقال: "بسم الله كلوا" ومدَّ القوم جميعا أيديهم وأكلوا وكشف عن كتفيه وإذا بخاتم النبوة مطبوع عليه شعيرات، فسقطت من عينيه دموع الفرح والخلاص والبشارة، فالتفت الرسول أليه قائلا : "يا روزيا ادخل إلى هذه المرأة وقل لها : "يقول لك محمد اتبيعينني له؟" فرفضت بقوة والطمع يملأ قلبها، وقالت : "لا أبيعك إلا بأربعمائة نخلة منها مئتان صفراء ومئتان حمراء" فقال الرسول (ص): "ما أهون ما طلبتِ " ثم جلس سلمان الخير (رضي الله عنه) يسمع المصطفى ويتأمل في خُلقه وخَلقه ويسبِّح في هذا السر الجاذب الذي ميزه الله به وتربت محبة المصطفى إلى قلبه المستيقن من توحيده، وإيمانه وإذا بنار العذاب والتعب والقهر تخمد، ونيران أخرى تضطرب بين جوانحه هي نيران الشوق والمحبة وان قلبه الطاهر ليعشق الحقيقة كعشق العبد للمعبود والمخلوق للخالق والمفتوق للفالق والمبرور للباري، والمحكوم للحاكم، هو سلم صعوده إليه وهو مرآة تعبده له والاتحاد الكلي بين يديه، فأخذ عقله ينبض باليقين وقلبه المتلألئ يرقص طربا بين أضلاعه من طراوة وهناك اللقاء بعد الفراق . لقد كان حب سلمان للمصطفى أشد من حب الأم لأولادها، فأودع الباري عز وجل في حنايا قلبه رقة وشفقة وحنانا لمخلوقات الله (عز وجل)، حتى أكرمه بهذا السر وبهذه الجاذ بية المشرقة في معرفة حقائق الإسلام الذي هو التوحيد بكماله، فكان يجيب دعوى اخوته وصحبه، يقضي حوائجهم، ويقبل معذرتهم ويعادي من ضامهم، ويعود مرضاهم، ويبر ضعفاءهم، وينصرهم ولا يخذلهم، ويعلمهم الصفح عمَّن يسيء ويخطِئ إليهم، ويعلِّمهم الرحمة والتراحم فيما بينهم وأن يسقطوا من قلوبهم الشحناء والبغضاء والكره والحسد والتحاسد فكانت كلماته ووعظه تذيب القلوب فتسيلها دموعا، وحرقة، كانت وخزات تشك عيون القلوب لتوقظها من غفلاتها وتيهها، وضلالاتها وذلك بعد أن روض ووطن قلبه على صدق اللسان وحفظ الإخوان والصبر، وكان يبرأ إلى المولى عز وجل من عبادة العدم والبهتان، وجَلَى وطهَّر فؤاده من مستعمرات الدنيا وشهواتها وأهوائها وملذاتها وأدرانها وطفيلياتها، فكان إذا نامت عيناه وأخلدت إلى الراحة لا ينام قلبه ولسانه عن ذكر الله عز وجل.

هذه هي رحلة سلمان الخير (رضي الله عنه) الإيمانية. لقد سافر في درجات التعاليم حتى وقف على تعظيم الباري (عز وجل) وتنزيهه وتجريده، واجتمع مع ضالته المنشودة الذي كان ينتظره ولب جبينه شوقا للقائه، وصحبته ومرافقته، واثر وتأثر حيث كان الرسول الكريم عائلا ويتيما وضالا على ما ذكره الباري (عز

وجل) في محكم تنزيله: "ألم يجدك يتيما فآوى، ووجدك ضالا فهدى، ووجدك عائلا فأغنى ". فتصافيا وتصاحبا وتلاقيا على التوحيد والمحبة حتى كان أحدهما لا يفارق صاحبه فقال عنه الرسول الكريم : "سلمان منا من أهل البيت، لو كان الدين في الثريا لناله سلمان". وكان لسمان الخير (رضي الله عنه) مجلس خاص من الرسول الكريم (ص)، على ما ذكرته السيدة عائشة : "كان لسلمان مجلس من رسول الله ينفرد به الليل حتى يكاد يغلبنا على رسول الله" فكان ملازما له حتى سماه "سلمان المحمدي": "لا تقولوا سلمان الفارسي بل سلمان المحمدي" فأراد أن يزيل الطبقية والعنصرية من المجتمع ويكون عباد الله اخوانا". وكان سلمان الخير مبتعداً عن كل مظاهر الأبهة والفخفخة مقلا منها مُعرِضا عن زهرتها غير ناظر إلى نفرتها، مستشعراًلا العفاف والكفاف شديد الخوف والخشية من المولى عز وجل دائم البعد موصول الطاعة ويأكل مع الخادم تواضعا ويبادر إلى خدمة ا لقادم، لقد جاهد وناضل حتى زعزع العقائد الفاسدة والعقول المتحجِّرة الصخرية وكان قوله مقترَنا وموافقا لعمله، يأكل من ثمرة فعله وكسب يده، يذكر الله هياما وهودا وعلى جنبه حتى ازداد قربا من الله عز وجل ورسوله الكريم، كان يكره التنطُّع والتمنطق والتفيهق والثرثرة والمراء والجدل بغير طاعة وذكر الله (عز وجل).

كان إماما وسيدا مقداما، وذا شعور جياش، متفاعلا مع الأحداث والمحن والبلايا والآفات وغيورا على طهارة نفسه والمصلحة العامة ومتجرِّردا من أنانيته وواعيا لخطورة دوره متبصِّرا امُجْرَيات الأمور ومتشرفا لما سيكون، فطنا ذكياً في استمالة العباد إليه، جسورا على إظهاره للحق، ومندفعاً إلى فعل الخير حتى لقب بالخيِّر.

ولقد خطب سلمان الخير (رضي الله عنه) بعد أن دُفِن الرسول الكريم بثلاثة أيام، وكادت الفتنة تشتد بين المسلمين فأطفأها ببضع كلمات خرجت من فمه الطاهر كحبات اللؤلؤ، وكانت الآذان صاغية إليه والأبصار شاخصة مشدودة تنظر لوجهه الكريم، والحشود تتزاحم على سماع خطبته ومما قاله : "ألا أيها الناس اسمعوا عني حديثي ثم اعقلوه عني ألا وإني أوتيت علما كثيراً، لو أحدِّثكم بكل ما اعلم من فضائل أمير المؤمنين لقالت طائفة منكم انه مجنون، وقالت أخرى: "اللهم اغفر لقاتل سلمان": ألا اعدم منايا تتبعها بلايا... أيها الناس وَيْحَكُم أَجَهِلتم أو تجاهلتم، أم، حسدتم أم تحسَّدتم؟ والله لترتدن كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض بالسيف يشهد الشاهد على الناجي بالهلكة، ويشهد الشاهد على الكافر بالنجاة".

سلمان الفارسي (جامع علم الأولين والآخرين)– راجع الضحى العدد السادس والستون (آب 1997)

إن من يزور حجرة سلمان الخير ، (رضي الله عنه) في المدائن تغص مقلتاه بالبكاء، ويناديه، ويتضرَّع إليه متوسِّلا، وذاكراً : "أسأل الله عز وجل الذي خصَّك بصدق الدين وصحة اليقين أن يحييني حياتك، ويميتني مماتك، إنك لم تنكث عهدا ولم تمزق ميثاقا توحيدياً، فلله درهم من أقوام موحِّدين مخلصين قاموا يناجون الحبيب معشوقها ومحكومهم وحاكمهم، ومهوى أفئدتهم، والعبّاد نيام، ويفرحون، ويهلِّلون، ويستبشرون بإدبار النهار وإقبال الليل، ويجتهدون، ويجِدّون، وينشطون في خدمة الملك العلام، فهي حياة وانتعاش ولذّة وسكرة قلوبهم وعقولهم . فكان سلمان الخير معجزة من معجزات الزمان، الذي عاش فيه، وآية من آيات الله عز وجل العظام في جلالة عمله، وضخامة ورعه وتقواه، يخشى صدحه بالحق غائلة ولا وجلاً، فعشق العبادة، والتصق بها، وعانقها وخضع لها وخشع، لقد كان سلمان الفارسي يتدرَّع بدرع التقوى ويتِّج رأس قلبه الشريف بخوذة وقلنسوة الإيمان، ويمتشِق بيده ونبال قبول الأمر والرضى والتسليم، وكان يركب فرس التوفيق والتوكيل، ويتخلَّق بأخلاق الخالق عز وجل، فكان دائما يناجي مولاه سبحانه وتعالى في غلسة وخلسة من ظُلُمات الليل الأليل الداكن، وقبل بزوغ وإشراقة شمس يوم جديد ويتوجَّه إليه، ويتكِّل في النجاة عليه بقلب واجف منكسِر ومُحَطَّم متشقِّق ملؤه التوحيد والإيمان والحب والعطف، ويناجيه بأن يمِنَّ عليه برضاه، ويستر عيوبه ويعينه على موالاته وعبادته وطاعته حتى اشتعلت نيران المحبة في حنايا صدره الشريف فأحرق لهيبها وأوارها كل ما كان عالقا في قلبه من شؤون وشجون الدنيا وهمومها وأثقالها ومتعتها وزُخْرُفها، فأخذ فؤاده الطاهر يرقص طربا بين تلافيف أضلاعه حتى مزَّقه الفراق من ألم الاشتياق ، فعنده حُبَ المولى عز وجل طهارة للنفوس والأرواح فكما يُطَهِّر الماء الظاهر من أحداث الأبدان والأجسام الظاهرة كذلك يطهِّر العلم والمحبة من أحداث النفوس الباطنة وخبائثها وعوائثها وأفاعيلها الردية الموبقة، فكان سلمان الخير مرافِقاً ومُصاحِباً ومواكِباً ومرشِداً وناصِحاً للرسول الكريم (ص) ومصباحا ومنارة له، لقد تعلَّقت أفئدة الموحدين بسلمان الخير والتفّوا حوله، وتحلّقوا نزولا على وصية السيِّد المسيح ووعدِه لهم بقوله : "لن أتركَكم يتامى بل سأعود إليكم " شريطة أن يسهروا ويُصَلَّوا لئلا يدخلوا في تجربة فإن الروح نشيط وأما الجسد فضعيف. فكان سلمان المحبة بالنسبة للموحِّدين الأنقياء المخلصين، العصامي والمخلِّص الذي كانوا يرتقبونه بعقولهم وقلوبهم، ويحتاجون أليه لتطهيرهم وتخليصهم وتعريبهم من أدناس الجاهلية الجُهلاء، وكان سلمان

الخير كثير الصمت والتواضُع والإنكسار، صاحب خُلقُ رفيع، لا يميِّز نفسه الشريفة عن العباد بشيء. وكان يربّي الناس، والعباد ويسمو بهم إلى المقامات العالية، مراتب التوحيد والإيمان. وينقلهم من الوسائل والأسباب إلى المقاصد والغايات ولا يقيم لزينة الدنيا وزهرتها وبهرجها وجاهها وسلطانها وجمالها أي وزن ولا يتلفتَّ إليها أيما التِفاتة، وكان غاية في الزهد ولين الجانب والوقار والدماثة وحسن العشرة والشفقة على الخلق متسنمّاً ذروة الرضا والتوكُّل والتفويض، وكان إذا زاره أحد قام له احتراماً ويجلسه في مكان بارز ويتحدَّث معه بما يناسِب ذوقه ونفسيته، وهذه العادة ما زالت م وجودة إلى الآن عند الموحِّدين، فهو بحق يعسوب الموحِّدين وإمامهم وسيِّدهم (ولا إمام عليكم ولا شيخ عليكم إلا بما يطابق الحق)، شجاع في الحق والحقيقة لا يداهن ولا يماري ولا يجادل، ولا يغيِّب أحدا ولا يغتابه ولا يحقِّره، كان أمة مجتمعة في فرد يعمل ويشتغِل بإخلا ص لتوحيده ودينه بهمة جبارة وعزيمة ماضية، لا ترهبه الخطوب ولا تزعجه وتهزّه الحوادث والمحن، ومن المأثور عن الموحدين ومما يتناقلونه في مجالسهم الطاهرة الزكية الطافحة والعامرة بالتوحيد والاخلاص ونغمات الحكيم: أن سلمان الخير مرَّ على راعى غنم من كبار مشايخ المو حِّدين، فقال له: "ما معك من العلوم أيها الراعي الصالح " فقال: "معي خمس كلمات وزدني منك خمسة ياسيدي حتى أضيفها إليها وأعمل بموجبها " "يا سيدي الأولى لا أستعمل الكذب والصدق يوجد، الثانية لا أستعمل الحرام والحلال يوجد، الثالثة لا اذكر عيوب الناس والعيب فيَّ، الرابعة لا أعصيه وهو يراني، الخامسة لا أجحد نِعَمه وهو يكفيني " فقال له: "لقد حويت علم الأوَّلين والآخرين فدُم على الخمس كلمات ما على الخمس من مزيد".

"لتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر أولئك هم المفلحون".

سلمان الخير والمؤلفة قلوبهم:

قال الله تعالى في مُحكَم تنزيله: "قل إني نهيت أن اعبد الذي تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن اسلم لرب العالمين " وقال: "ومن احسن دينا ممن اسلم وجهه لله " وقال "من يسلِّم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى الله عاقبة الأمور " وقال الرسول الكريم (ص): "من تواضع لله رفعه".

لقد دخل الدين الإسلامي كثير من المنافقين، والمرتزقة، والأفّاكين، وأجلاف الناس من القبائل وكان ظاهرهم طافحاً ومليئاً بالإيمان والاستقامة، وباطنهم مملوءاً محشواً بالعجر والكفر والكبر، فكَّ ونوا جماعة أطلق الباري سبحانه وتعالى عليها تسمية المؤلفة قلوبهم، ويراد بهذه الجماعة تأليف قلوبهم وجمعها، وتآلفها على الإسلام، أو تثبيتها عليه وذلك لضُعفْ إسلامهم أو اتِّقاء شرّهم، فيُرجى بإعطائهم ومنحهم، كف شرهم أو استدراجهم ودر نفعهم للدفاع عن المسلمين، ف هم قوم قست قلوبهم وتحجَّرت واستصخرت وتجبَّلت لا يؤمنون إلا بالمال والذهب والفضة، ولا يعتقدون إلا بالقصور والديباج الفاخر والإستبرق والحرير ولا يأكلون إلا كل ما لذ وطاب وغلا، شديدو الخشية والذل والمسكنة ليس لله عز وجل بل للأحمر الرنّان، فهم قوم طمعوا بمادة الدنيا وزُخْرُفها وجمالها، وعبدوا شهواتهم وملذاتهم فاستغرقوا في تيه الضلالة والكبرياء يسبحون، ومن غرق الآخرة لا يخرجون واستكبروا وأُعجبوا بأنفسهم وذواتهم واستعظموا شأن شخوصهم وعتوا عُتُّوا كبيراً وقيل عنهم في القرآن الكريم : "إن الذين يستكبرون عن عبادتي سي دخلون جهنم داحرين " وما يروى عن استعلائهم وعنجهيتهم واستكبارهم وعجبهم بأنفسهم، أنَّ وفدا من المؤلفة قلوبهم وهم : عيينة بن حصن والأقرم بن حابس قد جاء إلى الرسول الكريم (ص) وعنده لفيف من الصحابة الأجلاء وعلى رأسهم سلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري وعمار بن ياسر ا لعنسي، وصهيب الرومي (رضي الله عنهم) فقالوا:يا رسول الله لو جلست في صدر المجلس وتغيَّبت عن هؤلاء وأرواح جبابهم (وكانت جباب صوف تزهداً وتورعا وتقشقا) جالسناك أو حادثناك وأخذنا منك فلا يمنعنا من الدخول عليك الا هؤلاء ". فكان الجواب في الاية الكريمة: "واصبر نفسك مع الذي يجعلون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، ولا تعدو عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان آخره فرطا ". لقد نفخ الشيطان في اعطافهم، ورؤوسهم، واستقرَّت الغشاوة في عيون هياكلهم، واستحكمت العصبية في تيارات وأمواج نفوسهم وخفقات أفئدتهم، واشتعلت عقولهم وقلوبهم غيظا وكبرا وعجبا وحسدا لهؤلاء الفقراء الموحِّدين المخلصين الأتقياء الأنقياء العابدين الخاضعين الذين اعرضوا وبادوا وفارقوا الدنيا وشهواتها وملذاتها وزخرفها، ليس لعدم مقدرتهم على استحواذها وإنما تزهُّدا أو حكمة وورعاً وتقوى وخِشية لله عز وجل ويدعون إلى العناية الفائقة والاهتمام المستمر بالمساكين والفقراء والمعوزين. أبناء السبيل والمستضعفين واليتامى والأرامل والجياع وأصحاب الفاقة والعوز، ويحاربون الأغنياء وكانزي الذهب والفضة الذين ليس في قلوبهم رحمة ولا شفقة لعباد الله الصالحين العابدين فكانوا ملوكا وأُمراء وسلاطين على شهواتهم ونزواتهم لا مملوكين ولا مأمورين لها تاركين وطارحين وراء ظهورهم بهجة الدنيا

وزخرفتها ويدعون إلى عبادة الباري عز وجل ويؤلفون ويوالفون بين قلوب العباد ويجعلونهم أخوة في دين الله وتوحيده والإخلاص لمشيئته ويجاهدونهم في سبيل إجلاء جراثيم وبراثين التيه والضلال كما ورد في القرآن الكريم: "والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا".

حكمة سلمان الخير ووعظه وتعاليمه التوحيدية السامية :

لقد كان سلمان الفارسي (رضي الله عنه) عقلا كاملا وحكيما ومعِّما ومُرْ شِدا وواعظا وسيِّدا وإماماً للموحِّدين حتى نظروا أليه نظرة الملاك الذى جعله المولى نوراً شعشعانيا حتى دخل اليقين وعشَّش واستقر في زوايا قلبه وكانت روحه الطاهرة ترنو إلى الحق وتهفو إلى الفضيلة والخير فتخشع وتنكسر جوارحه، وتفيض عيناه الشريفتان بواكف، ومزاريب من الدموع كُلَّما خطر على فؤاده أنين وغصة وحرمة المستضعفين والدراويش والجياع من الموحِّدين، وكانت كلماته مليئة بالرقة والعذوبة، واللين والعدل، والرأفة والشفقة والنفحات الإيمانية، وتنطلق من جوانب فَكَّيْه كحبات اللؤلؤ المكنون

لنقف الآن بإجلال وقدا سة وإكبار مشنّفين آذاننا معقلين ومتدبرين بعقولنا إلى ما علَّم هذا المعلم الحكيم حيث يقول: "إنما مثل المؤمن في الدنيا كمثل مريض مع طبيبه الذي يعلم داءه ودواءه، فإذا اشتهى ما يضره منعه، ولا يزال عنه يبرأ من وجعه، وكذلك المؤمن يشتهي أشياء كثيرة مما فضل به غيره من العيش فيمنعه الله إياه ويحجزه عنه حتى يتوفاه فيُدخله الجنة (والجنّة بالمفهوم التوحيدي هي قلب سلمان)"، ومن أهم مبادئه هو الاعتدال: الفقر يُوَلِّد الحرمان، والذل والمسكنة والحرمان ينتج ويثمر النقمة والحنق والكبت، والنقمة تؤدّي الى الانفجار والثورة على ا لواقع البائس للفقراء والمحتاجين والمستذلين وسلمان الخير ينظر ويسمع ويعي ويتحسَّس ويتلوى ويتحرَّق ويتألَّم لآلام الناس وجوعهم وفاقتهم وشِدّة بؤسهم فعندما مرض سألوه : "هل نأتيك بالطيب؟" قال: "الطبيب أمرضني" قالوا "سله العافية" قال: "يكفيني سؤالي علمه بمالي..."

حقيقة الصلاة وأسرارها عند سلمان الفارسي :

لقد تجاوز سلمان الفارسي المعنى الحرفي والقَيْدي للصلاة إلى كُنهها ورموزاتها وأسرارها ومعانيها وحقيقتها وأدرك أنها ليست مجرَّد تكليف مفروض وواجب من سماء الباري (عز وجل) في عليائه وشموخه

إلى أرض مخلوقاته وكا ئناته، وعلَّم جميع الموحِّدين المحقّين المخلصين بأن الصلاة التي لا تنير الفكر وتهدي القلب وتُسكِن الجوارح وتضبط العمل وتُفَتح الذهن وتضيء الوجدان هي أشبه بمصباح محجوز في صندوق حديدي مُحكَم الإغلاق، وكان سلمان العطاء إذا صلى يصلي صلاة مودِّع يخاف ويخشى أن لا يعود إليها أبداً من شدّة تقواه وورعه وسمته المستقيم، وكان في صلاته (رضي الله عنه) مطرقاً خاشعاً مغضاً للبصر ومصوراً على مصلاه الذي يصلي عليه ويحجره عن الذنوب والتحرمة والحملقة، فكل صلاة لا يحضر فيها العقل والقلب فهي إلى العقاب أقرب من العبادة فالصلاة هي تمسكُن وتواضع وإذلال وكسر للنفس وتشتُّت قوة الجوارح للباري (عز وجل)، وأن من أقر بأنه ليس له في سماء القدرة والعظمة إله معبود ولا في الأرض بار موجود إلا مولانا (جل ذكره) كان من الموحِّدين الفائزين، فكانت أوصال سلمان المحبة الطاهرة تضطرب وأطرافه الشريفة ترتعد وشفتاه العطرتان ترتجفان عندما يقوم بين يدي الباري (عز وجل) شوقاً وحنيناً ومحبة واعترافاً بالحمد والشكر وكثرة العبادة، فلو علم المصلّي لِمَن يصلّي ما التفت ولا تحرك، فالمصلّون الصادقون المخلصون هم ورثة الجنة والمتمتّعون والمستقرون بقرب المولى (عز وجل) واستغراقهم في إشراقة تجلّيات نوره (عز وجل) فالخشوع ثمرة الإيمان وحصيلة اليقين الناتج عن المحبة للباري (سبحانه وتعالى)، فكان سلمان الخير لا يأبه بظواهر العبادات الشكلية بقدر اهتمامه ببواطنها وأسرارها، فكثير من الناس يشغلون جل أوقاتهم بالعبادات الظاهرية وقلوبه م وعقولهم مليئة بالخبائث والوسواس من الأخطار الخبيثة والأعمال القبيحة، والتقوقع والتشرنق ومحدوديّة الفكر والكره والحقد والخوف من التغيير وهذا شيء مرعب جداً ومخيف، فأدرك ووعى بثاقب بصيرته وبُعْد نظره أن الصلاة ليست فقط ركوعاً وسجوداً وقياماً وبربرة في اللسان، بل الصلاة هي التي تنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي، أما الصلاة التي لا نعي ولا نفهم ندرك ما نقوله ولا نطبِّق ونعمل بما نؤمَر به من أوامر الله (عز وجل) ونواهيه، فهي صلاة فارغة لا معنى لها ومحمولة على الإنسان وثقيلة، ف " ويل للمصلّين الذين هم عن صلاتهم ساهون "، الذين يراؤون أي يمنعون الخيرعمَّن يطلبه وهم في استطاعتهم أن يساعدوه فيتعالى على هذا ويتكبر على ذلك ويحسد جاره وقريبه ويحتقر اخوانه ويَغْتابهم ويذكر عيوب الآخريت ويطمع في أموالهم ولا يذكر عيوب نفسه ويكون إماماً وسيداً للمرائين والمنافقين وعندما تقام الصلاة تجده في الصف يزحم والمُصَلّون الحقيقيون لا تهمهم ولا تعنيهم المظاهر البراقة ويستيقنون بأن أكثرها جوفاء خالية من طلاوة وحلاوة ولطافة الحقائق والإيمان ولا يشغلون خواطرهم وأفكارهم بزخرف الدنيا وبهرجتها وبتجارتهم ولا يلتهون بأولادهم وزوجاتهم ومأكولهم وملبوس هم

ومشروبهم عنها. ويكونون مقبلين عليها بمجامع أجسادهم وهياكلهم، وأرواحهم وقلوبهم مشغولة وملتهبة بذكر الله (عز وجل) كما قال المولى (عز وجل) في محكم تنزيله : "قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون الذين هم عن اللهو معرضون ". وان مكثِّر الصلاة بخشوع يصيبه ا طمئنان في قلبه واستقرار في جوارحه ونور في فكره، وثبات في عقيدته وحكمه جارية على لسانه، وإشراقة في وجهه ومما يتناقله كبار مشايخ الموحِّدين عن أحد تقاتهم وثقاتهم بأنه لم يكن يرفع رأسه إلى السماء أربعين سنة حياء من الله (عز وجل)، وخشوعاً له واستحياءً منه، وخج لاً من وابل وغزارة كرمه وعطائه، وبعضهم من شدَّة غضه لبصره وإطرافه يظن بعض الناس أنه أعمى، فالصلاة صلة بين العابد والمعبود والخالق والمخلوق والباري والمبرور والسيدو المسود والحاكم (جل شأنه) والمحكوم، ومربوطة بينهما لا يعرف حقيقتها وسرها وباطنها وكنهها إلا الله (عز زجل)، وهي عمل توحيدي خشوعي وجداني تغسل النفس مما تعلَّق فيها من أدران الذنوب والموبقات، وهي معارج الموحِّدين وسلَم نجاتهم والطريق الموصل إلى مشاهدة مباهج أنوار تجلِّيات الباري (عز وجل) وهي قربان كل مؤمن . وما نشاهده ونعانيه اليوم من تجميل المساجد وا لجوامع وهدر الأموال الطائلة في زخرفتها لهو من البِدَع الخارجة عن سنن الإسلام بروحانيته وتعاليمه الراقية.

ليست الأرض هي التي تمنح الهويّة للإنسان، بل الإنسان هو الذي يمنح للأرض هويَّتها :

لم يتعلَّق سلمان الفارسي بأرض أو بمكان، لقد أمضى سلمان الفارسي حياته وصرفها مهاجراً حتى بعدما استقر به العيش بجوار وصحبة الرسول الكريم في مكة المكرَّمة فكان يعتزّ ويفخر بهجرته، حيث هجر الشقاق والخلاف والنقائص والخبائث والأخلاف الفاسدة المنحلَة، هجر العين الشاردة، هجر الجهل والتزلُّف والتفرِقة والتَبَعْثُر إلى الوحدة والتوحيد ولمّ الشمل، هجر الغفلة عن ذكر الله (عز وجل) إلى اليقظة والتيقُّظ حتى امتلأ قلبه وقالبه وعقله بنور إشراقة إشعاعات التوحيد والإيمان وأُشبعت جوارحه أدباً وتهذيباً وخلقاً، هجر الجو الخانق القائم والمتلبِّد بالغيوم المكفهرَّة والضلالات والأباطيل والانحرافات والوثنيات إلى عبادة "الواحد الأحد الفرد الصمد المنزه عن الأزواج والعدد " حتى غاب عن أهله وأصحابه وقومه ليدرك الدين القويم، وأصَّر على السير في دروب الإيمان والنضال والكفاح، فالتمسُّك بالحق أمر يتطلَّب العزيمة والإصرار والإخلاص والنشاط وعقد النوايا وشد العزائم فكيف بمن يبحث عن الحقيقة ويفتِّش عن النور لكي يضيء به ظلمات العالم ويخرجه من الظلمات إلى النور المُشرِق . لقد استُرِق "سلمان الخير"، وأستُعبد وعُومل بقساوة

وبشاعة وظُلم وكلما كان يُعذَّب يزداد اشتياقاً وتلهُّفاً للمولى ليشد أزره ويساعده ويعضده في أعباء الرسالة الإيمانية. وكلما زادت المحن عليه والبلايا تجوهر وصفا وظهر معدنه النوراني فصبر حتى ظفر، فبالصبر، جاوبه المولى (عز وجل) وبالرضى والتسليم أمره، والمولى (سبحانه وتعالى) وعده بما شاء كما يشاء ى معارضة لحكمه ولا رادٍ لقضائه ومشيئته، حتى نزلت جيوش الفرج وارتفعت رايات النبوة خفّاقة مرفرفة في سماء علياء التوحيد وحقَّت كلمة الله (عز وجل) في إتمام رسالته الربانية الأزليّة وإكمال توحيده الخالص، فالموحِّدون كانوا سبِّاقين إلى الاستجابة للد عوة الإسلامية كما كانوا (في كل عصر وزمان من عصور تقمُّصان الأبدان) السبّاقين للاستجابة إلى الدعوات التي سبقت الإسلام والتبشير بها ونشرها بمسلكهم القويم، فعلامة المؤمن كانت دوماً الطاعة والاستجابة وليست العصيان . فتميَّز الموحِّدون بإقبالهم على الديانات السماويّة بقلوبهم وعقولهم وليس بهدف ممارسة الطقوس والتعبُّدات وجمع المكاسب كما تميَّزوا بصدقهم وتعاملهم برحمة وشفقة مع عباد الله على اختلاف مذاهبهم وأديانهم وقومياتهم وعلى رأسهم الصحابي الجليل الطاهر سلمان الفارسي إمام الموحدين وسيّدهم مثال الرحمة والتضحية فوص فهم القرآن بأنهم : "السابقون" السابقون أولئك المقرَّبون"كما كبار سادات الموحِّدين الأوائل على الشدة والمشاق والدنيا الضيقة التي لا يكاد يجد فيها الموحِّد طعاماً لذيذاً أو كسوة بدن جميلة، بل مضايقات ومحناً وقتلاً وتنكيلاً وتعذيباً في الأهل والأولاد والمال، والله ما كانوا أهل جدلٍ وباطلٍ بل كانوا أهل مروءة وشهامة وكرم وورع وتقوى، ولا تلهيهم التجارة أو البيع عن ذكر الله وإقامة الصلوات وإيتاء الزكاة، ويخافون يوماً تنقلِب فيه القلوب والأبصار، أفئدتهم تلتهب وتشتعل بحب الله (عز وجل) تستغرق في إشراقه، وتقتبس من نورانية حكمته نور المعرفة إنها أفئدة المحقِّين التي سلكت وسارت في سبيل الوصول إلى المولى (عز وجل) بتقيُّدها بأوامره وطاعة أنبيائه في كل عصر وزمن، فالتوحيد ليس خروجاً عن حدود الشريعة ولا انتهاكاً لمحرَّماتها لكنه بمثابة الروح من الجسد وباطن الباطن من الظاهر والباطن والحرف من المعنى ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً. اللهم اجعلني من الموحدين المحقين المخلصين المستضيئين بأنوار توحيدك والمتمسِّكين بتعاليم صفوتك المختارين وارزقنا دوام التوفيق ووفّقنا لما يرضيك عنا، اللهم إجعلنا مؤمنين ولا تجعلنا منافقين، وفجِّر ينابيع الحكمة من قلوبنا واجْرِها على ألسنتنا وثبت أفئدتنا على طاعتك والائتمار بأوامرك والاجتناب بنواهيك، أللهم اعف عنا، واغفر ذنوبنا وخطايانا يا لطيفاً بالعباد . اللهم لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ولا تُزِغ قلوبنا

بعد أن هديتنا، واستر علينا بسترك وحجابك اللهم إفتح بيننا وبين قومنا بالحق إنك خير الفاتحين، وآتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقِنا عذاب النار يا أرحم الراحمين.

حقيقة الصلاة وأسرارها– راجع الضحى العدد التاسع والستون (تشرين الثاني 1997).

التوحيد (إسلام الزهد والتصوُّف):

ليس التصوُّف فرقة من الفرق الإسلامية بل هو جوهر الإسلام. وهذا الجوهر موجود في جميع الفرق وهو مسلك اتَّسم صاحبه بالتوبة والورع والزهد والفقر والصبر والتوكُّل والرضى، وقد عدَّ بعضهم هذه المميزات مقامات من رحلة المتصوِّف المعرفية التي توصله إلى التوحيد.

أما ماهيّة التصوف فقد تكلَّم فيها الكثيرون وأعطوا تعريفات متعدِّدة كلها وافية بالمضمون وربما كان تعريف الشيخ الجنيد يحوى في جملة واحدة كل ما قيل في التصوف إذ قال هو: "أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة" وقد اختصر السهروردي في "عوارف المعارف" التعريفات التي ذكرها المشايخ عن التصوف فقال: "الصوفي هو الذي يكون دائم التصفية لا يزال يصفّي اوقات عن ثوب الأكدار بتصفية القلب من ثوب النفس، ويعينه على كل هذه التصفية دوام افتقاره إلى مولاه، فبدوام الافتقار يتقى من الكدر، وكلما تحركَّت النفس وظهرت من صفاتها أدركها ببصيرته النافذة وفرَّ منها إلى ربه. فبدوام تصفية جمعيته وبحركة نفسه تفرقته وكدره. فهو قائم بربِّه على قلبه، وقائم بقلبه على نفه. "قال الله تعالى: "كونوا قوامين لله شهداء بالقسط". وهذه القوامية لله على النفس هي التحقُّق بالتصوُّف. قال بعضهم: "التصوُّف كله اضطراب فإذا وقع السكون فلا تصوُّف. والسر أن الروح مجذوبة إلى الحضرة الإلهية، يعني أن روح الصوفي متطلّعة منجذِبة إلى مواطن القُرب. وللنفس، بوضعها، رسوب إلى عالمها وانقلاب على عقبها. ولا بد للصوفي من دوام الحركة بدوام الإفتقار ودوام الفرار وحسن التفقُّد لمو اقع إصابات النفس. ومن وقف على هذا المعنى يجد في معنى الصوفي جميع المتفرِّق من الإشارات.

إبراهيم بن آدهم (من أعلام المتصوِّفين الأوائل)– راجع الضحى العدد الثالث والثلاثون 1994.

التوحيد هو التصوُّف الحقيقي:

في الحقيقة، التصُّوف يقوم على التوحيد. هل مفهوم التوحيد يعني أن الله واحد لا شريك له. هذا جزء من التوحيد ولكن ليس كل التوحيد، عندما سُئِل أحد المتصّوفة" كيف الطريق إلى الله؟". أجاب: "الطريق بين نقطتين والله واحد أحد". أنا اعتبر أن ذاتي واحدة والله واحد . هذه ثنائية حتى ولواعتبرت أن الله ا لواحد هو أكبر من ذاتي الواحدة وأقوى وأقدم . هذا يؤدي إلى الخطأ. لأن التوحيد هو أن أواحِّد ذاتي في الله. لا يعني ذلك التألُّه. إذا كنت أحلم ورأيت صورة من الحلم، هذه الصورة لها وجود معين، وهي موجودة طالما أحلم . وعندما أكف عن الحلم تضمحل ولا يعود لها وجود . هكذا الكون وهكذا الإنسان وجوده كوجود الصورة في الحلم، وجود الإنسان في الله كوجود الحلم بالنسبة للحالِم. الصورة موجودة طالما الحالِم يحلم ونحن موجودون ووجودنا متعلِق كليا بوجود الله ليس لنا وجود مستقل عن الله مطلقا

التصُّوف يقول: إن عملية الخلق ليست عملية حدثت في التاريخ وانتهت، فخلق الله الكون وكفَّ عن لك. وأصبح الكون ذا وجود مستقل، لأنه بذلك يصبح هناك ثنائية وهي الله والكون. الكون موجود طالما الله موجود. وعملية الخلق هذه هي عملية دائمة ومستمرّة، هي أمر الله وشأنه أن يخلق. وما تعنيه الآية الكريمة: "إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ". هذه الإرادة الإلهية المستمرّة والموجودة دائما هي التي تكوِّن الأكوان، كونها وبكونها إذاً وجودنا ليس مستقلا عنهما، هذا ما يقوله التصُّوف . ثم إن العقل البشري، وهو يشِّكل القوى المميِّزة عنده، لا يستطيع أن يحل أو أ ن يدرِك اللامحدود . كيف يمكن للمحدود أن يعي اللامحدود؟ وإذا وعاه يعني إن هذا المحدود أصبح أكبر من اللامحدود، وأصبح هذا اللامحدود محدودا، وهذا كفر بالله ونكران للامحدودية الله . إذا العقل البشري المحدود لا يستطيع مطلقا أن يحد اللامحدود، ولكن نستطيع أن ندركه بللمحبة، ومعظم الذين يعبدون الله خوفا من النار وطمعا برزق وان يرد عنا وعن أولادنا هم يعبدون لذاتهم، وذلك يعني أن الغاية من هذه العبادة هي الذات. من هنا قول الإمام علي بن أبي طالب: "اللهم ما عبدتك خوفا من نارك. إنما عبدتك لأنك أهل للعبادة". وهذا ما قالته السيدة رابعة العدوية أيضاً. إذا عليَّ أن أحب الله ليس من أجل ذاتي بل من اجل الله وحده. هذا مفهوم التصوف. أحد المتصوِّفة الكبار أبو يزيد

خالق الملك، لا يساوي- كما قال الحديث الشريف- عند الله جناح بعوضة ومع ذلك يحبه. إذاً لا يحبه لأنه محتاج إليه بل يحبه لأنه يحبه. وهكذا علي أن احب الله له وليس لي. بمعنى آخر، أن انفي عني، صفاتي

واتَّصف بصفات الله، فأحبه كما يحبني . فإذا أحببته كما يحبني عرفته . هذه هي المعرفة عند المتصوف . لنأخذ هذا المثل: شاطئ البحر مُكَّون من ذرّات من الرمل جميع هذه الذرات تؤلِّف الشاطئ الرملي، ولكن كل حَبّة من هذه الحبّات لا تزال حبة بحد ذاتها في حين أن البحر ليس كل قطرة فيه تحتفظ بخاصيتها كقطرة الماء عندما تسقط في البحر تتخلَّص من خاصيتها وتتَّصف بصفات البحر التي هي الماء . فإذا أردت أن تصبح بحرا عليك أن تكون مثل القطرة التي سقطت في البحر تتخلَّص من خاصيتك وإلا بقيتَ على الشاطئ متخبَّطا بحَبَّتك الرملية. حبة الرمل عندها صفتان: صفة الرملية، وصفة الحَبَّية، إذا صح هذا التعبير. فهي لم تتخلَّص من حبِّيتها ولذلك لن تصبح بحرا. وهذا ما بُني عليه التصوف. وأن تتَّصف بصفة الله كي تعرف الله فتحبه بصفاته وليس بصفاتك، أما أن تحبه بعقلك يعني انك ما زلت حَبَّة رمل على الشاطئ؛ فالله عند المتصوف ليس كائنا محدودا إنما هو الوجود وهو الموجود الأوحد . طالما الإنسان يعتقد بوجوده وبوجود الله فهذا ليس تصوُّفا بل التصوُّف يعتبر وجود الإنسان في وجود الله، وليس الله موجودا في الإنسان بل الإنسان موجود في الله.

التحام المصِّور بالصورة:

الكون مظهر للجسد، والجسد مظهر للروح، لا نستطيع أن نفصل الجسد عن الروح، كما لا نستطيع أن نفصل المعنى عن الكلمة، لا يمكن أن يكون للمعنى معنى دون مظهر أي الحرف . يتحقَّق المعنى بالحرف والعكس. فللحرف إذاً له أهمية كُبرى. لا نستطيع أن ننظر إليه على أنه وسيلة فقط وإنما هو التحام عضوي بين الجوهر والمظهر . من هنا: الحرف به وفيه يظهر المعنى . والحرف هو الكثافة . يقول أحد المتصوفة أبو الحسين النور: "الله لطَّفذاته فسماها حقا وكثف ذاته فسماها خلقا".

الخطَّاطون التقليديون نظروا إلى الحرف العربي على أنه وسيلة للتعبير فجمَّلوها، ووصلوا بتجميلهم الوسيلة إلى قمم شاهقة في الجمال والفن . ولكن ما وصلوا إليه يبقى ضمن الوسيلة. فيما أن الحرف العربي بما فيه من حركية ومن اتِّحاد بالمعنى لا نستطيع أن نفهمه على أن ه وسيلة فقط لأنه غير منفصِل عن المعنى، وحياته لا تأتي من المعنى فقط وإنما تأتي أيضا من حركيته بما يحتوي من استدارات وخطوط مستقيمة وتوجهات. لذلك لا نستطيع القول إن المعنى هو الذي يضفي عليه جماله وحسب وإنما أيضاً يضفي

على المعنى أجواءً أخرى. لذلك وحدته بالمغى هي كوحدة الروح بالجسد ومن خلال الجسد من معارف، ومن خلاله تكتسب معناها.

الفنان التقليدي كان يجمل الحرف لكي يعطي المعنى فقط، وكان يكتبه بطريقة تتناسب فيما بين الحروف دون أن يضفي عليها مشاعره وأحاسيسه وأفكاره . فلا نعلم إن كان غاضبا أو راضيا، قلقا أ و مطمئنا، حزينا أو فرحا، كل ما نعلمه انه استعمل مهارته وكتب أحرفا جميلة.

كتابة الحرف الحقيقيّة تختلف عن ذلك، فإذا كنت في حالة غضب وكتبت كلمة المحبة، فإنَّك ستكتبها بطريقة تختلف عما لو كنت بحالة ابتهال أو فرح أو اضطراب أو حزن. إذا هناك وحدة في الفن بين الفنان والإنتاج الفني والجو والإيحاء والخيال، كل هذه الأشياء تكون ظاهرة في العمل الفني . هكذا التصوُّف في مفهوم التوحيد، أي أن لا نأخذ الأحرف بجزئياتها إنما بكلِّيتها وبحقيقتها، فلا نستطيع أن نجزِّئ الفنان ونفصله عن الفن، أو أن نفصل المظهر عن الحقيقة، والخط عن المعنى. لذلك على الأثر الفني أن يعتبر– إن جاز القول– في تظهير الحقيقة وتكثيف اللطافة. واللطافة عند الفنان لا تقوم على الخط فقط وإنما على المعنى وعلى عقله وخياله وعلى مشاعره وأحاسيسه وعواطفه، وكل ذلك يجب أن يظهر في النتاج والأثر الفني. فالفنان لا يتخَّذ أثره الفني عبارة لمشاعره وأفكاره التي لا يعبِّر عنها وإنما عليه أن يعتبرها– أي– أن يجعلها تعبر من داخله.

فالفن ليس تعبيرا عن الفنان وإنما هو تعبير للفنان. هذه هي الطريقة التي نفهم فيها فن الخط. وحرام علينا أن نحصر الخط ويكون وسيلة فقط . والفن هو التعبير الجمالي للعواطف والأحاسيس والأفكار . لذلك فهو يظهر بمظاهر شتّى إن في الخط أو الرسم أو في الموسيقى أو في الغناء والنحت وغير ذلك من الفنون. والفرق الوحيد بين فن وآخر هو بالوسيلة والأداء . فإذا كانت وسيلة الرسم هي اللون والحركة وأدواته، مثل الريشة والفرشاة؛ وإذا كانت وسيلة فن الخط هي الحركة والخطوط وأداته الريشة؛ وإذا كانت وسيلة الموسيقى هي التناسب بالأبحاث وأداتها هي الآلة الموسيقية مثل البيانو أو الكمان أو غيرهما . يجب أن يتجاوز الخط الوسائل والأدوات ليكون أكثر شمولا . لماذا لا نستعمل في الخط اللون كما هو في الرسم أو وسيلة الحركة

كما في الرقص. من هنا يصبح فن الخط متَّحداً اتحادا صوفيا مع غيره من الفنون كما الكون متَّحد مع الله.
ومن هنا يصبح الفن الخطي فناء بالحقيقة ولا ينحصر على انه وسيلة تقتصر على أدوات ووسائل معينة

مقتبسات من مقابلة مع أحد المفكِّرين-راجع الضحى العدد السابع والعشرون (أيار 1994).

التصُّوف كمسلك:

الصوفية حقيقة مسلكية، ترتقي ركائزها بارتقاء مسالها وتُبنى أمجادها بنبل التمسُّك بحبل الإيمان والمتوجِّه إلى حق العبادة والنزاهة والمخلِّص من الاستعباد الدنيوي، كيف يرى المتصِّو ف الحقائق المجرَّدة نسبيا، هل من خلال سلوكيته الروحانية وتوجُّهاته العقلانية؟

نصل إلى اعمق صوفية روحانية عندما نسلك طريق الإيمان بالله عز وجل، ونعتقد اعتقادا مطلقا بما يفسِّره الدين ونتوجَّه توجُّها صحيحا في مسيرتنا نحو الحياة الصوفية . هي العالم الأكثر روح انية بسلوكها تكون أيامنا مليئة بعمل الخير والفضائل، بعيدة عن فعل الشر والرذائل لأنها توجُّه الإنسان إلى معرفة طرق الزهد في الدنيا والتنبُّه إلى ما هو صالح للنفس وبالتالي إلى ما هو مضرٌ بالجوهر . بلوغ الذروة في التصوف هو قمة الحياة الروحية، والنظر إلى ميدان التصُّوف نظرة شاملة لكل معاني المودة في العمل، والإخلاص في العبادة، والتحرُّر في التفكير من الشوائب، بهذا يكون المتصِّوف قد أفرغ صورة أعماله في قالب تحليلي عميق إلى إخوانه، وأقواله التي حفظها لنا كثير من سالكي طريق الصوفية . إن المتصوف كي تحظى شخصيته باهتمام الآخرين؛ عليه أن ينير طريقهم بالمعرفة الحقَّة، ويوسِّع أُفُقهم بالإيمان المطلق، وينمّي مداركهم بالحقائق المجرَّدة . إذا تم ذلك يبلغ هذا المرء ذروته في التوحيد لله تعالى، وفي الترتيب لحياته الروحية الخالصة. فمدرسة المؤمن هي قلب المتصِّوف ولسانه ويرجع إليه الفضل في السلوك الجيد والقاعدة القديمة كي يكون للمتصِّوف العلم الكثير والعمل المثمر عليه أن يجاهد بتواصل واستمرار حتى يسمو ارتقاؤه وينفع مَنُ حوله بالنسبة للمسلك في عصرنا هذا وأن يكون عصر الانفلات من القيود الدينية يمكننا كمؤمنين موحِّدين أن نثبت على توحيدنا فلا يزعزع إيماننا شيء نأخذ بيدنا سبحة الأخلاق والعادات الحسنة طريقا نصل به إلى ربنا ونجاهد بزهد وتقوى وتقشُّف وصدق في كل عمل نؤدّيه. دليل على سيرنا هذه الطريق هو كمال اجتهادنا في ديننا، وملازمتنا لما اعتادته من طاعات . يرى المتعبِّد أن أساليب التعبُّد ا لصوفي هي

طريقة الثبات على مزاولة التديُّن واشتداد التأثر والتعمُّق بالأعمال الدينية . قد تعلّم الصوفية كيف استعمال الأصول الدينية، وطريقة العناية بالمصادر الإلهية، حيث أن الصوفي يخلع عن كاهله كافة كماليات الدنيا وينصرف بأكمله إلى بواطن الكتب المنزلة لينفذّما يُطلَب منه للوصول إلى طريق عبادة الله، فَمَن طلب هذه الطريق هداه الله(عز وجل). نستطيع أن نؤكِّد في اطمئنان دون أن نعرض التفاصيل، أن طريق الصوفية من ناحية كونها تثقيفا خُلُقيا للنفس وتوجيها دينيا للفكر، وتأمُّلا زهديا وتحرّرا عقليا، مدينة بالكثير للفلسفة الشرقية وطريق الوصول إلى الله هي نسيان كل ما يدور حول المؤمن من مهالك ومساوئ والتعلُّق بما هو انفق لدنيانا التي فيها معاشنا، ولآخرتنا التي فيها معادنا، ما أخرج الله إلى الأرض علما وجعل للخلق إليه سبيلا واعتمد للحق إليه مطلبا إلا وقد جعل للإنسان العاقل ا لمُدرِك المتيقِّن المتبقى فيه حظّاً ونصيبا– لو يعلم المفكِّر الصوفي أن لله علما تحت السماء أشرف من هذا العلم "الصوفي" الذي نتكلم فيه مع أصحاب العلم والتديُّن وإخوان الرضا والصفا لسعى إليه وقصده ولكن لا يوجد أسمى واشرف من هذا العلم، علم التوحيد وعلم التصوف. فمن سار وفق مناهج هذا النور رُزق من الذكاء وصواب الأفكار وعجيب المعلومات وغزير الملكات في فنون العلم ما لم يوصف في زمان تعتريه المغريات والمفتنات وتسيطر على عالمه الشهوات والرغبات، والذي يُنسب إليه هذا الغنى من التعليم في أمور الدين، يُنسب إلى أهل العلم الباطن، أي العلم الحقيقي، في عفاف وعزوف عن الدنيا وأبنائها . إن العفة في النفس هي تطهيرها من المفاسد وتتويجها بالمكارم والمحاسن. والعزوف عن الدنيا هو في التمسُّك بالصالحات والتقرُّب من المكرمات، بذلك تكون حياة المرء عاقلة غافلة عن المباهج الزائفة، متنبِّهة لأُسُس التربية الصوفية. ما ينفعنا في هذه الدنيا هو تصويب وجهنا نحو الله تعالى بصدق وإخلاص وتَرْك الملذات برضى واقتناع لأن الإنسان يمضي حياته وتكون قد ضاعت تلك الإشارات، وغابت تلك العبارات وفنيت تلك العلوم، ونفذت تلك الرسوم وخلصت تلك الأعمال، وما نفعنا إلا ركعات نركعها في الأسحار وصلوات نصلّيها في الليل . فمن هم أهل المعرفة بالله؟ هم من يصلون إلى ترك الحركات وقطع العلاقات التافهة ودمج الروابط الثابتة من باب البر والإحسان والتقوى إلى الله تعالى، إن العارفين بالله يرجعون بأعمالهم إلى الله كما اقتبسوا العادات عن الأنبياء يُعتقد أن هذه المرتبة هي التي يصل إليها الإنسان هي مرتبة العارفين بالحقيقة، المُقَرَّبين من الله، أما العارف الكامل فهو ذلك الذي أخذ الأعمال عن أمر الله تعالى وجعلها خالصة له، لا لغرض آخر، من رغبة في جنة أو خوف من نار. لأن الذي يعبد الله خوفا منه كاذب في إيمانه وأعماله، والذي يعبد الله خوفا من النار هو من الذين

يصلون بخداع ولا يوجهون ذواتهم إلى الاتُصال الروحي الحقيقي، بالعالم العلوي . وأجمل ما يعيشه المؤمن من لحظات سعادة هو في انسلاخه عن كل ما يحيط به من روائع ومظاهر والاتِّحاد بالفكر والذات بالله عز وجل، بذلك ينم الاستشراف وينسى الفرد ذاته ويصعد من باطن الأرض طائرا مسلَّحا بوحه حتى يصل إلى أجمل محطات الروح، للمتصِّوف سلوكات ينبغي إتباعها ألا وهي الذكر مع الاجتماع . الإيمان مع الصلاة. والوجد مع السماع والمشاركة في الصلاة، والانفراد مع الذات . كل ذلك يعني ذكر الله مع اجتماع الهمة، والحصول في حالة الوجد على المحبة الإلهية والإتِّباع الدقيق لتعاليم الدين ودروب الزهد . من يترك الدنيا ويتخلى عن محاسنها وينسى رغباته يكون عنده صفاء المعاملة مع الله تعالى ورُقي المعرفة في المبادئ الدينية. أعتبر التصوف مبنيا على أخلاق منها السخاء للمحتاج، والرضا بالقَدَر، والصبر على المصيبة، والاحتشام في اللباس، والبساطة في العيش . المسير من الدنيا إلى الآخرة سهل على المؤمنين والزاهدين والمنقطعين إلى الله تعالى، وهذا يؤكِّد مقام الرضا عن كل ما يصيب الإنسان دون إكراه في القلب، وان يستسلم الإنسان الروحاني للقضاء الذي يصيبه ويفِّوض أمره إلى الله تعالى. يتعرَّض كلٍّ منا لمصائب كثيرة وويلات عصيبة ويحقِّق الانتصار على هذه الأقدار إذا صبر بكل رضى وطيبة خاطر . المطلوب من الإنسان أن يعتمد الطعام كفاية لحاجته وليس إشباعا لشهيِّته، وعند مجارا ته العلم أن لا يتكلم إلا في أحوال الأولياء والعارفين، وان لا يسمع من الأقوال إلا ما هو حق، وان لا يقوم إلا بوجد الله تعالى . يعتبر الإنسان أن مجالس الدنيا جملة فيها من الفرح والترف واللهو، بل إن اشرف المجالس وأعلاها عند المتصوف هو الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد، والبقاء مع الاعتقاد في مسرح الألوهية، والاستمرار مع الإيمان بوحدانية الله. فالتوحيد الصوفي هو توحيد منَّصل بنظرية الله عن صفات المحدثات، كما هو عمل مخلص شوقا للخلاص في الآخرة بل إن التوحيد ينفي القدرة على إدراك الله أو رؤيته والإحاطة به، ما يوصلنا للارتقاء في صوفيَّتنا هو عملنا وإقرارنا بأن الله فرد في أوليته، ومعرفتنا بأن العبد سيِّحاسَب على عمله في النهاية، يستطيع الموحد أن يفنى في الله عبر عاطفته الخالصة وأعماله الصادقة، فالتوحيد معنى يكتشف للنفس عن طريق صِلَتها بالله وتحرّرها من الأخطاء، في تجرب ة روحية بعد أن تجهدها المشقات وتصقلها الرياضات والمجاهدات وتتخلَّص من شوائب البدن النفس؟ ذلك لأن النفس خالدة والجسد فان . إذ إن على الإنسان أن يشقى في سبيل تحسين أعماله لضبط نفسه من تحريكها للشهوات والغرائز وتسييرها للجسد في أهلك المراحل. فكيف تتحرر النفس من قيود البدن وعلاقاته؟ تتحرر بالسلوك الراقي إلى المثالية بالتصرُّف المتجه

نحو ترك الأثر، بالانقطاع الكلي نحو الله بقدر ما يضحّي البشر في دنياهم، بقدر ما يحرمون أنفسهم من الملذات بقدر ما يسعون لتحقيق الأهداف السامية، بقدر ما ينسون كل ما يشغل قلوبهم عن أمور الدين، يسمون ويرتقون إلى أعلى درجات المعرفة والصفاء من التوحيد بالله يقع التصديق به ومن التصديق به يقع التحقيق لكثير من الأعمال الروحانية، كما يتم التنفيذ الجزيل من الآيات القرآنية، عندها يحصل لبتَرَقّي إلى الله (عز وجل)، فالخشية من الله تعالى تقبض الشيء في النفس والرجاء منه يبسط صالح الأفعال، إذا الغاية المنشودة من وجود الإنسان هي الفعل بما يتلاءم والسيرة الحسنة، الذهاب بما تتوافق والمشيئة الإلهية، التوجُّه بما يتناسب والقوانين الدينية، السلوك بما ينير طريق الزاهد بالحب والخير والبر والإحسان، هذا ما يسعدنا كمؤمنين بسبب وجودنا، هذا ما يفرحنا كموجودين من اجل حفظ الدين والعمل بموجبه، هذا ما ينتاب شعورنا بوجوب الإخلاص لله تعالى، هذا ما يقنعنا كمفكرين بضرورة العلم في سبيل معرفة الحقيقة وأخيراً هذا ما يجعلنا غير متأثِّرين بالسعادة الزائفة، غير منجرفين بخط البعد ع ن معرفة الله تعالى فذوقوا أيها البشر نعمة السعادة الحقيقية.

مسلك التصوُّف والعناية بالمصادر الإلهية (تحرُّر النفس من المادة)- راجع مجموعة أعداد الضحى 1998.

إبراهيم بن ادهم (من أعلام المتصوفة الأولين) وكان من أعلام المتصوفة الأولين إبراهيم بن ادهم. ولإبن أدهم شخصية مميَّزة في تاريخ التصوُّف . فقد نُسبت أليه سيرة بوذا إذ رُوِيَ أن أباه كان من أهل بلخ ومن كبار ملوك خراسان . وقد خرج ابنه إبراهيم يوما راكبا فرسه قاصدا الصيد فثار أرنب أو ظبي، فحرَّك فرسه، فسمع نداء من ورائه : "ليس لذا خُلقت ولا بذا أُ مِرت" فوقف ينظر يمنة ويسرة فلم ير أحداً . ثم حرَّك فرسه ثانية، فإذا به يسمع نداء أجهر من الأول: "يا إبراهيم ليس لذا خُلِقت ولا بذا أُمرت. "فوقف ثانية ونظر، فلم ير أحدا، ثم حرَّك فرسه ثالثةً، فإذا به يسمع النداء مرة أخرى : "يا إبراهيم ليس لذا خُلقت ولا بذا أُ مرت" فوقف وقال: "أُنبهت أُنبهت جاءني نذير من رب العالمين والله لا عصيت الله بعد يومي إذا ما عصمني ربيّ" ثم رجع إلى أهله فخلى عن فرسه ثم جاء أحد رعاة أبيه فأخذ منه جبة وكساء وألقى ثيابه إليه وساح في الأرض فصار إلى العراق ثم إلى الشام . غير أن المصادر التاريخية لا تذكر لنا أن واليا لخراسان أو بلخ كان بأسم أدهم في النصف الأول من القرن الثاني للهجرة أو في القرن الأول. أما ارتحاله من بلخ إلى العراق

ثم إلى الشام فأمر تقرُّه المصادر وأخبار من لقيه من الزهاد . وقد أظهر البحَّاثة "لوي ماسينيون" في كتابه "بحث في نشأة ا لمصطلح الفني للتصوف الإسلامي" عدم صحة هذه الرواية، وأبان أن إبراهيم بن أدهم فر من بلخ سنة 132هـ وهي السنة التي قام فيها أبو مسلم الخراساني بثورته ضد الأمويين . ولحق بشقيقته في الكوفة. وكان إبراهيم بن ادهم عربي النسب من بني عجل وقد استشهد في جهاده ضد البيزنط يين على الساحل السوري ودُفِن في جبلة على مقربة من اللاذقية سنة اثنتين وستين ومائة للهجرة ولا يزال قبره يُزار . وفي القرن الرابع عشر للميلاد أُنشئت طريقة صوفية بأسمه هي الطريقة الأدهمية كانت لها زوايا في أهم المدن العثمانية وبخاصة في بيت المقدس.

وقد اشتهر إبراهيم بن ادهم في جهاده ضد البيزنطيين بأنه كان لا يُجاهد إلا في سبيل الله فلم يأخذ غنيمة، وكان يرفض أن ينال سهمه من الفيء . اشتهر إبراهيم بالزهد في الدنيا وتقوى الله فإنَّ من اتقى الله عز وجل، كما كان يقول، أطفأ ببصر قلبه ما أبصرت عيناه من حب الدنيا . فإن حب الدنيا يصمُّ ويعمي ويذل الرقاب. وكان يقول اتَّخذوا الله صاحبا وذر الناس جانبا. وهو يقول: "ليس من أعلام الحب أن تحب ما يبغض حبيبك. ذم مولانا الدنيا فمدحناه وأبغضها فأحببناها وزهَّدَنا فيها فآثرناها ورغبنا في طلبها".

ويميّز إبراهيم بن أدهم ثلاثة أنواع من الزهد فيقول الزهد ثلاثة أصناف فزهد فَرْض وزهد فَضْل وزهد سلامة. الفرض الزهد في الحرام، والفضل الزهد في الحلال، والسلامة الزهد في الشبهات ". وكان ينهي عن الكبرياء ويحثّ على التواضع يقول: "إياكم والكبر وإياكم والإعجاب بالأعمال ... من أقبل إليه أرضاه ومن توكَّل عليه كفاه ومن سأله أعطاه... فينبغي للعبد أن يُحاسَب..." وكان يقول: "اشغلوا قلوبكم بالخوف من الله وأبدانكم بالدأب في طاعة الله ووجوهكم بالحياء من الله وألسنتكم بذكر الله".

ويمكننا أن نُعِد إبراهيم بن ادهم من أول من تكلَّم في الحب. من ذلك قوله: "لو أن العباد علموا حب الله عز وجل لقل مطعمهم ومشربهم ومَلْبَسهم وحرصهم". من هنا نرى أن لابن ادهم نظرية في التصوُّف تقوم على أن محبة الله هي أساس الزهد والحق، فهي أولاً طريق وغ ايتها باب المعرفة وأغلى معرفة مشاهدة وجه الحق تعالى، يقول في ذلك:

بؤساً لأهل النار لو نظروا إلى زوار الرحمن قد حُمِلوا على النجائب يُزفّون إلى الله زفّا، وحُشِروا وفدا وفدا ونُصبت لهم المنابر ووُضعت لهم الكراسي وأقبل عليهم والجليل جل جلاله بوجهه ليسرِّهم وهو يقول إلى عبادي، إلى عبادي، إلى أوليائي المطيعين، إلى أحبائي المشتاقين، إلى أصفيائي المحزونين . ها أنذا ! عرِّفوني من كان منكم مشتاقا أو محِبّا أو متعلِّقا فليتمتع بالنظر إلى وجهي الكريم . فواعزّتي وجلالي لأفرحكم بجواري ولاسرِّكم بقربي ولأبيحنَّكم كرامتي ". هذا ما كان يريده من الجنة، أما غير ذلك فلم يكن ليلتفت إليه . قال في جملة ما قال: "اللهم انك تعلم أن الجنة لا تَزِن عندي جناح بعوضة إذا أنت آنستني بذكرك ورزقتني حبك وسهّلت على طاعتك، فاعطِ الجنة لمن شئت".

وكان لإبراهيم بن أدهم دُعاء يدعو به ربه في كل جمعة، إذا اصبح عشر مرات، وإذا أمسى عشر مرات. وفيه يقول:

مرحبا بيوم المزيد والصبح الجديد والكتاب الشهيد . يومنا هذا يوم عيد، اكتب لنا فيه ما نقول، بسم الله الحميد المجيد الرفيع الودود الفعّال في خَلقه ما يريد . أصبحت بالله مؤمناً وبلقاء الله مصدِّ قاً وبحجته معترفا ومن ذنبي مستغفِرا ولربوبية الله خاضِعا ولسوى الله جاحدا وإلى الله تعالى فقيرا وعلى الله متوكِّلا والى الله منيبا، أشهد الله وأشهد ملائكته وأنبيائه ورُسُله وحَمَلة عرشه ومن خَلق مَنْ هو خالق بأن الله لا إله إلا هو وحده لا شريك له وان محمدا عبده ورسوله (ص) وأن الجنة حق ومنكرا ونكيراً حق، ولقاءك حق ووعدك حق والساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من في القبور وعلى ذلك أحيا وعليه أموت وعليه ابعث إن شاء الله

إلى أن يقول:

اللهم إني ظلمت نفسي فاغفر لي ذنوبي، انه لا يغفر الذنوب إلا أنت واهدني لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت. واصرِف عني سيِّئها فانه لا يصرف سيِّئها إلا أنت.

لبيك وسعديك والخير كلهلا بيديك وأنا لك أستغفِر وأتوب إليك.

رابعة العدويّة:

في ضمير الزمان وقْع مناجاتها الحرّى، وفي ظُلُمات الجحود يشع قبس ساطع من نفسها، وبين هذه البطاح وتلك، خيالها يتهادى فوق الرمال وجهته صحراء الجزيرة.

في هدأة الليل البهيم صلوات تتلوها دعاءات محمومة، وابتهالات ضارعة يرجع صداها السكون الرهيب؛ ومن كوخ متواضِع في حي متواضع من أحياء البصرة، كانت ترتفع هذه الابتهالات وهذه الدعاءات، ومن تينك العينين الذابلتين اللتين شعّتا زمناً بنور الإيمان وصدق العقيدة، كان ينبعث القبس الذي أضاء تاريخ المرأة العربية.

تخيَّلها الفنّانون، فكانت اللوحة الجميلة تمثِّل فتاة في شرحْ الصبا، ذاهلة عمّا حولها ضارعة إلى ربها غارقة في تأملاتها.

ولو تصوَّرها النحاتون، لجاء تمثالها عن عجوز تقدَّمت بها السن، وأضنى جسدها التشقُّق، في عينيها بريق شديد، وهو بريق العين التي اطمأنت إلى ما ترى. وعين "رابعة العدوية" كانت تفيض دوما بذلك البريق لأنها لم تكن تنظر إلا إلى جوهر الحقيقة، وهي لذلك كانت مطمئنة على الدوام.

وإنني ساعة أخلد إلى السكون، أتمثَّلها فيجذبني إليها خيال جامح، وحب قوي بالتقرُّب إلى شخص زهد في الحياة إلى الحد الذي زهدت فيها رابعة، واحتقر المادة إلى الدرجة التي احتقرتها بها رابعة، فكانت في تاريخ المرأة العربية، قَبَسا من نور الإيمان، وكانت في الحقبة التي تلاطمت فيها أمواج الأطماع والشهوات وانجرفت فيها النفس مع تيار المادة مرحِّبة بالحياة العربية الجديدة، الحياة التي غيَّرت أساليب المعيشة البسيطة، إلى أساليب معقَّدة تعتمد على الترف واللهو؛ أجل كانت إشعاعا للفكر النيِّر الذي ما عكَّر صفوه ضجيج مادة، وصورة للنفس الطاهرة التي ما لطَّخت ببياض صفحتها نزوة عابرة، ومثالا للقلب النابض الذي ما أوهن إيمانه تعسُّف الزمن، بل كانت رابعة طوال المدة التي عاشتها، مثلا رائعاً للبطولة التي تقهر الشهوة، وصورة صادقة للنفس الزاهدة التي لا يقوى الزمن مهما استعمل من مغريات على تحويلها عن الطريق التي رسمتها لنفسها.

لقد مرَّت الإنسانية بأحقاب مظلمة تلتها حقبات طويلة، فذاقت الكثير من تعسُّف الكافرين وأوهام المضلِّلين الذين كانوا يعتقدون أن الحياة ترضى بأن تجعل من إنسان سيِّدا ومن آخر مسوداً . وما كان الظالمون ليرعوها حين كان الأنبياء والمصلحون يخرجون من صفوف الضعاف والصعاليك ليعلِّموا الكل بأن البشر سواسية إن لم يفرِّق بينهم نشاط الفكر والمعرفة والإقبال على عمل الخير والصلاح

وحين نلقي نظرة واعية على الحقبة التي عاشت فيها رابعة العدوية، تطالعنا هذه المظاهر الظالمة التي تجعل من المجتمع العربي مجتمعا بعيداً كل البعد عن الروح التي قاتل النبي العربيِ (ص) في سبيل نشرها.

وعلى الرغم من انتشار الدعوى الإسلامية، ومن رسوخ التعاليم التوحيدية في النفوس، فقد بقيت للمادة سلطتها على النفوس؛ وكان المجتمع العربي يسير في طرقات يحفّها الضلال من كل جانب، فأودت به هذه الطرقات إلى حيث أودت، وتفكَّكت بسرعة أجزاء الإمبراطورية الواسعة؛ والسبب الأول والأخير في ذلك، هو ضعف النفوس، واستخفافها بالفضيلة وتوهمّها أنها بذلك تحافظ على روح الدين الجديد في حين أنها كانت تتنكّر له وتعمل على إضعافه، بتشجيعها نظام الرقيق، وباندفاعها هذا الاندفاع وراء نزوات النفس، مسايرة جموحها، خاضعة لأطماعها.

لقد جارت الأنظمة الاجتماعية على الإنسانية فكان الرقيق وكان نظام الجواري، وكانت الطبقية التي جرت ما جرت من ويلات على البشرية.

لكن الإنسان القوي لا يتأثَّر بهذه العوامل مهما تألّبت عليه وتضافرت. النفس تُولَد حرة وتعيش حرة. وسواء لديها أكانت في قصور بهيجة أم في أكواخ حقيرة . وسيان عندها إذا عاش الجسم مُكبَّلا مغل ولا أم عاش طليقاً غاشما، لأنها كثيراً ما تكون عادلة في الجسم المغلول وأسيرة ظالمة في الجسم العاتي المندفع وراء الأطماع والنزوات والمستمتِع بحرية التنقل والأمر والنهي.

قد تكون هذه النظرية معرضة لبعض الجدل، لكن لنا من التاريخ ما يثبتها؛ وتاريخ رابعة العدوية ، الناسكة البَصْرية الشهيرة، التي ارتفعت بنظرتها السامية إلى الحياة، إلى درجة الكبار من المتصوفين الذين عمرت نفوسهم بالقوة، وواكبهم الطهر والتجرُّد في كل مراحل حياتهم، برهان ساطع على ذلك.

هذه الشخصية النسوية الفذة، عاشت حياتها الطويلة رمزا للطهر ومثالا لل شجاعة التي تعتمد على التوحيد وكبْت الشهوات والتغلُّب على جموح النفس دون تأفُّف أو تذمُّر، بل إن رابعة كانت مختارة في ذلك، فسارت على الطريق التي رسمتها هي لنفسها، ولم تكن في ذلك خاضعة لأية رغبة من الرغبات.

وُلِدت ناسكتنا الشهيرة في حقبة استحكمت فيها حلقات ا لغلاء والقحط في مدينة البصرة، فكان من الطبيعي أن تذوق وهي التي نشأت في بيت فقير، طعم الجوع والحرمان، ومرارة القحط والاجداي؛ وممّا زاد في شقائها وحرمانها موت أبويها وهي لا تزال بعد طرية العود، غضة الأهداب فكان من جراء هذه النكبة التي أصابت قلب الفتاة الطيِّة أن جمع الدهر إلى فقرها وأحزانها آلام التشريد والوحدة . ثم غدر بها الزمان مرة أخرى حين ساقها القدر إلى سيِّد ظالم وقعت في أَسْره فأذاقها من الآلام والتعسُّف ألوانا مريرة . ويشاء القدر أن تتوالى على قلب الصبية الطاهرة أنواع المحن والعذاب، فيبيعها سيِّدها إلى سيِّد آخر لم يكن ليقِلّ عن الأول خشونة وقساواة، ووحشية وظُلما.

وأقف هنا لأتصور هذه الصبية النبيلة التي جارت عليها الحياة فعرَّفتها بالألم ألوانا وأنواعا وأذاقتها العذاب كؤوسا مُترعة مريرة. كيف كان حال هذه الصبية النبيلة وأيدي الظالمين تتناقلها وتساوم ع لى ثمنها، وهي سلعة لا يُعترف لها بحق ولا يُقر لها بروح؟

هذه الفتاة التي احتقرت قصور الأغنياء، ولم تُبهَر أنظارها بمظاهر الترف، حتى تنصرف إلى الحياة الماجنة التي عرفت بها جواري ذلك العصر؛ كانت إنسانا لا يملك من أمره شيئا بين جنبيها قلب يحب وينبض، ويُشعرها أن الحياة قِيَم ومُثُل عليا، وان ما ينغمس فيه القوم من عبث ومجون، ولهو وإسراف ليس من المكارم في شيء ولا هو ممّا يسمح به الدين . لكنها لم تكن لتستطيع أن تبُدي أو تعيد، فهي مقيَّدة خاضعة لمشيئة سيِّد غاشم كان يسومها مر العذاب فتتحمل ذلك بنفس لا تعرف الوَهَن وقلب لا يعرف الهلع،

لأنها كانت شجاعة بحق أبية أنوفاً ترى في الشكوى ضعفاً وفي النحيب استسلاماً وانهيارا. ولذلك فإنها كانت تتحمّل الآلام بالصمود والرضى.

وفي ذات ليلة، بينما السيِّد قلق لا يستقر به مضجع ولا يعرف النوم إلى جفونه سبيلا، إذا بصوت بعيد يطرق أذنيه، أنصت السيد فإذا بالصوت صوت أنثى يؤنس وحشة القلق ويمزِّق الهدوء الرهيب . قام فمشى نحو مصدر الصوت فقادته قدماه إلى غرفة رابعة، وهنا وقف الغاشم وهو لا يكاد يصِّدق ما يرى.

إن جلال الصورة قد أسرى الدم باردا في عروقه، وفتح في ثنايا ضميره أبوابا كانت من قبل مغلقة، تلك هي "رابعة" في خشوعها تبتهل وتتضرع وتناجي ربها بينما الناس نيام يحملون بدنياهم المادية . كانت رابعة في تلك الساعة الرهيبة التي سمعها فيها سيدها تقول : "ربي انك تعلم إن أشد ما أتوق أليه هو عبادتك وتأدية ما لك من حقوق، ولكننب أسيرة لا أملك حريتي الشخصية، فلا سبيل إلى تحقيق هذه الغاية فلتعذرني يالهي".

خجل السيد من نفسه في تلك الساعة، وعرف أنه من العار تقييد فتاة طاهرة كرابعة، وتحت تأثير هبة الضمير، ويقظة الوجدان، أراد أن يكفِّر عن ماضيه فقال لرابعة : "أنت حرة طليقة منذ الآن ولك الخيار في أن تمكثي هنا أو تذهبي إلى حيث تشائين".

كان طبيعياً أن تؤثر رابعة ترك الدار وترك مولاها لتعيش عيشة يرتاح لها ضميرها، فتكسب قوتها بتعبها

وهنا تبدأ حياة رابعة في صورة جديدة لم يعرفها التاريخ النسوي من قبل، لأنها صورة ناسكة اعتزلت العالم لتفني نفسها وعمرها في العبادة والتقشُّف وعمل الخير حتى سُمِّيت بـ "أم الخير".

وكانت السنون كلما تقدَّمت برابعة، زادت عقيدتها رسوخا وزاد إيمانها قوة وتغلغلا في شعاب الفكر وأغوار النفس حتى بات كوخها الصغير مَقْصَد الرجالات في ذلك العصر، يؤمونه ليهتدوا ب هدي رابعة، وليزدادوا يقينا وتجرُّدا.

وساعة تنقلني أجنحة الخيال إلى ذلك الكوخ المظلم في أحد أحياء البصرة، تتراءى أمامي رابعة في ثوب من الصوف الأسود هلهله القدم، وهي تجلس على حصيرة بالية والى جانبها آجرة جعلت منها وسادتها ساعة كانت تأذن لجسدها النحيل بالاستلقاء بعض الوقت إذا ما فرغت من مناجاتها عند الفجر لتنهض بعد قليل، لائمة نفسها قائلة : "يا نفس كم تنامين والى متى تنامين، يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور" وكان هذا دأبها حتى توفِّيت إلى رحمة الله تعالى. إن أعمق الإيمان ما انبعث من نفس مطمئنة إلى عقيدتها، صادقة في توحيدها؛ وإيمان رابعة العدوية، كان ايمان الإنسان الذي ما زعزعت يقينه يوما رجفة من شك، وفي مناجاة رابعة للذات الإلهية بعض التحليل لتلك النفس المنصرفة عن دنياها إلى ذلك الرقيب الأعلى حيث تقول:

إني جعلتك في الفؤاد محدثي

فالجسم مني للجليس مؤانس

وأبحت جسمي من أراد جلوسي

وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

والحياة التي عاشتها رابعة بلغت الغاية من الروعة في نزاهتها وطهرها، لأن ناسكتنا لم تكن في تقشُّفها وزهدها متصنّعة أو ساعية لأجل غاية تبغيها لآخرتها، بل كانت تعيش مبادئ الدين، وتسيطر على نفسها التي كانت تخاف ذهولها أحياناً أو تخشى منها جموحا، فسيطرت عليها سيطرة حرمتها كل متعة دنيوية.

لقد أخلصت رابعة في تقشُّفها، فكانت ترفض كل ما يُقدَّم إليها من هدايا وأموال ومساعدات قائلة: "ما بي إلى ذلك حاجة" كما أخلصت في نظرتها إلى الحياة، فعرفت أنها فانية لا خير فيها وكان يؤلمها أن ترى الناس يكثرون من ذكر دنياهم ويتمسَّكون بأهداب هذه الحياة التي كانت تثقل على كاهلها لأنها أتت تفرِّق بينها وبين حبيبها الذي جعلت منه غاية لوجودها فتقول:

حبي ليس يعد له حبيب

وما لسواه في قلبي نصيب

حبيب غاب عن بصري وشخصي

ولكن عن فؤادي ما يغيب

أجلٌّ في رابعة شخصية جعلت دأبها في الحياة كبت الشهوات وحرمان النفس حتى أَطلق عليها بعضهم اسم "شهيدة العشق الإلهي"؛ وأُكَبِّر في رابعة تلك الشجاعة التي واكبتها في حياتها الطويلة، فجعلت منها صورة تجسَّمت فيها معاني القداسة والطهر وآيات النُبل ونكران الذات؛ وفي جوابها للعلامة الزاهد حسن البصري، وقد تقدَّم يطلب يدها بعد موت زوجته، ما يرينا من تنكُّر الناسكة لنفسها وسيطرتها على جوارحها وقلبها ما جعلها ترد الزاهد البصري وتصرفه بهذه الأبيات قائلة:

راحت ياخوتي في خلوتي

وحبيبي دائما في حضرتي

لم أجد لي عن هواه عوضا

وهواه في البرايا محنتي

حيثما كنت أشاهد حسنه

فهو محرابي إليه قبلتي

أن أمت وجدا وما ثم رضى

واعنائي في الورى واشقوتي

يا طبيب القلب يا كل المنى

جدْ بوصل منك يشفي مهجتي

يا سروري يا حياتي دائما

نشأتي منك وأيضا نشوتي

لقد هجرت الخلق جمعا ارتجي

منك وصلا فهو أقصى نيتي

هكذا نظرت رابعة إلى الحياة، فرأتها أنّى اتجهت وحيث وُجدت تمجيدا لتلك القوة، قوة حبيبها الغالي، وصورة لجماله الفتّان الذي سلب قلب رابعة فصرفه عن كل ما هو دنيا ومادة.

كانت رابعة تعتقد أنها لا تملك إرادتها فهي عبدة لله وضعت نفسها وإرادتها رهن مشيئته، وعملت دوما بوحي من لإيمانها؛ وحين سألها سفيان الثوري عن حقيقة هذا الإيمان، وما إذا كانت عبادتها خوفا من النار أو رغبة في الجنة، ابتهلت وقالت مناخية حبيبها:

احبك حبين حبَ الهوى

وحباً لأنك أهل لذاك

فأما الذي هو حب الهوى

فشغلني بذكرك عمن سواك

وأما الذي أنت أهل له

فتكشف لي الحجب حتى أراك

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي

ولكن لك الحمد في ذا وذاك

هذه لمحة عن حياة شاعرة شغلها حبها للذات الإلهية عن نفسها، فنسيت دنياها واحتقرتها وأبعدتها عن تفكيرها، ونظرت إلى الناس نظرة مشفقة على قوم انغمسوا في الانشغال بدنيا فانية لاأمل فيها.

ومهما قيل عن رابعة، فإنها مثَّلت البطولة النادرة التي قامت على إنكار النفس وكبت رغباتها؛ وهي لعمري شجاعة لم يتصف بها إلا الأقوياء من الرجال الذي عرفوا أن الحياة في معناها الصحيح مُثُل عليا وقيم معنوية وأدبية لا تقوم إلا على التجرُّد ونكران الذات.

كانت رابعة أينما حلت ورحلت، تحمل معها مفنها وهو عبارة عن عباء من الصوف الأسود، وكأنها بذلك كانت تقول لنفسها : "انكِ لعلى سفر فاستعدي ". وحين اقتربت منيتها أوصت صديقتها عبدة بنت أبي شوال أن تكفَّنها، وكان لها ما أرادت وانطفأت تلك الشعلة من الأ يمان في عام 185هـ بعد أن عاشت حياة طويلة ملأتها إمعانا في تعذيب نفسها، وكان إيثارها لحياة الفقر والشقاء في عصر تاهت فيه نفوس القوم رغبة في المادة وتهالكا على الحياة العاصفة التي عرفتها الحقبة التي عاشت فيها الناسكة البصرية، ضوءا انبثق من هذه الشخصية النسو ية الكبيرة بنفسها، فأرانا كيف استطاعت أن تجعل من النزاهة رسالة ومن التجرُّد والطهر وإنكار النفس دينا ومبدأ.

رابعة العدوية سيِّدة المتصوِّفات في دنيا العرب أو : شهيدة العشق الإلهي– راجع الضحى العدد الحادي والستون (آذار 1997)

الحلاج:

كانت حياة الحلاج وما انبثق منها من إشراقات، وما ابتدعت من مناهج في التفكير والتأمُّل والروحانيات. كانت كما يقول "نيكلسون": "لحظة جوهرية في تاريخ التصوُّف الإسلامي ". والتصوُّف عند الحلاج هو انتساب الإنسان إلى الله سبحانه، لا إلى هذا العالم المادي، هو ارتفاع الإسلام إلى الله في سَفَر

طويل هائل، لا تقدر عليه إلا عزائم المصطفين الأحرار، سَفَر غايته فناء الصفات البشرية في الصفات الإلهية وحب ووجد وذوق وشوق. ينظر الحلاج في توجُّهاته العرفانية إلى أن المحبة هي سبيل الوصول إلى المعرفة الحق. فمعرفة الواحد الأحد لا تأتي عن طريق الفهم العقلي. ذلك لأن العقل الإنساني يستمد معلوماته من عالم الحس ولا يمكنه تخطّي حدود العالم. يقول الحلاج في "طاسين الفهم" من كتاب الطواسين:

أفهام الخلائق لاتتعلق بالحقيقة، والحقيقة لا تتعلق بالخلفية. الخواطر علائق، وعلائق الخلائق لا تصل إلى الحقائق.

أما المحبة فهي حركة شوق إلى اتِّحاد لتتعدى الاتِّحاد إلى مراقيها العُليا، إلى وحدة المُحب بالمحبوب وكأنهما طرفان متقابلان ليبقى الواحد في حقيقته. (حقيقة المتصوِّف الصوفي). والفناء هو غاية الصوفية والفناء بالنسبة للحلاج هو دنو حقيقته من حقيقة الحق حيث تُنتَفى النسب ونفنى الأمكنة والأبعاد وحين يستقرُّ في الحقيقة وتستقرُّ الحقيقة فيه فيصبح لطيفاً شفافاً وتشعُّ النورانية لتطغى على كل ظلمة ويصبح في حضرة الحق في ظل مشاهدة الجمال الإلهي. وهذه الوحدة أدَّت إلى اتِّهام الحلاج بالحلولية وبأنه أدَّعى الأُلوهية ولكن بالحقيقة هذه الوحدة لا تَمتّ إلى الحلولية بصلة لأن الله سبحانه ليس مادياً كعالم الخلق ليحل فيه حلةلاً وإنما تتم هذه الوحدة عبر التجلي أي تجلي الحق في الخلق تجلِّياً لطيفاً، فاللطافة لا تحل دون أن تكون خارجة عنه أو داخلة فيه وهي لا تجانسه إذ لا يُجانس المطلق النسبي. يقول الحلاج إن عالم الحس هو كلّ لا جزء، ولكنه يعكس حقيقة الكل الحق. وهكذا كان الحلاج شهيد التصوُّف الإسلامي، شهيد العشق الإلهي بعد أن قدَّم أعظم برهان على أن التصوف في حقيقته أعلى صورة من صور السمو، كما هو أعلى صور الاستشهاد.

قسم البحوث الروحية في الضحى

توحيد الأديان والفلسفات

التوحيد

صوت الأكوار والأدوار:

من أعماق الماضي يأتينا صوت الأكوار والأدوار، صوت القرون، صوت الحكماء والعمالقة الروحيين صوت الذين دفعوا دماءهم لإعلاء كلمة التوحيد. ذلك الصوت مثل الجداول الصغيرة الهابطة من الجبال، تختفي تارة بفيض أشد إلى أن تتوحَّد أخيراً في سيل جبّار هادر. والرسالات النازلة إلينا من الملائكة والرُسُل والأنبياء والصالحين والصالحات، من كل المذاهب والأمم تؤلّف ما بين قواها وتتحدَّث إلينا بصوت الماضي الصدّاح وأول رسالة تحملها إلينا هي "السلام عليكم وعلى كل الأديان" ليست رسالة نزاع، بل رسالة دين واحد مُوحَّد.

فلا بحث أعز على قلب الإنسان من ذلك الذي يجلب إلينا من الله وهج التوحيد، ولا دراسة استهلكت من طاقة الإنسان، سواء في الماضي أو الحاضر، أكثر من دراسة الروح، والله، ومصير الإنسان، هكذا كان الأمر عبر العصور في كل الأقطار والبلدان . أراد الإنسان أن يرى الغيب، وأراد أن يكبِّر بنفسه، وكل ما ندعوه تقدُّما، أو تطورا، إنما يُقاس بهذا البحث، البحث عن المصير الإنساني، والبحث عن الله

وكما أن نضالاتنا الاجتماعية، في الأمم المختلفة، متمثِّلة بمنظَّمات اجتماعية مختلفة فإن نضال الإنسان الروحي متمثِّل بالأديان المختلفة، وكما أن المنظَّمات الاجتماعية في عراك مستمر، فإن المنظَّمات الروحية كانت في حرب فيما بينها. يدّعي الناس المنتمون إلى منظمة اجتماعية معينة أن حق الحياة وقف عليهم، ويريدون ما وسعهم الأمر أن يمارسوا ذلك الحق على حساب الضعيف وعلى هذا الشكل ادَّعت كل طائفة دينية حق الحياة لوحدها. وهكذا نجد أن لا شيء قدَّم للإنسان البركة أكثر من الدين، ومع ذلك في الوقت نفسه لا شيء جلب إليه الرعب أكثر من الدين.

حالما يقف الإنسان ليقول: "انه على حق وأن معبده على حق وكل الآخرين على باطل " يكون هو نفسه على باطل، أنه لا يعرف أن برهانه على دينه يعتمد على برهان الأديان كلها.

برهان دين ما يعتمد على برهان بقية الأديان، فمثلا، إن كان لدي ست أصابع، ولا أحد ليديه مثل ذلك، فلك أن تقول: هذا غير طبيعي، والتعليل نفسه يمكن أن ينطبق على دعوى أن دينا واحداً هو الصحيح والآخر زائف. دين واحد فقط مثله مثل مجموعة الأصابع الست الوحيدة في العالم أمر غير طبيعي. ومن هنا نرى إذا كان دين ما صحيحاً، فلا بد أن تكون الأديان الأخرى صحيحة . هناك اختلافات في الفرعيات. أما الأساسيات فهي كلها كلمة واحدة، من لدن واحد، ومن فم واحد، لشأن واحد، في كون واحد . إن كانت أصابعي الخمس حقيقية، فهي برهان على حقيقة أصابعك الخمس أيضاً.

إدراك التوحيد الإلهي هو الدرب الوحيد، وعلى كل واحد منا أن يكتشفه بنفسه، إذن ما نفع هذه الكتب، كتب العالم المقدسة؟ إن لها نفعا عظيما. إنها مثل الخريطة لبلد ما. لقد رأى أحدنا خرائط كثيرة لدولة ما في حياته قبل أن يذهب إليها . وكانت عوناً كبيراً له لتكوين تصوُّر ما عن تلك الدولة . ومع ذلك حين وصل إلى تلك الدولة، أي فارق بين الخرائط وبين الدولة نفسها، كذلك هو الفارق بين الإدراك وبين الكتب المقدسة.

هذا هو المبدأ الأول، الإدراك هو الدين ومن يدرك فهو إنسان متديِّن . سنجد كثيرين من الأشخاص في هذا العالم يقولون :"أردت أن أصير متديِّنا، أردت أن أدرك هذه الأشياء ولكني لم استطع وهكذا فأنا لا أؤمن بشيء". حتى بين المثقفين سنجد هؤلاء. عدد كبير من الناس سيقولون لنا : "حاولت أن أكون متديِّنا طيلة حياتي، لكن لم يكن فيه شيء".

لنفترض إنسانا ما كيميائيا، عالما كبيراً، نقول له : "لا أؤمن بشيء في الكيمياء لأني حاولت طيلة حياتي أن أصير كيميائيا ولم أنجح".

سيسأل: "متى حاولت؟".

حين ذهبت إلى فراشي أخذت اردِّد : "أيتها الكيمياء تعالي إلي ولم تأتِ أبداً". سيسخر منا الكيميائي ويقول: "لِمَ لَمْ تذهب إلى مختبر وتأخذ الأحماض والقلويات وتحرق يديك بين حين وآخر؟".

هل تتحمل العناء نفسه مع الدين؟ لكل علم أسلوبه في التعلُّم ويجب أن يؤخذ الدين بالطريقة ذاتها

بين الأديان الروحية العظيمة في الشرق كما في الغرب عقد لا ينفصم في الواقع، أكان في اتجاه وحدانية الوجود وتوحيده، أم كان ذلك في الإشراك في العيش ونضال الحياة وطلب المصير، أم كان ذلك في حقل الحضارة. حقائق لا بد لنا أن نستوعبها لكي لا يضيع جهدنا سُدى . إنما واجبنا أن نتعمَّق في تفهُّم بعضنا للبعض الآخر وفي إزالة العقبات واستشفاف مطلب الروح فالحكمة كثيراً ما أُعطيت على حد التعبير الإنجيلي للبسطاء وذوي النيات الحسنة والإرادة العفوية

وللحسين بن منصور الحلاج، رأيه في الدين الشامل حيث يقول : "الأديان كلها لله عز وجل شَغَل بكل دين طائفة لا اختيارا فيهم بل اختيارا عليهم. فمن لام أحداً ببطلان ما هو عليه فقد حكم أنه اختار ذلك لنفسه، فالأديان هي ألقاب مختلفة وأسامٍ متغايرة والمقصود منها لا يتغيَّر ولا يختلف ". وفي صلاته الشهيرة قبيل استشهاده: "وهؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلي تعصُّبا لدينك وتقرُّباً إليك . فاغفر لهم، فانك لو كشفت لهم ما كشفت لي لما فعلوا ما فعلوا، ولو سترت عني ما سترت عنهم لما ابتُليت بما ابتُليت، فلك الحمد فيما تفعل ولك الحد فيما تريد".

علينا أن نتعلَّم انه يمكن التعبير عن الحقيقة بمئة ألف طريقة وأن كل طريقة منها صحيحة إلى أبعد ما تذهب إليه. علينا أن نتعلَّم أن الشيء يمكن أن يُرى من مئة جهة ويبقى الشيء نفسه

لنفترض أننا جميعا ذهبنا نحمل بأيدينا الأواني إلى بحيرة نملأها بالماء . واحد يحمل فنجانا والآخر جرَّة والثالث دلوا وهكذا . وملأنا كلنا أوانينا، الماء في كل مرة بالطبع يأخذ شكل الآنية التي تحمله : مَن جاء بالفنجان فماؤه يأخذ شكل الفنجان ومَن جاء بالجَرّة كان ماؤه على شكل الجرّة . لكن في كل حالة الماء ولا شيء غير الماء في الآنية. هكذا هي حالة الدين الشامل، عقولنا هي تلك الأواني وكل واحد منا يحاول بلوغ إدراك الله.

فالحق نور جذوة من نار هدي باب التوحيد. وكل نور فهو منسوب إليه، وزيت ذلك النور واحد، وإن تعدَّدت أغصان تلك الشجرة وأضاءت بزيتها هذه الشموس. وان أنغام الحان جميع تلك الأغاني وهذه الأناشيد هي من ناي واحد، يغنيها فم واحد ولكن بألسنة مطهَّرة.

فالتوحيد هو لباب الدين وقاعدته، وهو المضمون الحي لكل كتاب ولكل دعوة، وهو الهتاف الدائم لكل نبي وكل رسول، والموحِّدون هم مَنْ امتازوا بعقيدتهم وليس بدينهم

يخبرنا القرآن الكريم عن التوحيد في دعوة نوح "ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره". (سورة الأعراف)

والتوحيد هو رسالة إبراهيم عليه السلام الذي نادى قومه قائلا: "اعبدوا الله ما لكم من اله غيره".

والتوحيد هو نداء هود وصالح وشعيب عليهم الصلاة والسلام "والى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره أفلا تتقون..." "والى هود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره". "والى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره".

والتوحيد هو دين يعقوب وأبنائه، يسائل يعقوب أبناءه عمَّن يعبدونه بعد موته فيجيبون قائلين: "نعبد إلهك وإله آبائك وإبراهيم وإسماعيل واسحق إلها واحدا".

والتوحيد هو دين موسى "وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم".

والتوحيد هو رسالة يسوع المسيح، يقول عليه السلام لقومه: "إن الله ربي وربكم فاعبدوه، هذا صراط مستقيم".

والتوحيد هو صلب رسالة محمد (ص) وعماد دعوته يقول عليه الصلاة والسلام: "إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أُمِرت وأنا أوّل المسلمين". (سورة الأنعام)

هذا هو التوحيد الخالص الدين الشامل، دين الحب والإخاء والرحمة، دين الأخلاق والفضائل والمُثُل توحيد أعلنه الله عز وجل لخلقه، وشهَّد به الملائكة والرُسُل، ونادى به الحكماء والعلماء والعقلاء، واعتنقه كل ذي بصيرة "شهد الله انه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا اله إلا هو العزيز الحكيم". (سورة آل عمران)

مقتبسات من: التوحيد فلسفة العصر الحديث–راجع الضحى العدد الحادي والثلاثون (ايلول 1994)

القوة الروحية في قلوب البشر:

حين يعي الإنسان التوحيد الإلهي يعود إلى التماسُك ويسيطر على حياته . في ضوء حقيقتها يكون إنسانا كاملا متوحِّدا . يصل إلى شمولية مبهمة شبه تامة . كل قدراته التي كانت الآن مُقَيَّدة بالاهتمامات الضيِّقة تصبح متحرِّرة نحو غايات أكبر . إننا نسقط من وجودنا الأصيل إذا كنّا تحت في عالم الموضوعات الحسية والرغبات الأرضية، مدِيرين ظهرنا للحقيقة التي تمنحها القيمة . إنها مغويّة وتثير الرغبات الحادة ولكنها لا ترضي الوجود الداخلي، وفي العالم الخارجي تأخذ طريقها في اضطراب متوتِّر (مسعور). هذا لا يعني أن نتخلّى عن الحاجات الأرضية أو نحتقر الجسد أو العقل. الجسد ضروري للروح. النظام الذي يؤَمِّن الانبعاث لا يحتقر الحياة الجسدية لأن كل روح بحاجة إليه ليس من الضروري أن نضطهد الحياة الشخصية من أجل بلوغ غاية الدين . إن مَن فيه تضيء شرارة الروح يتحَّول إلى إنسان جديد– إنسان الله الشخص المحاط بهالة، ينفذ التوحيد الإلهي في نفسه يملؤه ويفيض منه يمتصَّه ويغنيه في ذاته

الحقائق الأساسية للدين الروحي الشامل تكمن في أن النفس الحقيقية هي الوجود العلوي، والتي هدفنا أن نكتشفها ونصبح عن وعي مع هذا الوجود في كل.

الروح التي وجدت نفسها لم تعد تعي نفسها في عزلتها . إنها تعاني عبر أطوارها وأجيالها المتعاقبة الحياة الكونية بأكوارها وأدوارها التي فيها كل الأفراد والأجناس والأمم ملحقات تفصيلية . حافز وحيد يجري تحت كل مغامرات الإنسان وتطلُّعاته. أنه تجربة الروح للوحدة الأساسية مع كامل الوجود في الكلمات الإلهية للأديان الروحية العظيمة "أنت في وأنا فيك "الصلة الواحدة هي الحياة والافتقار لها موت . التضامُن السرّي للجنس البشري هو الذي لا مفر منه، ولا يمكن أن يزول بسبب جنونات العالم العابرة . أولئك التّواقون إلى العيش بسلام مع أبناء جنسهم لن يتمكَّنوا طوال حياتهم من النظر شامتين إلى المذابح التي تقضي على الأعداد الكبيرة من الناس لكونهم ببساطة لا ينتمون إلى استيطانهم

الأقنعة المصطنعة:

إن مواقف البعض من الأديان الأخرى والأجناس الأخرى والأمم الأخرى ليست أكثر من أقنعة مصطنعة، وعادات وتفكير ومشاعر، بتحفُّظ تّمّت بواسطة مران طويل في الخداع . طبيعة الإنسان الاجتماعية تشوّهت إلى أشكال عجيبة بواسطة السم الذي أنصب في دمه الذي أحاله إلى حيوان مفترس . المشاعر الدينية المتعصِّبة والعرقية والقومية التي تتطلب منا إن نمارس غرائزنا الدنيا لنطغى ونخدع، لنقتل وننهب، مصاحباً بشعور عميق من الفضيلة وإننا نفعل ما أمر به الله. كل هذا مكروه ومُدان ولا يصاحبه ذرة من العقل، ومَن تيقَّظوا روحيا فعندهم كل العروق والأمم تقف تحت قبة السماء نفسها . انهم يدعون إلى علاقة اجتماعية جديدة ويخدمون مجتمعا جديداً بحُرِّية مدنية لج ميع الأفراد وحرية سياسية لكل الأمم الكبير منها والصغير.

إن انهيار الحضارة المبنية على حماقات الشكوك المبنية على الأوهام والانطباعات الأخلاقية وحماسات الأجناس والأمم المشَّوشة والقاسية والعصبيات الدينية لا يجوز أن تؤثّر فينا لأن فيها عناصر الشخصية المضادّة للعقل والتوحيد. إنها لا تتوجَّه لخير الإنسانية ككُل بل لصالح أفراد ذوي امتيازات جشعة

وبالرغم مما يحدث اليوم في العالم، على تفاقُم مرَضيته، لا ينفي وجود الصحة فيه، وهو على استشراسه في الحقد، لا ينفي عنه كل صلاح، وعلى تماديه في اللامعقولية، لا ينفي عنه كل حقيقة، وعلى إيغاله في الغباء، لا ينفي عنه كل ذكاء، وعلى استفحال يأسه لا ينسخ صبح الرجاء، وعلى تراكُم أوجه التشويه، لا ينسخ الوجه السليم، وإذا كان هذا الوجه القوي والإيجابي يضاهي التشويه سلبا وجهنمية فإن أملنا عظيم في المستقبل. إن تقدُّم الفكر والنقد يساعد الأديان العظيمة لأن تنشد لحن روح الحقيقة الواحد الخالد الشامل الذي تخضع له الحياة وتسعى إليه وتبتهج فيه في كل مكان وزمان. لا نستطيع أن نرى بوضوح أكبر أن حقيقة الدين لا بما يتفرَّد فيه ويتخصَّص به، لا بحرفيّة تعاليمه التي يميل القائمون عليها إلى الإصرار عليها ولا بالإيمان بالقتال من أجله، بل ذلك الجزء منه الذي يستطيع أن يشترك فيه مع كل الآخرين، إدراك الإنسانية المطلق لنفسها وللعالم يمكن بلوغه فقط بمزيد من تحرير القيم الإنسانية والشاملة

الحكمة القديمة والعلم الحديث :

يتَّجه المجتمع اليوم، إذ يسعى إلىا الخلاص من قيوده وتجاوُز إشراطاته، إلى ماضيه ليستشف منه كل عرفان وحكمة وتوحيد، فيجد في غنوصيته، أي في عرفانه، وفي ايوزتيريته، أي في سريَّة عمقه، قمة ما توصَّل إليه العقل الإنساني، للحقيقة الواحدة التي نشاهدها كلما توغَّلنا إلى أعماق الحكمة ا لشرقية القديمة التي تعني فهم القوانين الكونية والطبيعية والإنسانية

فالحكمة ممثَّلة بالحكماء لا تعتمد أداة أو عقلا أو تِقَنية، إنها تشاهد عمل المادة في الرؤية الباطنية العميقة، أي في التجربة الروحية الداخلية، المعروفة بالاستغراق وفي هذه المشاهدة تتعرَّف على أصل المادة والكون على هيئة فيلم تتَّصل حلقاته ببعضها البعض، وتُرى هذه الحقائق بالرؤية الثاقبة للحقيقة غير المرئية، وتعمد الحكمة إلى تدوين هذه الحقائق كلها لكي تنقلها إلى النخبة الموهوبة . وفي رأي حكماء الحاضر أن الحكمة الشرقية القديمة اشتغلت على ا لمعرفة الإنسانية بكاملها، وفسَّرت الكون والأكوان والإنسان تفسيراً شموليّاً وكليّاً، وقد تجاوزت التفكير العقلي إلى وضوح الرؤية . فالحكمة تتخطّى الزمان من خلال إنتاجها له وجعله زمانا شموليّاً.

في البدء كانت الحكمة السامية الإلهية والكونية، في بدء الز مان الأرضي كانت الحكمة . في البدء الكوني والبدء الزماني كانت الواحدية، المتكاملة في ذاتها، ولقد تراجعت هذه الحكمة بالفلسفة .. تراجعت الأحادية إلى الثنائية فعُرِف الخطأ والصواب، ولم يعُد الإنسان حكيما بل مُحِبّا للحكمة . وتراجعت الفلسفة، فتراجع العقل الذي عرف الثنائية إلى التعددية .. وعندئذ، أقام العقل تجربته عبر الأديان على التعدُّدية، الطبيعية، الاجتماعية والفكرية، والطقسية، والشعائرية.. وتشتَّت العقل.

أخذ العقل يبحث عن الحكمة التي أضاعها .. ثار على معطيات التعدُّدية الطقسية والاجتماعية والطبيعية ليشاه د الثنائية الظاهرية والوحدة الباطنية فيها . وبدأ العقل من خلال تجربته العلمية، استشفاف الحقيقة الواحدة الكائنة في الوجود. لقد تراجع العلم، في صيغته الحديثة، وفي ما توصل إليه من فهم الحقيقة الجوهرية، إلى الحكمة وتخلّى العلم عن الفلسفة وهو يبحث عن الأحادية في تجربته، وعن الجوهر الكُلّي في مبادئه وأخذت الحكمة تستعيد مجدها السابق وحقيقتها المتداعية، فتمثَّلت في العلم الإنساني الحديث . وهكذا يكون العلم، في واقعه الحالي، عودة إلى الحكمة، وبحثاً عن الحكمة الكونية، وتعبيراً واضحاً وصريحاً عن

الحكمة الشرقية القديمة، وتوجُّهاً إلى الشمول والكل. ولما كان العلم والحكمة يسعيان إلى معرفة سر الإنسان والكون، وسر المادة والطاقة والحياة والوعي، ويعملان على رؤية أبعادها في إطار كوني يسمح لنا بمشاهدة الحقيقة بوضوح أعظم وشمول أكبر، فليس التوحيد الإلهي مجرَّد عقيدة بل بصيرة مليئة بالحقيقة، وبهذا يخرج الدين من حقل النزاع والمراجع المتعصِّبة . فلكي نعرف الحقيقة، علينا أن نعمَّق أنفسنا لا أن نوسِّع السطح، الصمت والهدوء ضروريان لبدُّل عميق في كياننا.

العقل التوحيدي :

فالشمول العقلي هو السبيل الفكري الوحيد الذي يفضي إلى التوحيد . وبهذا يكون العقل التوحيدي مدعوا لإعادة وعي كل الاختلافات ما بين البشر، الاختلافات المنتجة لتعدُّد الهِّويات والوجهات والنظريات . فقد وُلِد التوحيد بولادة العقل، كما أنه نزهة العقول في مجال أحدية الذات، فهو شرعة الحقيقة في جميع الأدوار والأكوار والأزمنة، والخلائق والعوالم.

لكن تحت كل ذلك في العمق نرى المسرحية الكبرى، التوتُّر ما بين جهد الإنسان المحدود وبين الهدف الأسمى. لا يستطيع الإنسان أن يخلد إلى الراحة مسائل غير محلولة . عليه أن يبحث عن الانسجام ويناضل من أجل التوافُق . فالعرفان والحكمة والتحقُّق والإشراق تجارب مماثلة لا تقل حقيقة عن أي تجربة علمية أخرى معاصِرة أو مستقبِلية، لهذا يتوجَّب على الحكيم الهروب من مملكة اللحظة والتأمُّل في الوجود الحقيقي متحرِّرا من كل التشوش والخطأ، الذي يفسد موضوعات التجربة، كي يدحض كل ما لم يعد ينتسب إلى حقل الاختبار العقلاني. وبهذا تكون الحكمة الثمرة الوحيدة للعقل التوحيدي في كل مراحل التاريخ، وفي جعل موقع الإنسان المعاصر داخل نطاق التطُّور التوحيدي للمعرفة والعلوم الحديثة، وفي وضع جواد العقل التوحيدي، أمام كل عربات الأفكار والنظريات المختلفة.

مُقتبسات من: في التوحيد الإلهي– راجع الضحى العدد الثاني والثلاثون 1994

الحكمة والحكماء :

الحكمة معرفة مباشرة، لا تعتمد أداة، ولا تُبنى على تقنية، فمن أجل معرفة المادة لا تعتمد الحكمة، مُمَثِّلة في الحكماء، أداة تقنية إنها تشاهد على المادة في الرؤية الباطنية العميقة، أي في الت جربة الروحية الداخلية، المعروفة بالاستغراق. وفي هذه المشاهدة تتعرَّف على أصل المادة، وأصل الكون على هيئة فيلم تتَّصل حلقاته ببعضها البعض.

الأصل في التوحيد أنه إيمان وخُلُق مستقيم، ولا يوجد هذا الخُلُق وذلك الإيمان إلا من خلال مجاهدة مستمِرّة لأسباب الجهل ومكابد متَّصلة لدواعي الانحراف مُجاهدة تعكس طبيعة العقل الحيّة. أي أن التوحيد– في حقيقته– يقتضي وعيا متَّصلا ويقظة مستمرة وتنبُّهاً دائما حتى يستطيع الموحِّد أن يحتفظ بشعلة العرفان نقية فعّالة. وبهذا المعنى يكون التوحيد قوى دافعة للعمل وحركة هادفة للتقدُّم، تحِّث الموحد على أن يترابط بالكون ويتناسج مع التاريخ ويتوافق مع العلوم الحديثة، بحقيقته الأخيرة للوجود. غير أن قليلا من الموحِّدين مَنْ يدرك هذا المعنى ويحمل نفسه على اتباع المسلك أما البعض فإنه يعيش في الغفلة بدلا من الوعي، ويفضِّل الاستنامة على اليقظة والتراخي على التنبُّه . وبذلك فإنه ينتقل من جوهر التوحيد إلى قشوره ومن الصميم إلى الهوامش منه. فالذي يحيا في صميم التوحيد وداخل جوه ره يتماسك مع محوره المتحرِّ ك دوما نحو الكون والإنسان، الدافع باستمرار إلى الأنفع للحياة والأرفع للإنسانية، ومن ثم فإنه يعني بحقائق الأشياء ويهتم بأعماق ذاته ويلحظ في الأفعال النوايا ويتفوَّق دائما على نفسه، أما الذي يعيش بعيداً عن عرفانه نائيا عن جوهره فإن روحه تتراخى وتفتر طبيعته وتتلبَّد تقديراته، فيقع على الطرف من الحياة ويتجمَّد على الهامش من الأحداث وتنحصر اهتماماته في القشور والمظاهر.

الحضارة الواعية:

الموحِّد السوي هو الذي يكون دائماً أبدا خلاصة للتاريخ ووعيا بالحاضر وحركة إلى المستقبل، والجامع التوحيدي هو الذي يتمثَّل تراثه كله وبتشرَّب كل الحضارات ثم ينبض الحاضر في كل علم وكل ثقافة وكل فن، ويسعى إلى تشكيل هذا الحاضر ليرفعه ويعلو به ويسمو عليه، ويهدف إلى التأثير في المستقبل لما فيه خير الإنسانية وما فيه وجه الله

إن التوحيد العرفاني في كل الرسالات السماوية هو المنهج الإلهي التقدم ألا تعود الأنهار إلى منابعها ولا يرجع التاريخ إلى الوراء ولا يعود الزمن أدراجه، ذلك لأن الحاضر يجيء من الماضي ويسير إلى المستقبل، واليوم يولد من الأمس ويصب في الغد

والحياة وهي تسير تحمل كل يوم، بل كل ثانية تغييرا كمّيا وكيفيا في الروح الإنساني والعقل البشري والتاريخ الحضاري . كل شيء في كل لحظة يتغيَّر في أبعاد شتى وفي نواح متعدِّدة وفي فروع متشابكة وبمعادلات مركبَّة، بحيث تصبح أي محاولة لوقف التغيُّر أو الحيلولة دونه نوعا من الانتحار الاجتماعي تأباه الإنسانية ويلفظه التوحيد

فالمجتمع التوحيدي الذي يضم موحدي الرسالات السماوية هو الذي يدرك أن الزمان والتدُّم والتطُّور هي نسيج المجتمعات وصميم الإنسانية وطبيعة الروح، وانه ما لم يتحرَّك الفرد والمجتمع مع الواقع فإن الواقع ينبذهما، كما تلفظهما الحياة والروح ويعني إدراك هذا المعنى يقظة كاملة للروح وتفتُّحاً شديداً للحياة ووعيا مستمرا بالحضارة.

إن في الحضارة المعاصرة مزالق وأخطاء، لكن علاجها لا يكون بالإعراض عنها، وإنما بالدخول فيها بوعي يستطيع تمثلها وقدرة تتمكَّن من تحويلها إلى اتِّجاه إنساني شامل.

وإعراض جماعة أو شعب عن الحضارة لن ينال منها لأنها ملء العالم أجمع مؤثرة فيمَن يقبلها ومَن يرفضها، لكن الإعراض- بغير شك- يحرم الحضارة من بعض عناصر الإصلاح التي يمكن أن تغ يِّر مسارها وتبدِّل مصيرها، ومَن ينكر الشمس يغمض عينيه، فيعمى عن الحقيقة ولا ينال من الشمس شيئا وكذلك، مَن يعرض عن عصره إنما يقوقع نفسه ويشرنِق روحه ولا يغيِّر في العصر شيئاً.

إن عظمة الرُسُل والأنبياء انهم سَموا إلى أعتاب الجلالة فلم يقفوا عندها، بل عادوا إلى الناس يسُمُوهم يرفعونهم إلى أعلى المراتب الإنسانية وأصدق المعارف الكونية.

لذلك فإن مجتمع الوحدة والتوحيد هو المجتمع الذي يدرك أبعاد الزمن ويفهم أعماق التاريخ ويرى آفاق الحياة ويعي أصول الحضارات ويقف على نبض الحاضر، ويدرس كل علم ويتذَّوق كل فن ويعرف كل

ثقافة، ثم يخلط ذلك بروحه ويمزجه بطابعه ويحيطه برؤاه، فيمسك عن وعي بمقود الحضارة وزمام المدنية ويوجه هذه وتلك إلى أغراض إنسانية شاملة والى أهداف كونية

مقتبسات من: في المجتمع التوحيدي–راجع الضحى العدد الثاني عشر (1993).

الملاك يغمض عينيه

النور الحياة المحبة:

يفسِّر الناس الله بمختلف المعاني وبشتّى الطرق إنما التفسير الأصدق لله يتلخَّص بعبارات ثلاث وهي: النور والحياة والمحبة.

لقد كان السر وقد أمر الله بتكوين النور فتكَّون وهو النور الذي به نبصر كل شيء ولولاه لما كانت حاسة البصر ولغرق العالم في الديجور ولما تمكّنا من إبصار كل ما يحيط بنا ممّا خلقه الله لنا في هذا الكون الفسيح، الله إذاً هو النور، والنور والعقل واحد، لأن الشمس تمنحنا الرؤية والعقل هو تلك الشمس الساطعة بقوة الله، يمنحنا بدَوْرِهِ الرؤية والبصيرة، من خلال توسُّطه في نقل النور نتمكَّن نحن من الإبصار إنما لا يغيب عن بالنا أن العقل يبصر أيضاً كما تفعل العين لكنها دون البصيرة مرتبة فالفهم عمل العقل.

الله هو الحياة والحياة هي الحركة، وقد يجد البعض صعوبة الإيمان بأن تكون الصخرة الجامدة أيضاً كائناً حياً يضجُّ بالحياة، غير أنها باعتبارها حياة كامنة ساكنة تطيع مبادئ القانون الكوني وتسجلها

بالإجمال نميل إلى التفكير بأن الحياة ليست غير هذه الحياة الواعية، هذا غير صحيح، لأننا إذا تمعَّنا في القانون الكوني وجدنا أن النباتات كائنات حية تمتلك بدورها وعياً بدائيا، فقد بيَّنت الأبحاث أن النبتة تتجاوب مع المشاعر الإنسانية، كما اكتشف البعض أن الأشجار والنباتات تميل نحو البشر عندما يغدقون عليها محبتهم، كأنها طفل يتوق إلى أمه . لكن يتطلب قدراً هائلاً من المحبة المنبثقة وهو أمر لا يقدر عليه

أيّ كان. بيد أنَّه إذا قوّى محبته المنبثقة عنه نحو موجات النبتة، فسيلقى الإستجابة المرجوة، هذا يفسِّر عبارة "اليد الخضراء" فأولئك الذين يحبون الطبيعة يتمكَّنون من حَمْلها على الإستجابة لهم

فالله إذاً من خلال امتداد ذاته في ثالوث حركة النور والحياة والمحبة، يجعل من الحياة وسيطاً أو سبيلاً له. ومن هذا المنطلق فإن ما نفعله لغيرنا إنما نتوجَّه من خلاله إلى الخالق لأننا بذلك نتوجَّه به نحو الحياة وهذه هي النقطة التي تغيب غالباً عن خواطر الناس الغارقين في أنانيتهم وفي فرديتهم، إذ ي ركِّزون طاقاتهم كلها داخل العالم المحيط بأشكالهم المادية فيغيب عنهم المشهد الكوني الشاسع المتحرِّك.

وهناك أشخاص عالقون في عالمهم الشخصي ينتفضون فجأة ملتفتين إلى ظواهر العالم الخارجي فيغوصون في الطبيعة باحثين عن الله ومتسائلين عن وجوده، ويشرعون بنز ع القشور عن الأشياء في محاولاتهم العثور على الله وكأنهم بذلك يفتحون قلوبهم ليتأكَّدوا من استمرارية خفقانها.

ينبغي أن يتحلّى الناس بالإيمان والإيمان والإدراك والوعي الذي يخوِّلهم رؤية الله المعبِّر عن ذاته في كل مكان وعلينا أن نعامل الغير بالمثل.

إن إحدى المشاكل الكبرى التي نتخبَّط فيها اليوم هي ميلنا إلى التقوقع حول أنانيتنا، معلقين كامل الأهمية على أنفسنا بغض النظر عن الغير.

الحياة ليست سوى وسيط بيننا وبين الخالق. هي الخيط الرفيع الذي يصله بمخلوقاته وكل المخلوق ترجع إليه.

نرى الناس اليوم يصرِّون كرههم على المخطِئ وعلى مرتكِب الموبقات إنما مَن ينبغي كرهه هو الخطأ نفسه أكان خطأنا أو خطأ غيرنا. لذا علينا الابتعاد عنه وتلُّم محبة الله وعطائه فهي تقودنا إلى محبته عبر وسيط المحبة.

المحبة تقرِّب الله منا وهي على أنواع : المحبة الإنسانية، ومحبة الرجل لزوجته ومحبة الأخ لأخته ومحبة الإنسان لله، كما نجدها في تعاطف الإنسان مع الأشياء كمحبته للشجرة الشامخة في داره أو للوردة

المبرعِمة في حديقتك، وما علينا إدراكه هو أن لكل محبة مجالها الخاص، فيقول البعض : "أؤمن بمحبة الله إنما ليس بمحبة الإنسان " وما محبة الإنسان إلا جزء من المحبة الإلهية، محبة جزئية لأنها موجَّهة نحو الإنسان.

يعتقد الكثيرون أن بإمكانهم الاكتفاء بمحبة الله فقط دون الالتفات إلى الأخوان، لسبب لا يروق لأذواقهم وهذا خطأ مريع فمتى سمحنا لأنفسنا بالكره إنما نؤذي ذاتنا ونكرِّسها لخدمة ا لكراهية والحقد فمتى تعلَّمنا محبة الأخوان نكون قد أسدينا لأنفسنا خدمة جمة فلا يهم إن كان غرض محبتك أن يبادلك المحبة ذاتها ما يهم هو منحك للمحبة والذبذبات المنبثقة عنك.

ليطلقوا العنان لغضبهم قدر ما يشاؤون، ليتشتتَّوا في أنحاء المعمورة فلن تتمكّنوا من السيطرة عليهم إذ لا تملكون السيطرة إلا على أنفسكم فقط، ووساطة الله هذه من خلال النور والحياة والمحبة ليست إلا سيطرة الذات على نفسها لا على العالم، فماذا تفعلون عندما تستشيطون؟ هل ستعترفون بالخطأ وتحاولون تصحيحه؟ لكن لا يدفعكم ذلك إلا إلى الاستياء، فالاستياء سيؤدّي بكم إلى تكرار الخطأ نفسه فالسوء يكمن في الخطأ وليس فيكم فأنتم طيِّبون لأنكم على صورته ومثاله.

الإنسان قابِل للتعلُّم وتكمن المشكلة فيما يعتقده البعض أن تقدُّمه في السن يجعله أكثر علماً ويربطون الحكمة والقيادة بعدد السنين إنما الحكمة هبة من عند الله ونوره ومحبته لذلك عليها أن تتواجد داخل نفوسنا وعظمة الله لا تحرِّكها الدوافع البشرية.

لا تذهلوا إن أخبرتكم إن ما وهبكم الله إياه الآن هو كل ما تملكونه الآن فلا يحزنكم النبأ لأن ما وهبكم إياه يمثل قمة العطاء والكمال وهو كامن فيكم فاشرعوا بإظهاره والتعبير عنه لأنه فيكم.

لقد خلقكم الله على صورته ولطالما حملتم بذوره في ذواتكم ولن يسلبها أحد إنما ما فقدتموه هو موهبة الوعي والإدراك الذي يتدفَّق في قلوبكم . وما أفقدكم إياها هو سوء أعمال بالطبع واغماسكم في الأنانية الذي ما فتئ يبعدكم عن الحقيقة، وما الطريقة لاسترجاع واكتساب ما فقدتموه إلا في التذكُّر والعودة إلى الخلف أي إلى الذات الكامنة فيكم.

إن الله النور والحياة والمحبة موجود في كأس ذواتكم وكيانكم الجسدي والعقلي والروحاني والعاطفي.

هل سبق لكم أن وُضِعتم في مأزق أمام آلة تعلمون فك رموزها جيداً وكيفية تشغيلها لكنكم وقعتم في الارتباك والحيرة لأن حياة شخصٍ ما معلَّقة على تشغيلكم لهذه الآلة؟ قد تكون هذه الآلة سيارة أو طائرة تألفونها جيداً إنما لا تتمكَّنون من قيادتها بسهولة واطمئنان لأنها ربما ستؤثِّر في حياة شخصٍ آخر.

هل سبق لكم أن أوقفكم ضابط سير طالباً إجازة قيادتكم على الرغم من إدراككم أنكم لم تقترفوا أي خطأ في القيادة؟ ألا تصابون بالهلع وتقعون فريسة الخوف والرهبة؟

فما هو الجواب عن ذلك؟ يتلخَّص حل تلك الظروف على قدرتنا في تهدئة أجزاء كياننا المختلف ومعرفة وما يشتمل عليه وجودنا وإدراكنا أننا لسنا مجرَّد أجساد.

الجسد ومكوناته الحاسوبية كالدماغ والجهاز العصبي وما إلى هنالك تحتل أهمية كبرى في حياة الإنسان لأنها أشبه بشبكة كبيرة توجِّه مختلف قوى الجسد وتنسِّق فيما بينها تحت قيادة العواطف وتوجيهاتها.

أجل العواطف والعقل يعملان معاً بقوة في التأثير على الجسد إنما العقل ليس الإنسان ونحن نعلم جيداً أن العقل ليس نحن لكننا نستخدمه للتعرُّف والاستفهام والتمييز، فيشرح بمخاطبة نفسه متغنِّياً بإشراق الصباح وباستقرار حياته فيرتاح لذلك جسده ويدبّ فيه النشاط ومِن جهة أخرى قد يستفيق المرء نفسه في يوم آخر يتآكله الندم واليأس فيشعر بالإحباط ويكتنفه الخمول فكثيرة هي الأمور التي تجول في خاطر الإنسان كثيرة هي الأفكار التي تمر على سراديب عقله فتؤثِّر في عواطفه وتغيِّرها وإن كنا نريد أن نجعل العقل يعمل من خلالنا كوسيط أعظم ينبغي لنا السيطرة على عواطفنا وعلى أفكارنا معاً لأنها امتداد لذاتنا . إذا انغمسنا في عواطفنا وأفكارنا نتخبَّط بها فستحول دون بلوغنا حقيقتنا الإلهية

الله يحتاج إلينا كما نحتاج نحن إليه . لماذا يحتاج إلينا؟ البعض لا يصدّق ذلك لأنه محدود جداً . يحتاج الله إلينا لأننا نملك جسداً يستطيع التعبير من خلاله على الأرض ولهذا وُجِد الأنبياء والرسل هو محتاج إلى أوتارهم الصوتية وإلى عقولهم. ليس بإمكان هؤلاء الرسل فعل شيء من دونه وما هم بدونه سوى أجساد واهنة لم تبلغ كمالها.

نتمنى غالباً لو كان الجميع كاملين كما كنا . هل كنا كاملين؟ أجل وأقولها بصيغة الماضي لكننا سنستعيد كمالنا يوماً وهذا مانسعى إليه اليوم . علينا أن نفهم ذلك وهو يتطلَّب بعض التفكير والتمعُّن فمتى فهمناه تتولَّد فينا قوة هائلة فنشعر أننا ما عدنا بشراً وتظ هر لنا أجنحة نحلِّق من خلالها في دنيا الحقيقة هذه القوة العظيمة التي تحيي أجسادنا وعقولنا ليست غير الحقيقة والحقيقة هي الله الذي يعطي لكل منا دوراً يؤدّيه في هذه الحياة.

قد يتساءل الكثيرون عن دور (الوسيط). دوره يقتصر على التحويل أي أنه يعمل كمحِّول يشبه إلى حد ما المحوِّل الكهربائي الذي يعدِّل كمية الكهرباء فيقّويها أو يخفِّفها حسب الحاجة . هو جوهر العقل المقدس الذي يعمل على نقل تيارات المحبة البسيطة من ذات الإنسان إلى ذات الله

قد يتساءل الكثيرون عن دور النفس الشريفة ما هو دور النفس الشريفة؟

قال الملاك ميخائيل مرة: "اعطوني شكَّكم وأبادله بإيماني "هذه صفة الأم أيضاً فهي التي تأخذ طفلها بيد ذراعيها فتؤاسي جروحه وتخفِّف من معاناته تحضنه وتغدق عليه الراحة والمحبة فإذا به يتحوَّل فجأة من اليأس إلى الراحة والاسترخاء والطمأنينة.

لا أحد يقدر على إنجاز هذه المهمة سوى الأم والأمر سيان بالنسبة إلى تحوُّلنا نحو ذات الله فلا أحد يقدر على هذا التحويل سوى جوهر العقل المقدس الكامن فينا والنفس الشريفة فهذا العقل يحوِّل ذبذباتنا السلبية التي ننقلها إليه إلى ذبذبات إيجابية ويجعل من غضبنا هدوءاً ومن ارتباكنا ارتياحاً ومن موتنا حياة ومن ظلامنا نوراً وسلاماً.

إن كرة الشمع البشرية الكبيرة تتحوَّل على يد العقل إلى إشراقات أنوار ترسخ في وعينا هذا دور الوسيط الإلهي: ترسيخ القانون الإلهي في وعينا وعقولنا.

الله هو القانون وقانون الله هو الحركة لا الجمود والوسيط وسيط حركة فالله لا يقبع في مكانه خاملاً حينما نرفض نحن البشر الحركة.

أولئك الأحيان الذين تزخر حياتهم بالحركة الدائمة والحيوية حلَّقوا بأرواحهم نحو الوعي الأعظم فيما قبع رفاقهم نائمين كسالى.

ويقول السيد: "اتيكم كاللص في الليل بسرعة خاطفة حاملاً مكافأتي لكم معي". معنى ذلك أن بعض الناس ينجذبون مع النور والبعض الآخر يتخلَّفون عنه

لا يمكننا إرغام أيٍّ كان على القيام بعمل فالناس تقوم بالأعمال التي تريدها لكن ذلك لا يعني قيامها بأعمال هوجاء وطائشة فجميعنا خاضعون لقانون الكارما فإذا قام المرء بعمل غير صحيح سيتسبَّب ذلك في تعاسته وإذا قام بما هو صحيح وصائب فسينتج عن ذلك فرحه وغبطته التي لن تأتي فوراً بل قد تتأخَّر في الظهور أو ربما تظهر على الفور.

يعيش المرء عشرات السنوات في بحر الخطيئة والجهل وما إن يكِّون فكرة بسيطة عن الله يظن أنه سيغفِر جهله ويغدق عليه محبته ورحمته وينَصِّبه داعياً أو سيداً بدافع هذه المحبة، غير أن الأمر ليس على هذا النحو على الإطلاق فما الحياة سوى فترة اختبارية يعيشها البشر بحريّة لكي يختاروا طريق النور أو الظلمة وعليهم أن يخدموا الله ويتضرَّعوا له في جميع لحظات حياتهم وفي جميع أعمالهم.

البشري يتحدّى الإلهي لأن البشري يعني الموت والإلهي يعني الحياة والله غني عن تجسيد الشر لأن الشر ليس من طبيعة ذاته كما أنه لا يريدنا أن نحيا ببساطة بل يريدنا أن نعيش أبداً. وأننا في استقلالنا في ظروف حياتنا وتمسُّكنا بالإرادة المصطنعة نبتعد عن الله والحقيقة لذا يجب أن نتعلَّم مسايرة عالمنا بالإضافة إلى سعينا لتعلُّم قانون الله وتطبيقه فذلك سبيل الخلاص الوحيد

علينا أن نفهم أن البشري يتحدّى الإلهي لكن ذلك لا يعني على الإطلاق أن الله يحاربنا فهو ليس بصدّد شن حربٍ علينا إنما طبيعة الحياة تجبرنا على التحدي وكل ما نقوم به في هذا العالم من المهد إلى اللحد نتيجة الموت حتما. وكل ما يفعله الله من أجلنا منذ البداية حتى هذه الساعة هو جعلنا أكثر حياة غير أننا لسنا كاملي الحياة بعد.

لأن الله هو الحياة وإذا آمنا بقدرة الله نصل إلى الحياة وإذا لم نتمكَّن من الإيمان بقدرة الله نصل إلى الحياة وإذا لم نتمكَّن من الإيمان بقدرة الله فنحن إذاً لسنا أحياء بالكامل والحوافز الإلهية قوانين كونية عالمية ثابتة غير أن البحث عن المحبة يتطلَّب حوافز إنسانية . أما المحبة فلها صيغة معيَّ نة تقود إلى نتيجة . فصيغة المحبة هي في ما تمنحه الحياة من ثمر طيِّب فيرى المرء نتيجة محبته في حياته

هل الحب اهتمام أم انجذاب أم مجرَّد تعاطف غَرَضي؟

التعريف الأفضل للمحبة هو أن نعامِل الآخرين كما نود منهم أن يعاملونا فالمحبة لاتنثر من حولها سوى الخير والمزيد من المحبة وعلينا أن نفهم أننا كلما توجهنا بمحبتنا نحو الله والعالم والبشرية، ازدادت المحبة التي سنتلقاها، فما علينا سوى أن نُظهر محبتنا كما تظهِر الشمس نورها.

إن المطر يهطل على العادل وعلى غير العادل فإن أحببنا الناس أم لا دعونا نحبهم على حد سواء وما إن نتبع هذه الطريقة سيُبرعِم الحب في داخلنا وفي حياتنا لأننا لن نكون خاضعين لهم فلا نتأثَّر بتصرفاتهم وبمعاملتهم لنا ولا نتفاعل مع أعمالهم وسلوكياتهم وكل ما علينا فعله هو القيام بكل ما هو مناسب لطبيعتنا الخاصة.

وعلينا أن نتفاعل جميعاً وأن نتعَّم كيفية التحكُّم بذلك وهذا يتطلَّب سيطرة قوية على الذات وجهداً كبيراً وتقديراً بالغاً لذاتنا ولما نحن عليه.

نعيش في عالم اليوم يفتح فاه للمسيح ويمد يده للشيطان. يكثر الحديث عن مملكة الله لكن لكل شيء وقته وقت الفعل يتقاعسون عنه ولا يؤدّون شيئاً بل أكثر مِن ذلك يفعلون ما هو ممنوع عليهم

هل يستطيع الناس غفران الخطايا؟

نتضرَّع إلى الله طالبين منه أن يغفر لنا خطايانا كما نغفر نحن خطايا الآخرين إنما هذه مجرَّد صيغة، وقلّة هم الذين يفهمون كنهها فما تعنيه هذه العبارة هي أننا نطلب الغفران كما نمنحه

فإن لم نسامح مَنْ أخطأ بحقنا فلن يسامحنا هؤلاء الذين أخطأنا بحقهم . بإمكاننا مسامحة الخطيئة التي يرتكبها الآخرون بحقنا ليس فقط لأننا نملك القدرة على الغفران بل لأننا نطلب الغفران ل ذاتنا. نشعر أحياناً أن هناك مشاكل كثيرة في علاقتنا بالله، مشاكل تفوقنا حجماً وضخامة بحيث نعجز عن حلها . هذا صحيح فكل ما يعجز عنه البشر هو مسألة سهلة عند الله القدير وهنا يكمن دور الوسيط الذي يوضِّح علاقتنا به.

إن العقل موجود داخل كل منا وهذا العقل يشع بالنور والحياة والمحبة التي هي ذات الله ويتمتَّع بنور الله الكلي ووعيه.

وإن كنا نريد العثور على طريق العودة إلى الله فلنتذكر أن من يقترف أخطاء كثيرة يعطي أحياناً المحبة أكثر من ذلك الذي لم يقترفها غير أن ذلك لا يعني حكماً أن كل من تكثر أخطاؤه يصبح عظيماً في محبته. علينا أن نتعلم الاستسلام إلى العقل والسعي لبلوغ مرتبة الإدراك النورانية التي تقرِّبنا من ذات الله، من الحقيقة لبلوغ هذا الهدف ولا بد لنا من إرادة قوية وتصميم شديد مع توق أكثر شدَّة

ولكن احذروا نسبية الخير والشر :

إن محو معضلة الخير والشر وَرَد في قول السيد المسيح عندما انبرى له شاب ثري يسأله : "أيها السيد الخير"، أي خير عساي أصنع لأحظى بالحياة الأبدية؟ " فأجاب السيد المسيح (عليه السلام) "لماذا تدعوني بالخيِّر؟ لا خيِّر سوى واحد وهو الله ولكن إن كنت ترغب بالحياة الأبدية فعليك باتِّباع الوصايا.

أبي المسيح (عليه السلام) أن يُصنِّف نفسه كشخص خيِّر، كما هو الخير دوماً عرضةٌ للتصنيف وعزا الخير كله إلى الله أي إلى ما فوق المحدود والمصَنَّف . فقد آن للخير أن يحقِّق وجوداً متحرِّراً من التحديد والتصنيف.

إذ إن معركة الخير والشر ليست معركة وجودَيْن متناقِضَيْن إذ لا وجود للشر، فالشر عدَم، يستمد طاقته من نقضه للوجود فإذا تحقّق الوجود تلاشي العدم.

إن الكبرياء وحب الذات غالباً ما تحرِّك نفوس الناس وتدفعهم لمكافأتها باسم "الخير" المُصْطَنع، فيقومون بإنجاز الأعمال الخيِّرة طمعاً بالمراكز وتتفاوت الأهداف بتفاوُت درجات العناد. فبينما يقوم سلاطين اللعبة بأعمال بطولية عالمية تتحدّى شياطين نفوسهم بغية الوصول إلى عناوين الصحف أو دخول التاريخ، يقوم أخس بيادق الشر فيهم بأعمال باطنية غرضها الاغتيالات الفكرية

وبذلك يميل رَقّاص ساعة الزمن تارةً إلى اليمين باتِّجاه الخير النسبي، وطوراً إلى اليسار باتجاه الشر النسبي، فما بالكم يا أبناء النور تتأرجحون بين الإيجابي والسلبي وتأخذكم أوهام النسب وتتناسون أصلكم المطلق.

هذا يا أحبائي ما يُسمّى بـ "الطغيان الخفي"، هذا ما يُسمّى بـ "احتقار الذات"، فما أصعب أن يكون الإنسان عاجزاً عن تقدير إلا مَنْ هم أجمل منه صورةً وأجراً منه على محاربة أبناء النور.

ما هو هذا الوعي المؤلَّب ضد الوعي الإنساني كـ "الديناصور" على "الديناصور"، الذي ترهقه معركة حياة أم موت، يدمِّر كلا الطرفين الآخر حتى تُهرق دماؤهما معاً؟؟

سبيل الخلاص:

تحقيق الاكتفاء الذاتي وتجاهُل العَدَم والتخلُّص من ديوان التعامل مع قوى (الخير والشر النسبي) والسماح لها بأن تتألَّب على بعضها لتمحو بعضها بعضاً فيما ينضم الحَمَل إ لى قطيعه من المؤمنين ليغنّوا سوياً أنشودة الخلود.

لقد فقد ضعفاء النفوس قائدهم، فـ "إبليس" زال من الوجود مذ تجلَّت (الحقيقة) لأبناء النور فلم يبقَ لدى أبناء الظلمة ما يجمعهم سوى تشتُّتَهم، فليدمر بعضهم بعضاً، كما النمل الأبيض يجتاح النمل الأحمر، فليتغلَّب عليهم عنصرهم فقد أقسموا على القتال حتى النهاية

إذن فتعلَّموا يا أبنائي أمثولتكم جيداً : "الخير والشر البشريان لا يفوزان أبداً، وحدها الحقيقة الإلهية تنجلي.

وفيما تستمر ألاعيب السلطة بين الأشرار في المراكز المرموقة ويتسابقون لنيل المناصب والمكاسب، وتشييد الإمبراطوريات المالية على أكتاف الشعوب المعذَّبة يقف أبناء النور صامدين يتلقّون النور من مصدره.

وبينما يرى التنين أن من واجبه أن يسلِّح وحوشه المترصِّدين لأبناء النور، يشرب أبناء النور من (كأس قربان الحمل) خمرة النجاة تاركين الخبز لأصحابه.

أناشدكم يا أبناء النور ألا تدعوا روح الإرهاب والفوضى، التي تعيث بالعالم فسادا في أيامنا هذه، تمر أمام أعينكم مرور الكرام من غير أن تسبروا غور معانيها وأهدافها، فما هي إلا الثقب الذي يسعى أصحاب النفوس المظلمة إلى توسيع هوَّته بين أبناء النور ومصدرهم

إذ يولد طفل في صميم كل منكم، وينضج رافعا معه الروح إلى طبقة الوعي الذاتي المطلق، تروا البذار والحصاد في استمرار، بذار الشر بشخص أعداء المسيح الدجالين، ينفثون بسمومهم في الطفل قبيل بلوغه مرحلة النضج التي فيها يدرِك المعنى الخفي، ويعي حقيقة النور والديجور.

إن أبناء النور في هذا الكون تملأهم ثقة غالبا ما يولونها ولا يبصرون، ويتخبَّطون بنعمة صفاء القلوب، ويدفعونها لأولئك الذين لم يعانوا يوما من فقدان اتصالهم بالنور، كما عانيتم أنتم في الليلة الظلماء الكبرى، ليلة احتجاب الشمس والقمر والنجوم، ليلة لا ينفع فيها شمع ولا كبريت.

ومِن أعلى سفوح جبال العالم وتلاله، تبادرنا رؤية تلك الحشود موجة متصاعِدة من الجيوش الوهمية تتألَّب في وجهكم عند الفجر وفي ساعة النهوض، فبادروا في طريقكم إلى مسرح الحياة، بادروا إلى معركة الوجود.

وما نحن هنا اليوم إلا لتمهيد الطريق ولنشيِّد بأعمال تلك الأرواح الطاهرة، التي خوَّلتها قلوبها الصافية النقية، إدراك عظمة الحماية الإلهية التي تؤمِّنها الكلمة- كلمة الله عز وجل- الذي زوَّد بها حماة الحق أبناء النور.

إنني أتوجَّه بكلامي لأولئك الذي يدركون ضرورة الدفاع عن الحقيقة في زمن الخطيئة القصوى، زمن انتهاك الحريات، فيا عجبي من أبناء ظلمة يدافعون عن حقّهم في البحث عن النور في عتمة الديجور وأبناء نور يتخلّون عن حقِّهم في الابتعاد عن الظلمة في ساعة البزوغ.

وإذ بنا نرى حاملي الحق في عصرنا هذا عرضة للسخرية والمهانة ونرى أعداء الحق وقد سَلَبوا من أهل الحق الأمانة، كانوا حاضرين ساعة الحكم، ساعة أُعطي الخلق الخيار ما بين النور والظلمة وصاحوا "أعطونا الظلمة".

أناشدكم ألا تتوانواعن محبة "الطفل" (فلم يعُد صغيراً بل بلغ فيكم) فلا تخسروه من أجل الكذب والرياء وموجة الضد ولا تغذّوه من بذار الخوف والشك والارتخا ء التي زرعها أصحاب النفوس المظلمة، لضمان سيطرتهم على الشعوب والأمم والمؤسسات.

ما هي إستراتيجية ضعفاء النفوس؟

تفريق أبناء النور والسيطرة عليهم من خلال المواجهات الشخصية زإبعاد الشعب وتفريقه عن الحق وتوجيهه نحو الباطل والتصدّي السياسي والمنافسة الاقتصادية، ب الإضافة إلى التدخُل في شؤون الإيمان والأخلاقيات، ومن ثم توليد العداءات في العقول، وزرع القلق وقتل الوعي والإدراك في دوامة الحياة العصرية الجارفة، وخَلْق التعصُّب المجنون، والعنف، والتشدُّد الديني للسيطرة على العالم وقَلْب الموازين

أما نحن خدّام الحق فنعي كل الوعي صوت ناقوس الخطر ومخطَّط إبليس، الذي تمرَّد على الرب، وسيطر على أبنائه في أحرج الأوقات مستشعِراً قرب زمن اليقظة من السبات، وانتهاء مدة الساعات، وحلول زمن المعجزات

إن النفوس الساقطة قد ظهرت مرارا وتكرارا على مر العصور، وآن لأبناء النور أن يفهموا م عاني الظهور. ليس الظهور بمسرح لهم يقِفون أمامه منتظرين ومتفرِّجين، لقد سقطت تالنفوس المتمرِّدة، وهي إن لم تجرؤ على الوقوف إزاء الرب، فقد شرعت في إخماد النور في قلوب أبنائه . وآن لأبناء النور أن يعوا طبيعة ذاتهم.

باسم الله أناشدكم أن تطهِّروا نفوسكم من الظلم ة، وان تحرِّروا قلوبكم من عبء الكارما . أناشدكم أن تتخلَّصوا من ذاكرة الجسد، وأن توجِّهوا اهتمامكم نحو الحقيقة، حقيقة الكلمة المتجسِّدة في ذواتكم.

أناشدكم يا أبناء النور ألا تصبروا على الباطل حتى تضجروا من الحق.

أناشدكم يا أبناء النور أن تتأمَّلوا ملياً في سلوك الجسد وطموحه الكاذب . فأهدافه مبنيَّة دائما على الوهم، وحنينه إلى ذكريات ماض مجيد، لم يكن ليتَّسم بالمجد لولا تَوقكم المُسبق لمجد تنعَّمتم به مع الحبيب في جنات المعرفة الأزلية قبل دورة عجلة الزمان والمكان . فوعود الجسد دائما قائمة على مستقبل مجهول يستبع الوجود ويستنسخ من ألم الحاضر آلاماً، ومن خوف اللحظة مخاوِف فليحذر الجميع، حتى المسؤولين منكم من طموح الجسد. فأنتم منهم بمثابة الروح من الجسد.

نسبية الخير والشر :

يتكلَّم أبناء الظلمة عن نسبية الخير والشر، وعن الديمقراطية في عالم الأجساد، لإيهام أبناء النو ر بتساويهم مع أبناء الظلمة وفقاً لمقاييس الطين . فأين ذهبت مقاييس الروح؟ فنرى اليوم أبناء النور وأبناء الظلمة قد اختلطت أرواحهم كالعجين . فأين كان الفرق إذا بين تضحيات هابيل وذبائح وهدايا قابيل؟ جهود كانت متساوية في لغة الجسد ولكن بعضها بدافع الحب وبعضها بدفع الكبرياء والحسد.

أناشدكم يا أبناء النور أن تعوا طبيعة ذاتكم. فذواتكم هي ذات واحدة. إن النفس التي تأخذ من العقل الكلي مرتعا، هي التي تتأمَّل ليلا نهارا قانون الواحد الأحد مشرِّعة أبواب الوجود على الحقيقة الكونية. فذاكرة الجسد ذات طبيعة ازدواجية تتقلَّب في دورات تعبِّر عن بساطة الهندسة الإلهية . أما سبيل ذواتكم يا أبنائي فهو مسلك الذات الوحدانية. فقد تحدَّى وعيكم قيود الزمان والمكان عندما تجلى له البرهان وانفتحت لكم سماء القدرة وأبصرتم في ما وراء الجدران

مبدأ الوجود هذا يا أحبائي يحمل بذور شفائكم من الإحسلس بالفرقة بعد أن صفا لكم الزمان، فتقبَّلوا أسرار الوجود لتتحوَّل الحياة على الأرض إلى جنة سماوية. فما مِن أحد يقدر على ردع إنسان يطمح إلى أن يذوي في الألوهية

أناشدكم يا أبناء النور أن تتعلَّقوا بأجنحة الفجر، وان تحلِّقوا مع النسور إلى أعالي الجبا ل، لتتحقَّقوا من قوى أولئك الذي قدّموا أنفسكم شركاء في الخلق على مائدة الكمال . لا يمكنكم أن تكونوا أبناء الظلمة والنور في آن معا، ولا حاجة لكم بأن تخمدوا طموح أرواحكم في مقبرة الجسد . فإن كنتم تنوون التقرُّب من الله، فاعلموا أن الله لا يمنح محبته وبَرَكَته إلا للذين خُيِّروا فاختاروا.

العقل الكلي:

يا أبناء النور ليس بمقدوركم المحافظة على حريتكم من دون الاتِّصال بمصدر الحرية "الرب" عبر الوسيط "العقل".

إن أرواحكم قد بُعِثَتْ بعد نجاتها من المعركة القديمة بين النور والديجور حيث هَزَمَت تنين الوث نية الذي كان يحمل في داخله نواة الموت والهلاك، فأدركتم أن الوحوش المذكورة في سفر (الرؤيا) للقديس "يوحنا"، إنما ترمز إلى دوافع أفرادٍ اختاروا بملء إرادتهم وبكامل وعيهم أن يضللوا أبناء النور ويحجِبوا عنهم الحقيقة استشعاراً منهم لقرب الوقت.

عظيمة كانت قوى الأقدمين، فمركباتها الفضائية كانت امتداداً للمركبات الأم، أما السحرة والشياطين فيصنعون من أنفسهم قوات تهدف إلى تدمير نفوس حاملي شعلة النور.

إن حرب النجوم ليست بخيال علمي بل هي ذكريات لعوالم سابقات- ذكريات عصور مَضَت نُثِرَت فيها تطُّورات النور واليجور عبر المنظومة الشمسية في مجرَّتِنا هذه . أما المعارك التي شنَّها (إبليس) ضد مجموعات الملاك "ميخائيل" (سيف الرب)، فما كانت إلاّ معركة من معارك (وادي الآلهة)،

وها هي الأرض تشهَدْ لعظيم أعمالهم البطولية في مواجهة انفسهم فيها السحرة بين بعضهم البعض وحاربوا أنفسهم تاركين أبناء النور يتوسَّعون في فتوحاتهم الكونية

إن وحشية أبناء الظلمة متأتية من أسيادهم ذوي النفوس الساقطة– هؤلاء من يسيطرون على طاولة الشطرنج العالمية، فسلطانهم يطال كل الأجهزة الحكومية وبيادقهم تتوغَّل في أ راضي أبناء النور، يسلبونهم حقهم في التحرُّر من قيود الزمان والمكان كما يسلب الجسد حق الروح من مغادرته وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة.

وأبناء الصين في البلاد الأم وعلى جزيرة النور يتحدَّرون من حضارة عريقة، فهم حملة جداول الحكمة التي أملاكها رُسُل المسيح (عليه السلام) لتترسَّخ في جذور أراضيكم العميقة.

لقد عرفتم من قبل الرُسل أنها رسالة "الطفل" الكامن في قلوبكم والذات اللطيفة في ذواتكم فاجعلوا من "الوعي" مخلِّصكم لتتجلّى لأنفسكم الحقيقة المطلقة فتشهدوا من خلالها عيد انتصار الحرية العالمية.

ويبقى المشهد الأخير من مشاهد معركة الوجود قيد التحضير والممثِّلون في الشرق والغرب يُعِدّون أنسهم للعب أدوارهم. أدوار قِدَمها قِدَم التكوين كلّ وفقاً لإرادته.

لكن المأساة الكبرى لأولئك الذين يصطفّون في طابور النفوس الساقطة، يفعلون ما يفعلون اعتقاداً منهم بأنهم يخدمون الله وهم يخدمون بيادق النفوس الضدّية.

آن لأبناء النور أن يؤلفوا وحدة منيعة قوية، وما اتحادهم سوى برهانٍ على اتصالهم بالرب، اتِّصال آن لهم أن يحقِّقوه بتوجُّههم نحو الحرية في أبسط تصرُّفاتهم الحياتية ففي حين يعتقد قادة العالم انهم يمسكون بزمام الأمور بأعمالهم الديبلوماسية، يشق سيف الحق القاطع الطريق لشجرة الحياة أمام أبناء النور الأحرار.

وكما تحطِّم صخور البحر الأمواج العاتية، كذلك تحطِّم صخرة "الطفل" الكامن في وعي أبناء النور تيارات الحشود الكونية. فهي صخرة جبل الحقيقة. لقد أوتي لنا أن نحمل جوهرة الشعاع السابع في العصر السابع، شعاع الحرية، فليتطَّوع الفرسان النبلاء والسيدات النبيلات بجواهر قلوبهم ليكونوا مُمَثِّلي محاكم الجنة ووزرائها، ولتكن أوراق اعتقادهم من صنع نورهم وتقواهم.. 'كونوا مِن القوامين بها ولا تكونوا مِمّن تقوم عليهم.
